رسالة الخلود

أو

جاويدنامه

للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير

محمد إقبال

ترجمها عن الفارسية

وشرحها وعلق عليها

الدكتور محمد السعيد جمال الدين

المدرس بكلية الآداب — جامعة عين شمس

١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور **عبد النعيم محمد حسنين**

استاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بجامعة عين شمس

يسرنى ان اقدم لقراء العربية بعامة والمتخصصين فى الدراسات الشرقية الاسلامية بخاصة عملا علميا جادا مفيدا قام به الزميل الدكتور محمد السعيد جمال الدين عن الشاعر والمفكر الكبير محمد اقبال ومنظومته « جاويد نامه » .

وتبدو قيمة هذا العمل فى ان الدكتور محمد السعيد ترجم المنظومة من الفارسية الى العربية وشرحها وقدم لها دراسة تحليلية نقدية ، فأضاف الى المكتبة العربية كتابا قيما تعتز به .

والشاعر محمد اقبال ليس فى حاجة الى التعريف به ، فقد طبقت شهرته الآفاق ، وحظى بتقدير الدارسين فى الشرق والغرب ، وبذلت محاولات لدراسة بعض آثاره ، ولكن منظومة « جاويد نامه » — التى قام الدكتور محمد السعيد بترجمتها ودراستها — تعد قمة بين آثار الشاعر المختلفة ، فهى رسالة موجهة الى ابنه جاويد باعتباره ممثلا لشباب الأمة الاسلامية ، وهى ثمرة تجربة روحية ، فهى تصور معراجا روحيا انتقل فيه الشاعر من الارض الى الأفلاك ثم الى ما وراء الأفلاك يبتغى وجه الحق تعالى ، حتى وصل الى الحضرة الالهية ، ثم عاد من تجربته الروحية ليوجه رسالة الى شباب الأمة الاسلامية عن طريق ابنه جاويد .

وقد انتقد اقبال أوضاعا كثيرة فى العالم الاسلامى ، ودعا الى التجديد، وفتح باب الاجتهاد فى احكام الشريعة ، كما دعا الى ربط القلب بالله لا بالمادة والحس ، حتى تسمو النفوس ، ويعرف المسلمون طريقهم الى الرقى والتقدم ، ويصيروا كما ارادهم الله خير أمة أخرجت للناس .

وارجو أن يوفق الدكتور محمد السعيد جمال الدين فى دراسة الآثار الأخرى التى خلفها الشاعر والمفكر الاسلامى الكبير محمد اقبال كما وفق فى دراسة منظومته « جاويد نامه » حتى تؤتى افكار اقبال أكلها كل حين، ويستفيد منها المسلمون فى كل زمان ومكان .

والله ولى التوفيق

عبد النعيم حسنين

محتويات الكتاب

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

محمد اقبال ومنظومتـه
« رســالة الخلود »

اصبح محمد اقبال — بكل ما يمثله من قيم انسانية — ظاهرة اخاذة في مســار الحضارة الاسلامية ، ظاهرة أخذت بألباب المسلمين ومن سواهم ، ودعتهم الى التوقف هنيهة للنظر فى أنفسهم وفى حاضرهم وفى مستقبلهم .

لقد وقف اقبال حياته كلها من اجل تلك اللحظة الفريدة التى من شأنها أن تحدث انقلابا متجددا فى النظام الكونى : لحظة العودة الى الذات ، والنظر فى أعماق القلب — الذى لاتحده حدود — وادراك هذا الجانب النورانى فى النفس الانسانية الذى هو قبس من النور الالهى ذاته .

عرف اقبال حقيقة الانسان وقيمته ، فأراد أن يلقنه درس الانسانية الحقة بما تنطوى عليه من جانب الهى . وعرف حقيقة الكون فدعا الانسان الى تسخيره بقوة العقل والقلب معا ، وأدرك العلاقة القائمة بين الله والانسان فنادى فى الناس بأن يتخلقوا بأخلاق الله وأن يكتسبوا صفاته حتى يكتب لهم الخلود .

وهنا ، تصبح العقبات والمشكلات فى طريق الرقى الروحى للانسان لا شىء ، فلا الزمان ولا المكان ولا العالم المادى بأسره ولا الشيطان نفسه بقادر على أن يثنى الانسان عن عزمه فى الرقى الروحى الدائم وشوقه الى الاتصال بالحقيقة الخالدة والوصول الى الله .

ولكن لابد للانسان اولا من عزم لايتأتى الا بتركيز الذات وتقويتهـا ودعمها بالعمل والحركة الدائبة والاندفاع المغامر نحو المخاطر ، والجهاد فى سبيل الله ، والا فالحياة لا تكون سوى « حلقة من دخان » .

ان الخلود صعب المنال حقا لكنه هو هدف الحياة الانسانية ، ولا بد

للفرد من أن يسعى سعيا حثيثا نحو هذا الهدف ، يقول اقبال فى هـذا الصدد :

ـ لا تحفل بالصيد على الشاطىء ، حيث تموت أنغام الحياة .

ـ الق بنفسك فى البحر وكافح الأمواج ، لأن الخلود هو ثمن النضال فى المعركـة '.

لقد ولد اقبال بالبنجاب فى سنة ١٨٧٧ وتربى منذ صغره تربية اسلامية نحفظ القرآن الكريم وتعلم العربية والفارسية فى مسقط راسه ثم انتقل الى « لاهور » التى كانت آنذاك مركز اشعاع ثقافى اسلامى وهناك واصل دراسته ، وحصل على الليسانس فى الآداب ثم نال درجة الماجستير فى الفلسفة وعمل مدرسا للأدب الانجليزى فى نفس الكلية التى تخرج فيها ، وانتقل فى سنة ١٩٠٥ الى لندن حيث أمضى فى جامعة « كمبردج » زهاء ثلاث سنوات درس فيها الفلسفة وسافر الى المانيا فى سنة ١٩٠٧ ، وحصل من جامعة ميونيخ على درجة الدكتوراه ، وعاد الى لندن وحضر الامتحان النهائى فى الحقوق وانتسب الى مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية فى لندن وتخصص فى هاتين المادتين ، ثم رجع بعد ذلك الى الهند سنة ١٩٠٨ .

ولن نكون أكثر قدرة من اقبال نفسه على تحديد آثار اقامته فى أوربا فى فكره ، فلقد قال فى بيت من الشعر :

« لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبى ويعشى بصرى ، وذلك لأنى اكتحلت بإثمد مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام » .

عمل اقبال بعد عودته الى وطنه محاميا لكى يكسب ما يقيم به أوده ، وصرف جل وقته للنظر فى احوال المسلمين وتدبر طريق الخلاص ، ثم نخرج على الناس فى سنة ١٩١٥ بمنظومته الرائعة « أسرار الذات الانسانية » ، وتتالت بعد ذلك دواوينه وكتبه(١) حتى نشر فى سنة ١٩٣٢ ملحمته

---

(١) دواوين اقبال الفارسية هى « اسرار خودى » اى اسرار الذات الانسانية (١٩١٥) و « رموز بى خودى » أو رموز نفى الذات (١٩١٨) ، و « بيام مشرق » أو رسالة المشرق (١٩٢٣) ، و « زبور عجم » ، او زبور العجم (١٩٢٧) ، و « جاويد نامه » (١٩٣٢) ، ومسافر (١٩٣٤) ، « بس چه بايد كرد اى اقوام شرق » أو ما العمل يا شعوب الشرق (١٩٣٦) ، و « ارمغان حجاز » او هدية الحجاز (نشر بعد وفاته ١٩٣٨) . أما دواوينه التى نشرها باللغة الاردية فهى « بانك درا » اى صلصلة الجرس (١٩٢٤) ، و « بال

الخالدة « جاويد نامه(١) » ، التى كانت باعتراف الباحثين اعظم اعمال اقبــال .

وكان المسلمون فى الهند قد عرفوا قدر اقبال وعظمته فرأوا ضرورة الافادة بامكانات هذه الشخصية القديرة للخروج من المحنة التى يعانون منها ، وفى دعم وحدتهم ازاء ما يترصدهم من اخطار جسام .

ففى سنة ١٩٢٤ الح عليه اصدقاؤه ومريدوه أن يرشح نفســه فى انتخابات الجمعية التشريعية فى البنجاب ، فأيده الناس وانتخب من غير عناء . وظل اقبال عضوا بهذه الجمعية حتى عام ١٩٢٧ ولا تزال خطبه فى هذه الجمعية شاهدة بعمله فيها .

وفى سنة ١٩٢٧ طلبت « لجنة ســيمون » — التى زارت شبه القارة الهندية لاقتراح نظام للاصلاح السياسى فيها — طلبت من اقبال ابداء رأيه فى هذا الصدد .

واشترك اقبال خلال تلك الفترة فى النشاط الذى كان يمارسه حزب « الرابطة الاسلامية » فى الهند .

وانتخب فى سنة ١٩٣٠ رئيسا للمؤتمر الذى عقده الحزب فى « الله آباد » حيث دعا الى تقسيم الهند ، فيكون للمسلمين بها موطن يخصهم . اذ وجد من المحـــال أن يعيش سكان الهند جماعة واحــدة أو جماعتين متعاونتين ، وقد اخذت الرابطة الاسلامية بهذه الفكرة التى تحققت بانشاء باكستان سنة ١٩٤٧ .

جبريل » اى جنــاح جبريل (١٩٣٥) ، وديوان « ضرب الــكليم » (١٩٣٧) . وله كتابان نشرهما بالانجليزية هما تطور الفلسفه فى ايران (١٩٠٨) ، وتجديد التفكير الدينى فى الاسلام (١٩٢٨) .

(١) نظمها اقبال فى النوع المعروف فى الشعر الفارسى بـ « المثنوى » فى الفترة ما بين سنتى ٢٩ — ١٩٣٢ ونشرها فى السنة الأخيرة . وقصد بتسميتها بــ « جاويد نامه » الى التورية فكلمة « جاويد » بالفارسية معناها خالد والكلمة فى نفس الوقت اسم لابنه البكر و « نامه » معناها رسالة أو كتاب ولقد كتبها — كما صرح هو — من أجل شباب الأمة الاسلامية ممثلين فى شخص ابنه « جاويد » ولذا يمكن اعتبارها « رسالة جاويد » . وعالج فيها قضية الخلود التى هى الهدف الكامن فى النفس البشرية من الحياة الدنيا وبين فيها آراءه فى كيفية الحصول على الخلود ، ولذا يمكن اعتبارها « رسالة الخلود » .

وزار أوربا فى سنة ١٩٣١ واشترك وهو فى طريق عودته الى بلاده فى المؤتمر الاسلامى الذى عقد بالقدس فى سنة ١٩٣٢ حيث اختاره المؤتمر رئيسا له .

وقد بدأت العلل تتناوبه منذ بداية سنة ١٩٣٤ فاعتزل المحاماه التى ظل حريصا عليها لكسب قوته بعد أن استقال من التدريس فى الجامعة وكان قد اشتغل فيها زمنا . وفى سنة ١٩٣٥ بح صوته ، وأخذت صحته فى التدهور شيئا فشيئا ولكنه ظل يوالى نظم الشعر الى أن فاضت روحه فى فجر الحادى والعشرين من ابريل سنة ١٩٣٨ .

* * *

كان اقبال قد جال النظر حوله فوجد العالم الاسلامى فى محنة يرثى لها : فالهند ، وطنه، ترزح تحت نير الاستعمار منذ أكثر من قرنين من الزمان ، بينما تتعثر فيها حركة الاستقلال وتتخبط افتقارا الى هدف محدد المعالم . وعلاقة الاخاء والتضامن بين طوائف المجتمع تكاد تكون منعدمة .

ولم تكن حالة الدول الاسلامية أفضل من حالة الهند ، فها هو ذا الاستعمار يبسط سيطرته عليها جميعا ابتداء من الملايو واندونيسيا حتى المغرب العربى ، ولم يكن هناك من استثناء سوى تركيا والصحراء العربية وأفغانستان .

وكانت الجماهير الاسلامية الهائلة ، فى شبه القارة الهندية وغيرها ، تعانى من الأمية والجهل ويأخذ بخناقها الصراع الطائفى ، وتقاسى بمرارة من الاقطاعيين ومن استعباد النظم الملكية الجائرة .

لم يكن اقبال — الذى تلقى تربية اسلامية عميقة — ليصدق عينيه وهو يشهد هذه الحالة التى تردى فيها المسلمون ورثة الحضارة المتألقة على الدوام التى لا يعتريها القدم أبدا ، ولا عجب فائمة الدين — الذين كان يتعين عليهم انقاذهم من محنتهم — فقدوا تمسكهم بروح عقيدتهم وركزوا اهتمامهم على القشور وتعصبوا لها ، أما الصوفية — الذين كان ينبغى لهم أن يكونوا ثورة ضد التدين المظهرى — فقد انقسموا الى فرق تدعو للاستسلام ونكران الذات . وشاع بين الجماهير الاسلامية القول بالقضاء والقدر بطريقة مخزية جعلت كل الجهود الانسانية بدون جدوى أو طائل .

ومما زاد الطين بلة ، أن محاولات انقاذ العالم الاسلامى من هذه المحنة نزعت الى تقليد الغرب فى كل شيء ، وقد تبلور هذا الاتجاه بوضوح فى الحركة الكمالية بتركيا ، وهى حركة نادت (بلا دينية) الدولة وقللت

من قيمة الدين فجعلته من شئون الفرد الخاصة ، ومالت شعوب اسلامية أخرى الى تقليد الاتراك فى ذلك .

واخذ العالم الاسلامى يتحول الى شظايا وكيانات منفصلة — وربما متناحرة — تحت دعوى الوطنية ، بمفهومها السياسى الغربى ، فلاح فى الافق خطر القضاء على روح الاسلام العالمية .

وكاد العقل يصبح هو المصدر الوحيد للهداية الانسانية بعد أن عمد الغرب الى الاستخفاف بالجانب الروحى لا فى الأمة وحدها بل فى الفرد نفسه ، فسيطرت المادية على حياة الفرد وعادت به الى حالة من الوثنية جعلته لا يرى الا المادة ولا يعبد الا المادة ولا يسعى الا وراء المادة . واخذ هذا الوباء يستشرى ويكاد يصيب المسلم الذى يتعين عليه أن يجعل قلبه وقفا على الله وحده دون سواه .

مجمل القول ان اقبالا رأى ذاتية الانسان — الذى هو خليفة الله فى الأرض — وقــد اهدرت . ورأى الأمة الاسلامية — خير الأمم التى اخرجت للناس — وقد استذلت واستعبدت فتداعت عليها غيرها من الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها . ورأى العالم كله يمضى ويهرول فى طريقه وامتنا تسير الهوينا وتتخبط على غير هدى . رأى الانسان يعود من جديد الى عبادة الأصنام المتمثلة فى بريق المادة وينسى جانب الروح الذى يميزه كانسان . رأى الغرب وقد سيطر على المادة ونسى الله ، ورأى الشرق وقد نبذ العالم الذى هو ميدانه ووسيلته للرقى الروحى . . رأى كل ذلك ، فتأججت نار الثورة فى نفسه ودب دبيب الأسى والحزن على «الملة البيضاء» فى اعماقه . وانطلق — بكل ما اوتى من نظر وبصيرة ، وبكل ما تلقى من علم وحكمة — انطلق يحيى فى المسلمين روح الاسلام الحقة ، فنذر حياته كلها من اجل هذا الهدف ومن اجل تصحيح مسار الأمة الاسلامية على طريقها نحو الله .

* * *

وقــد استخدم الشعر والنثر كليهما فى بث دعوته ، ولكنه اكثر من الشعر ، لانه يرى ان الشعر وسيلة الى تقريب الحقيقة والى الوصول الى اعماق الوجدان ، وهذا ما كان اقبال يرمى اليه .

فلم يكن يبغى محادثة العقل وحده ، وانما كان يرمى الى تحريك القلب والفؤاد واثارة ثائرتهما على الزمان والمكان وعلى كل القوى التى تجعل الانسان يخلد الى الأرض ولا ينظر الا تحت قدميه . . كان يهدف الى

احداث تغيير فى الشعور والفكر وانقلاب فى الوجدان والضمير . . هذا الانقلاب الذى يعد فى حقيقته معراج الروح الانسانية الى الله تعالى .

لقد استمد اقبال أسس دعوته وعصارتها من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وكان مؤمنا بالله وبالانســـان ولكن ايمانه كما يقول الشاعر الألمانى الكبير هرمان هسه (١٨٧٧ — ١٩٦٣) « ايمان رجل بمعنى الكلمة لا ايمان طفل ، انه ايمان مشبوب نضالى . . وليس صراعه من أجل الله فحسب بل من أجل الدنيا كذلك(١) » .

واذا كانت أفكار اقبال وآراؤه الاساسية قد وجدت لنفسها أصداء عملية فى التخوم الشرقية للعالم الاسلامى عندما تحققت ، بعد مماته . باقامة باكستان أمنية عزيزة لديه فى انشاء مجتمع اسلامى مستقل فى شبه القارة الهندية ، فان هذه الأفكار والآراء نفسها لم تتضح فى كل من ايران والبلدان العربية الا فى بداية العقد الخامس من القرن العشرين ، وكان المستشرقون أسبق منا الى معرفة اقبال والتعريف به منذ أن بزغ نجمه بعد أن نشر أول ديوان له سنة ١٩١٥ ،وتجلى اهتمام المستشرقين به فىسلسلة من الدراسات والأعمال العلمية بدأها المستشرق الانجليزى الكبير « رينولد آلين نيكلسون » فى سنة ١٩٢٠ حيث ترجم « أسرار الذات الانسانية » الى الانجليزية ، وما تزال هذه الدراسات مستمرة فياضة الى يومنا هذا .

أما فى مصر والعالم العربى فقد كان فضل التعريف باقبال يرجع الى رائد الدراسات الشرقية الحديثة فى مصر الأستاذ الكبير عبد الوهاب عزام الذى شرع منذ منتصف الثلاثينات فى نشر ترجمة منثورة لبعض اشعاره فى مجلتى « الرسالة » و « الثقافة » ثم ما لبث أن نشر فى « كراتشى » سنة ١٩٥١ ترجمـــة منظومة لديوان « بيام مشرق » الذى نظمه اقبال بالفارسية ، وبعد نحو سنة تقريبا (١٩٥٢) نشر ترجمة منظومة لديوان « ضرب كليم » الذى نظمه اقبال بالاردية ، وفى سنة ١٩٥٤ نشر كتابه القيم « محمد اقبال — سيرته وفلسفته وشعره » عرف فيه بالشاعر وبجانب كبير من فلسفته وهو الجانب المعروف بالذاتية، والحق به ترجمة نثرية لمقتطفات من اشعار اقبال فى منظومتيه « أسرار خودى » و « رموزبى

---

(١) هرمان هسه ، مقدمة لشعر محمد اقبال (جاويد نامه) ، مجلة فكر وفن ، العدد الرابع سنة ١٩٦٥ ص ٨٨ ، ترجمة مجدى يوسف . وعن هسه أنظر مقالا صدر بالعدد التاسع (١٩٦٧) من نفس المجلة. ص ٧ — ١٥ ، بقلم أنا مارى شيميل .

العربية ، ولكنه رأى أن يقدم عليه « رسالة المشرق » ربما لسهولته ولقرب موضوعاته الى فهم القارىء العربى(١) .

بل اننى أعتبر أن اقبالا نفسه رأى أن موضوع المعراج (وهو قوام رسالة الخلود) هو افضل السبل لشرح فلسفته وفكره أمام العرب ، حدث ذلك عندما زار القاهرة فى سنة ١٩٣١ وهو فى طريقــه الى لندن للاشتراك فى مؤتمر المــائدة المستديرة الذى ناقش المســالة الهندية ، ولم يكن اقبال قد انتهى بعد من نظم رسالته هذه والقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة قال عنها واحد من الذين حضروا تلك المحاضرة وهو الأستاذ فتحى رضوان : « ... وقد سمعته (يعنى اقبالا) فى المساء فى جمعية الشبان المسلمين يتحدث عن مجمل فلسفته ويتخذ من الاسراء (والمعراج) وسورة الاسراء سبيلا الى شرح هذه الفلسفة » .

والحقيقة أنى لا أريد بهذا أن اقلل من شــأن الجهود التى بذلت فى مصر وغيرها من البلدان العربية للتعريف بفكر اقبال ، ولكنى أريد أن ابين أن غياب « رسالة الخلود » عن المكتبة العربية من شانه أن يخلق ثغرة فى هذا الصدد لابد من العمل على سدها ، ولعل هذا الكتاب يكون محققا لهذا الغرض .

* * *

ولقد هيأ الله لى ان اتصل بفكر اقبال كما جاء فى اشعاره ودواوينه التى كتبها باللغتين الفارسية والأردية ، وأن اتوفر بصفة خاصة فى بحثى لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب الفارسية على دراسة « رســالة الخـلود » وها انذا أضع امام القــارىء العربى ثمرة هذه الدراسة ممثلة فى هــذا الكتاب الذى نهجت فيه منهجا جديدا لتقديم فكر اقبال بصورة واضحة .

فلقد حرصت فى دراستى هذه على أن اتجنب تركيز أفكار اقبــال فى كلمات قلائل ، وانما عمدت الى البسط والقاء المزيد من الأضواء على هذه الأفكار . وفضلا عن الأقسام التمهيدية التى أردت بهــا التعريف بفكرة الرسالة وموضوعها ، حاولت قدر جهدى أن ابدأ كل فصــل من فصول

---

(١) انظر عبد الوهاب عزام : مقدمة لضرب الكليم ص ٣ ، محــمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ص ١٣٨

الرسالة بتقديم عام توخيا لتحديد معالمه الرئيسية . ولابداء الراى بصفة عامة فى هذه المعالم ، ورجعت الى الآراء التى سبق لاقبال ان ابداها فى موضوع الفصل أو الجزئيات الواردة فيه حتى نتعرف على البيئة الخاصة التى نمت فيها آراؤه فى القضايا الهامة التى عالجها . ولم اترك بيتا واحدا من أبيات الرسالة التى تبلغ ١٩٥٩ بيتا الا وأتعرض له بالتحليل والربط بينه وبين سابقه والعمل على ادماجه فى مسار المنظومة كلها .

ولست أريد أن أطيل فى وصف طريقتى فى التحليل والشرح ؛ فسوف يعـاين القارىء هذه الطريقة بعد قليل ، ولكننى أود أن أشير الى اننى حرصت على وضع ترجمة النص الفارسى لاقبال اما بين قوسين واما فى سطور مستقلة ، وما عـدا ذلك فهو مجرد تمهيدات أو استنتاجات من عندى للربط والتوضيح راعيت فيها ايضا أن أدور فى فلك اقبال نفسه ، فاستعرت من مؤلفاته ودواوينه الأخرى أفكارا والفاظا بعينها لاستخدامها فى الربط بين الأبيـات والمعـانى وتوضيحها وكان كل همى فى الأجـزاء التحليلية هو أن نعيش فى جو اقبالى خالص . لكننى كثيرا ما كنت اخرج عن هذا الجو وابتعد عن الطابع التحليلى لكى ابدى رايا او ادلى بتعقيب او أصرح بنقد .

ثم اننى استعملت اداة أخرى للتوضيح ، هى العناوين الجانبية ، فهى من صنعى وليست فى النص الأصلى . ولكن الشاعر نفسه قد سهل علينا هذا العمل ، فهو يعمد الى تقسيم أبيات المنظومة الى وحدات تعبر كل منها عن فكرة معينة ، وقد قمت باستخلاص فكرة كل وحدة والتعبير عنها بعنوان جانبى أبدأ معالجتها به .

لم يكن بوسعى أن أقـوم بهذا العمل دون تلك الأيدى الكريمة التى امتدت لتعاوننى على النهوض بأعبائه ، ويجدر بى أن أبدأ بتوجيه الشكر لأستاذى الدكتور عبد النعيم محمد حسنين أستاذ اللغات الشرقية وادابها بجامعة عين شمس ، الذى قدم لى من عوامل التشجيع والتوجيه ما كان خير معين لى على وضع هذا الكتاب فى صورته النهائية .

كما أتقدم بواجب الشكر الى أساتذتى الأفاضل الدكتور يحيى الخشاب والدكتور فؤاد الصـياد والدكتور أحمـد السـاداتى على الارشـادات والمساعدات القيمة التى قدموها لى .

واهدتنى المستشرقة الفرنسية « ايفا مايروفيتش » نسخة من ترجمتها الفرنسية للرسالة ، كما اهدتنى الادارة الثقافية التابعة لمنظمة التعاون الاقليمى فى طهران وجمعية دار المصنفين بالهند عددا من الكتب الهامة التى قامت كل منهما بنشرها . وتفضل الدكتور سعيد أحسن العابدى — وهو أخ هندى — بالتطوع بتعليمى اللغة الأردية حبا فى اقبال وايمانا بمبادئه . كما تفضل الأستاذ حسن محمود الشافعى المدرس المساعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة بتوضيح عدد من النقاط الفلسفية الغامضة فى الرسالة .

فالى هؤلاء جميعا ، والى كل زملائى من الدارسين الذين ساعدونى فى هذا العمل اتوجه بخالص الشكر ووافر الامتنان .

والله ولى التوفيق .

محمد السعيد جمال الدين

الجيزة فى : ٣ ربيع الثانى ١٣٩٣
٩ مايـو ١٩٧٣

« ١ »

المعراج عند اقبــال

يبدو أن اقبالا كان قد ادرك اخيرا وبعد تفكير طويل حقيقة جوهري في المعراج النبوى ربما تكون قد خفيت على كثير من المسلمين ، وهى ان هذا المعراج أمر متاح لكل انسان ولكن بشروط ـــ سيحدثنا عنها بلسان الشاعر الصوفى جلال الدين الرومى فى رسالة الخلود .

ويبدو ايضا انه بدأ تفكيره فى حقيقة المعراج النبوى هذه منذ صباه فقد كتب قصيدة باللغة الأردية فى فترة مبكرة من حياته أسماها « القصيد المعراجية(١) » يقول فيها فى ذكرى الاسراء والمعراج :

ـــ اليوم فى كلا العالمين ذكر حبيب الله (ص) ، اليــوم على لســار كل ذرة « صل على » .

ـــ لقد فتح معراج المصطفى عقدة الحياة ، اليوم تتجلى روح الله في روح النبى .

ـــ وثبوت هذا الجذب والشوق يكمن فى « قوسين(٢) » ، اليوم درس الخلود كامن فى كل لمحة ذكر وفكر .

ـــ اليوم محفل الدلال ، اليوم يختلى البلبل بالوردة فى الفة ، اليوم فنا لامتيازى عنكَ وامتيازك عنى .

ـــ اليوم تحليق ، اننى أطوى سعة العالمين ، اليوم قطع لخيط الزمان والمكان .

وهنـــا يمكن ان نلمح بوضوح بذور الأفكار الأســـاسية والمضـــامين الفلسفية التى تزخر بها « رسالة الخلود » .

---

(١) لم تنشر هذه القصيدة فى اى من دواوين اقبال ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن طارق عثر عليها أخيرا عند احـــد أصدقاء اقبـــال القدامى ونشرها فى الطبعة الرابعة من كتابه « جهان اقبـــال » التى صدرت فى لاهور سنة ١٩٦٥ ، انظر ص ٥٩٠ ـــ ٥٩١

(٢) اشارة الى قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوســـين أو أدنى » (النجم : ٩) .

فالمعراج النبوى اذن هو الذى حل عقدة الحياة ، والنبى (ص) قد اكتسب الصفات الالهيـة ، والعشـق الحقيقى يكمن فى ادراك النفس الانسانية لامكانية قربها من الله حتى تكون منه قرب قوسين ، وهنا يتحقق الخلود ، ولا يكون للزمان أو المكان سلطان على الانسان .

هذه هى الحقائق التى تبدت لاقبال فى هذا الوقت المبكر من حياته من خلال تفكيره فى المعراج ، وهى حقائق تبلورت فيما بعد واتخذت شكلها فى عمله الأدبى الرائع الذى بين أيدينا ، حيث جعـل من الشـاعر الكبير جلال الدين الرومى دليله الى الأفلاك ومـا وراء الأفلاك كما كان جبريل دليلا للرسول الكريم (ص) فى معراجه .

لقد اشـار اقبال — فى تجديد الفكر الدينى — الى أن مسألة المعراج فى الواقع هى حل لعقدة الزمان والمكان حيث تنال النفس الانسانية حريتها من أسرهما(١) .

وهو يحدد فى رسالة الخلود معنى المعراج فيقول :

— ان ما تقول بأنه قرب وبعد ، انما ينبع من الشعور ، ما المعراج ؟ هو ثورة فى الشعور .

— ثورة فى الشعور من الجذب والشوق ، ثورة تحرر الجذب والشوق من تحت وفوق .

— هذا الجسد ليس مخزنا لأرواحنا ، هو قبضـة تراب .. لا تمنع من التحليق(٢) .

فالمعراج اذن ان هو الا ثورة فى شعور الانسان ، فاذا ما حدثت هذه الثورة فان حقيقة الزمـان والمكان تتـأثر وتصبح معلقة بقـدرة الذات الانسانية على استخدام هذه الثورة فى الرقى الروحى .

وفى الذات الانسانية — فى رأى اقبال — جـانب لا يطرأ عليه تغيير ولا يعتريه تبديل بفعل الزمان والمكان .. هو قبس من النور الالهى ذاته . فاذا استطاع الانسان أن ينمى هذا الجـانب ويقويه ويدعمه بالعشـق الالهى — وبالدافع الدائم الى الرقى فانه يستطيع أن ينال « السلطان » الذى ذكره الله تعالى فى سورة الرحمن فى الآية الكريمة : « يا معشر الجن

---

(١) دكتر يوسف حسين ، روح اقبال ص ٣٩٩

(٢) جاويد نامه ص ٢٠

والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » .

يقول الرومى شارحا معنى السلطان لاقبال :

ـ قال ان كان لديك السلطان ، كان فى مقدورك أن تخوض فى الأفلاك .

ـ انتظر حتى اليوم الذى يتعرى فيه هذا الكون ويزيل عن أطرافه غبـــار الجهات .

ـ وعندئذ فلن ترى نقصا أو زيادة فى وجوده ، سوف ترى نفسك منه وتراه من نفسك .

ـ وتذكر هذه الدقيقة : « الا بسلطان » والا فلتمت فى الوحل كالنمل والجراد(١) .

ولكن استعمال الانسان لهذه الثورة فى الشعور وذلك « السلطان » ومقدرة النفس الانسانية على الخروج من أسر الزمان والمكان ، كل اولئك رهن بشىء واحد هو العشق ، هو التطلع الدائب الى الرقى والى الوصول الى الذات الالهية ، وعدم ربط القلب الا بالله تعالى وحده .

« يقول القرآن : « وأن الى ربك المنتهى »(٢) وهذه الآية تنطوى على فكرة من أعمق الفكر التى وردت فى القرآن ، لأنها تشير على وجه قاطع الى أن المنتهى يجب الا يبحث عنه فى حركة الأفلاك ، وانما يبحث فى وجود كونى روحانى لا نهاية له . ورحلة العقل الى هذا المنتهى الأخير رحلة طويلة وشاقة . وفى هذا المنزع أيضا يبدو أن التفكير الاسلامى قد اتجه اتجـــاها مباينا لاتجاه التفكير اليونانى كل المباينة . فالمثل الأعلى عنـــد اليونان ، كما يخبرنا شبنجلر ـ هو التناسب وليس اللانهائية . أما فى تاريخ الثقافة الأسلامية فاننا نجد أن المثل الأعلى ، فى مجال العقل المحض وفى ميدان علم النفس الدينى ، واعنى بهذا المصطلح الأخير التصوف العالى الرفيع ، انما هو تحصيل اللانهائى واسعاد النفس به »(٣) .

---

(١) جاويد نامه ، ص ١٥

(٢) النجم : ٤٢

(٣) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام «الترجمة العربية» ص ١٥٢

فروح السلم الحق تتطلع دائمـا الى الخروج من اطار هذه الحركة الكونية والعروج محلقة حتى تصل الى المنتهى الى الله تعالى ، وعندئذ تنال الخلود ولا يعتريها تغير بمرور الزمان ، ولا يحد من حريتها قيـد بوجود المكان .

ولكن الكثيرين ممن ادركوا هذه الحقيقة أخطأوا فهم الهدف الأخير من التجربة ، فقد رأى البعض — وهم أصحاب نظرية وحدة الوجود — أن الذات لا تملك عندما تصل الى هذا المقام الرفيع الا أن تفنى فى النور وتذوب فيه كما تذوب القطرة فى البحر .

أما اقبال فيرى — على العكس من ذلك — أنه لابد للذات من أن تحكم نفسها فى مواجهة هذا النور وأن تقاوم نزعة التحلل والفناء فيه . فهدف الذات من عروجها هو ان تطلب الشهادة على وجودها من الله ذاته . والوجود يتضمن معنى الخلود ، وهذا الوجود لا يمكن البرهنة عليه — عند اقبال — الا بواسطة ثلاثة شهود :

— ولو لزم ان تعرف ان كنت حيا أو ميتا أو روحك فى الحلقوم ، فاطلب الشـهادة من ثلاثة شـهود :

— الشـاهد الأول هو شـعورك : رؤية النفس بنور الذات .

— الشـاهد الثانى شعور غيرك : رؤية النفس بنور الغير .

— الشـاهد الثالث شعور ذات الحق : رؤية النفس بنور ذات الحق .

— فلو بقيت أمام هذا النور ثابتا محكما ، فاعتبر نفسك حيا قائما مثل الله(١) .

فشهادة الله على وجود الذات الانسانية لا تتأتى الا اذا احكمت نفسها ولم تفن أو تتحلل فى هذا النور . كما فعل الرسول (ص) فى معراجه ، ووصفه الله تعالى وهو فى هذا المقام بقوله « ما زاغ البصر وما طغى » .

واذا تمكنت الذات من احكام نفسها أمام الله ، أمكن لها أن تعتبر نفسها خالدة باقية ، اكتسبت صفة الخلود من الله ذاته .

فما المعراج الا بحث عن شاهد عادل — مثل الله ذاته — لابد للذات من أن تثبت فى الامتحان أمامه ، وعندئذ تنال صفة من أخص صفاته وهى الخـلود .

— ما المعراج ؟ هو بحث عن شاهد ، امتحان وجها لوجه أمام شاهد ، (قد يؤكد حقيقتك نهائيا) .

— هو شـاهد عادل ، وبدون تصديقه (على وجودنا) تضيع حياتنا كما تضيع رائحة الورد ولونه .

(١) جاويد نامه ص ١٣ — ١٤ .

— وما من أحد يبقى رابط الجاش فى حضرته ؛ فمن استطاع ذلك فهو كامل العيار كالذهب الخالص(١) .

فالمعراج فى حقيقته اذن تعبير عن نزوع روح المسلم الحق الى الوصول الى الله تعالى ، لا لكى تفنى فى بحر نوره وانما لكى تطلب الشهادة منه تعالى على وجودها وخلودها وتعود بزاد جديد الى العالم كما عاد المصطفى (ص) من معراجه لكى يقود أمته نحو المجد والخلود .

وهذه هى الفكرة الأساسية لمنظومة « جاويد نامه » التى اختار لها اقبال هذا الاسم « رسالة الخلود » — لكى تعبر عن مضمونها اذا نظر المرء اليها من هذه الناحية ، أو لكى تكون رسالة الى شباب الأمة الاسلامية ممثلا فى شخص ابنه « جاويد » — كما شرح هو فى المقدمات — اذا نظر المرء اليها على أنها « رسالة جاويد » .

وربما كان هذا هو السبب فى أنه عدل عن تسمية المنظومة بـ « معراج نامه جديد »(٢) وسماها « جاويد نامه » . فالمعراج ليس مقصوداً لذاته وانما لهدف أبعد وهو الخلود ، الخلود الذاتى لروح الانسان العبقرى الذى ينجح فى اجتياز تلك التجربة الروحية ، والخلود للأمة الاسلامية المتجددة فى أجيالها الصاعدة دوما ، وهم الذين يتوجه اليهم اقبال بندائه العميق .

(٢)
موضوع رسالة الخلود

يقول العالم الباكستانى الكبير الأستاذ سيد عبد الواحد : « فى مقدورنا أن نعتبر « رسالة الخلود » أعظم أعمال اقبال ، انها كوميديا الهية شرقية ، وقد عبر فيها بروعة عن أفكاره المتعلقة بمختلف القضايا التى تجابه الناس فى حياتهم اليومية . . . . وبينما تتسم الفكرة الرئيسية فى المنظومة بالحيوية والابداع ، ويقدم اقبال فيها تفسيرا لحقائق الخلود ويناقش فيها أكثر القضايا حساسية وتأثيرا بالنسبة للانسانية فانه يفعل ذلك كله بطريقة فنية رائعة للغاية لدرجة أن هذه الملحمة العظيمة لا تشتمل على بيت واحد أضرت فيه عتادة الفكر بروعة الشعر »(٣) .

وربما كانت هذه الأسباب هى التى جعلت رسالة الخلود تحتل هذا المركز المرموق فى الدراسات الاقبالية بالشرق والغرب على السواء .

ونلاحظ بصفة عامة أن هذه الرسالة بدأت منذ العقد الخامس من هذا القرن تجتذب اهتمام المستشرقين فترجمت الى عدة لغات اوربية هى :

---

(١) أيضا ص ١٤ .

(٢) أنظر التعريف الذى كتبه (جود هرى) للمنظومة ، وقد نقل هذا التعريف فى « شرح جاويد نامه » انظر ص ٢٣ — ٦٢ .

(٣) S.A. Vahid, Iqbal His Art and Thought pp. 19 - 20.

الايطالية(١) ، والألمانية(٢) ، والفرنسية(٣) ، والانجليزية(٤)» .

بينما بدأ الاهتمام بها فى الشرق متأخرا بضع سنوات حيث نشر شرح لها باللغة الأردية فى سنة ١٩٥٦(٥) ، وترجمت الى الانجليزية فى لاهور سنة ١٩٦١(٦) ، ثم الى السندية سنة ١٩٦٥(٧) ، ثم الى البشتونية سنة ١٩٦٧(٨) ، ثم الى الأردية سنة ١٩٧٠(٩) .

وتتميز « رسالة الخلود » بأنها ليست ــ كباقى دواوين اقبال ــ مجرد مقطوعات متفرقة فى موضوعات شتى ، وانما هى قصة متكاملة موحدة الأجزاء يربطها خيط واحد وتتدفق فيها الأحداث والأفكار فى مجرى واحد ، وتنتهى جميعا الى غاية واحدة ، وهذا النفس الطويل شىء لا نجده فى دواوين اقبال الأخرى .

والمعراج كما قلنا هو الفكرة الأساسية لهذه الرسالة التى يبدأها الشاعر بدعاء ينطوى على احساس عميق بغربة الانسان فى هذا العالم، فهو يبحث عن خل وفى بين الناس فلا يجد وينظر الى نفسه ، فيجدها مقيدة

---

(١) ترجمها المستشرق الايطالى اليسندرو باوزانى ونشرها فى « روما » سنة ١٩٥٢ بعنوان Il Poema Celesta أى القصيدة السماويـــة .

(٢) ترجمتها المستشرقة الألمانية آنا مارى شيميل ونشرتها فى « ميونيخ » سنة ١٩٥٦ بعنوان Das Buch Der Ewigkiet أى كتاب الخـــلود .

(٣) ترجمتها المستشرقة الفرنسية ايفا مايروفيتش ومحمد مقرى ونشرت فى « باريس » سنة ١٩٦٢ بعنوان Le Livre de l'éternité اى كتاب الخلود .

(٤) ترجمها المستشرق الانجليزى آربرى ونشرها فى « لندن » سنة ١٩٦٦ بعنوان : Javid Nama .

(٥) أصدر هـــذا الشرح فى لاهور بباكستان العـــالم الباكستانى الكبير الأستاذ يوسف سليم جشتى ، فى مجلد ضخم يشتمل على ١٢٠٦ صفحة .

(٦) نشر الشـــيخ « محمـــود أحمـــد » هـــذه الترجمـــة بعنـــوان The Pilgrimage of Eternity اى « حجة الخلود » فكانت أول ترجمة للرسالة الى اللغة الانجليزية .

(٧) قام بها الأستاذ لطف الله بدوى ، ونشرت فى كراتشي .

(٨) صدرت بكابل عاصمة أفغانستان ، قام بالترجمة الأستاذ « أمير حمزه شنوارى » . وكتب مقدمتهـــا « مولانا عبد القـــادر » رئيس المجمع اللغوى البشتونى .

(٩) اطلعت على مقال فى عدد ابريل ١٩٧٠ من مجلة « ماه نو » الباكستانية جاء فيه أن الأستاذ « رفيق خاور » قد انتهى لتوه من ترجمة رسالة الخلود نظما الى اللغة الاردية ، ونشرت المجلة مقتطفات من هذه الترجمة ، وأشادت بدقة الترجمة وروعتها .

بأغلال الزمان والمكان ، ومن ثم يتجه بالدعاء الى الله أن يعتقه من أسرهم لكى ينطلق متجها الى هدفه .

ولكن ما هوهذا الهدف ؟ يقول اقبال مخاطبا الله تعالى : وجهك ايمانى أنا قرآنى أنا ، فوجهك هو هدفى الأسمى ومطمحى الأعلى ، فلا تبخل على يارب بالتجلى ، اننى ألفيت نفسى غريبا تحت السماء ، فهيا يارب وقل لى « أنى قريب » .

وثمة هدف آخر ، هو الخلود ، يقول الشاعر : « أنا فان فاجعلنى يا الهى خالدا ـ حررنى من هذا التراب واجعلنى سماويا» .

ويدعو الله أن يجعل الشباب ينفذون الى أعماق معانيه ولا ينصرفون الى الاعجاب بالحماس والحيوية التى يتدفق بهما شعره لأنه انما كتب هذه الرسالة من أجلهم هم .

بعد ان ينتهى اقبال من مناجاته ، يكون الليل قد حل ، فاذا بروح الشاعر الفارسى الكبير « جلال الدين الرومى(١) » تخترق الحجب وتشرع فى الظهور بالتدريج . ويجرى حوار بين اقبال والرومى حول معنى المعراج ويصفه الرومى بأنه ثورة فى الشعور ، ويقول ان المؤمن لا يقنع بهذا العالم الذى تتجلى فيه صفات الرحمن ، ولا يرضى — كالمصطفى (ص) — الا بالذات الالهية نفسها ، فلقد ترك الرسول الكون كله وما وراء الكون واتجه الى الله وحده .

وعندئذ تتوق نفس اقبال الى العروج ، فتظهر روح الزمان والمكان فى صورة ملك ينظر الى اقبال نظرة لم يشعر بعدها الاوجسده أكثر رشاقة وخفة ايذانا ببدء رحلته المعراجية ، فانطلق من الأرض متجها الى فلك القمر .

فى صحبة الرومى يهبط الشاعر على **القمر** ، فيشاهد جباله الجرداء ويصف مشاهداته وصفا رائعا ، ويمضى به الرومى الى غار فى بطن أحد الجبال حيث يلتقيان هناك بعارف هندى يدور بينه وبينهما حوار طويل

---

(١) هو جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين البلخى المعروف بجلال الدين الرومى (٦٠٤ — ٦٧٢) من أعلام الشعر الفارسى والفكر الاسلامى ، صاحب كتاب « المثنوى » الذى قال فى مقدمته : « هذا كتاب المثنوى وهو أصل أصول الدين فى كشف اسرار الوصول واليقين » واقبـــال معجب به وبكتابه اعجابا كبيرا وهو اعجـــاب نلاحظه فى كل خطوة يخطوها الشاعر فى « رسالة الخلود » وفى كل فكرة تتبدى له . فالرومى يقوم بدور الرائد والمرشد الذى يفسر الخفايا والخبايا ، والذى يحذر فى نفس الوقت من التردى فى الأخطاء ؛ وهو يبدو خبيرا بأحوال النفس ، فهو يظهر دائما فى الوقت المناسب ، ويختفى من المسرح عندما يحين الوقت ، اذ انه يقود اقبالا من اول الرحلة المعراجية حتى قرب نهايتها عندما يوشك الشاعر على الانتقال الى المثول فى الحضرة الالهية .

تغيب فى أثره روح العارف الهندى عن الوجود وتنشغل بالاتصال بالملأ الأعلى .

ثم ينتقل الشاعر ومرشده الى واد من أودية القمر تسميه الملائكة وادى الطواسين وفى هذا الوادى أربع صخرات كبار كتبت على كل واحدة منها الملامح الرئيسية للجانب الاخلاقى فى تعاليم بوذا وزردشت والمسيح ومحمد (ص) . ومن خلال عرض اقبال لهذه التعاليم تتبين لنا فكرته عن تطور التاريخ الانسانى الذى لعبت النبوة دورا أساسيا فى توجيهه ، وخاصة فى جانبه الاخلاقى والروحى الذى هو مصدر كل ثورة أو تطور حقيقى . ونستطيع أن نقول انه خرج بتفسير روحى للتاريخ يقابل التفسير المادى الذى يقول به أصحاب النظرية المادية .

وكان عطارد هو المرحلة الثانية فى العروج ، وحينما يهبط الشاعر ومرشده على هذا الفلك يلتقيان بمصلحين كبيرين هما جمال الدين الأفغانى، وسعيد حليم باشا السياسى التركى ، ويقدم الرومى اقبالا الى الشيخين باسم جديد هو « زنده رود » ، أى النهر الحى . فيسأله الأفغانى عن أحوال العالم الاسلامى ، فيجيبه اقبال شاكيا من التشتت الذى يعيشه المسلمون ومن ضعف ايمانهم بأنفسهم وبدينهم ، ومن بلوى الاستعمار والشيوعية التى بدأت تتفشى بينهم .

ويدور حديث الأفغانى حول المخاطر التى تنطوى عليها الوطنية بمفهومها الاقليمى الضيق ، ثم يكشف النقاب عن انحرافات الشيوعية والاستعمار . ويتحدث سعيد حليم فيشن هجوما عنيفا على الحركة الكمالية فى تركيا ويوجه حديثه الى الأتراك مبينا لهم أن المسلم اذا أراد عالما جديدا فلينظر فى نفسه ثم فى القرآن .

ويشكو اقبال من أن القرآن موجود بين المسلمين ولكن لا أحد يدرى أين عالم القرآن ، فيجيب عليه الأفغانى بشرح محكمات العالم القرآنى وهى أربعة على الوجه التالى :

١ — الانسان خليفة الله فى الأرض .

٢ — الحكومة الألهية تفسيرا لقوله تعالى « ان الحكم الا لله » .

٣ — الأرض ملك الله .

٤ — الحكمة خير كثير .

فقد وردت هذه الأصول الأربعة فى القرآن على أنها الأعمدة التى يقوم عليها عالمه .

وبعد أن يبين اقبال ملامح « العالم القرآنى » — على لسان جمال الدين — يشكو الى المصلحين الكبيرين حالة العالم الاسلامى والخراب الذى آلت اليه النفوس . والموت الذى سرى فى روح الملة البيضاء . . كيف يمكن لهؤلاء الموتى أن يعملوا على احياء هذا العالم الناصع النقى «عالم القرآن».

ويرد عليه سعيد حليم أن ذلك ممكن ولكن بشرط أن نطلق هذه الروح المبدعة الكامنة فى نفس كل مسلم من عقالها وأن نحررها من خبث المتزمتين الذين يحاربون كل تجديد ، ذلك ممكن ولكن باطلاق حرية « الاجتهاد » من جديد . فالقرآن ينطوى على عوالم لا نهائية ، يبلى عالم فى نفس المؤمن فيمنحه القرآن عالما آخر جديدا ، يمنحه عالما له نفس « المحكمات » وإن صورته متغيرة متجددة ابدا .

وأخيرا — وعلى فلك عطارد — يوجه الأفغانى رسالة الى الامة الروسية يبين فيها أوجه التشابه بين الاسلام والشيوعية . ثم يدعو الروس فيها الى الايمان بالله ، ويبكى حال الأمة الاسلامية . فيبكى الرومى لبكائه ويطلب من شاعرنا أن يقول شعرا ، فيترنم بأنشودة رائعة يعرب فيها عن أمله فى خروج الأمة من المأزق الذى تعيشه بأن تؤمن بالقرآن وتبحث فيه من جديد ، عندئذ ستفتح عيونها على عوالم أخرى جديدة خليقة بأن يحياها الانسان .

ينطلق اقبال ومرشده من عطارد الى فلك **الزهرة** فيشاهدان عندما يهبطان فيه علامات احياء الوثنية من جديد : فها هو ذا محفل يضم الاصنام والآلهة التى عبدتها الشعوب القديمة يرقص ويبتهج احتفاء بخمود جذوة الاسلام وفرار الانسان من الله واتجاهه الى عبادة المحسوس والمادة . ويعزو أحد هذه الآلهة الفضل فى ذلك للمستشرقين والمستعمرين الذين بذروا بذور الشك فأثمرت الالحاد ، ويطرب لتحطم حلقة الوحدة الاسلامية، ولأن ليل الجاهلية الحديثة يطبق على العالم .

وينشد الرومى أنشودة تخر على اثرها تلك الآلهة القديمة كلها سجدا . يقول فيها : « يجب اعادة النظر فى الماضى والمستقبل . فهيا انهض أيها المسلم وتخل عن هذا التقليد الأعمى والجمود ، فلابد من تبديل الفكر من الأعماق » .

ثم يمضى بالشاعر الى أعماق بحر الزهرة حيث يلتقيان بطاغوتين من أعداء الله وأعداء الدين وهما فرعون وكتشنر . يعيشان فى أعماق هذا البحر فى حالة يرثى لها .

ويحاول كتشنر أن يبين نبل أهداف الانجليز من تنقيبهم فى قبور الفراعنة ، فيبين أنهم لا يبحثون فى هذه القبور عن الذهب والجواهر وانما عن العلم والحكمة لكى يعيدوا كتابة تاريخ مصر والعالم القديم بطريقة علميــة .

وهنا يسأله فرعون فى سخرية : ولكن ما قولك فى تربة المهدى ؟ وهو يشير بهذا الى نبش كتشنر لقبر المهدى فى الخرطوم عندما ذهب الى هناك لاحباط الثورةالمهدية فى سنة ١٨٩٨ .

وعندئذ تظهر روح المهدى السودانى وقد قدمت لتوها من الجنة فتدعو الأمة العربية الى اليقظة والعمل قائلة : استيقظى ياروح العرب، اخلقى الأعصار كما فعل السلف الصالح ، الى متى تظلون أسارى الفرقة

والتشتت ، لقد آن الأوان لاحياء حرقة المحبة الالهية فى القلوب ، لقد ولت هذه الحرقة من الصدور ولكن بالامكان اعادتها من جديد ، فأعيدوا الى الدنيا ذلك اليوم الذى مضى وولى ، يا أرض الحجاز الا فلتنجبى خالدا آخر، الا فلتنشدى لحن التوحيد من جديد . فى واحاتك ينمو النخيل عاليا ألن ينمو اليك عمر جديد » . ويعبر المهدى فى أنشودته عن تطلعه الى ظهور منقذ يخرج بالأمة من محنتها وترديها فى أوضار الماديه ، ويضع قدميها على الطريق الى الله مرة أخرى .

وعلى فلك **المريخ** يرسم خيال اقبال وعبقريته نموذجا للمدينة الفاضلة الاسلامية المثلة فى مدينة اسمها « مرغدين » وعندما يهبط فى صحبة الرومى على هذا الفلك يلتقيان بشيخ مريخى يعمل راصدا فى أحد مراصد المريخ يأخذهما فى جولة فى هذه المدينة التى تطبق الشريعة الاسلامية بحذافيرها ويتخلق الناس ميها بخلق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وينطلق الرومى باقبال بعد ذلك الى **فلك المشترى** حيث يلتقى بأرواح زنادقة ثلاثة هم الحلاج ، والشاعر الهندى غالب ، والشاعرة « قرة العين الطاهرة » التى اعتنقت المذهب البابى فى ايران . ويطلق اقبال عليهم اسم الأرواح الجليلة وقد رغبت هذه الأرواح عن البقاء فى الجنة وفضلت أن تجول الى الأبد . وهو يشيد بهم جميعا ويعتبر كلا منهم ظاهرة صحية فى الثقافة الاسلامية .

يستمع اقبال أول الأمر الى انشودة يترنم بها كل واحد من هؤلاء الثلاثة ، فتثور قضايا وأسئلة عديدة فى نفس اقبال ويبدأ فى عرض مشكلاته على هذه الأرواح الجليلة والواقع أن شاعرنا يتوجه بالجانب الأكبر من أسئلته الى الحلاج . ويتبين لنا من خلال حواره معه أنه يريد أن يخرج بنظرية جديدة فى شخصيته وهى أن قولته « أنا الحق » انما كانت تعبيرا عن ادراكه للجانب الالهى فى النفس الانسانية . وبعد حوار طويل مع الحلاج عن الحقيقة المحمدية ، يظهر أبليس ويأخذ فى الشكوى من أن الانسان المعاصر لم يعد جديرا بأن يكون خصما حقيقيا له ، ويدعو الله أن يهبه خصما جديرا بالمنازلة .

انطلق اقبال ومرشده الرومى بعد ذلك الى فلك **زحل** الذى جعله موطنا للأرواح الرذلة التى خانت شعوبها وأوطانها ، وينصحه الرومى بألا يهبط على أرض هذا الكوكب الذى ينزل عليه سخط الله وعذابه فى كل لحظة.

وهنا يترك اقبال — فى صحبة الرومى — عالم الأفلاك وينطلق الى **ما وراء الأفلاك** ولكنه — قبل ان يصل الى ما وراء الأفلاك يشاهد رجلا يتغنى فى حزن وضجر ببيت من الشعر يردده على الدوام ويبين الرومى أن هذا الرجل هو نيتشه الفيلسوف الألمانى ، ويأخذ فى وصفه من وجهة نظر اسلامية .

وما ان يصلا الى **جنة الفردوس** حتى يشرع اقبال فى وصف عالمها . وأول ما يتراءى له من معالمها البارزة قصر مبنى من اللؤلؤ النقى ينبعث

منه ضوء تغبطه عليه الشمس نفسها ، ويبين له الرومى أنه قصر « شرف النساء » الزاهدة الهندية التى كانت تحرص دائما على الجمع بين المصحف والسيف . ويدخل اقبال ومرشده الرومى قصر سلاطين المشرق الثلاثة فى الجنة ، فيلتقى بالملك الأيرانى نادرشاه ، ويوجه من خلال حواره معه نقدا للنزعات الوطنية التى عمت العالم الاسلامى ؛ ومؤسس افغانستان الحديثة احمد الأبدالى ، الذى يشن هجوما عنيفا على اتجاه المسلمين نحو تقليد الغرب فى سفاسف الأمور . ويتحدث الشاعر بعد ذلك الى الملك الهندى — تيبو المعروف بين ملوك الهند بالسلطان الشهيد فيقول له تيبو : « كيف ينبت الانسان من حفنة تراب ... بالقلب وبرغبة فى ذاك القلب!!!» ويحمل اقبالا رسالة الى مسلمى وطنه يتحدث فيها عن حقيقة الحياة والموت والشهادة .

وبعد أن تنتهى محاورات الشاعر مع السلاطين الثلاثة تحين لحظة الفراق بين اقبال والرومى فيقول له الرومى : « قم » ، فيمضى وحده للمثول فى **الحضرة الالهية** ، وتطلب حور الجنة منه أن يبقى معها لحظة أو لحظتين ولكنه يمضى فى طريقه لايلوى على شىء ، فهو لا يبغى غير وجه الحق .

وتثور فى ذهن اقبال وهو فى الحضرة الالهية تساؤلات فيخط القلم الالهى فى قلبه ردا على كل هذه التساؤلات التى تدور حول اصلاح حاضر الأمة الاسلامية ويستمع اقبال الى صوت يقول : « ما الأمة يامن يقول لا اله الا الله ؟ أن تكون هناك نظرة واحدة بآلاف العيون فحيثما توجد وحدة الفكر توجد الأمة ، ان على المسلمين ان يبرهنوا دائما على تطبيقهم المثل العربى القائل : « خيامنا منفصلة وقلوبنا واحدة » أيها المسلم انت ميت ! كن حيا من خلال وحدة النظر تجنب التشتت كن ثابتا محكما اخلق وحدة الفكر والعمل كى تصبح صاحب سطوة فى العالم » .

وفجأ يقع « **التجلى الالهى** » لاقبال ، فيعم النور كل الكون ويخر الشاعر ثملا بالجلوة فاقدا النطق ويفيق على صوت قوى يأمره بالعودة الى الأرض . وهنا ينتهى معراج اقبال .

لكن الوصول الى هذا المقام الرفيع ليس مجرد متعة شخصية فى رأى شاعرنا وانما هو زاد يعود به الشاعر لكى يدعو الى طريق الحق والى الرقى الروحى ، شأنه فى ذلك شأن النبى الكريم (ص) وتتمثل هذه الدعوة فى **خطابه الى ابنه جاويد أو حديثه الى الجيل الجديد** وهو الحديث الذى اختتم به المنظومة .

وينطوى هذا الخطاب على آراء تربوية قيمة . تناول فيها بالتوضيح مفهوم التوحيد وآثاره ، وتحدث عن افلاس المسلمين المعاصرين ، ووجه انتقادات لاذعة الى الشباب المسلم ، ثم انتقل الى النصح ودعاهم الى ربط القلب بالله وحده وحذرهم من أن يتسرب الى نفوسهم اليأس من الدين لما يرونه فى المسلمين المعاصرين من حقد ونفاق . واشار عليهم بان يبحثوا عن صحبة رجل الحق أو المرشد الكامل فهو موجود بيننا ولكننا لا نعرفه

لغلبة المادية على نفوسنا ، فان لم يعثروا عليه فعليهم بكتاب المثنوى لجلال الدين الرومى ، فهو بلسم يشفى النفوس وينطوى على سر دين المصطفى عليه الصلاة والسلام . وبهذا الحديث الى الشباب تنتهى رسالة الخلود .

من خلال هذا الأطار عالج اقبال كثيرا من القضايا الحيوية سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية فتحولت الرسالة الى بحر عامر بالدرر ، يقول المستشرق آربرى : « وفى كل شطرة يشعرنا الشاعر بأنه يملك شيئا ليقوله ، وهو لا يستحق أن يقال فحسب بل كفيل بأن يغمرنا بما يروقنا ويشوقنا »(١) .

لقد اتسمت نظرة اقبال — فى هذه الرسالة — الى الثقافة الاسلامية بالعمق والشمول . ويميل الشاعر الألمانى « هيرمان هسه » الى القول بأنه برغم أن الشاعر قد أفاد من التصوف ورغم أن الرومى الهمه ، فهو ليس بصوفى(٢) . وهذا حق اذا نظرنا الى التصوف بمعنى العزلة وبمفهوم وحدة الوجود . فدعوة اقبال تعد فى حد ذاتها ثورة على التصوف بهذا المفهوم ، وهو يصرح بذلك فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » قائلا : « ... فلا أسلوب التصوف فى العصور الوسطى ولا القومية والاشتراكية الالحادية ، بقادرة على أن تشفى علل الانسانية اليائسة »(٣) .

فلم يكن اقبال فى « رسالة الخلود » صوفيا ولا فيلسوفا ولا غربى النزعة والتفكير . وانما كان مصلحا رأى فى الاسلام العلاج الناجع لآلام البشرية والمتنفس السليم لامكانات الانسان وطاقاته .

(٣)

الرومى واقبال فى رسالة الخلود

هو جلال الدين محمد بن الحسين البلخى البكرى المعروف بجلال الدين الرومى (٦٠٤ — ٦٧٢) الشاعر الفارسى الكبير صاحب كتاب « المثنوى » الذى يعرف بأنه قرآن اللغة الفارسية .

وفى « جاويد نامه » يبدو الرومى بالنسبه لاقبالا كفرجيل بالنسبة لدانتى فى « الكوميديا الالهية » مرشدا فى رحلته المعراجية ، ويظل معه من أولها الى آخرها تقريبا حيث يفترق عنه قبيل المثول فى الحضرة الالهية .

ولم يكن قدر الرومى ومكانته من نفس اقبال واضحين الى هذا الحد

---

(١) Arberry, Javid Nama, Introduction p. 8.

(٢) هيرمان هسه : مقدمة لشعر محمد اقبال (جاويد نامه) ، مجلة فكر وفن ، العدد الرابع سنة ١٩٦٥ .

(٣) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى ... ص ٢١٧ .

فى « رسالة الخلود » وحدها ، وانما بدا هذا الاكبار والتبجيل لشخصية الرومى واضحا فى كل دواوينه الأخرى .

فقد نظم « اسرار خودى » (١٩١٥) و « رموز بى خودى » (١٩١٨) على نفس النسق الذى اتبعه الرومى فى كتابه (المثنوى) وهو يقول فى « اسرار خودى » :

— اننى اقرأ من جديد من فيض شيخ الروم ، كتابا يضمر اسرار العلوم .

— روحه مفعمة بالشعل ، وانا ضياء نفس واحد (منه) كالشرر .

— جعل الرومى ترابى جوهرا ، شاد من غبارى تجليات (منيرة)(١) .

كما نقل بضعة أبيات من « ديوان شمس تبريز » لجلال الدين الرومى وجعلها مقدمة لتلك المنظومة .

وفى « بيام مشرق » (١٩٢٣) يقدم اقبال لنا حوارا رائعا بين جوته والرومى فى السماء ، ويرى أن فكرة كل من « فاوست » و « المثنوى » واحدة(٢) ، ويقول ايضا فى « بيام مشرق » مقارنا بين «ابى على بن سينا» والرومى :

— لقد ضاع أبو على (ابن سينا) فى غبار الناقة ، بينما امسكت يد الرومى بستارة المحمل .

— غاص هذا الى الأعماق ووصل الى الجوهر ، وذاك اتخذ فى الدوامة مستقرا كأنه قشة(٣) .

ويقول فى « زبور عجم » (١٩٢٩) :

— المرشد الرومى الطاهر الأصل ، الذى افشى لنا اسرار الموت والحياة(٤) .

ويقول فى الرومى ايضا :

— أضىء شمعك ايضا كالرومى ، احرق الروم فى نار تبريز(٥) .

بل ان الاشادة بالرومى تتكرر كثيرا فى كل الدواوين التى صدرت لاقبال بعد « رسالة الخلود » ففى « مسافر » (١٩٣٤) يقول :

---

(١) اسرار خودى ص ٧ — ٨ .
(٢) بيام مشرق ص ٢٤٦ .
(٣) بيام مشرق ص ١٢٢ .
(٤) أيضا ، ص ٧ .
(٥) زبور عجم ص ١٨٩ ، وتبريز اشارة الى (شمس الدين التبريزى) مرشد جلال الدين الرومى .

— اننى أحرقك بنار رجال الحق ، وأعلمك دقيقة من دقائق شيخ الروم(١) .

وفى « بال جبريل » (١٩٣٥) يجعل اقبال نفسه مريدا ويسمى نفسه « مريد هندى » . ويقدم الرومى على أنه مرشد وحكيم .

ويقول فى « بس جه بايدكرد » (١٩٣٦) :

— الشيخ الرومى مضىء الضمير ، هو الأمير لقافلة العشق والسكر(٢) .

ويقول فى « ضرب كليم » (١٩٣٧) — نقلا عن ترجمة المرحوم الدكتور عزام :

ومزهر «الذات» أوتار مقطعة . ما زلت عن نغمة الرومى فى شغل(٣).

ويقول فى احدى رباعياته فى « أرمغان حجاز » (نشر بعد وفاته) :

— عندما أعطيت مالى للرومى فى الحرم ، تعلمت منه أسرار روحى .

— هو محيط بفتنة العصر القديم ، وأنا محيط بفتنة العصر الحاضر(٤).

فما السبب فى هذا التقدير الكبير الذى يكنه شاعرنا للرومى ؟

ربما التمسنا الاجابة على هذا السؤال فى الرباعية السابقة التى استشهدنا بها آنفا من ديوانه « ارمغان حجاز » ، فهو يعتبر نفسه قد تصدى لفتن العصر الحاضر مثلما تصدى الرومى لفتن عصره .

وهذا من شأنه أن يضع الرومى فى مكانته الصحيحة ، ليس كشاعر مبدع فحسب ، أو صاحب طريقة صوفية فحسب ، وانما كمصلح ومجدد اسلامى .

ففى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وهو القرن الذى عاش فيه جلال الدين الرومى ، كانت حالة العالم الاسلامى شبيهة الى حد بعيد بالحالة التى يعيشها الآن ، فقد تكالبت عليه القوى البربرية المغولية من جهة الشرق ومزقت أوصاله ، بينما تدافع عليه الصليبيون من جهة الغرب بشراسة وضراوة لم يسبق لها مثيل . وكانت الثقافة الاسلامية قد أخذت فى ذلك الوقت تتجه اتجاها عقليا محضا تحت تأثير الفلسفة الاغريقية ، وتبتعد عن الروح كمصدر للهداية الانسانية ، بينما أخذ

---

(١) مسافر ، ص ٩ .
(٢) بس جه بايد كرد ، ص ٥ .
(٣) ضرب كليم ، الترجمة العربية ص ٨٧ .
(٤) ارمغان حجاز ، ص ٧٧ .

التصوف — من ناحية أخرى — يدعو الى الاستسلام والخنوع . يقـو
اقبال فى رسالة له الى احد أصدقائه :

« كل شعر التصوف ظهر فى زمان ضعف المسلمين السياسى . وك
أمة يصيبها ضعف كالذى أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل انظار
ويجمل الضعف فى أعينها . وتركن الى ترك الدنيا . وفى هذا الترك تخف
الأمم ضعفها وهزيمتها فى تنازع البقاء(١) . . . »

وهنا قام جلال الدين يدعو المسلمين من جـديد الى العشق . وال
طرح الفلسفة جـانبا ، والى الاندماج فى حيـاة عقلية وجدانية كاملة
وكشف عن الأخطاء الفلسفية والكلامية فى فهم القدر(٢) وغيره وجعـ
التوفيق بين العقل والعشق بمثابة سلم للتقدم المـادى والروحى . بـ
جعله شرطا أساسيا لهذا التقدم(٣) .

وهذه هى تقريبا أسس دعوة اقبال فى العصر الحديث .

ويبدو أن اقبالا فهم الرومى حق الفهم ، وادرك ابعاد دعـوته حـ
الادراك ، وذلك برغم صعوبة فهم معـانيه . يقول الأستاذ سيد عبـ
الواحد : « وتكتنف دراسة الرومى صعوبات خاصة تتصـل بطريقة
العرض ، ولا يمكن للدارس أن يقع على أفكار هذا الصوفى العظيم دو
القيام بدراسة شاملة للأجزاء الستة التى يشتمل عليها كتابه المثنوى
فالرومى لا يضع معـانيه فى بضع كلمات ، ومن ثم كان على الدارس
يمضى عبر أجزاء المثنوى كى يلتقط المعنى(٤) » .

ونستطيع أن ندرك الصعوبات التى تكتنف فهم الرومى اذا عرفنـ
الأخطاء التى ارتكبها كبار المحققين والعلماء فى فهمهم لـه . فالمستشر
الانجليزى نيكلسون الذى عكف سنوات طويلة من حياته على دراسـ
الرومى وترجم كتابه الضخم (المثنوى) وديوانه العميق (ديوان شمس
تبريز) الى اللغة الانجليزية كتب فى مقدمته للترجمة الانجليزية لديوان اقبـ
« أسرار خودى » (١٩٢٠) يقول :

« وبينما يمقت اقبال نموذج التصوف الذى دعا اليه حافظ (الشيراز
يشعر بتقدير كبير العبقرية النقية والعميقة لجلال الدين الرومى . ومن
فهو يرفض مذهب نفى الذات الذى دعا اليه هذا الصوفى العظيم كما
لايتابعه فى آرائه الخاصة بوحدة الوجود»(٥) . اى أن الرومى كان من دعـ
مذهب وحدة الوجود غير أن اقبالا لم يتابعه فى ذلك .

---

(١) ترجم المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام هذه الرسالة فى « مد
اقبال . . . » ص ٦٥ .

(٢) Kalifa A.H. : Rumi, Nietzche, and Iqbal, Iqbal as thinker pp. 130 — 206.

(٣) يوسف سليم جشتى ، شرح جاويدنامه ص ١٠٨ .

(٤) S.A. Vahid, Iqbal His Art and Thought, p. 95.

(٥) R.A. Nicholson, Introduction to the Secrets of ..e self p. XI.

ولكن نيكلسون يعود عن دعواه هذه فى سنة ١٩٢٣ ويقول فى كتابه « فكرة الشخصية فى التصوف(١) » :

«وليس الغزالى (المتكلم) ولا جلال الدين (الشاعر) من القائلين بوحدة الوجود . ولكن هذا حكم ربما لا يوافقنى عليه بعضكم ممن قرأوا فى ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومى تلك القصائد التى يصف فيها اتحاده بالله بعبارات مشعرة بوحدة الوجود ، وهى عبارات فهمتها أنـا نفسى بهذا المعنى فى وقت لم أكن أعلم فيه من تاريخ التصوف ما أعلمـه الآن(٢) » .

كذلك وقع « شبلى النعمانى » — وهو باحث هندى مشهور بالدقة والتحرى — فى نفس الخطأ : فذكر فى دراسته الضافية على أشعار مولانا الرومى أنه كان يؤمن بوحدة الوجود(٣) .

بل ان بعض كبار الدارسين الايرانيين قد اعترف بأن من الصعوبة فهم المغزى الحقيقى لفكر الرومى(٤) .

وقد أشار اقبال الى الأخطاء التى تردى فيها الدارسون فى شرحهم للرومى فى بيت واحد من أبيات « رسالة الخلود » حيث قال عن الرومى :

— وصفوه ولم يره أحد ، ان معناه يجمح منا كالغزال .

وربما كان اقبال هو أول من استطاع أن يفهم الرومى ويفسر أفكاره تفسيرا صحيحا(٥) . وقد برهن على صحة فهمه له بأن غيره من الدارسين — مثل نيكلسون — قد صححوا أخطاءهم فى ضوء كشفه للرومى .

على أن اقبالا لم يقف عند مجرد فهم الرومى فحسب ، وانما استوعب أفكاره وهضمها حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من فكره .

ويلاحظ الدكتور خليفة عبد الحكيم أن « هناك تشابها كبيرا بين مولانا الرومى والعلامة اقبال ، فكلاهما شاعر على أعلى مستوى ، وكـلاهما شاعر اسلامى ؛ والشعر عند كليهما فلسفى ، وكلاهما يفضل التجربة

ترجمة المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى ضمن كتاب « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » .

(٢) نيكلسون : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة ابو العلا عفيفى ، ص ١٥٢ .

(٣) شعر العجم ج ٥ ص ٧٧ ، الأصل الاردى ، وأيضا فى كتابه الذى خصصه لدراسـة الرومى وهو بالأردية : « سوانح مولانا روم » أعظم كره سنة ١٩٣٨ ، أنظر ص ١٦٣ .

(٤) أنظر مثلا مقدمة « بديع الزمان فروز انفر » لكتابه « خلاصة مثنوى » طبع طهران سنة ١٣٢١ هـ . ش .

(٥) S.A. Vahid, Iqbal ... p. 96.

على العقل ، وكلاهما يعمل على دعم الذات بدلا من انكار حقيقتها . وكلا
اقتنع بأنه لا تعارض مطلقا بين اثبات الذات ونفيها . وكلاهما يختلف
مفهوم القدر الشائع بين الناس فهما يؤمنان بأن القدر ليس معناه أن أف
العباد قد تقررت من جانب الله سلفا ، وانما القدر ليس سوى قا
الحياة ، وكلاهما مفكر ثورى . . . وكلاهما يؤمن بأنه لا حدود لـ
الانسان ، وكلاهما يؤمن بالخلود . . . الخ»(١) .

ونقاط الالتقاء هذه كلها واضحة جلية فى « رسالة الخلود » ، ول
بقى علينا أن نضيف من جانبنا المزيد من هذه النقاط كما تبين لنا .
دراستنا للمنظومة وتصفحنا لمثنوى جلال الدين وقراءتنا العابرة لـكت
« خلاصه مثنوى » لبديع الزمان فروزا نفر .

١ — الاحساس بالغربة :

يبدأ اقبال رسالة الخلود بالشكوى من غربة النفس الانسانية فى د
العالم وفراقها عن أصلها ، فهو يقول :

— منذ أن عشت وقد عشت فى فراق ، فاكشف لى يا الهى عما يك
خلف تلك السماوات(٢) .

وبنفس الفكرة بدأ الرومى كتابه المثنوى ، فأغنية الناى التى بداه
هى شكوى من الفراق ، وقد شبه الناى بالنفس الانسانية التى انقط
عن منبتها ، فقال :

— استمع للناى عندما يقص حكايته ، ويشكو من آلام الفر
(قائلا) :

— اننى أريد صدرا ممزقا من الفراق ، حتى أشرح له ألم الشوق

— فكل من يبقى بعيدا عن أصله ، يظل يبحث عن زمان وصاله(٣)

ويتفق كل من الرومى واقبال على أن تعميق فكرة الغربة فى النفس
شأنها أن تخلق فيها الدافع الى الرقى الروحى الدائم .

على أن هناك اختلافا فى تصوير هذه الفكرة بين كليهما . فبينما يش
الرومى الانسان فى غربته بالناى يظل يئن لأنه انقطع عن منبت الغاب
فان اقبالا يشبه الانسان بالطيور التى تظل تحلق الى أن تعود الى العش
يقول :

اننا محجوبون عن أصلنا ، نحن طيور فقدنا عشنا(٤) .

---

(١) Khalifa A.H. Rumi ... etc.

(٢) جاويدنامه ص ٣ .

(٣) مثنوى ج ١ ص ٣ .

(٤) جاويدنامه ص ٢٢١ .

٢ — قرب الذات الالهيــة :

ويرى كلاهما أن الله تعالى ليس ببعيد عنا ، بل هو اقرب ما يكون الينا ، وهذه فكرة قرآنية . ولكن كليهما عبر عنها بطريقة مختلفة — يقول الرومى :

أن شمس الله تسطع على السمع والبصر(١) .

ويقول اقبال موجها حديثه الى الله تعالى :

اننا نبحث عنك وأنت عن النظر بعيــد ، لا ، نحن مخطئون ، فنحن عميان وأنت فى حضور(٢) .

٣ — قــوة العشــق :

والعشق عند الرومى — كما هو عند اقبال — هو الطاقة الـكبرى فى الحياة الانسانية ، يقول الرومى : ان العشق يجعل جسد الانســان الترابى يعلو على الأفلاك :

— بالعشق علا جسم التراب على الأفلاك ، اندمج الجبل فى الرقص وأصبح أخف حركة(٣) .

واقبال يرى كذلك أن العشق يمنح الانسان قوة تمكنه من الخروج من أسر الزمان والمكان وازاحة كل الأفلاك من طريقه :

— قال : ان كان لديك « السلطان » كان فى مقدورك أن تخوض فى الأفلاك(٤) .

ويستعمل اقبال لفظ العشق فى مجال جد فسيح ، والسمة الرئيسية للعشق عنده هى الرغبة الملحة الكامنة فى قلب العاشق لاكتساب صفات المعشوق وفضائله ، وهو يتفق فى هذا مع الرومى(٥) .

٤ — الجنون بالعشــق :

ويستعمل اقبال كلمة « الجنون » بمعنى العشق الالهى الذى لا يبالى بالحواس ، وهو مرحلة من مراحل المعرفة الالهية التى تبدأ بالعلم القــائم على الحواس ، ولكن العاشق لا يلبث أن ينتقل منه الى مرتبة أخرى من مراتب العشق أكثر سموا واسراعا فى طريق «علم الحق».يقول اقبال داعيا الله تعالى :

---

(١) خلاصة مثنوى ، ص ١٨٢ .
(٢) جاويدنامه ص ٤ .
(٣) مثنوى ، ج ١ ص ٤ .
(٤) جاويدنامه ص ١٥ .
(٥) S.A. Vahid, Iqbal ... 98.

— اعطيتنى العقـل ، فأعطنى الجنون ايضـا : وارنى الطريق الى الجذب الداخلى(١) .

ويقول الرومى :

— عندما تعلو على الحزن والسرور ، تزهو رونـقـة روحك بالورد والسوسن .

— وتصبح حلقات سلسلتك متعددة الأشكال والفنون . . . فـكل حلقة تقدم جنونا آخر .

— اعطت كل حلقة فنونا أخـرى ، فلى اذن فى كل لحظـة جنون جديد(٢) .

٥ — تحقيق الخلود :

أما تحقيق الخلود ، فالرومى — شأنه شأن كثير من الصوفية — يؤمن ايمانا عميقا فى بقاء الذات ، ويؤكد أن الخلود الحقيقى هو اكتساب صفات الله عن طريق نبذ الفردية المحدودة والمقيدة : فجوهر الفرد يحيا بالرغم من أن جميـع صفاته ربما تـكون قد اندمجت فى الصفات الالهية(٣) ؛ ولتوضيح فناء الذات بارتدائها الصفات يستعمل الرومى تشبيه الحديد المحمى الأحمر فى النار ، فالحديد يأخذ خصائص النار دون أن يضيع جوهره هباء ، وفى تلك الحال يمكن القول بأن الحديد هو هو النار :

— صبغة اللـه كأس بلون « هو » ، تتحول فيـه الألوان الى لون واحـد .

— اذا ما وقع (لون) فى ذاك الكأس وقلت له « قم » يقول طربـا وجذلا : « أنا الكأس » ، فلا تلم .

— قوله « أنا الكأس » هو بعينه قول « أنا الحق » . . له لون النار ، لكنه حديد .

— لقد أمحى لون الحديد فى لون النار . . . يدعى خصائص النـار بينما جوهره باق كما هو .

— فعندما يكتسب لون النار وطبعها ، يقول أنا النار : أنا النار(٤) .

وربما كان اقبال قد عبر عن هذا المعنى وهو ماثل فى الحضرة الالهية بقـوله :

---

(١) جاويدنامه ص ٤ .

(٢) بديع الزمان فروزانفر ، خلاصة مثنوى ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٣) S.A. Vahid Iqbal ... pp. 98 — 99.

(٤) خلاصة مثنوى ص ١٩١ — ١٩٢ ، وانظر تعليق الأستاذ بديع الزمان فروزانفر على هذه الأبيات ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

ـ الله ظاهر بكل أسراره ، بنظرتى أنا يجعل رؤيته (١) .

وهنا مناط الفرق بين موقف كل من الرومى واقبال من تحقيق الخلود والتحقق بصفات الله وبين موقف القائلين بالاتحاد التـام أو الوحـدة الوجودية .

٦ ـ حقيقـة المـوت :

بينما يخشى الانسان الموت لأنه يعتبر نفسه جزءا من الطبيعة الظاهرة من حوله ، يؤكد الرومى للانسان أن نفسه الحقيقية بمنأى عن أن تكون نتاجا للطبيعة ، بل هى مصدر لكل الطبيعة(٢) . ولذا كان الموت انتقالا من مرحلة الى مرحلة أخرى من الحياة ، وليس ثمة داع للخوف منه .

واقبال معه فى هذه الفكرة ، اذ يقول :

ـ الحياة تتدعم وتحكم بفضل التسليم والرضا ، الموت سحر وطلسم وخرافـة(٣) .

ولكن اقبالا يشترط أن يحكم الانسان ذاته أولا بواسطة العشق حتى لا تؤثر فيه صدمة الموت ، ويحظى بالحياة الأبدية ، يقول :

ـ وتذكر هذه الدقيقة : « الا بسلطان » والا فلتمت فى الوحل كالنمل والجـراد(٤) .

٧ ـ رجـل الحـق :

كما يتفق كل من الرومى واقبال على أن رجل الحق أو المرشد الكامل موجود دائما لا يخلو العالم منه مطلقا(٥) ، ويقول اقبال فى جاويد نامه ـ بعد أن يبين صفة رجل الحق ـ انه موجود بيننا لكننا نعرفه لغلبة المادية على نفوسنا ولنسياننا الجانب الروحى :

ـ عندما يرخص البدن من قحط الروح ، يختفى رجل الحق فى ذاته .

ـ فلا يعثر الباحث على ذلك الرجل ، رغم أنه قد يراه وجها لوجه(٦).

---

(١) جاويدنامه ص ٢٢٣ .

(٢) Kalifa A.H. Rumi . ونلاحظ وضوح هذه الفكرة عند اقبال أيضا فى رسالة الخلود ، انظر فلك القمر .

(٣) جاويدنامه ص ٢١٧ .

(٤) أيضـا ص ١٥ .

(٥) على أن الأستاذ سيد عبد الواحد يرى أن اقبالا سكت عن فكرة رجل الحق فلم يذكرها فى أشعاره ، وهذا غير صحيح كما يتبين من المتن. انظـر S.A. Vahid, Iqbal pp. 97 — 98.

(٦) جاويدنامه ص ٢٤٤ .

٨ — بين الحكمة الايمانية والحكمة اليونانية :

بل ان التقارب بين اقبال والرومى بدا واضحا للغاية فى « رسـالة الخلود » عنـدما استعمل اقبال نفس الأسـماء التى استعملها الرومى للتعبير عن الفكرة نفسها ، مثل اسم فخر الدين الرازى المفسر الشهير للقرآن .

يقول الرومى مبينا الفرق بين الحكمة اليونانية والحكمة الايمانية :

— كثيرا ما تقرأ حكمة اليونان ، فاقرأ أيضا حكمة القرآن .

— لو كان أمر الدين يقوم على الاستدلال ، فهذا أمر سيء ، لو كان الفخر الرازى أمينا على سر الدين ، فهذا أمر سيء .

— ان قدم أهل الاستدلال صنعت من خشب . . . الا ما اشد وهن القدم الخشبية(١) .

ويقول اقبال فى غزل له فى « رسالة الخلود » وهو يتحدث عن الغرض نفسـه :

— عندما أزلت كحل الرازى من عينى ، رايت اقدام الامم مختفيـة فى القـرآن(٢) .

٩ — مبـدأ الحـركة :

ويتفق اقبال مع الرومى فى تفضيل الحركة على السكون ، والسفر على المقام ، فالرومى يقول :

— ان الحبيب يحب هذه الحيرة وهذا الاضطراب،فالجهد الذى لاطائل وراءه أفضل من السكون(٣) .

ويقول اقبال :

— أيها المسافر ، ان الروح تموت من المقام ، وتكون اكثر حياة بفعل التحليق المتواصل(٤) .

وجدير بنا أن نقول ان مبدأ الحركة عند اقبال مبدأ اساسى فى فلسفته الدينية ، وقد المح الى هذا المعنى فى مواطن عديدة من الرسالة ، وفى كتاب تجديد التفكير الدينى فى الاسلام .

١٠ — التأثر الفنى :

وترى « آنا مارى شيميل » فى مقدمتها للترجمة الألمـانية لرسـالة الخلود أن أهم مثال لتأثر اقبال فنيا وموضوعيا بالمثنوى هو « تمهيد فى الأرض »(٥) .

وقد نظم اقبال رسالة الخلود فى نفس البحر الذى نظم فيه جـلال الدين المثنوى ، وهو بحر الرمل المسدس المحذوف حيث تتكرر تفعيلتـه

(١) نقلا عن سيد يونس شاه ، اقبـال أور رومى ، خيابان اقبـال ص ٢٥٣ — ٢٦٦ .

(٢) جاويدنامه ص ٤٣ .

(٣) خلاصه مثنوى ص ٣٩ .

(٤) جاويدنامه ص ٣٠ .

(٥) Schimmel, Das Buch der Ewigkeit, p. 7.

« فاعلاتن » ست مرات فى كل بيت من الأبيات ، ولكنها فى نهاية كل شطر تكون محذوفة النون أى « فاعلات(١) » . ولا تخلو « رسالة الخلود » من تضمينات من أشعار الرومى سواء من كتابه « المثنوى » أو ديوانه « شمس تبريز » . وسنشير الى هذه التضمينات فى موضعها .

ولا حاجة بنا هنا الى التحدث عن مكانة الرومى فى « رسالة الخلود » فهى مشهودة فى كل خطوة يخطوها الشاعر وفى كل فكرة تتبدى له ، وهو يقوم بدور الرائد والمرشد الذى يفسر الخفايا والخبايا ، والذى يحذر فى نفس الوقت من التردى فى الأخطاء ، وهو يبدو خبيرا بأحوال النفس ، فهو يظهر دائما فى الوقت المناسب ، ويختفى من المسرح عندما يحين الوقت ، فهو يقود اقبالا من أول الرحلة المعراجية حتى قرب نهايتها عندما يوشك الشاعر على الانتقال الى المثول فى الحضرة الالهية .

لقد درس اقبال المثنوى وفهمه حق الفهم ، وهو يرى أنه تعبير حقيقى عن روح الاسلام ، ويدعو شباب المسلمين الى صحبة الرومى اذا هم لم يعثروا على « رجل الحق » الموجود فى العالم دائما ، ويقول :

— اجعل الشيخ الرومى رفيق الطريق ، كى يهبك الله الحرقة والانصهار .

— لأن الرومى يعرف اللباب من القشور . . . قدمه محكمة فى ديار الحبيب (٢) .

ويقول ان الفضل يرجع الى الرومى فى عروجه وتحطيمه لقيود الزمان والمكان وتحليقه من فلك الى آخر صاعدا فى طريقه نحو الحبيب :

— هذا كله من فيض رجل طيب الأرومة ، ذلك الذى هبطت ناره فى روحى (٣) .

ويخيل الى أن الرومى نفسه قد تنبأ بهذا العروج — الذى تحقق لاقبال — لمن يدرك عمق معانيه ويفهم كلامه حق الفهم ، فهو يقول فى المثنوى :

— نردبان آسمان است اين كلام — هركه بر ميرود آيد ببام

— فى ببامى چرخ كو أخضر بود — بل ببامى كز فلك برتر بود

ومعناه :

— هذا الكلام سلم للسماء ، كل من يرتقيه يصل الى السقف .

(١) انظر فى بحر « المثنوى » براون ، تاريخ الأدب فى ايران ، ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربى ص ٦٥٩ .

(٢) جاويدنامه ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٣) أيضا ، ص ١٣٤ .

ـ لا الى سقف الفلك الأخضر فحسب ، بل الى السقف الذى يعلو على الأفلاك(١) .

(٤)

« رســالة الخلود »

دراســة مقارنــة

تزخر الاديان والآداب العالمية قديمها وحديثها بمأثورات واعمال فنية وفكرية تصف الرحلة الى العوالم الأخرى . ولن نحاول استعراض هذه المأثورات والأعمال ، لأنهــا ستكون محاولة مكررة ، فقــد سبقنا اليهــا الكثيرون وهى متاحة فى المكتبة العربية(٢) ، فضلا عن أنها ستكون محاولة بلا طائل لأننا أمام نص حديث تأثر فنيا بمصادر متطورة ناضجة لا بدائية . كما تأثر من حيث المضمون بالمعراج المحمدى خاصة وبتجارب صوفية بلغت شوطا بعيدا فى الرقى والكمال .

والواقع أن جاويد نامه قلما تأثرت فى مضمونها ومعانيها بمصادر دخيلة على الثقافة الاسلامية ، فهى فى جوهرها اسلامية صرف . ولكن التأثر بمصادر خارجية يظهر ويبين فى القالب الفنى .

ولذلك كان يتعين علينا أن نقصر بحثنا فى هذا الصدد على قسمين أحدهما لدراسة تأثر المنظومة بالأدب الاسلامى ، والثانى لدراسة آثار الآداب الأوربية عليها .

« رســالة الخلود »

وتأثرها بالأدب الاسلامى

١ ـ المعراج النبوى وأثره فى اقبال :

الهب المعراج النبوى خيال الشعراء والصوفية من المسلمين وغيرهم على السواء ، ويعــد النص القرآنى الذى تحدث عن هذا المعراج فى

---

(١) خلاصة مثنوى ، ص ٣ ، ويبدو أن الفلك الأخضر عند الرومى هو نفســه الفلك الأطلسى عنــد ابن عربى ، انظر الفتوحات المكية ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٢) أنظر مثلا حسن عثمان : الكوميديا الالهية ـ الجحيم ص ٥٥ ـ ٥٩ ، أحمد ناجى القيس : عطار نامه ، ص ٥٠٧ ـ ٥١٢ . وقد ذكر حافظ عباد الله فاروقى فى مقاله « جاويد نامه » بمجلة اقبال ريفيو سنة ١٩٦٣ أن اقبالا ربما يكون متأثرا بكتاب ارداى ويرافنامه « الذى عرج فيه أحد الموابذة الزردشتيين الى السماء » ولكن فاروقى لم يقم الدليل على ذلك ، ولست أرى أى أثر لهذه الرحلة فى منظومتنا هذه . عن « ارداى ويرافنامه » . انظر محمد معين : مزديسنا وتأثير آن درادبيات بارس » ص ٤٧٦ وما بعدهــا . وطــه ندا ، دراسات فى الشاهنامه ـ ص ٢٢٥ ـ ٢٥٧ .

سورة « النجم » ، والأثر النبوى الشريف الخاص بوصف رحلة الرسول (ص) المعراجية معينا لا ينضب استقى منه جميـــع من كتبوا فى هـــذا الموضوع حتى الآن .

وكان اقبال من بين من تأثروا معنويا وفنيا بمعراج النبى الكريم ، وقد سبق لنا أن ذكرنا أن فكرة المعراج وأهميته فى البرهنة على التطور الروحى للانسان قد تبلورت عند اقبال فى شبابه ، ولاحظنا أن هذه الفكرة ما زالت تنمو وتتدعم حتى صارت فى النهاية هدفا لنظرياته الفلسفية كلها .

والواقع أن هذه الفكرة نمت فى وجدان اقبال وترعرت تحت ظلال حبه القوى للمصطفى (ص) ، وهو حب ملك عليه فؤاده وأفصح عنه فى عديد من أشعاره وخطاباته ، و « لم يزل حب النبى (ص) يزيد مع الأيام حتى كان (اقبال) فى آخر عمره اذا جرى ذكر النبى (ص) فى مجلسه أو ذكرت المدينـــة — على منورهـــا ألف سلام — فاضت عينـــه ولم يملك دمعه(١) » .

وقد تجلى حبه للنبى بوضوح لا فى ثنايا نص « رسالة الخلود » وحدها وانما فى فكرتها الأساسية ذاتها .

فهذه الرسالة معراج ، وكان اقبال يريد بادىء ذى بدء أن يطلق عليها اسم « معراجنامه جديد » — أى رسالة المعراج الجديد — ولكنه ما لبث أن عدل عن ذلك وأسماها « جاويد نامه »(٢) ، أى رسالة الخلود .

وقد وصف اقبال فى معراجه رحلته الى الحضرة الآلهية وجعل هدفه منذ البداية أن يصل لا الى التجليات والصفات الالهية وحدها وانما الى الذات الالهية نفسها مثلما فعل الرسول (ص) ، فى قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى(٣) » .

يقول اقبال محددا هدفه قبل بدء المعراج :

— الرجل المؤمن لا يقنع بالصفات ، فالمصطفى (ص) لم يرض الا بالذات(٤) .

— لم تكن محبـــة الرسول عنـــد اقبـــال مجرد حـــالة سـلبية تقتصر على حد الافتتان بصفات المصطفى ، بل هى عمل ايجابى ، هى محاولة للوصول الى درجة المصطفى والتشبه به ، وقد عبر اقبال عن هذا المعنى على لسان الحلاج فى فلك المشترى :

— فعش فى الدنيا مثل رسول الانس والجان ، كى تكون مثله موضع قبول الانس والجان(٥) .

---

(١) ابو الحسن الندوى ، روائع اقبال ص ٢٦ ، وتجد فى نفس المصدر تفصيلات مستفيضة عن حب اقبال للرسول ، أنظر ص ٢٥ — ٢٧ .

(٢) جود هرى محمد حسين ، جاويد نامـه كاتعـــارف ، شرح جاويد نامه ص ٢٣ .

(٣) سورة النجم آية : ٨ .

(٤) جاويد نامه ، ص ١٤ .

(٥) أيضا ، ص ١٥١ .

لقد أراد اقبـــال اذن أن يكون مثل الرسول الكريم (ص) فيعرج فى السماء متجاوزا الأفلاك باغيا وجه الحق وحده .

وعندما صعد الى الأفلاك متجها نحو الهدف لم يربط قلبه بشىء مما مر فى طريقه ولم تثنه التجليات وروعتها ولا حور الجنة بفتنتها عن عزمه فى الوصول الى الله ، فكان فى هذا أشبه بمحمد (ص) الذى روى عنه أنه « لمـــاركب البراق لم يعرج على شىء . . ليعلم أن من سمح الى الله قصده لم يلتفت فى طريقه الى شىء »(١) .

وكان الرومى دليلا لاقبال فى معراجه كما كان جبريل دليلا للرسول (ص) . وعندما وصل الرسول (ص) الى سدرة المنتهى طلب جبريل الأمين منه أن يتقدم قائلا : « تقدم يا محمد فانك اكرم على الله منى »(٢) .
وفعل الرومى مع اقبال مثل ما فعل جبريل مع النبى الكريم ولكن مع اختلاف طفيف وهو أنه قال لاقبال « قم » :

— هتف الشيخ الرومى فى اذنى ان : قم(٣) .
وبرر اقبال هذا بأن مقام المشاهدة ينبغى المضى اليه دون رفيق :
« وآخره المضى فى الطريق بلا رفيق »(٤) .

وانطلق اقبال وحده ، يخترق الحجب حتى وصل الى الحضرة الالهية وناجى ربه ، وتشبه هنا بالرسول أيضا ، فلم تكن مناجاته من أجل نفسه وانما كانت من أجل أمته ومن أجل الانسانية جمعاء .

ولم يكن لاقبال ان يصل الى مرتبة النبى الكريم فى النضج الذاتى ، فبينما أقترب الرسول (ص) من الذات الالهية فكان قاب قوسين أو أدنى وهو يمتلك زمام نفسه وشعوره — لولا ما خالجه من خشية فى بادىء الأمر — فان اقبالا صعق بمجرد « تجلى الجلال » وغاب عن وعيه . ولكنه أفاق فى النهاية على صوت صادر من أعماق العالم الأعلى يفضى اليه بأمور ثم يقول له فى النهاية « اذهب » :
خذ الزجاجة واشرب برفق ، واذهب(٥) .
وهذا أمر الهى بالعودة الىالأرضمن جديد لنشر دعوة الحق بين الناس كمـــا فعل الرسول (ص) حين تلقى أمر ربـــه وهو ماثل فى حضرته .. كما ورد فى الأثر — : « ثم قال لى ارجع قومك مبلغهم عنى »(٦) .
فثمة فرق اذن بين الوعى النبوى والوعى الصوفى فى مقام المشاهدة .
يحدثنا احـــد أولياء المسلمين فى الهند عن الوعى الصوفى قائلا : « صعد محمد النبى « العربى » الى السماوات العلى ثم رجع الى الأرض . قسما بربى : لوأنى بلغت هذا المقام لما عدت ابدا »(٧) .

---

(١) القشيرى ، كتاب المعراج ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(٢) أيضا ، ص ٥٨ .
(٣) جاويد نامه ، ص ٢١٩ .
(٤) أيضا ، ص ٢٢٢ .
(٥) جاويد نامه ، ص ٢٣٠ .
(٦) القشيرى : كتاب المعراج ص ٦٠ .
(٧) محمد اقبال ، تجديد التفكير الدينى ص ١٤٢ .

ولكن اقبالا عاد مثلما عاد النبي الكريم (ص) ليحدثنا عن معراجه ويروى مشاعره أمام الحضرة العلوية ابتغاء تغيير هذا العالم .

وهكذا يتبين لنا أن الهيكل العام لمنظومتنا هذه والمضمون الروحى فيها قد استقاه الشاعر بصورة مباشرة من المعراج المحمدى .

٢ ــ المعراج الصوفى :

لقــد فطن الصوفية المسلمون الى المفهوم الحقيقى للمعراج النبوى واعتبروه مثالا للرقى الروحى لم تستطع البشرية فى عصور تطورها أن تأتى بنظيره(١) .

ويمكننا أن نعتبر تلك المقامات التى يتنقل السالك بينها مصفيا روحه مرقيا اياها بمثابة مراحل فى الطريق الى المشاهدة الالهية . وهى هدف كل السالكين .

ولكن ثمة فرقا بين الوعى النبوى والوعى الصوفى فيما يتعلق بنتائج المشاهدة . فالمشاهدة ليست مجرد متعة ذاتية عند النبى بل هى تلق مباشر من الذات الالهية لرسالة يتعين عليه أن يعود بعد تلقيها لا بلاغها لأمته .

أما الصوفية من اصحاب وحدة الوجود فيهدف أغلبهم من المشــاهدة الى الفناء التام فى نور الذات مثلما تفنى القطرة فى البحر . واقبال يختلف معهم فى هذا ، اذ يرى أن الهدف من المشاهدة هو البقاء لا الفناء ، والخلود لا العدم . وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى جعله يسمى هــذه الرحلة المعراجية برسالة الخلود ، فدل بذلك على أن هدفه من المعراج الخلود لا الفناء .

اذن فقد فضل اقبال الوعى النبوى على الوعى الصوفى فى الهدف من المشاهدة . ولكن هذا لم يمنعه من أن يتأثر ــ الى حد ما ــ فى تجربتــه الشعورية بمن سبق لهم أن تمتعوا بهذه التجربة من الصوفية المسلمين وسجلوها .

(أ) معراج أبى يزيد البسطامى :

كان أول معراج صوفى وصلنا ، هو معراج أبى يزيد البسطامى الذى اشتهر بين الفرس باسم « بايزيد » وقد طبع هذا المعراج أخيرا فى مصر(٢)، وكان الشيخ فريد الدين العطار قــد ترجمــه الى الفارسية فى « تذكرة الأوليـــاء »(٣) .

ومعراج أبى يزيد رؤيا منامية يصور لنا فيه معالم الطريق الى الله :

---

(١) يوسف حسين ، روح اقبال ، ص ٢٩٨ .
(٢) طبعه الدكتور على حسن عبد القادر كملحق لكتاب المعراج للقشيرى، انظر ص ١٢٩ ــ ١٣٥
(٣) ج ١ ص ١٤٣ ــ ١٤٦

من مقام الى مقام متخذا من قصة المعراج رمزا لطريق الصوفية فى الوصول الى الله ، ومقام الشهود .

ويجب علينا أولا أن نوضح أن « رسالة الخلود » ليست حلما انما هى تجربة حية واعية وارادية . وان كان ثمة اتفاق بين معراج اقبال ومعراج أبى يزيد يتمثل فى اعجاب الملائكة بقدرات الانسان . وذلك واضح فى اغنية الملائكة فى رسالة الخلود (ص ١٠) وفى مواضع مختلفة من معراج البسطامى (ص ١٣٠، ١٣١) . كما أن اخلاص القصد وعدم الالتفات الى الشواغل التى تشغل الانسان عن هدفه واضح فى كلا المعراجين .

ولست أدرى هل قرأ اقبال هذا المعراج لأبى يزيد فى اصله العربى او فى ترجمته الفارسية للعطار ، أم أن هذا الاتفاق مجرد توارد خواطر فى تجربة كل منهما ، والواقع أن اقبالا يكن احتراما كبيرا وتقديرا بالغا للبسطامى ، وقد ذكره غير مرة فى منظومتنا هذه ، فقال على لسان الرومى فى فلك عطارد :

— وزوار هذا الموضع الشريف ، رجال أطهار ذوو مقامات عالية .

— رجال أطهار كالفضيل،وأبى سعيد ، عارفون كالجنيد وأبى يزيد(١).

وقال أيضا :

— الفرد يصبح الاهيا بالتوحيد ، الأمة تصبح جبروتا بالتوحيد .

— أخرج التوحيد أبا يزيد والشبلى، وأباذر ، أخرج التوحيد للامم طغرل وسنجر(٢) .

(ب) معراج سنائى الغزنوى(٣) :

والمعروف أن سنائى من بين الشعراء الفرس الذين يفضلهم اقبال والذين تأثر بهم الى حد بعيد ، فقد قال فى دعاء له الى الله تعالى :

— امنحنى حماس الرومى ، ونار خسرو (الدهلوى) ، امنحنى صدق سنائى واخلاصه(٤) .

وعندما سافر الى افغانستان (سنة ١٩٣٣) حرص على زيارة قبر سنائى حيث لم يتمالك نفسه من البكاء عندما هاج خاطره بذكر هذا العارف الصوفى العظيم(٥) .

---

(١) جاويد نامه ، ص ٦٤

(٢) أيضا ، ص ٢٢٦ .

(٣) من الرعيل الأول من شعراء التصوف فى ايران ، توفى سنة ٥٢٦ هـ ، أنظر براون : تاريخ الأدب فى ايران ، الترجمة العربية ص ٣٩٦

(٤) استشهد الأستاذ حسنين كاظمى بهذا البيت من اشعار اقبال فى مقاله : آشنا دانـد صداى آشنا ، بمجلة « هلال » الباكستانية ، عدد يونية ١٩٦٣ م ص ١٠ — ٢٤ ، وقد القيت نظرة خاطفة على دواوين اقبال الفارسية فلم أوفق الى العثور على البيت لتحديد موضعه .

(٥) عبد السلام ندوى ، اقبال كامل ص ٣٦

ولسنائى معراج سجله فى مثنوى فارسى صغير أطلق عليه اسم « سير العبــاد الى المعــاد » يبدأ بمقدمات طويلة ، ثم يبدأ معراجه(١) بأن يتخيل شيخا لطيفا نورانيا يصحبه فى رحلته فيمر بمراحل ومنازل عديدة ويجتازان بحرا ، وحين يصلان الى الشاطىء ينعدم العالم أمامهما ، فيعرجان الى الفضاء ويمران بفلك القمر ، وبوديان وجبال من نار ثم بآبار فيها عــالم عجيب فى فلك النجوم ، فيصلان الى حيث لا زمان ، ثم يمران بمنــازل ومراحل أخرى ويدخلان الجنة ويتوجهان الى حضرة الملك .

ويصف سنائى فى معراجه رجوع النفس من عالمها المظلم الذى سقطت فيه الى أصــلها الالهى . ففكرة الغربة الانسانية واضحة فيــه كما هى واضحة فى رسالة الخلود .

وثمة اتفاقان آخران هما أن أول الأفلاك عند سنائى ـــ كما هو عند اقبــال ـــ فلك القمر وأن فكرة التحرر من الزمان موجودة فى كليهما .

(ج) منطق الطير للعطار :

هناك معراج رمزى آخر نظمه بالفارسية الشيخ فريد الدين العطار (توفى ٦٠٧ هـ) يسمى « منطق الطير » والطير يرمز الى السالكين من أهل الصوفية ، وهذه الطيور تبحث عن الطائر المعروف بالعنقاء ، وهو رمز لله ، وتقطع الطيور وديانا فى اثر وديان ، وقد استطاعت بمجاهداتها الطويلة أن تتطهر من أدران النفس والجسد ، ووجدت فى النهاية طلبتها أى العنقاء وحققت بوجوده وجودها(٢) .

ويرى الدكتور أحمد ناجى القيسى فى كتابه « عطار نامه » أن اقبــالا متأثر فى « رسالة الخلود » بمنطق الطير ، ولم يحدد مظاهر هذا التأثر(٣) ، والواقع أن هذا التأثر يعد فى رأيى بسيطا الى حد بعيد ، فالفكرة الأساسية وهى العروج للوصول الى الكمال واحدة ، ولكن شتان ما بين أســلوب التعبير عن هذه الفكرة عند كل من العطار واقبال . وربما كان التشابه الوحيد بينهما موجودا فى مقــام المشاهدة حيث حقق السالكون وجودهم بوجود الله واكتسبوا من الله صفة الوجود بما تتضمنه من خلود .

(د) معراج ابن عربى(٤) :

وصف ابن عربى المعراج فى كتابه « الإسرا الى المقام الأسمى » بقوله: « وأما الأولياء فلهم اسراءات روحانية برزخية يشاهدون فيها معان متجسدة فى صورة محسوسة للخيــال يعطون العلم بما تتضمنه تلك الصــور من المعــانى ، ولهم الاسراء فى الأرض والهواء ، غــير أنهم ليس لهم قــدم

---

(١) سير العباد الى المعاد طبع طهران سنة ١٣١٦

(٢) براون ، تاريخ الأدب فى ايران ص ٦٥١

(٣) أنظر عطار نامه ، ص ٦١٧ ــ ٦١٩

(٤) ولد فى « مرسيه » بالأندلس سنة ٥٦١ ، وتوفى فى الموصل سنة ٦٢٨

محسوسة فى السماء ، وبهذا زاد على الجماعة رسول الله باسراء الجسم ، واختراق السماوات والأفلاك حسا ، وقطع مسافات حقيقية محسوسة . وذلك كله لورثته معنى لا حسا ، فمعارج الأولياء معارج ارواح ، ورؤيه قلوب ، وصور برزخيات ، ومعان متجسدات :

« لله در عصـــابة ســـارت بهم . . نجب الفناء لحضرة الرحمن »(١) .

وقــد تحــدث ابن عربى عن معراج له فى كتابه الكبير « الفتوحات المكية »(٢) . ويميل الأستاذ « جودهرى محمد حسين » فى مقدمته لرسالة الخلود — رغم الفروق الكبيرة فى الدوافع والأهداف — الى عقد مقارنة بين معراج كل من اقبال وابن عربى . وخلاصة آراء جودهرى فى هذا هى : أن ابن عربى كان صوفيا من أصحاب الطريق . الأمر الذى جعله يكشف فيه عن وارداته ومكاشفاته ، فالفتوحات المكية مرآة لسلوكه الروحى . ويزخر معراج ابن عربى بالألغاز التى تستعصى على الفهم . وهو أمر ليس موجودا فى رسالة الخلود . كما أن ابن عربى حاول التكشف عن حقائق الحياة بعد الموت ، ولكن اقبالا صب كل اهتمامه على الخلود وحده وكيفية الوصول اليه(٣) وان كان لم يغفل هذا الجانب كلية حيث يعرض لحقائق الحياة والموت على لسان السلطان تيبو الشهيد فى الفردوس الأعلى .

ونضيف الى أقوال الأستاذ جودهرى أن اقبـــالا — على العكس من ابن عربى — جعل عروج الانسان بالجسم والروح أمرا ميسورا اذا تم له التغلب على الزمان والمكان .

وان نجب الفناء ليست هى التى تسير بالانسان الى حضرة الرحمن ، انما هو دافع مخالف تماما ، اذ هو دافع ايجابى الى الخلود والبقاء .

* * *

وهناك كثيرون من الصوفية تحدثوا عن معارج لهم الى السماء ، منهم على سبيل المثال أبو الحسن الخرقانى(٤) . وتحدث بعضهم عن مراحل قطعوها من تزكية النفس وتصفيتها فحصلت لهم المشاهدة . وهؤلاء كثيرون أذكر منهم فى التصوف والأدب الفارسى على سبيل المثـــال « فخر الدين العراقى » الذى كتب « اللمعات » مستوحيا اياهـــا من كتاب فصوص الحكم لابن عربى ، وهو كتاب منثور تتخلله مقطوعات شعرية وفى نهايته قصيدة طويلة رائعة يصف فيها اكتسابه للصفات الالهيـــة . وقــد قسم العراقى كتابه الى ثمانية عشر قسما أطلق على كل قسم اسم « لمعة » وكل لمعة عبارة عن رمز لدور من أدوار السفر فى الطريق الى الله . وانتهاء

---

(١) محيى الدين بن عربى ، الاسرا الى المقام الأسمى . نقلا عن مقدمة الدكتور على حسن عبد القادر لكتاب المعراج للقشيرى . ص١٢ ــ ١٣

(٢) أنظر محيى الدين بن عربى ، الفتوحات المكية مثلا ج ١ ص ٢١٠ وج ٣ ص ٥٧٣

(٣) جودهرى محمد حسين ، جاويد نامه كا تعارف ، شرح جاويد نامه ص ٣٠ — ٣٢

(٤) وقد ورد معراجه فى ترجمته بتذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٥٩ وما بعدها.

اللمعات يصل الى مقام الشهود ويحدث : « انطواء العاشق فى المعشوق عينا ، وانزواء المعشوق فى العـــاشق كلا واندراج كل منهما فى سطوات وحدته جمعا ، وهنالك اجتمع الفرق وارتتق الفتق واستتر النور فى النور وبطن الظهور فى الظهور ، ونودى من وراء سرادقات العزة :

الا كل شىء ما خلا الله بـــاطل وكل نعيم لا محالة زائل
وغابت العين فلا رسم ولا أثر وبرزوا لله الواحد القهار »(١)

اذن فهو الفناء لا الخلود ، وهذا ما لا يسيغه اقبال كهدف للحيـــاة الانسانية على هذه الأرض .

* * *

واذا نحن اجملنا مظاهر تاثر رسالة الخلود بالمعراج الصوفى فسوف نجدها يسيرة نادرة كما لاحظنا ، واذا كان هناك من تأثر حقيقى فهو تأثر عكسى مضاد فى جعل الهدف من المعراج خلودا لا فناء كما هو الحال فى معراج اغلب الصوفية المتأخرين .

وثمة تاثر آخر هو العروج من مرحلة الى مرحلة ، واقبال متاثر فى هذا بالصوفى الكبير عبد الكريم الجيلى ، الذى اثبت معراجه فى كتابه « الانسان الكامل »(٢) فقد بدأ الجيلى عروجه بفلك القمر وانتهى بفلك زحل . ومر بينهما بعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى ، وهذا ما فعله اقبال — الا انه لم يمر بالشمس — فبلغ عدد ما مر به من افلاك ستة فقط .

على اننا نرجح أن معراج الجيلى كان أكثر تأثيرا فى تجربة اقبـــال وخصوصا من حيث القالب ، الا أن هناك اختلافا كبيرا فى المضمون بين المعراجين نبهنا اليه فى مقدماتنا لكل فلك من الافلاك التى مر بها اقبال .

٣ — رسالة الغفران :

لابد لنا من القاء نظرة على هذه الرسالة التى أملاها شيخ المعرة فى سنة ٤٢٤ هـ وهى رسالة كتبها فى نثر فنى رائع ردا على رسالة صديقه ابن القارح الذى أعرب فيها عن اعجابه بأبى العلاء ، وقدح فيها هؤلاء الشعراء والأدباء الذين عاشوا فى الكفر والفجور ، دون أن يتناول مسألة الرحمة بالنسبة لهم .

فما كان من أبى العلاء الا ان كتب رسالة طويلة الى صاحبه صور له فيها رحلته الى الملأ الأعلى وسياحته فى الجنة والنار ، وبين فيها كيف غفر الله للأدباء والشعراء بوجه خاص ، وان كانوا عصاة ملحدين أو كفارا .

وقد تحدث الدكتور طه حسين فى محاضرة القاها فى ذكرى احتفـــال جامعة القاهرة بيوم اقبال سنة ١٩٥٦ بعنوان : « اقبال شاعر — فرض

---

(١) فخر الدين العـــراقى ، اللمعـــات ، مخـــطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٨ م أدب فارسى .
(٢) الانسان الكامل ج ٢ ص ٦٢ وما بعدها .

نفسه على الدنيا وعلى الزمان » ـــ تحدث عن الصلات والفروق بين رحلة كل من اقبال وأبى العلاء الى الملأ الأعلى ، فقال :

« .... والغريب أن الرجلين اشتركا ايضا فى التفكير المتصل بالملأ الأعلى .. وحاول كلاهما ان يسرى كما اسرى النبى . فابو العلاء فكر فى الجنة وفكر فى النار ، وحرص على ان يسيح فى الجنة والنار وأن يكون متفرجا ، وأن يتحدث الى الناس عن الجنة والنار .. فالف رسالة الغفران . وصاحبنا الذى نذكره اليوم مكبرين له مجلين له (يعنى اقبالا) أبى هو أيضا الا أن يعرج فى السماء كما عرج محمد صلى الله عليه وسلم.. مهما يكن من شىء فقد طوف اقبال فى السماوات كما طوف فيها ابو العلاء.. ولكن النتيجة لهاتين الزيارتين متناقضة عند الرجلين اعظم التناقض . فأما ابو العلاء فعاد من زيارته للجنان والنار ساخرا منكرا يوشك ان يخرج على الدين . وأما اقبال فعاد من زيارته متعظا معتبرا يريد أن يملأ الدنيا موعظة وعبرة بعد هذه الزيارة الى السماوات(١) » .

ونضيف الى هذا فروقا أساسية فى نص الرسالتين ، فابو العلاء كان يرى ما يراه فى الجنة بعين الحرمان ويعرض فى نفس الوقت بضاعته من العلم واللغة والفن ، كان يحلم وينال من عالم الخيال ما لم ينله من عالم الواقع وينفس عن أشواقه المكبوته ورغباته المعتقلة وشهواته الملجمة(٢). وما كان هذا دأب اقبال فى « رسالة الخلود » فقد اعرض عن كل ما رآه باغيا وجه الله تعالى . ولم يكن عرض بضاعته من العلم أو اللغة هدفا فى حد ذاته وانما كان مجرد وسيلة لابلاغ رسالته .

على أننا نجد بعض التشابه بين الرحلتين يتمثل فى اللقاء بابليس . فلقد لقى أبو العلاء ابليس فى الجحيم وهو يلقى أشد العذاب . أما اقبال فقد لقيه فى فلك المشترى . وهناك نقطة فى الحوار مع ابليس حرص كلا الشاعرين على ابرازها وهى تعالى ابليس على الانسان لأنه من نار وآدم طين(٣) .

ولست أدرى فى الواقع ، هل قرأ اقبال « رسالة الغفران » قبل ان ينظم رسالة الخلود ، أو قبل أن يتم نظمها فتأثر بهاتين الظاهرتين . أم أنه لم يطلع عليها مطلقا . ومهما يكن من أمر فمن الواضح ان الفروق بين الرسالتين فروق أساسية وشاسعة .

---

(١) من كتاب محمد اقبال، طبعة السفارة الباكستانية بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، الغفران لأبى العلاء المعرى . ص ٥

(٣) أبو العلاء المعرى ، رسالة الغفران ، ص ٣٢١ وما بعدها ؛ جاويد نامه ص ١٥٦ وما بعدها .

رسالة الخلود
وتأثرها بالآداب الأوربية

فى مقدورنا أن نؤكد أن رسالة الخلود قلما تأثرت فى مضمونها ومعانيها بمصادر خارجة عن الثقافة الاسلامية ، فهى فى مجملها محاولة سياسية وثقافية لاعادة تنظيم الحياة الاسلامية ووضع أقدام المسلم المعاصر على الطريق الصحيح .

أما المؤثرات الأجنبية فكانت على القالب الفنى وحده ، ولكن هذه المؤثرات لا تطغى على أصالة اقبال وقدرته كشاعر .

وسوف نتتبع فيما يلى هذه المؤثرات التى نعتقد أنها جاءت من مصادر ثلاثة : الشاعر الانجليزى ميلتون وكتابه « الفردوس المفقود » ، الشاعر الألمانى جوته وملحمته « فاوست » ، الشاعر الايطالى دانتى اليجييرى وكتابه« الكوميديا الالهية »(١) .

أولا — الفردوس المفقود :

يقول الأستاذ سيد عبد الواحد فى كتابه « فكر وفن اقبال » أن الشاعر كتب فى سنة ١٩٠٣ خطابا الى أحد أصدقائه يعبر فيه عن رغبة شديدة تستولى عليه فى نظم منظومة حماسية على غرار قصائد ميلتون « الفردوس المفقود »(٢) .

وميلتون شاعر انجليزى شهير ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى سنة ١٦٧٤ . وقد نظم ملحمته هذه عام ١٦٦٧ فى اثنى عشر نشيداً ، وهى تحكى خروج آدم من الجنة ، ولكن الشخصية الأولى فيها هى شخصية الشيطان . وقد صور « ميلتون » فى روعة وابداع الصراع الأبدى بين الخير والشر ، بين الشيطان الهارب خلسة من أعماق الجحيم وبين الانسان الذى آثره الله بالجنة وأمر الملائكة أن يسجدوا له .

وربما كان السبب الذى دعا اقبالا الى الأعجاب — وهو فى هذه الفترة المبكرة من حياته الأدبية — بالفردوس المفقود نزعه الحرية والاستقلال التى تسود الملحمة والاعتماد على الحجة وقوة شخصية الفرد ازاء القوى التى تفوق قدرته . وقد نجح ميلتون فى سوق كل آرائه هو فى هذه الأمور على لسان الشيطان .

وفى مقال للأستاذ سيد عبد الواحد نشره باللغة الأردية عن « ميلتون

---

(١) رتبنا المصادر الثلاثة على هذا النحو حسب ترتيب قراءة اقبال لكل منها .

(٢) S.A. Vahid, Iqbal, His Art ... p. 11.

واقبال »(١) حاول الكاتب يلتمس أوجها للتشابه بين الشاعرين ، ورأى أن ثمة تشابها بين ميلتون واقبال فى معالجة قضية الشر فى الحياة الإنسانية، فكلاهما يلقى أضواء على هذه القضية تجعل افكارهما نتشابه فيما بينهما ، ويقول :

« ووجود الشر عند اقبال مسألة شائكة فى الفلسفة الالهية فكيف يمكن للنظام الكونى أن يستقر مادام هناك اختلاط بين الخير والشر فى الحياة الانسانية ؟ وبينما يرى ميلتون فى ضوء الدين المسيحى أن الشيطان هو سبب كل الشرور فان اقبالا وان كان قدنسب فى بدء الأمر الشر الى الشيطان — فى حواره مع شاه همدان — الا انه عاد فى التفصيل وعلل وجوده تعليلا مستمدا من نظريته عن الذاتية ، فهو يسأل شاه همدان فى جاويد نامه قائــلا :

— أريد منك مفتاحا لسر الله ، طلب منا الطاعة وخلق الشيطان .
— وهكذا ازدان الخبث والسوء ، وهو يطلب منا الصالح من الأعمال .
— اننى أسألك ما هذه اللعبة السحرية ؟ وما هذه المقامرة مع خصم سيىء ؟

ويجيبه شاه همدان قائلا :

— الانسان الذى يعرف نفسه جيدا ، يخلق المنفعة من الضرر .
— ان اقامة حفل مع الشيطان وبال على الانسان ، بينما الحرب مع الشيطان جمال ومجد للانسان .
— ينبغى على المرء ضرب نفسه على أهرمن (الشيطان) ، انت سيف وهو مشحذ .
— كن أكثر مضاء ، يشتد وقع ضربك ، فان لم تكن كذلك فانت أسود الحظ فى الدارين » .

ومن ثم لا يمكننا فى ضوء هذا الرأى الذى انتهى اليه الأستاذ عبد الواحد أن نقول بأن شاعرنا متأثر بميلتون فى آرائه بشأن مسألة جد خطيرة كقضية الشر والخير . فمصدر الشر عند ميلتون خارجى هو الشيطان ، أما عند اقبال فهو الذات الضعيفة التى تسمح للشيطان باستغلالها .

وفى اعتقادى أن تأثر اقبال بميلتون — فى منظومتنا هذه — تأثر شكلى أكثر منه موضوعى ، فبفضل قراءته العميقة للفردوس المفقود ايقن شاعرنا فى فترة مبكرة من حياته الأدبية أن بالامكان معالجة كل ما يعتمل فى نفسه من قضايا ميتافيزيقية أو مشـــاعر وجدانية عالية على مسرح بعيد عن المسارح المألوفة فيعالج هذه القضايا فى السماء والجنة مثلا ، وأن من الأنسب معالجة هذه المسائل والقضايا والتعبير عن المشاعر العالية للنفس فى جو أعلى وأكثر سموا وارتقاء .

وقد يكون « الفردوس المفقود » هو أول كتاب قرأه اقبال فى هـــذا الباب من الأدب . وأغلب الظن انه لم يكن قد قرأ بعد الكوميديا الالهية او

(١) نشر فى مجلة ماه نو سنة ١٩٥٨ ، وأعادت نفس المجلة نشره فى عددهـــا الممتـــاز عن اقبـــال فى ابريل سنة ١٩٧٠ . أنظر صفحة ٢٠٨ — ٢١٢ .

قرأ فاوست التى لم يطلع عليها ألا بعد سفره الى ألمانيا سنة ١٩٠٧ . فعقد العزم — بعد قراءته للفردوس المفقود فى سنة ١٩٠٣ — على أن ينظم منظومة يحاكى بها ملحمة ميلتون لا يكون مسرحها هذه الأرض وحدها وانما يحلق بخياله فى الآفاق وفيما وراء السماوات حيث تدور الأحداث فى الجحيم والجنة على السواء .

لقد استقر هذا العزم فى وجدان اقبال منذ ذلك الحين (١٩٠٣) فكان من بين الأسس التى بنى عليها تصوره للقالب الفنى لتجربته المعراجية كما عبر عنها فى رسالة الخلود .

فتاثير الفردوس المفقود فى هذه الرسالة ليس تأثيرا مباشرا انما هو تأثير ايحائى اقتصر فحسب على طريقة معالجة الموضوعات الميتافيزيقية ، وقد ظهرت أولى بوادر هذا التأثير فى فترة مبكرة من حياة الشاعر الأدبية ثم نمت وترعرعت بفعل قراءات اقبال لأعمال مماثلة كتبها عمالقة الأدب فى الغرب .

ثانيـــا — فاوست :

كان اقبال يكن احتراما وتقديرا كبيرا للشاعر والحكيم الألمانى « جوته » (١٧٤٩ — ١٨٣٢) ، فقد سماه « شاعر الحياة » فكتب فى مقدمته النثرية لديوانه « بيام مشرق » : « نظمت بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربى لفيلسوف الحياة الألمانى جوته الذى يقول فيه الشاعر الألمانى الاسرائيلى (يعنى جوته) : هذه باقة من العقائد يرسلها المغرب الى المشرق ويتبين من هذا الديوان أن المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع الى الاقتباس من صدر الشرق »(١) .

وقد بدا اقبال فى مقدمته تلك — التى كتبها سنة ١٩٢٣ — وكأنه قرأ كل أعمال هذا الشاعر الألمانى العبقرى ، وأشار الى «فاوست» فى مقطوعة له ببيام مشرق عنوانها « جلال وجوته » وكتب فى الحاشية :

« شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة « فاوست » ، وفى هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الانسان فى اطار من رواية قديمة عن العهد الذى كان بين الدكتور فاوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفن درجة لا يدركها الخيال »(٢) .

وهكذا ظهر بوضوح أن اقبالا قرأ « فاوست » بعمق وتمثلها قبل البدء فى نظم رسالة الخلود بنحو سبع سنوات .

يقول راشد الحيدرى فى مقاله « محمد اقبال والثقافة الألمانية »(٣) :

---

(١) محمد اقبـــال ، بيام مشرق ديباجه ص أ ، وقد ترجمها عزام الى العربية ، أنظر رسالة المشرق ص ١ .

(٢) بيام مشرق ص ٢٤٦ ، وأنظر الترجمة العربية لعزام .

(٣) نشر فى مجلة « فكر وفن » العـدد الثانى ، العام الأول ١٩٦٣ ، ص ٢٤ — ٣٤ .

« وكان تأثير « فاوست » فى روح اقبال أعمق مما كان تاثير أى كتاب من الأدب الأوربى ، وظن أن هذا الكتاب الشهير : يصور المثل الأسمى للهمم الروحية التى تختص بها الملة الألمانية . وأنه : اقرب الى الروحانية من الانجيل ، وغالى فى وصفه حتى أنه قال فيه : لا يكاد يقل عن بدع الله ذاته » .

وفى سنة ١٩٣٠ أتم الدكتور « حسن عابدين » ترجمة القسم الأول من « فاوست » الى اللغة الأردية فى « دهلى » ، وقد طلب اليه اقبال أن يكمل ترجمة القسم الثانى أيضا ، وأعرب عن استعداده لمعاونته فى ذلك(١) .

ولكن ، مع كل هذا الاعجاب الذى كان يشعر به اقبال تجاه هذه الملحمة الألمانية فاننا نلاحظ أنها لم تؤثر على رسالة الخلود الا تأثيرا شكليا أيضا فى موضعين :

فجوته يبدأ « فاوست » بمشهدين هامين هما : « التمهيد السماوى » و « التمهيد فى الأرض » وقد استعار اقبال تنظيمهما ورتب على اثرهما تمهيديه لرسالة الخلود(٢) ، دون أن يتأثر بهما موضوعيا .

كما تأثرت رسالة الخلود بمشهد آخر من « فاوست » هو « غناء الملائكة »(٣) ، ولكن ثمة اختلافا كبيرا فى مضمون هذا الغناء عند كل من اقبال وجوته : فالملائكة فى فاوست يسبحون الله ويحمدونه . اما فى رسالة الخلود فيشيدون بامكانات الانسان الذى دعم ذاته وقواها فاحبه الله .

ويرى راشد الحيدرى أن فى شخصية ابليس كما صوره اقبال تاثيرا قويا لجوته . . . لأن تطور الشخصية الانسانية ليس ممكنا الا بالمجادلة الدائمة مع الشيطان ، وهو فى الحقيقة القوة التى تحث الانسان على الترقي ، ومهما يجادله الرجل فانه يرتفع درجة بعد درجة فى الحياة الروحية وما زال يحاربه الى أن صار ابليس خادما صادقا لا يأمر الا بخير، كما قال رسول الله « اسلم شيطانى » . . . . الخ(٤) .

والواقع أننا اذا أمعنا النظر فى هذا القول فسنجد الحيدرى يقول : ان اقبالا تأثر عن طريق جوته بالنبى محمد (ص) . وهذا راى غير مقبول، فمن المعروف أن تأثر اقبال بالنبى هو تأثر مباشر . وأن جوته نفسه تأثر فى كثير من آرائه بالأدب الاسلامى . فالفكرة اسلامية وليست اجنبية ، ولا يستقيمأن نقول ان اقبالا استقى أفكارا اسلامية من مصادر غريبة .

---

(١) أيضا ،

(٢) أنظر ، فاوست ، نقله عن الألمانية محمد عوض محمد . مطبع مصر سنة ١٩٢٩ ص ١ ، ٧ ، وجاويد نامه ص ٧ ، ١٠ .

(٣) فاوست ، الترجمة العربية ص ٢١ و ٢٢ ، وجاويد نامه ص ١٠ .

(٤) راشد الحيدرى ، محمد اقبال والثقافة الألمانية .

لم يتعد تأثر رسالة الخلود اذن بفاوست القالب الفنى الى المضمون . غير أننا نستطيع أن نحس بتشابه عام بين المنظومتين يكمن فى روح الاقدام والتطور والرقى السارية فيهما . ومن ثم كان يمكننا أن نقول مع المستشرقة «ايفا مايروفتش » : « فى مقدورنا أن نلحق بهامش رسالة الخلود لاقبال كما أن فى مقدورنا أن نلحق بكل مؤلفاته عبارات فاوست :

هاهى ذى الحكمة آخر درس
ويستحق حرية الحيـــــاة
من يجب أن يغزوها كل يــــوم
وهكذا تمر مفعمة بالعمل والمخــاطر
سنة الطفل والشاب والشيـــخ
وهذا التجمهر للرجال اريد أن أشاهده
على أرض حرة ، بين شـــعب حر(١)

ومرد هذا التشابه فى رأيى هو نزعة كل من الشاعرين الكبيرين الى التطور والرقى والتكمل الروحى .

ثالثا — الكوميديا الالهيـــة :

فى سنة ١٩١٩ القى المستشرق الأسبانى « ميجيل آسين بلاثيوس » محاضرة فى الجمعية الملكية الاسبانية ترددت أصداؤها فى العالم كله أعلن فيهـا أن فخـر ايطـاليـا وشـاعرها الـكبير « دانتى اليجييرى » (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) تأثر فى الكوميديا الالهية بالاسلام تأثرا عميقا واسع المدى يتغلغل حتى فى تفاصيل تصوره للجحيم والجنة ، فقد تبين لآسين أن ثمة مشابهات وثيقة بين ما ورد فى بعض الكتب الاسلامية عن معراج النبى (ص) وما فى رسالة الغفران للمعرى وبعض كتب محيى الدين بن عربى وبين ما ورد فى الكوميديا الالهية(٢) .

وما لبث آسين أن نشر كتابا بالاسبانية عن « العالم الاسلامى لما بعد الحياة فى الكوميديا الالهية » ثم وضـــع له ملخصـــا بالاسبانية نقله الى الانجليزية « هارولد سندرلاند » بعنوان « الاسلام والكوميديا الالهية » فى لندن سنة ١٩٢٦(٣) .

وقد اثار هذا الرأى ضجة كبرى فى الأوساط العلمية ، وأيده بعض الباحثين وعارضه آخرون ، وبدأت الدراسات المقارنة حول الكوميديا الالهية

---

(١) Eva Meyrovitch, Introduction, le livre de l'éternité pp. 8 — 14.

(٢) انظر حسن عثمان ، مقدمته للكوميديا الالهية (الجحيم) ص ٥٩ ومـــا بعدهـــا ، عبد الرحمن بدوى ، دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى ، ص ٦٣ ومـــا بعدها ، وترى عائشـــة عبـــد الرحمن فى « الغفران » ص ٣١٨ وما بعدها ، أن دانتى لم يتأثر على وجـــه الخصوص بأبى العلاء ، والى نفس الرأى يذهب غنيمى هلال ، أنظر الأدب المقارن ص ٣٢٠ .

(٣) Islam and the Divine Comedy, London 1926.

تنشط حتى أيد أحد كبار المستشرقين الايطاليين وهو « تشيرولى » — وقد كان الايطاليون يشعرون بعداء شديد لنظرية آسين — أيد رأى المستشرق الاسبانى فى كتاب أصدره سنة ١٩٤٩ ، وتبعه آخرون فى ذلك(١) .

حقا ، لقد أثار رأى آسين عاصفة من الخلاف لا بين المتخصصين فى أدب « دانتى » وحدهم وانما جذب اهتمام المثقفين من جديد نحو دراسة الكوميديا الالهية ، وازدهرت حركة الدراسات الدانتية ، يقول « دوق ألبا » فى مقدمة الترجمة الانجليزية للكتاب : « منذ ظهر الكتاب فى الاسبانية، ثارت عاصفة من العجب والدهشة فى الرأى العام الادبى ، هز نقاد تاريخ الأدب ، ولووزنا التأييد الذى لقيته نظرية آسين مع المعارضة التى ووجهت بها كانت النتيجة فى صالحه ، ذلك لأنا اذا تجاوزنا عن سيل الاتهامات والانتقادات المعارضة التى تدفقت بخاصة من القومية الايطالية فان كثرة من النقاد من مختلف الشعوب سواء الرومان أو العرب ، ومن حيادهم فوق الشبهات ، تقف الى جانب آسين بلاسيوس(٢) » .

قد وصل دوى هذه الضجة التى أثارها رأى آسين الى أسماع اقبال — بلا ريب ، فشرع فى قراءة الكوميديا عن طريق الترجمة الانجليزية (٣) . وحرص أثناء زيارته لأسبانيا فى أواخر سنة ١٩٣١ — وكان ما زال معنيا بانجاز منظومته موضوع دراستنا — حرص على لقاء آسين بلا ثيوس .

ويبدو أن شاعرنا قد استقر رأيه منذ أن بدأ يفكر فى نظم رحلته المعراجية ، على الافادة من الكوميديا الالهية ، فقد كان اقبال يريد لعمله هذا أن يذيع ويشتهر بين الناس ، وكان الجو النفسى لدى المثقفين مهيأ الى حدبعيد ومستعدا لتلقى هذا العمل اذا حاكى به دانتى ، فعقد العزم على اقتناص هذه الفرصة لكى يقول كلمته فى نغمة محببة الى الناس معروفة لديهم حتى تصغى اليها آذانهم .

ويخيل الى أن اقبالا عبر عن هذا المعنى نفسه فى بيت من أبيات رسالة الخلود حين قال :

— ما أن تغير مزاج عصرى ، حتى جاد طبعى بثورة جديدة (٤) .

فلقد لاحظ اقبال أن مزاج الناس فى عصره قد تغير ، وأن عليه أن يغير من أسلوبه فى التعبير عن المعانى الفياضة التى يريد ابلاغها اليهم لكى

---

(١) انظر حسن عثمان ، مقدمته للكوميديا الالهية (الجحيم) ص ٦٠ ، وعبد الحليم محمود ، الفليسوف المسلم رينيه جينو أو عبد الواحد يحيى ص ٥٨ وما بعدها . وانظر أيضا عائشة عبد الرحمن ، الغفران ص ٣١٩ .

(٢) انظر هارولد سندرلاند ، المقدمة ، الاسلام والكوميديا الالهية ، وعائشة عبد الرحمن ، الغفران ص ٣١٩

(٣) Bousani, Il poema Celesta, p. 12.

(٤) جاويد نامه ص ٢٣٧.

يتقبلوا عليها ولا يعرضوا عنها ، فما كان منه الا أن نظر حوله فوجد أن أنسب أساليب التعبير وأكثرها اثارة لاهتمام الناس هو أسلوب الكوميديا الالهية .

وربما لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذى دفع اقبالا الى الافادة من الملحمة الايطالية ، على نحو ما ، فلعله كان ينظر الى بعيد ، ينظر الى أن تحدث رسالة الخلود فى أمته الاسلامية نفس الأثر الذى أحدثته الكوميديا الالهية فى الأمة الايطالية حيث بعثتها بعثا جديدا وطبعت كل الثقافةالأوربية المسيحية فى العصور الوسطى بطابعها . وربما كان اقبال يرنو — بفضل رسالة الخلود — الى أن يصبح بالنسبة للأمة الاسلامية مثلما أصبح دانتى بفضل كوميدياه « المظهر العبقرى الكامل لتطور القوى الحيوية التى دبت فى الأمة الايطالية وخلقتها خلقا جديدا(١) » على حد تعبير أحد كبار النقاد الأوروبيين .

هذه هى — فى رأيى — الدوافع التى جعلت شاعرنا يحاول الافادة من ملحمة دانتى ، بل ربما كانت هى الدوافع نفسها التى جعلته يشير على تلميذه « جود هرى محمد حسين » أن يخصص جانبا كبيرا من التعريف الذى كتبه لرسالة الخلود — بعد نشرها بفترة وجيزة — لتوضيح العلاقة بينها وبين الكوميديا الالهية(٢) ، فيثير بذلك اهتمام المثقفين حين يرون شاعر الاسلام وقد تأثر بدانتى فى ملحمته التى استقاها من مصادر اسلامية .

وفى ضوء ما انتهت اليه الأبحاث الحديثة فى الكوميديا الالهية من أنها تستمد جانبا كبيرا من مادتها من مصادر اسلامية ، لا يمكننا بالطبع أن نتصور أن اقبالا متأثر من الناحية الموضوعية بالكوميديا وانما اقتصر تأثره فحسب على القالب الفنى ، اللهم الا أن نقول بأن عمل دانتى زاد شاعرنا عناية بتلك العناصر الاسلامية التى استخدمهادانتى ومحاولة تمثلها والنظر اليها فى ضوء جديد .

وفى مقدورنا أن نلخص آراءنا هذه فى قضية دوافع اقبال فى محاكاة الكوميديا الالهية فى ثلاث نقاط :

١ — أن اقبالا أراد الافادة من الضجة التى أحدثتها نظرية « آسين » حول الكوميديا الالهية منذ سنة ١٩١٩ فى لفت الأنظار الى منظومته « رسالة الخلود » .

٢ — أنه أراد لمنظومته هذه أن تحدث فى العالم الاسلامى نفس الأثر الذى أحدثته الكوميديا من بعث للنهضة الأوربية .

٣ — أنه قصد الافادة بعبقرية دانتى الفنية فى تصوير تجربته الشعورية.

ويجدر بنا الآن أن ننتقل الى تحديد بعض نقاط الالتقاء والاختلاف بين الأثرين الخالدين ، وسنلاحظ بصفة عامة أن اقبالا قد أفاد من

---

(١) أنظر مقدمة الترجمة العربية للكوميديا الالهية ، بقلم الأستاذ طه فوزى . وعائشة عبد الرحمن ، الغفران ، ص ٣١٩

(٢) جودهرى محمد حسين ، جاويد نامه كا تعارف ، شرح جاويد نامه ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ — ٣٢ .

الكوميديا الالهية فى القالب الفنى لمنظومته وعديد من مواقفها أكثر من افادته من المصدرين اللذين سبق لنا الحديث عنهما وهما « الفردوس المفقود » و « فاوست » .

أ — نقاط الاتفاق :

— بدأ اقبال منظومته بالحديث عن الغربة الانسانية والتعبير عما يشعر به من وحدة وبدأ دانتى ملحمته بوصف الغابة المظلمة التى وجد نفسه بها فى منتصف حياته ، وهى ترمز فى رأيه الى احساس الوحدة والغربة(١) .

— بدأ دانتى رحلته من قرب جبل حيث التقى بشبح فرجيل شاعر اللاتين ، كذلك بدت روح الرومى تظهر لاقبال وتشرح أسرار المعراج من قرب جبل أيضا حيث ينطلق اقبال من هناك .

— كان الرومى لاقبال مثلما كان « فرجيل » لدانتى مرشدا فى رحلته السماوية كلها حتى ما قبل مقام المشاهدة ، وأدى نفس الدور الذى أداه فرجيل فى مرحلة (الجحيم) وبداية المطهر ، أما بعد ذلك فقد تولت « بياتريش » مهمة ارشاد دانتى .

— فعل اقبال ما فعله دانتى ، فوجه أثناء مروره بالأفلاك وما وراء الأفلاك أسئلة الى فلاسفة وصوفية ومصلحين وشعراء سابقين عن الحقائق والمشكلات المعاصرة(٢) .

— تظهر الملائكة فى بعض المواقف من الكوميديا الالهية(٣) ، كما تظهر فى رسالة الخلود للكشف عن سر خفى(٤) .

— يطلب بعض من يقابلهم دانتى أن يحمل رسائل منهم الى أهل الأرض(٥) . كذلك نجد السيد جمال الدين الأفغانى فى رسالة الخلود يطلب الى اقبال أن يبلغ الأمة الروسية رسالة عنه ، ولكن شتان بين مضمون الرسائل فى كل من الملحمتين .

ب — من نقاط الاختلاف :

— مر دانتى فى رحلته بثلاث مراحل : الجحيم والمطهر والجنة . وفى الجنة يطلب المشاهدة فتتحقق له . أما اقبال فقد اتبع الأسلوب الاسلامى فى المرحلة الأولى من رحلته فعرج أولا الى الأفلاك أو

---

(١) الكوميديا الالهية (الجحيم) ، ترجمة حسن عثمان ، ص ٨١ . وانظر دكتر عترت حسين زبيرى ، اقبال أور مغربى مفكرين ، ماه نو ، ابريل ١٩٧١ ، ص ٥٥ — ٦٠ .

(٢) جاويدنامه ، فى مواضع عديدة ، وانظر الكوميديا الالهية (الجحيم) ، مثلا ، ص ٣٥٠ .

(٣) أنظر الكوميديا ، مثلا المطهر ص ٣٨٢ .

(٤) أنظر جاويدنامه مثلا ص ٤١ .

(٥) الكوميديا (الجحيم) ص ١٤٥ .

السماوات ثم انتقل الى الجنة وتجاوزها للوصول الي الحضرة الالهية . ولم يمر اقبال بالجحيم وانما مر باثنين من الخونة يعذبون فى فلك زحل .

— تتميز الكوميديا الالهية بالتعقيد فى بعض المواضع ، ففيها الكثير من الألغاز والرموز التى لم تحل الى الآن(١) . أما رسالة الخلود فهى خلو من الألغاز وان كانت مليئة بالرموز التى لا يصعب فهمها . ولكنها مع وضوحها تتميز بدقة معانيها ووفرتها .

— وجه دانتى كل اهتمامه للعناية بالتنميق اللفظى ، كما يرى بعض الباحثين(٢) ، أما اقبال فقد عمد مباشرة الى المعنى ، ومع ذلك فقد جاءت الفاظه تفيض جمالا وروعة .

— كان اخلاص دانتى لعقيدته المسيحية مسيطرا عليه طوال الملحمة، فهاجم الاسلام(٣) مما صبغ بعض المواضع فى الكوميديا بالتعصب الدينى . على العكس تماما من اقبال الذى اتسمت نظرته بالانسانية ، يقول :

— ان التفوه بالكلمة السوء خطأ فالكافر والمؤمن جميعا خلق اللـه

— خذ الكفر والدين فى عرض القلب لو هرب القلب من القلب ، آه للقلب(٤) .

كانت الفكرة الدينية متغلبة على دانتى فى رحلته كلها حتى وهو ماثل فى الحضرة الالهية ، فقد سأل ربه أن يبين له أسرار التثليث ، فلم يتلق من الله ردا(٥) . أما اقبال فكان الطابع الانسانى هو الغالب عليه ، فقد توجه الى الله تعالى فى « الحضور » قائلا :

— من أنا ؟ من أنت ؟ أين العالم ؟ لم البعد بيننا وبينك ؟

— قل لى لماذا أنا فى قيد القدر ، أنت لا تموت لم أموت أنا ؟

فيأتيه الجواب :

— لقد كنت فى العالم ذى الأبعاد ، كل من يختزن فيه يموت فيه .

— اذا أردت الحياة تقدم بذاتيتك ، أغرق عالم الأبعاد فى ذاتك وقلما يتعرض دانتى للحياة الانسانية ومشكلاتها ، اذ انه لم يتجاوز

---

(١) حافظ عباد الله فاروقى ، جاويدنامه ، اقبال ريفيو ، يوليو ١٩٦٣ ، ص ٦٨ — ٨٧ .

(٢) يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ص ٨٠

(٣) جاويدنامه ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٤) أنظر غنيمى هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٥٥ .

(٥) يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ، ص ٨٣ .

كثيرا حدود المسائل الكنسية(١) . أما اقبال فقد وجه معظم عنايته الى الحياة ومشكلاتها ، وتتردد هذه الأسئلة على سبيل المثال فى المنظومة بأسرها :

ما الحياة ؟ ما العشق ؟ ما الصلة بين العقل والعشق ؟ ما الدين ؟ ما الحق ؟ ما القدر ؟ ما المشاهدة ؟ ما معنى عبده (الحقيقة المحمدية) ؟ ما الجسد ؟ ما الصلة بين الروح والجسد ؟ . . . وما الى ذلك من تساؤلات يثيرها اقبال ويجيب عليها بأساليب مختلفة قلما نجد لها نظيرا فى ملحمة دانتى .

---

(١) جشتى ، شرح جاويد نامه ، ص ٨٤

رسالة الخلود

ترجمة وتحليل

البابُ الأول

ما قبــل العروج

الفصل الأول

مناجـــاة

يبدأ اقبال الرسالة بمناجاة تعد فى الواقع دعاء الى الخالق وليست مجرد مدح أو تمجيد ، كما هو الحال عند أغلب شعراء المسلمين وأدبائهم. هى دعاء ينطوى فى أوله على احساس عميق بغـربة الانسان فى هـذا العالم ، فهو يبحث عن خل وفى بين الناس فلا يجد ، وينظر إلى نفسـه فيجد نفسه مقيدة بأغلال الزمان والمكان . فيتجه بالدعاء الى الله أن يعتقه من أسر الزمان والمكان ، ويعتبر أن هذا الانعتاق حق من حقوق الانسان الذى سخر الله له الكون . انه هنا يمهد لرحلته السماوية التى لا يمكنه القيام بها دون التخلص من قيد الزمان والمكان ، لذا يدعو الله أن يحرره من أسر هذين القيدين ليمضى محلقا لا يعترضه معترض ، وهو واثق أن الله سيجيب دعاءه .

١ ــ هل نحن أسرى لهذا العالم :

يقول اقبال « الانسان فى الدنيا ذات الألوان السبعة ، مشتعل كل حين بالنواح كالناى ، التوق الى الخل الوفى يحرقه داخليا ، والأنين يعلمه هدوء القلب » .

« لكن كيف يمكن القول بأن هذا العالم المكون من المـاء والطين يمتلك قلبا » ويضم انسانا ذا قلب يؤنس وحدتى ويواسى غربتى ؟ !

أما من شىء يرد على سؤالى . . اننى اتطلع الى « البحر والسهل والجبل والحشائش . . . كلها صـامتة صماء ، والى السماء ، والى الشمس ، والى القمر . . . كلها صامتة صماء » .

ولكن ما بالى منها ردا ، أما كان يجدر بى أن الحظ أن كل نجم من هذه النجوم التى تعج بها السماء متميز عن غيره غريب عمن سواه ، « فرغم أن النجوم تحتشد فى السماء نفسها ، الا أن كل نجم منفصل عن الآخـر ، كل نجم بائس مثلنا شريد فى الفضاء اللازوردى الشاسع » ولكن هـل تستطيع الانسانية التغلب على هذه الغربة ، ان الطريق طويل ويحتاج الى الكثير من الزاد غير أن « القافلة لم تتزود بزاد لتقوى على السفر ... فالأفلاك لا حد لها والليالى طويلة بلا نهاية » .

يا الهى ! ! « هل العـالم صيد ونحن الصيادون ، أم أننـا أسرى منسيون تماما » .

وا أسفاه ، « لقد اشتد نواحي وانهمرت من عيني الدموع ولكن لم يرتفع صوت يجيب على ، اين يمكن لابن آدم أن يجد أنيسا وخلا وفيا ؟ ».

وسوف نرى أن غربة الانسان هذه سوف تتخذ طوال المنظومة مسارا مغايرا لمسارها عند الشعراء العرب المعاصرين ، فسوف يقتحم اقبال (الانسان) الآفاق ويعرج فيها عروج سن الخياط في الحرير ، بسرعة وبلا عقبات ، وسيصل في النهاية الى أرفع مقام فيمثل امام الحى القيوم ، وينال الخلود .

فشتان بين غربة الانسان الدافعة الى الحركة والرقى بل والخلود ، وبين غربة بعض الشعراء العرب المعاصرين ، غربة الانطواء ، والانعزال ، بل والموت(١) .

٢ — يا الهى . . . اعتقنى من أسر الزمان والمكان :

يقول اقبال : « رأيت يوم الدنيا ذات الأبعاد الأربعة ، هو يوم يسطع نوره على القصر والدرب معا » ، لقد ألفت هذا اليوم الذى ينير الحضر والبادية . . انه يوم يعتمد على حركة الكوكب الأرضي ودورانه ، « فقد أتى الى الوجود من طيران الأرض ، وهو ليس بشىء الا ان يقال : كان ثم مضى » .

لكننى أريد « يوما » آخر ، أريد ان احيا يوما لا شأن له بدوران الأرض ولا بحركة الأفلاك ، يوما ذا طابع جديد .

« ما أروع ذلك اليوم الذى ليس من الأيام ، ليس لصبحه ظهر ولا ليل » . ففى مقدورنا أن نطلق على هذا اليوم لفظ « يوم » لكنه لا يمت بصلة الى التسلسل الزمانى المألوف ، ولا يرتبط وجوده بدوران الأرض لذا فليس له صباح ولا مساء . . انه زمان ولكنه ليس تسلسلا فى الزمان .

« لو أضاءت الروح بنوره لأصبح الصوت مرئيا كاللون » ولطرأ على حواس الانسان انقلاب عظيم بحيث يمكنه أن يرى الصوت ماثلا كما يرى اللون .

على أن نوبة هذا اليوم ليس لها زوال ، فليس فيه صفة التغير والانصرام ، وعندما يحيا الانسان هذا اليوم الذى لا ينقطع ، يرى الحقائق الخفية عن أنظار الآخرين ويعلو على مرور الأيام فيكون الماضى والمستقبل شيئا واحدا بالنسبة له ويعيش فى « الحال » ويكتسب من الله صفة الخلود .

---

(١) قارن مثلا قصيدة « لا أحد » من ديوان « لم يبق الا الاعتراف » لأحمد عبد المعطى حجازى ، وقصيدة «مذكرات الصوفى بشر الحافى» من ديوان أحلام الفارس القديم لصلاح عبد الصبور . ولا غرو فالشاعر العربى متأثر فى احساسه بغربته هذه (كما يلاحظ الدكتور عز الدين اسماعيل فى كتابه الشعر العربى المعاصر ص ٣٥٦) بأصول غربية وافدة .

ولعلنا نلاحظ أن اقبالا يريد بهذا أن يتخلص من أسر « الزمـــان » ، وأن يتحرر من قيد « المكان » .

وقد تحدث اقبال فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » عن هذا « اليوم » باعتباره « الزمان الالهى » فقال : «يرى» (العراقى) الشاعر الصوفى أن « الزمان الالهى » هو زمان مجرد تجردا تاما من صفة المرور والانصرام ، ومن ثم فهو لا يقبل التجزؤ والتوالى والتغير ، وهو فوق القدم، لا بداية له ولا نهـــاية(١) .

يدعو اقبال الله تعالى قائلا : يا الهى ! امنحنى ذلك اليوم ولو ليوم واحد ، وجنبنى هذا اليـــوم الذى لا حرقة فيه .

وها نحن نرى اقبالا يضع هنا حجر الأساس فى تحديد مفهوم «المعراج» الذى يعنى به الانعتاق عن الزمان والصعود الى الديمومة والخلود . فأهم أسباب الغربة التى يعانيها الانسان — عند اقبال — هى وجوده فى الزمان والمكان بحيث أصبح لا يحس الا اشياء محدودة عن طريق الحواس القاصرة المرتبطة بهذا العالم المـــادى . . ولن يتخلص الانسان من غربته الا اذا حطم طلسم الزمان والمكان وتحكم فيهما .

ينتقل بعد ذلك الى تحديد الأصول القرآنية لفكرة العروج .

٣ — فى من نزلت آيات التسخير ؟

ولكن هل فى الانسان حقا ذلك الاستعداد الذى يمكنه من التغلب على الزمان والمكان ؟ لقد لجأ اقبال الى القرآن ثم عاد ليتوجه الى الله تعالى قائلا : يا الهى . . . اذا كنت قد دعوتك أن تجعل لى نصيبا فى حيـــاة خالية من قيود الزمان والمكان ، فان دعائى هذا لم يكن تعسفا .

فلقد قلت ، وقولك الحق : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه »(٢) ، « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهـــار »(٣) .

. . . ففى شأن من نزلت آيات التسخير ؟ ومن اجل من يتحير هذا الفلك الأزرق(٤) ؟ « من كان عالمـــا بسر : علم السماء(٥) ؟ ؟ من كان ثملا

---

(١) انظر محمد اقبال : « تجديد التفكير الدينى فى الاســـلام » الترجمة العربية ص ٨٩ — ٩٠ وقد اجرينا بعض التعديل على الفقرة لزيادة التوضيح بعد الرجوع الى الترجمة الفارسية ص ٩٠ .

(٢) سورة الجاثية : ١٣ .

(٣) سورة ابراهيم : ٣٣ .

(٤) والحيرة مصطلح صوفى معناه اكبار الشىء واستعظامه .

(٥) اشارة الى قوله تعالى : « وعلم آدم اسماء كلها » البقرة : ٣١

بذاك الساقى وتلك الكأس ؟ من ذا الذى شرب شراب محبتك ؟ من ذا الذى اخترته من بين المخلوقات جميعا وجعلته اشرف مخلوقاتك(١) ؟ من ذا الذى جعلته محرما للسر الدفين ؟ يا من لك سهم اخترقنا من الصدور ، من قال « ادعونى »(٢) ولمن قالها ؟

يا الهى . . . « ان وجهك هو ايمانى أنا ، قرآنى انا » ، فوجهك هو هدفى الأسمى ، وهو مطمحى الأعلى ، هو رى روحى وسكن نفسى . . ولكن ، هل تضن على روحى بالتجلى فتحرمنى من هدفى الأسمى(٣) ، أن تجليك على ان يضيرك بشىء ، « فمتاع الشمس لا ينقص بسبب انبعاث مئات الأشعة منها » .

٤ ــ العقل قيد للعصر الحاضر :

يقول اقبال فى كتابه تجديد التفكير الدينى فى الاسلام : « ان الانسان العصرى ، وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه الى الحياة الروحانية الكاملة ، اى الى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح اثرته الجارفة ، وحبه للمال حبا طاغيا يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليه منه الا تعب الحياة ، وقد استغرق فى مظهر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده »(٤) .

وشبيه بهذا نقد اقبال للعصر الحاضر فى « رسالة الخلود » فهو يقول « العقل قيد للعصر الحاضر ، أين لى من روح مثل التى أحملها بين جوانحى »، فالعصر الحديث مقيد بقيد العقل ، لأن الناس فيه يتبعون العقل ، الا يعرفون أن رقى الانسان روحيا وخلقيا انما يتوقف على اتباع العشق ... ؟ اننى ابحث عن انسان له مثل روحى الحائرة التى لا يقر لها قرار . . . أين أجد هذا الانسان ؟

---

(١) قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، سورة الاسراء : ٧٠ .

(٢) قال تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » (غافر : ٦٠) وانظر فكرة اقبال فى معنى الاستجابة فى تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ص ٢٧ من الترجمة العربية .

(٣) ووجه الله هو الهدف الأسمى للصوفية ، وستتضح لنا هذه الفكرة بجلاء فى فلك المشترى .

(٤) انظر : محمد اقبال : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ، الترجمة العربية ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

ولكننى قد اكون مغاليا فى البحث عن هذا الانسان ذى الروح الحائرة المتوترة التى تتجلى فيها صفات العشق ، ان مثل هذا الانسان قلما يوجد اذ « يجب لأزمنة عديدة أن يتلوى الوجود على نفسه حتى تأتى الى الوجود روح لا يقر لها قرار » ، فالوجود يبذل طاقاته الخفية ويطوى منازل الرقى منزلا فى اثر منزل حتى يظهر عاشق صادق من بنى الانسان .

واقبال يشير هنا الى صعوبة التطور وعسر التكمل الروحى ، وهى الفكرة التى أشار اليها فى « أسرار خودى »(١) .

يقول : « يا الهى ...لا تغضب على ان قلت أنهذه الأرض التى جعلتنا نهبط اليها أرض ملح يكاد يكون من المستحيل أن تلائم بذرة العشق ، وانها لغنيمة لا مزيد عليها ان نبت من هذا الطين العقيم قلب عاشق صادق »(٢) .

يا الهى انك تعالى شأنك — مصدر النور « أنت قمر ، فاعبر من خلال مهجعى واطل لحظة واحدة على ظلمة روحى » ... فأنت القادر على أن تنير حياتى .

« لم تجفل الشعلة من الهشيم ، لم يخشى البرق أن ينطلق » !!!

٥ — قل ... انى قريب :

يتحول اقبال هنا — بعد أن أثبت امكانية العروج بأدلة نصية وعقلية — الى مقام آخر ، وهو ممارســـة هذه الامكانية بالفعـــل ، وذلك باستثارة نوازع الشوق الفطرية فى روحه ودلائل الاستجابة لدى الخالق تعالى(٣).. فاتجه الى الله فى دعاء مؤثر طموح وواثق بالله الذى وعد بالاستجابة فقال « انى قريب » .

يقول : « لقد عشت ردحا من الزمن فى فراقى الأليم ، وكفانى ما عشته من فراق .. اننى ألجأ اليك كى تكشف لى عما يكمن وراء هـــذه السماء الزرقاء .

« افتح الأبواب المغلقة فى وجهى ، اجعل التراب رفيق سر للقدسيين ، واشعل نارا فى صدرى ، ابق على العود واحرق الهشيم . وأجج النـــار فى كأسى ، وامزج بهذا الاغفال نظرة تكشف السبيل أمامى . ثم ضع عودى على النار وانثر دخانى فى العالم كله » .

---

(١) انظر : محمد اقبال : اسرار خودى ص ١٣ ، والترجمة العربية لعزام ص ١٣ — ١٤ ، ونجد هذه الفكرة أيضا عند الشاعر الفارسى سنائى الغزنوى ، انظر ديوان سنائى ص ٣٧٥ ، طبع طهران .

(٢) وقد نتوهم أن اقبـــالا فى شكواه من ملوحـــة الأرض وجدبها يكاد يتعارض مع نزعته الداعية الى الضرب فى الأرض والمجاهدة من خلال هذا العالم ، ولكن ينبغى لنا أن نذكر أن اقبالا يريد أن يلفتنـــا الى الأصل الروحى للانسان ، وانه لا ينتمى فقط الى هذا التراب العقيم الفانى بل ينتمى الى عالم علوى ، ولديه دائما القدرة على الاستمداد من هذا المصدر،انما يريد اقبال هنا أن يركز على هذا الاحساس بندرة النوع العاشق من بنى الانسان .

(٣) انظر فكرة الاستجابة عند اقبال فى كتابة تجديد التفكير الدينى ص٢٧ (الترجمة العربية) .

« اننا نبحث عنك يا الهى ، ولكنك بعيد عن الأنظار ... ماذا قلت ، انني مخطىء بلا ريب ، فانت معنا ، انما نحن مصابون بالعمى(١) .

« فاما أن تطرح — يا رب — حجاب الأسرار هذا جانبا ، واما أن تأخذ هذه الروح عديمة البصر . يا رب ! لقد يئس نخيل فكرى من الورق والثمر ، فحطمه بالمعول ان لم ترسل ريح السحر » .

يريد اقبال ان يشكو بذلك الى الله عجزه عن الحياة دون نار العشق. ثم هو ينتقل بعد ذلك الى الموازنة بين «العلم» و «العشق» . وهذه الموازنة هى موضوع اقبال المفضل الذى نصادفه كلما مضينا شوطا فى « رسالة الخلود » ، كما نصادفه أيضا فى منظوماته الأخرى(٢) . ويستعمل اقبال كلمة « العلم » بمعنى المعرفة القائمة على الحواس ، يقول اقبال :

« أعطيتنى العقل ، فاعطنى الجنون (العشق) أيضا ، وارنى الطريق الى الجذب الداخلى ، ان العلم يتخذ لنفسه مكانا فى الذهن ، أما العشق فيتخذ لنفسه عشا فى (قلب لا ينام) » أى قلب متيقظ على الدوام . وهو قلب العاشق الذى يحتفظ لنفسه بحالة التوتر الدائم سعيا وراء الهدف الأسمى وعملا بقوله تعالى : « واذكروا الله ذكرا كثيرا » ، وقلب المؤمن بطبيعة الحال أشد اتساعا واحاطة من الذهن بل ومن العالم اجمع ، كما يشير الحديث القدسى المشهور:« ماوسعتنى أرضى ولاسمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

« وحين لا يصبح للمعرفة نصيب من العشق ، لا تكون سوى مسرح للأفكار ، هذا المسرح هو سحر السامرى(٣) فالعلم بدون روح القدس مجرد سحر » ، وخداع نظر لا طائل للانسان من ورائه ، بل ان فيه الضرر والشر المستطير .

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : « وهو معكم اينما كنتم » (سورة الحديد :٤)، « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (سورة ق : ١٦) .

(٢) انظر مثلا : اسرار خودى ص ٧٧ ، بيام مشرق ص ١١٩ و ١٢٠ و١٧٥ وضرب كليم ص ١٧ بس جه بايدكرد ص ٤ ، وانظر الفصل القيم الذى عقده الأستاذ سيدين عن دور العقل والعشق فى كتابه Iqbal's Educational Philosophy pp. 88 — 89.

(٣) السامرى هو الذى أضل اليهود بالسحر فى غيبة موسى ،قال تعالى : « فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » (سورة طه : ٨٥) ويرمز اقبال بالسامرى الى القوة المدمرة والضلالة التى لا نصيب لها من العشق ولا المحبة الالهية . وشبيه بهذا قول اقبال فى بال جبريل ص ٤ :

العشق هو المرشد الأول للعقل والقلب والنظر ، فاذا لم يكن ثمة عشق فلا تكون الشريعة أو الدين سوى موثن للأخيلة العقيمة .

يقول اقبال : « بدون تجل لم يجد عالم أبدا الطريق ، انما لقى مصرعه بواسطة تخيلاته » فالانسان اذا لم ينر بالعشق حياته ويسلم اليه القياد ، فان العقل من شأنه أن يزج به فى مهاوى الحيرة ومزالق الضلال ويبتليه بالتعارض فى أفكاره والتضاد بينها ، ثم لا يفوز فى النهاية بمكانته باعتباره خليفة لله فى أرضه .

« حقا ان الحياة دون تجل عذاب والم ... العقل هجر ، والدين جبر » فاذا خلت حياة الانسان من الأمل فى مشاهدة الذات الالهية فانها تتحول دون ريب الى مشقة وعناء ، وتحرم روح الانسان من الطمأنينة والسكينة ، فيصبح العقل هجرا أى بعدا عن الهدف المنشود ، ويصبح الدين جبرا ، أى أن المسلم يعد نفسه مجبرا اذا خلت حياته من العشق الالهى ، فالمتبع للعقل يميل نحو الجبر ، لأن الأدلة العقلية تقول بأن الانســان مجبر ، أما العاشق فانه يعتبر نفسه خليفة الله ويجهد فى أن يكتسب الصــفات الالهية(١) ، ومن هذه الصفات صفة الاختيار .

« هذه الدنيا دنيا الجبل والسهل والبحر والبر ، اننا نريد « النظر » وهى تقول الخبر » .

لقد كانت هذه الموازنة بين العقل والعشق بمثابة جملة اعتراضية عمد اليها اقبال بعد أن دعا الله قائلا :

يا الهى ، لقد وهبتنى العقل (وهو نعمة كبرى لا جدال فى هذا) لكن اضف اليه « الجنون »(١) أيضا ، أى اضف اليه «الجذبة الباطنية» والشوق الداخلى الذى يستقر فى نفس الانسان فيصوغه عاشقا صادقا .

ويعود اقبال ، بعد الموازنة بين العلم والعشق ، فيدعو الله قائلا :

« يا رب امنح قلبى الهائم مستقرا ورد للقمر هذه القطعة من القمر » ، فأنا قطعة من القمر فى نفسى قبس من ذلك النور الأبدى فأعدنى يا رب الى موطنى الأصلى ... « ورغم أنى لا ينبت من تربتى سوى الكلام » فان لغة

---

(١) أنظر مقدمة اقبال على أسرار خودى ، ترجمها عزام فى كتابه محمد اقبال ، ص ٥٦

(٢) واقبال يستعمل هنا كلمة « الجنون » بمعنى « العشــق الالهى » الذى لا يبالى بالحواس ، وهو مرحلة من مراحل المعرفة الالهية تلك المعرفة التى تبدأ بالعلم القائم على الحواس ، ولكن العاشق لا يلبث أن ينتقل منه الى مرتبة أخرى من مراتب العشق أكثر سموا واسراعا فى طريق « علم الحق » وقد استعمل اقبــال لفظ الجنون بالمعنى الأخير هذا فى منظومته « بس جــه بايدكرد » ، بينما استعمله فى ديوانه « ضرب كليم » بمعنى الحماس للعمل والاقدام فى غير مبالاة (انظر الترجمة العربية لديوان ضرب الكليم ص ٣٢) ، والجنــون كمصطلح صوفى له أصل من الحديث النبوى ، اذ يقول النبى (ص) فيما يرويه ابن قيم الجوزية فى « الوبل الصيب من الكلم الطيب » « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال مجنون » .

الهجر لا تصل الى نهاية أبداً » لقد طال هجرى وطال فراقى ... وليس لى من حيلة الا الدعاء ... الهى ، « اننى الغيت نفسى غريبا تحت السماء، فأنا بعيد عنك وليس لى من يؤنس غربتى من بنى الانسان ... فقل لى يارب : « إِنّى قَرِيبٌ » .

يقـول : « قـل انى قريب .. يا الهى ، حتى تغرب — مثلما تغرب الشمس والقمر — هذه الجهات وهذا الشمال وهذا الجنوب » ... فلو أنك يسرت لى القرب منك فلن يكون ثمة وجود للزمان والمكان .. سأتحرر يارب : « انى قريب » .

من أسر هذا العالم ، وسأتخلص من قيود التغير والجاذبية الأرضية ، قيد التسلل الزمانى ، « وسأعبر من طلسم الأمس والغد وانطلق فى تحليقى متجاوزا القمر والشمس والثريا » .

٦ — انما نظمت هذا الكتاب من أجل الشباب :

« يا الهى .. انت الضياء الخالد (أنت النور الأبدى) ، بينما نحن كالشرر ، ليس لنا الا لحظة أو اثنتان ، وذلك أيضا عارية » فاننا نتهاوى بعدهما فى العدم ، اذ قدر على كل انسان أن يذوق الموت .

« أنت ، يا من لا تعرف صراع الموت والحياة .. من هو هذا العبد الذى يحسد الله » ... ان بعض عبـادك يحسدك على الخـلود ، انه يبغى التحلى بصفة الخـلود التى هى من أجل صفاتك ... انه عبـد يغزو الآفـاق لا يقر له قرار ، لا يستسيغ البعد عنك (فهو عاشق) ولا الوصال فهو لا يبغى انتهاء عشقه بل يريد أن يعيش فى حالة من التوتر الدائم بحثا عنك ...

ماذا لو جعلتنى يا الهى مثل هذا العبد ... أنا فان فاجعلنى خالدا ، حررنى من ترابيتى واجعلنى سماويا .

أعطنى الأحكام فى قولى وفعلى ... الطرق واضحة فامنحنى القدرة على السير » .

وهنا يتجه اقبال الى الله داعيا لقراء منظومته هذه ، فيقول :

يالهى .. قرب مفاهيم هذا الكتاب لمن يقراه فأنا اعرف مدى صعوبته « ان ما قلت فيه انما هو من عالم آخر ، هـذا الكتاب عن سماء أخرى » فأنا أتحدث فيه عن عالم آخر معنوى لا صلة له بهذا العـالم الحسى ، ولا عهد للناس به ، وعن سماوات آخر غير السماء الدنيا .

« أنا بحر وعدم الاضطراب منى خطأ ، أنى لى بمن يستطيع ان يغوص فى أعماقى ؟ لقد هجع عالم على ساحلى ، فلم يشاهد (من موضعه على الشاطىء) سوى تدافع موجى » ، فمن لى بغواص يغوص فى اعمـاقى

ويستخرج الدرر منى فيقف على حقيقــة أقوالى ولا يقتصر على الاعجاب بالتدفق والحماس الذى تنطوى عليه أشعارى .

« اننى يائس من الشيوخ القدامى ، ولدى كلام عن المستقبل » ... فيسر كلامى يا رب على الشباب ، وقرب مضامينه العميقــة الى فهمهم « اجعل لجتى فى متناول أقدامهم » ، فلقد نظمته من أجلهم هم .

حقا ، ان الهدف من « رسالة الخلود » هو توجيه الجيل الجــديد فى العالم الاسلامى ، لقد أكد هذا المعنى هنا ، كما أكده بصورة عملية حينما وجه فى آخر المنظومة رسالة الى ابنه « جاويد » ، أو الى الجيل الجديد من شباب الأمة الاسلامية ممثلا فيه .

الفصل الثانى

تمهيـــد فى السماء

اليوم الأول للخلق ــ السماء توبخ الأرض

١ ــ وصف لليوم الأول للخليقة :

يصف اقبال هذا اليوم بأسلوب شعرى رائع على النحو التالى :« لقد خلقت الحياة المطلقة (الله) هذا العالم ما قرب منه وما بعد بدافع لذة الغيب والحضور ، ثم قيدته بقيد التسلسل الزمانى اذ انها قطعت خيط اللحظة ، ثم مزجت لون منزل الزمان بالحيرة ، فهذا ليل يتبعه نهار ، يتبعه ليل ثم نهار وهكذا دواليك .

وهنا وهناك فى جنبات العالم ، تتعالى صيحات المخلوقات كل يريد أن يحدد ذاتيته وانفراديته فيقول : « أنا شىء وأنت شىء آخر »(١) .

ثم وضعت القمر والكواكب فى مساراتها الفلكية ، واشعلت مئــات المصابيح (النجوم) فى الفضاء .

وعلى السماء اللازردية بسطت الشمس خيمة من ذهب ذات حبــال فضية ، ثم رفعت رأســـها من الأفق فتجلى الصــباح الأول وضمت الى صدرها العـــالم الوليد .

كانت مملكة الانسان (الأرض) ترابا فى تراب ، صحاريها خالية من القوافل ، ووديانها خالية من الأنهار ، سماؤها خالية من السحب ، لا طائر فيها يغرد على أغصان ، ولا غزال فيها يمرح فى سهول أو مروج .
لم يكن الانسان قد ظهر فيها بعد ، ... فقد كانت روح البحر والبر عديمة التجلى ، وكان الدخان المتصاعد هو الثياب التى ترتديها الأرض .

ولم تكن الحشائش قد عرفت بعد أنفاس الربيع ، فلقد كانت ما تزال كامنة فى أعماق الأرض .

٢ ــ السماء توبخ الأرض :

وفى نفس اليوم ، وبعد أن عاين كل فرد ذاتيته وتحقق من تفرده عن

---

(١) وقد بين اقبال هذه الفكرة فى مقدمته على اسرار خودى فقال « الحياة كلها فردية ... حيثما تجلت الحياة تجلت فى شخص أو فرد أو شىء ، والخالق كذلك فرد ولكنه أوحد لا مثل له » أنظر عزام : محمد اقبال ، ص ٥٥ ،

Nicholson, Secrets of The Self, p. XIII.

غيره ، وحقق فى محاسن نفسه ، بدت السماء وهي تنظر — فى تيه واعجاب بنفسها — الى الأرض ، وشرعت فى توبيخها قائلة :

« لم أر لمخلوق فى رحابى مثل حياتك البائسة ، فأنت اكثر المخلوقات فى رحابى عتمة واظلاما ، فها هى ذى الشمس وها هو ذا القمر والنجوم كلها منيرة مضيئة .. عداك أنت ، ولو لم يكن قنديلاى (شمسى وقمرى) لما كانت فيك أية ذرة من نور .

انك من تراب ، وحتى لو شمخ التراب وعلا فى الفضاء واصبح مثل جبل الوند(١) لما زاد عن كونه ترابا ولن يكون منيرا وخالدا كالأفلاك .

فاما أن تعيش بعدة الحسن والجاذبية ، واما أن تعترفى بأنك أقل مرتبة منى ، فتضحلى من عار النقص والقصور » .

فاشتد خجل الأرض من توبيخ السماء ، واستبد بها اليأس وانتابها الحزن وتضاءلت بعد أن سخرت السماء منها واخذت تدل عليها بما حباها الله من فضل النور والسمو . وما لبثت الأرض أن لجأت الى الأعتاب الالهية وهى ترفرف اشفاقا من محنة الاظلام كأنها طير جريح ودعت الله أن يهبها النور .

وفجأة ارتفع هذا الصوت من الملأ الأعلى :

٣ — ألا يكفيك أن يكون « الانسان » وديعتى عندك :

أيتها الأرض ، انك امينة ، لكنك غافلة عن الأمانة التى أودعتك اياها ، فلا تحزنى ولا تبتئسى وانظرى فى أعماق قلبك فلقد وهبتك وحدك دون الكون كله هذه (الأمانة) ، « ان الأيام منيرة بجلبة الحياة وليست مضيئة بالنور الذى ترينه هنا وهناك » ، فعما قريب ستظهر فيك الحياة بكل ما فيها من جلبة وضجيج ، ان هذه الجلبة هى النور الحقيقى ، هى التى تنير الحياة ، ودعك من هذا النور الذى ترينه هنا وهناك .

« ان نور الصباح يأتى من الشمس المحرقة ، ونور الروح خال من غبار الزمن » فالنور الذى سيسطع فيك هو « نور الروح » ، هو الانسان ، وأين نور الشمس الذى يضيء السماء ، من هذا النور : نور الروح ، ولذا فأنت افضل فى الواقع من السماء نفسها .

ونور الروح دائب التسيار دون حاجة الى سبل ، وهى أسرع سيرا من شعاع الشمس والقمر فسرعتها تفوق سرعة الضوء ، لأنها تعلو على المادة وهى أرفع من أن تقاس مقاييسها .

« يا من محوت صورة الأمل من لوح الروح !! الا تدرين أنه قد ظهرت من ترابك أنت روح الروح » سيظهر فيك الانسان الذى سوف أجعله خليفة لى ، وسأودع فيه قوتين تكملان بعضهما البعض ، قوتين لم أودعهما فى مخلوق غيره هما العقل والعشق :

---

(١) الوند : جبل شاهق الارتفاع بالقرب من همدان فى اقليم فارس (انظر نزهة القلوب ١٦٥ طبع لوسترنج) .

فعقل الانسان يشن الهجوم على الدنيا ، أما عشقه فيهاجم « اللامكان» فسوف يسخر الكون بواسطة العقل ، ويسيطر على اللامكان بواسطة العشق .

وعقله سيعرف طريقه بغير دليل ، وعينه اكثر تيقظا (عشقه اعلى مرتبة) من جبريل(١) .

ان الانسان الذى سيظهر فيك ، أيتها الأرض ، ترابى حقا ، الا انه يشبه الملائكة فى التحليق ، وهذه السماء — التى توبخك — ليست سوى مجرد « رباط »(٢) قديم فى طريقه ، أنه سيعرج فى السماء كما يعرج سن الخياط فى الحرير .

سوف يزيل الانسان السوء والخبث من أطراف الوجود وبدون نظرته يصبح العالم أعمى أصم » ، فهو أشرف مخلوقاتى وبه يتشرف الوجود كله.

« ورغم أنه سفاك للدماء « قليل التسبيح »(٣) ، الا انه بمثابة المهماز للعصور » ، فهو يدفع العالم الى الرقى ويجعل الدنيا افضل وافضل .

« عينه تنير من خلال ملاحظة الكون ، ومن ثم فهو يرى الذات فى أعماق الصفات » ، فمن شأن الكون أن يقوى فى هذا الانسان بصيرته اذا تمعنه وتفحصه ، اذ أن صفاتى (الخلق ، والرحمة والقهر والجمال والاجلال ... الخ) تتجلى فى كل حين ، فقد أودعت فى كل شىء دلائل على قدرتى(٤) .

« على أن كل انسان يصبح عاشقا لجمال ذاتى ، يصبح هو سيد كل الموجودات »(٥) ، فيرقى رقيا يجعله يعلو على سائر الكائنات .

---

(١) وفى البيت اشارة الى المعراج النبوى ، وكلمة « عين » مأخوذة بلا ريب من الآية الكريمة : « ما زاغ البصر وما طغى » (النجم : ١٧)، ويقول الرومى فى المثنوى ان جبريل قال للرسول صلى الله عليه وسلم وهما عند سدرة المنتهى : لو أننى علوت على ذلك بمقدار شعرة واحدة ، لاحترقت أجنحتى بضياء التجلى .

(٢) الرباط : المكان الذى يرتاح فيه المسافرون استعدادا لمواصلة سفرهم ، أو ينتظر فيه المدافعون عن الثغور والحدود .

(٣) اشارة الى قوله تعالى على لسان الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (البقرة : ٣٠).

(٤) فى البيت اشارة ضمنية الى نحو قوله تعالى : « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (سورة الرعد : ٤) .

(٥) نقل اقبال هنا البيت من مثنوى جلال الدين الرومى .

أغنيــة الملائكة

ثمة تغير حدث فى موقف الملائكة من الانسان ، بعد أن بين الله سبحانه الامكانات التى سيودعها فى هذا المخلوق الشريف ، الذى اتهمته الملائكة اولا بانه قليل التسبيح سفاك للدماء ، ثم عادت هنا فى هذه الأغنية الجميلة تشيد بقدراته وبالملكات التى وهبه الله اياها باعتباره خليفة له.

وقد نقل اقبال هذه الأغنية الرائعة من ديوانه : « زبور عجم(١) » ولعل السبب الذى دفعه الى اختياره لها انما يرجع الى أن اقبالا صور فيه بأسلوب جذاب وقوى عظمة الانسان وفضله ، وأعرب عن أمله فى بلوغ الانسان اعلى درجات الرقى الروحى لكى ينهض بحق بأعباء الأمانة ، ولكى يكون بحق خليفة للخالق الأعظم .

فالأغنية تتدفق بالمثالية وتزخر بالأمل الذى تعبر عنه كلمة « يوما ما » التى تتردد فى كل بيت من الأبيات الأربعة .

تقول الملائكة : « يوما ما سيزيد تالق قبضة التراب (الانسان) عمن خلقوا من نور ، يوما ما ستلتف قبضة التراب وتنتقل الى السماء من خلال نجم قدرها » ، فسيأتى اليوم الذى يعلو فيه الانسان على الملائكة ويرقى عليهم(٢) ويتخذ من الأرض سلما للسماء .

وفكر (خيال) الانسان الذى يتربى على سيل الأحداث ، غير قابل للتحرر من قيد الزمان والمكان ولا من تسلسل الأحداث ولا للانفكاك من حدود المـاديات ، ولكن سيأتى اليوم الذى يخرج فيه بواسطة العشق — من دوامة الفلك الأزرق المحيرة وينفض عن نفسه أوهامها .

« تمعن لحظة فى معنى الانسان ، فما الذى تطلبه منا ؟ انه ما يزال ينفذ فى داخل الطبيعة ويوما ما سيتزن تماما » ، ألم تدرك المعنى الحقيقى للانسان ؟ لقد خفيت عنك حقيقة جلية حقا .. انه هو الذى جعله الله خليفة له واودع فيه صلاحية الرقى ، وسيظل يطوى مراحل الرقى الى أن يأتى اليوم الذى يتحقق له فيه التوازن فى الصفات فيكون معتدلا موزونا كبيت من الشعر ، عادلا كخالقه(٣) .

« سيتزن هذا المترقى روحا ، حتى ان قلب الله سينزف دماً من تأثيره يومـــا ما »(٤) .

---

(١) ص ١٥٩

(٢) ربما كان فى هذا اشارة الى المعراج النبوى حين ترك جبريل الرسول يصعد الى مقام اعلا ، وربما كان فيه اشارة الى التطلع الانسانى الى مستقبل افضل .

(٣) واكتساب الصفات الالهية التى تتميز بالتعادل وعدم التضـــاد من اهداف الانســـان — عند اقبـــال — كى يفوز بمكانتـــه باعتبـــاره خليفة لله .

(٤) يريد الشـــاعر أن يعبر عن معنى الآية الكريمـــة : « فاتبعونى يحببكم الله » (آل عمران : ٣١) أو عن فكرة الاستجابة بين الخالق والمخلوق،هى الفكرة التى افاض فى الحديث عنها فى كتابه تجديد التفكير الدينى فى الاسلام .

الفصل الثالث

تمهيد فى الأرض
تظهر روح جلال الدين الرومى (رحمه الله)
وتأخذ فى شرح أسرار المعراج

تحدثنا فيما سبق عن مكانة جلال الدين الرومى من نفس اقبال ، وسوف تلتقى روح الرومى هنا بالشاعر ليصعدا الى الأفلاك ، ولكن ثمة قضايا حرصت روح الرومى على بيانها لاقبال قبل أن يبدآ رحلتهما ، وأهم هذه القضايا هى كيفية التخلص من قيود الزمان والمكان ، فبدون التخلص من سيطرة هذه القيود لا يتحقق للانسان العروج ، ومن ثم فان هذه القضية تنطوى على أهمية أساسية بالنسبة للمنظومة كلها بأعتبارها عروجا الى الملأ الأعلى ، لذا كان يجدر بنا أن نتتبعها فى فكر اقبال لنتعرف على أبعادها .

ولعلنا نتذكر أن اقبالا توجه الى الله فى المناجاة داعيا أن يعتقه من أسر الزمان والمكان ، وأن يجعله يعيش يوما لا تجزؤ فيه ولا تغير ولا بداية له ولا نهاية حيث ينال الخلود .

واذا رجعنا الى الوراء قليلا لنستحضر فى اختصار وايجاز فكرة اقبال الخاصة بالزمان والمكان كما بينها فى منظوماته ومؤلفاته السابقة على « رسالة الخلود » (١٩٣٢) فاننا نجد أن اقبالا تعرض فى منظومته «أسرار خودى» (١٩١٥) لمسألة الزمان تحت عنوان «الوقت سيف»(١) . وقال أن الإنسان توهم الوقت خطا ممدودا ، وقاسه بالليل والنهار ، فوقع فى شباك الوقت ، والحق أن الوقت هو الحياة وهو الأمل والعمل والسير والدأب . . . والفرق بين الحر والعبد أن الحر يحتوى على الزمن ، والعبد يحتوى عليه الزمن ، فالحر يتصرف لا يحد عمله يوم وغد ، ولا نهار ولا ليل ، ولا يعتل بحكم الزمان ، وللعبد تعلات من حدود الزمان وأحكام الوقت » . . . ويشير الى أن الخلود يكمن فى الوقوف على حقيقة الزمان .

وفى مقدمته للترجمة الانجليزية لأسرار خودى (١٩٢٠) اشار اقبال الى نفس الموضوع قائلا :

---

(١) وهى الكلمة المأثورة عن الامام الشافعى ، انظر أسرار خودى ص ٨٠ ، وأنظر عزام : محمد اقبال ص ٩٠ و ٩١ ، وأيضا ترجمته العربية : ديوان الأسرار والرموز ص ٦٣ وما بعدها .

« يقول برجسون(١) ان الزمان ليس خطا ممتدا الى غير نهاية يتحتم علينا المرور به ، فهذا التصور للزمان غير صحيح فالزمان الخالص لايدخل فيه تصور الطول اى لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار(٢) .

« اننا نقسم الزمان الى لمحات فندخل فيه مفهوم المكان ، فيصعب علينا تسخيره ، وانما نستطيع ادراك معنى الزمان ادراكا صحيحا حينما ننظر فى اعماق ذواتنا ، أن الزمان الحقيقى هو اسم آخر للحياة . . ولن نخلص من عبودية الزمان مادمنا نعده أمرا مكانيا .

انما الوقت المكانى قيد توسلت به الحياة الى تسخير ما حولها .

والواقع اننا « لا زمانيون » ومن الممكن أن نتحقق من أبديتنا حتى فى هذه الحياة نفسها »(٣) .

وفى منظومته « بيام مشرق » ردد اقبال نفس الأخلية والأفكار فى قصيدته الرائعة(٤) « نوائى وقت » اى صوت الزمان ، يقول فيها الزمان : أنا لست شيئا ، ولكن روحى تسرى فيكم ، انا منبع الحياة ، أنا ثوب الانسان ، أنا ستر الرحمن ، أنت سرى الخفى ، أنا سرك الخفى ،

---

(١) هنرى برجسون (١٨٥٩ — ١٩٤١) فيلسوف فرنسى شهير ، (انظر يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤٢٢ ، والدكتور زكريا ابراهيم : برجسون ص ١٧ وما بعدها) ويرى الكسندرو باوزانى أن تأثير برجسون على اقبال فى قضية الزمان والمكان كان عظيما ، وأن ثمة تشابها بينهما فى هذه الناحية Il poema celesta, p. 8.

(٢) وجود بداية للزمان المتتالى ذى الانات ، وكونه ذا غاية أو مسار متطور يجرى الى نهاية أو « يوم آخر » وعلاقة ذلك بالمفهوم الدينى فى الاسلام ، واختلاف هذا المفهوم عن الروح اليونانية فى نظرتها الى الزمان ، كل هذه الأمور عرض لها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه : الزمان الوجودى — الطبعة الثانية فى الصفحات ٩١ — ١٠٠ وفى مواطن اخرى منها ٤٧ — ٦٧ — ١٣٧ — ١٣٨ . ويمكن الرجوع الى كتاب « اللمعة » للشيخ ابراهيم بن مصطفى الحلبى لمعرفة فكرة المتكلمين والحكماء المسلمين عن الزمان والتفرقة بين الدهر أو الزمان الأزلى المستمر والزمان الطبيعى المتسلسل انظر ص ٢٢ — ٢٥ .

(٣) Nicholson, secrets of the Self, Introduction

وقد قام عزام فى كتابه محمد اقبال (ص ٥٨ — ٥٩) بترجمة جزء من هذا النص وتكفلت بترجمة الباقى .

(٤) انظر ص ١٠٢ — ١٠٣ بيام مشرق والقصيدة قريبة من الاقوال التى سيذكرها « زروان » روح الزمان والمكان بعدقليل . انظر أيضا : اقبال أو مسئله زمان ومكان (ماه نو اقبال نمبر ، أبريل ١٩٧٠ — ص ١٧٧ — ١٨١) .

فأنا مخفف فى روحك ، ولا اظهر الا منهـا ، يا أسير المـاء والطين ، انظر مقام القلب ، تراه ملء كأس ، لكنه بحر دون ساحل .

وقد درس الدكتور رضى الدين صديقى(١) آراء اقبال فى هذه القضية فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » وانهى الى انه يعتقد كما يعتقد مفكرو المسلمين فى حقيقـة الزمان ، فالحيـاة ان هى الا حركـة مستمرة فى الزمان ، ولكن فهم طبيعة الزمان – والزمان المكانى – لا يتيسر بالنظر الموضوعى البحت وانما بتحليل تجربتنا الشعورية تحليلا دقيقا ، فهـذه التجربة وحدها هى التى تظهر حقيقة الزمان .

واذا نحن لخصنا آراء اقبال فى هذه المسألة العميقة فاننا نجده يقول : «أن الزمان ظاهرة شعورية ، هو موجود حقا ، ولكنه موجود فى الشعور» ، وسنجد الرومى يقول لاقبال بعد قليل : « ما المعراج الا ثورة فى الشعور »، واذا ما حدثت هذه الثورة فى شعور الانسان امكنه السيطرة على الزمان والمكان والتخلص من قيودهما .

١ – اقبال ينشد غزلا للرومى :

يقول اقبال : « ان العشق المهتاج لا يبالى بالمدينة وصخبها ، لأن من شأن هذا الصخب أن يجعل شعلة العشق تخبو وتنطفىء ، لذا فالعشق يبحث عن خلوة فى الصحارى والجبال أو على شواطىء البحار المترامية الأطراف ، لقد دفعنى العشق الى الجلوس على شاطىء البحر وحيدا ، حين لم أجد لى من بين الاصدقاء خليلا . . . ولكن ما أروع منظر الغروب على شاطىء البحر . . . فمياهالبحر الزرقاء تستحيل عند غروب الشمس الى شقائق حمراء مذابة بسبب الشفق ، ان الغروب يمنح الأعمى ذوق النظر ، الغروب يضفى على الليل لون السحر . . جلست أتبادل مع قلبى حوارا حول الأمانى ، فأنـا فان ولا نصيب لى من الخلود ، وأنا حى ولا نصيب لى من الحياة » .

اننى ظامىء ولكننى بمنأى عن النبع . . . ثم وجدت نفسى انشد

---

(١) فى مقال له بعنوان « تصور اقبال للزمان والمكان » ص ١–١٤من كتاب « اقبال كمفكر » بالانجليزية ، الفـه عـدد من الباحثين الباكستانيين . وانظر أيضا : تجديد التفكير الدينى الاسلام والترجمة العربية ص ٩٠ .

هذا الغزل بطريقة لا ارادية(١) :

أيها المحبوب ، تحدث الى ، فان سعادتى انما تكمن فى حديثك ، وان نظرى الى وجهك يفضل عندى النظر الى الرياض الجميلة الغناء .

ان مناى أن ارقص وسط الميدان وبيدى كأس الشراب (المعرفة الالهية) وبيدى الأخرى خصلات شعر الحبيب .

لقد قلت أيها المحبوب — على سبيل الدلال ، ابتعد عنى ولا تزدنى عذابا ، ومناى أن أسمع منك قولك مرة أخرى .

أيها العقل كن غلاما للعشق تابعا له منفعلا به ، أيها العشق ان منيتى أن تتحدث الى بما يؤجج نارك فى قلبى .

ان هذه الحياة (الماء والخبز) التى هى من فيض الفلك ، لا ثبات فيها ولا قرار لها كالسيل . اننى عاشق أهوى المشكلات كما أهوى الحياة غير المتناهية .

لقد قلت أيها المحبوب — على سبيل الدلال — أبتعد عنى ولا تزدنى ارنو الى أن يظهر فى زمانى رجل مثل « موسى بن عمران » ليتجلى فى يمينه « نور الحبيب » .

وبالأمس أخذ الشيخ بالمصباح يسعى حول المدينة قائلا :

« مللت الانعام والبهم (من يقفون عند المحسوس) ، لذا فأنا أبحث عن انسان . لقد سئمت من رفاق ضعاف القوى (نفروا من الجهاد والعمل) وأبحث عن رجال مثل أسد الله(٢) ورستم »(٣) .

فقلت للشيخ محال : اننى أيضا بحثت ولم اعثر على احد ، قال لى : « ومنيتى هذا المحال » .

٢ — روح الرومى تظهر :

يقول اقبال بينما أنا أنشد هذا الغزل « نام الموج على الماء الأشيب واظلم الأفق من خبو الشمس » فقد أخذت الشمس فى الغروب خلف الأفق

---

(١) يقدم اقبال ابياتا من غزل مشهور لجلال الدين الرومى ، ويزيد فيها بيتا ، انظر ، نيكلسون ، قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز ، كمبردج ١٨٩٨ ، القصيدة رقم ١٦ ، وقدعمدت فى المتن الى شرح الغزل واخراجه من صورته الرمزية الصوفية . والغزل ضرب من ضروب الشعر الفارسى ، عبارة عن قصيدة قصيرة لا تزيد فى الغالب عن خمسة عشر بيتا من الشعر ، وتعالج موضوعات وجدانية وصوفية .

(٢) أسد الله هو على بن أبى طالب .

(٣) أحد أبطال الفرس القدماء ، وهو يرمز برستم للفاعلية الانسانية على وجه العموم .

« سرق الليل جانبا من متاعها ، وظهر نجم فى السماء وكأنه شاهد » ، واذا بروح الرومى تخترق الحجب ، وتشرع فى الظهور بالتدريج من خلف احدى صخرات الجبل . . . ها انذا أصبحت أراه بوضـــوح أن طلعته وضاءة كالشمس ، وشعره الأشيب متألق مثل عهد الشباب ، هو كيان من النور السرمدى ، تلمح فى خطوه السرور السرمدى .

ثم ينتقل الى وصف كلام الرومى قائلا : « على شفتيه السر الخفى للوجود ، لقد انفتحت قيود الكلام والصوت عنه . ان كلامه مرآة معلقة ، لقد امتزج علمه بحرقة وجدانه » .

ولا ريب فى أن اقبالا يعنى بـ « كلامه » كتاب المثنوى لجـــلال الدين الرومى الذى يكمن فيه السر الخفى للوجود — فى رأيه . حقا لقد أعطى اقبال للكتاب وصاحبه قدرهما واعترف بامامة الرومى واقر له بالفضـــل . فالانسان يستطيع أن يطلع على حقيقته واهدافه فى المثنوى ، ولقد نجح الرومى فى المزج بين العـــلم والعشق وجعـــل كليهمـــا — بحـــق — شرطا للرقى الروحانى .

استحضر اقبال هذه المعانى فى ذهنه فور ظهور روح جلال الدين،ومن‌ثم أراد أن يعرض عليه مشكلاته وهو واثق أنه سيجد عنده الحل ، فســـأله ســـؤالين :

٣ — ما الموجود ، وما غير الموجود ؟

وما معنى المحمود ، وغير المحمود ؟

فاقبال يسأل هنا عن معيار الخير والشر ، ويرى الأستاذ يوســـف سليم جشتى شارح جاويدنامه باللغة الاردية أن اقبالا متأثر بالشيخ أحمد السرهندى المعروف فى الهند بمجدد الألف الثانية ، وكان الشيخ قد تعرض فى بعض مؤلفاته لهذه المسألة وقال : —

« الوجود ، مبدأ كل خير وكمال ، والعدم منشأ كل نقص وشر »(١) .

فالوجود هو منشأ كل خير وكمال ومبدأ كل حسن وجمال ولذا كان الوجود عند اقبال كله خيرا وكمالا . وكان اثبات الذات وتأكيدها ودعم وجودها باستمرار كله خيرا أيضا . وهو يرد على لسان الرومى قائلا : ان الموجود هو الذى يبغى الظهور ، فالظهور هو مطلب الوجود . والحياة هى تزيين النفس بالنفس ، هى طلب الشهادة من غيرها على وجودها ، انك عندما تطلب الشهادة من غيرك انما تهدف بذلك الى تمييز نفسك عن غيرك ، ان الله سبحانه وتعالى حشد ارواح بنى آدم وسألها : « الست بربكم » ، لقد زان المحفل يومها ليطلب الشهادة على وجوده .

---

(١) انظر : شرح جاويدنامه ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

يقول الرومى لاقبـــال :

ــ « ان كنت حيا أم ميتا أم كانت روحك فى الحلقوم » ،
فانشد العون من ثلاثة شهود ، لتتحقق من حقيقة « مقامك » .

ــ الشاهد الأول هو شعورك ، أنظر نفسك بنورك أنت .

ــ الشاهد الثانى هو شعورك ذات أخرى
فانظر نفسك بنور غيرك

ــ الشاهد الثالث هو شعور ذات الحق
انظر نفسك بنور الله

ــ فلو بقيت ثابت الروع فى حضرة نوره
فاعتبر نفسك حيا باقيا مثله

ــ فالحياة لا تقوم الا على « الذات » .
والحياة هى أن ترى الذات « الالهية » دون حجاب

ــ والمؤمن (العاشق) لا يقنع بالصفات
ان المصطفى (ص) لم يرض الا بالذات (الالهية)

ــ ما المعراج ؟ ليس سوى بحث عن شاهد
امتحان ، وجها لوجه أمام شاهد ، قد يؤكد حقيقتك نهائيا

ــ هو شاهد عادل ، وبدون تصديقه (على وجودك) ،
تضيع حياتنا كما تضيع رائحة الورد ولونه .

ــ وما من أحد يبقى رابط الجأش فى حضرته ،
فمن استطاع ذلك فهو ذهب خالص كامل العيار

ــ انت ذرة ، فلا تفقد مما لديك من وهج ثم اندمج فى حشد الضياء
(اشدد عقدة ذاتك) .

ــ ما أجمل أن يزيد الانسان من وهج ذاته
ثم يختبرها أمام الشمس

ــ عمر صرحك المنهمك من جديد
امتحن ذاتك ، كن موجودا

ــ هكذا يكون الموجود والمحمود ، فحسب ، والا فان نار حيـاتك
تكون دخانا ، وذاتك ليست سوى مجرد حلقة من دخان » .

اذن فالوجود شىء محمود ، ولا يتأتى هذا الوجود الا بالاستجابة للنداء الخفى فى ذات كل فرد بأن تظهر وتتكشف وتطلب الشهادة على وجودها . على النحو المبين ، فتحدد ذاتيتها بنفسها أولا ، ثم تحددها بغيرها ثانيا ،

ثم تحددها اخيرا فى حضرة الله ومن خلال نوره . . . هذه المرحلة الأخيرة هى اخطر مراحل تحديد الذات على الاطلاق — فهى أعلى مقامات العروج — وهو مطلب الشهادة على وجودها من ذات الحق سبحانه .

ولو بقيت الذات ثابتة الجنان رابطة الجأش فى حضرته تعالى نالت الخلود . . . انه امتحان عسير للذات ان تجرب مدى احكامها فى الحضرة الالهية ، ومن يجتازه فهو انسان كامل ليست فيه ذرة واحدة من تراب .

اما محاولة افناء الذات فى وجود الله ، فهى شىء « غير محمود » هو فناء لا خلود . حقا ان الانسان الكامل هو الأقرب الى الله ولكن « ليس القصد من هذا القرب أن يفنى وجوده فى وجود الله ، كما تقول فلسفة الاشراق ، بل هو على عكس هذا أن يمثل الخالق فى نفسه »(١) . . .

« . . ان شخصية الانسان من الوجهة النفسانية حال من التوتر ، ودوام الشخصية موقوف على هذه الحال ، فان زالت هذه الحال أعقبتها حال من الاسترخاء مضرة بالذات . . . وأول فرض على الانسان أن يعمل لدوام هذه الحال والحيلولة دون حال الاسترخاء . أعنى أن فى ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تحل مسألة الخير والشر ، فما يقوى الذات خير ، وما يضعفها شر »(٢) .

هذه هى نظرية الخير والشر عند اقبال . .

٤ — . . . . ولكن كيف يمكن الوقوف أمام الله ؟

يقول « فقلت من جديد ، كيف يمكن الذهاب امام الله ؟ وما السبيل الى شق جبل الماء والطين ؟ » ، لقد سالت الرومى : انك تطلب منا أن نقف فى الحضرة الالهية لكى نطلب الشهادة من الله — جل شأنه — على وجودنا ، هذا محال يا صاحبى ، اننا مقيدون بقيود المادة ، وبقيود الحس ، فهل فى مقدورنا أن نحطم هذه القيود ، ونحلق عاليا متجاوزين هذه السماوات مخترقين تلك الحجب حتى نصل الى حضرته ؟ انه — تعالى — هو الآمر والخالق وهو أعلى وأسمى من عالمى الخلق والأمر ، ونحن فى قيد الزمان والمكان فكيف يتسنى لنا أن نصل اليه ونمثل بين يديه ؟

وهنا يحيل الرومى اقبالا على الآية الكريمة : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان(١) » . فثمة استثناء فى هذا الصدد ، أى أن الانسان لا يمكن له النفاذ من اقطار السماوات والأرض الا « بسلطان » فما السلطان اذن ؟

---

(١) من مقدمة اقبال لأسرار خودى ، أنظر عزام ، محمد اقبال ص ٥٦ .
(٢) نيكلسون ، مقدمة الترجمة الانجليزية لديوان « أسرار خودى » ، ص ١٤ ، ١٥ ، وانظر أيضا : عزام ، محمد اقبال ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١) الرحمن : ٢٣ .

، عند اقبال «القوة» التى يتمكن بها الانسان من تسخير المحسوسات(١).

« قال : ان كان لديك « السلطان » ، كان فى مقدورك أن تخوض فى الأفلاك » .

بوسعك يا اقبال أن تحطم هذا القيد اذا ملكت «السلطان» وبوسعك ، اذا اجتهدت ، أن تكشف هذا الكون وتعريه عن أوهامه وتنفض عن أطرافك غبار الجهات ، وتحطم هذا الطلسم ، طلسم الزمان والمكان .

« انك ان فعلت ذلك وحطمت طلسم الزمان والمكان بطريق المجاهدة ودافعها العشق) فسوف تتهاوى هذه المظاهر التى أمامك ولن تجد منها شيئا ، بل سترى نفسك منه وتراه هو منك » ، فالزمان والمكان أمران اعتباريان نابعان من شعورك أنت لا غير .

يعود الرومى فيؤكد من جديد « تذكر كلمة (الا بسلطان) — انها كلمة حافلة بالمعانى داعية الى الاجتهـاد — والا فسوف تموت فى الطين كما يموت النمل والجراد » .

« لقد اتيت أيها الرجل الفاضل الى هذه الدنيا ذات الأبعاد المقيـدة بقيود الزمان والمكان بطريق الولادة ، وبالولادة أيضا يمكنك أن تفر من هذه الدنيا وان تفك كل القيود عن نفسك ، ولكنها ولادة من نوع آخر ، ولادة لا صـلة لهـا بالمـاء والطين او بالمـادة أو الحس ، ولادة لا يعرفها الا العاشقون ذوو القلب الحى (فالعقل ليس هو وسيلة التعرف عليها وانما العشق ، على اننى أستطيع أن أصفها لك بطريق المقابلة بينهـا وبين الولادة المعروفة التى جئت بواسطتها الى هذا العالم :

— « تلك من الجبر وهذه من الاختيار ، تلك خفية فى الحجب ، وهذه ظاهرة جلية » ، فالولادة من رحم الأم جبر لا يكون للمرء فيها أى اختيار ، لكن الولادة الثانية تبدأ بأن يسلك الانسان سبيل المجاهدة من أجل الحصول على « السلطان » .

والولادة الأولى تتم فى الخفاء ، اذ لا يصح أن تلد الأم طفلها بين الناس ولا بد للوليد من أن يدثر عقب الولادة فى حجاب . أما الولادة الثـانية (الروحانية) فتتم بصورة علنية ، لأن الانسان تتجلى فيه طاقة وتتمثل فيه صبغة لا يمكن أن يخفيها لا عن الناس فحسب بل عن العالم أجمع(٢) .

— « تلكَ يصحبها عويل ، وهذه يصحبها ابتسام ، أى أن تلك باحثة وهذه واجدة»،فعندماينزل الطفل منالرحمفىالولادة الأولى يأخذفى البكاء ، لكن الانسان حينما يولد من جديد تنشرح نفسه وتنبسط أساريره ، فقد نال هدفه .

---

(١) بشير أحمد درا : اقبال أور مسئله زمان ومكان . ماه نو ، ابريل ١٩٧٠ ص ١٧٧ — ١٨١ .

(٢) راجع قصيدة « ميـلاد آدم » ، اى مولد انسان فى ديوان « بيـام مشرق » ص ٩٧ .

— « تلك سكون وسير فى الكائنات ، وهذه كلها خطو خارج الجهات » ، اذ يقضى الانسان حياته بعد الولادة المادية فى حركة وسكون داخل هذا الكون . أما الولادة الروحية فتعقبها نهضة تجعل الانسان يشتغل بالسير والعروج الروحانى عن العالم المحدد بقيد الجهات .

— « تلك فى حاجة الى النهار والليل ، أما الأخرى فالليل والنهار لها مركب » ، اذ يحتاج الانسان بعد الولادة الأولى الى الزمان والمكان ولا يستطيع الانفكاك عنهما ، ولكنه بعد الولادة الثانية لا يصبح فى حاجة الى الزمان والمكان ، بل انه يتخذ منهما مطية له ومنطلقا نحو هدفه الأسمى .

— « ان مولد الطفل — يا صاحبى — من تمزق الرحم ، ومولد الرجل من تحطم الكون » ، حيث تنكسر القيود وتتلاشى وتتحقق له السيطرة على هذه القيود .

— على أن ثمة تشابها بين الولادتين ، ففى كلا الولادتين أذان ، فقد أمرنا الشرع بأن يؤذن فى أذن الأطفال بعد ولادتهم ، وهذا أذان يؤدى بطريق اللفظ والكلمة ، ولكن وجه الاختلاف فى الولادة الثانية أن الرجل هو الذى يؤدى بنفسه هذا الأذان بعين الروح .

« فعندما تولد روح اليقظة فى بدن من الأبدان ، تأخذ جنبات هذا الدير الدير القديم (الدنيا) فى الاهتزاز والاضطراب » .

٥ — العشق يمنحك « السلطان » :

قلت للرومى : الحق أنك أوضحت الفرق بين الولادتين ، ولكننى لم أدرك الى الآن معنى الولادة الجديدة ، فصفها لى ؟

قال الرومى : « هى شأن من الشئون العديدة للحياة » ويعتبر الرومى هنا الولادة الجديدة مرحلة من مراحل الحياة الانسانية فى تطورها نحو الرقى والتكمل ، لقد بين الرومى هذا المعنى فى المثنوى فقال :

« عشت تحت الثرى فى عوالم من تبر وحجر ، ثم ابتسمت فى ثغور زهرات عديدة الألوان ثم جبت مع الوحش والزمان المتنقل فوق ظهر البسيطة ، وعلى متن الهواء وفى مناطق المحيط ، وفى ميلاد جديد غطست فى الماء ، وحلقت فى الهواء ، وحبوت على بطنى وعدوت على قدمى وتشكل سر وجودى كله فى صورة أظهرت كل ذلك للعيان فاذا انا انسان .

« ثم أصبح هدفى أن أكون فى صورة ملاك فى ملكوت وراء السحاب ، وراء السماء حيث لا يمكن لأحد أن يتبدل أو يموت ، ثم أعدو بعيدا ، وراء

حدود الليل والنهار ، والحياة والموت(١) » .

وكأن الرومى يقول لاقبال ان حياة الانسان مراحل ، وكل مرحلة تكون أفضل من سابقتها ، ولكن الانتقال من مرحلة الى مرحلة أفضل يقتضى من الانسان جهدا خارقا للتغلب على مقتضيات المرحلة الأولى ، ان هدفك ينبغى الآن أن يكون هو التخلص من أسر الزمان والمكان .

قلنا ان اقبالا عاد فسأل الرومى من جديد : اننى لا أعرف ما هى هذه الولادة فيرد عليه الرومى قائلا : « هى شأن من شئون الحياة . . . على أن الحياة (المطلقة) تكون أحيانا فى ظهور وأحيانا أخرى فى الغيب : الغيب ثبات والحضور مرور ، فهى أحيانا تبسط نفسها فى الجلوة وتنكشف ، وأحيانا أخرى تجمع نفسها فى الخلوة .

« وجلوة الحياة منيرة بنور الصفات الالهية ، فحيثما نظرت حولك وجدت الكون محاطا برحمته تعالى وفضله ، مسخرا بحكمته وقدرته ، أما الخلوة — حيث تصرف الحياة سرها الى الحق وحده — فتكون منيرة بنور الذات الالهية نفسها ، لا بنور صفاتها » . والمجال الأول — أى مجال الجلوة — هو مجال البحث العقلى ، أما المجال الثانى والأسمى مرتبة — أى مجال الخلوة — فهو مجال العشق والمحبة الالهية والسعى نحو الاتصال بالذات الخالدة فى علاها .

يقول اقبال فى تجديد التفكير الدينى : « ونحن نسير وراء المؤثرات الحسية فنجد أنها تفضى الى عالم خارجى يبحث فيه العلم ، ونتبع عناصر وجودنا الأخرى فنجد أنها تفضى بنا — لا الى عالم من مكان وزمان — ولكن الى ناحية ما بالتأكيد(٢) » . . هى اذن ناحية الحق سبحانه . فتتبع عناصر الوجود الأخرى لا يتم الا فى الخلوة .

« والعقل يتجه بالحياة نحو الجلوة ، أما العشق فيتجه بها صوب الخلوة ، فالعقل يحتك بهذا العالم لكى يحطم طلسم الماء والطين وينفذ الى أعماق المادة وكل عقبة فى طريقه تكون له بمثابة المعلم اذ تشحذ همته وتعطيه درسا ، والبرق والسحاب يقف منه كالخطيب على المنبر ، يوجه اليه المواعظ والدروس فى علوم الطبيعة والأحياء ، وعين العقل محبة « للنظر » والتحقيق ، ولكن انى له بهذه الجرأة الجسورة والاقدام والاحاطة؟ لقد عهدته متحفظا كأنه أعمى يسير فى طريق وعر ، عهدته كالنملة تسير حثيثا فى طريقها ، وما ذلك الا لأنه يتلمس سبيله بين اللون والرائحة (المحسوسات) ويستند الى الأدلة العقلية والبرهانية التى تحتاج الى وقت كبير فى تقصى الحقائق ... ان العقل يمشى فى طريق الحبيب حقا ...

---

(١) محمد اقبال ، تجديد التفكير الدينى ، الترجمة العربية ص ٢١٤ — ٢١٥ ، والترجمة الفارسية ص ٢١١ — ٢١٢ ، جلال الدين الرومى . مثنوى ج ٣ ص ٥٧٤ — ٥٧٥ .

(٢) تجديد التفكير الدينى ص ٢١٤ الترجمة العربية .

ولكن ببطء وأناة ، وأمـره ينتظم بالتدرج حقا .. ولكنى لست أدرى متى ينتهى من مهمته ويصل الى هدفه » .

هذه هى فى الواقع مشكلة الانسان المعاصر الذى قد أصبح يعبد العقل ويعتبر النزعة الحسية هى الوسيلة الوحيدة للتعرف لا على الكون فحسب بل على النفس أيضـا ، وقد صور اقبـال هذه المشكلة فى تجـديد التفكير الدينى قائلا : « ان الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية .. وتخصص علمى ، يجد نفسه فى ورطة . فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق اليه ، لكنه قد سلبه ايمانه بمصيره هو »(١) .

يستطرد الرومى ليشرح فضـل العشق قائـلا : « أمـا العشـق — يا صاحبى — فلا يعرف الزمان والمكان ، لا يعرف الشهور والسنين ، لا يعرف الابطاء والعجالة ، ولا البعد والقرب فى الطريق الى الحبيب .
فى العشق طاقة تمكنه من شق الجبال(٢) ، ولا غرو فالجبال كالقشة أمام العشق . والقلب (وهو موطن العشق) يندفع فى طريقه اندفـاع السمك فى المـاء .

« وبالعشق يغير الانسـان على اللامكان ، وبه يترك العالم دون أن يرى القبر » ، « فان أحكم الانسـان ذاته وزودها بطاقة العشـق غير المحدودة ، فأغلب الظن أن صدمة الموت لا تستطيع أن تؤثر فيها وتعرض بعد الموت حال من الاسترخاء يسميها القرآن الكريم « البرزخ » وتدوم هذه الحـال حتى الحشر »(٣) .

غير أن هذه القوة والطاقة الهائلة التى يتمتع بهـا العشـق لا تأتيه من الرياح والهواء والتراب والمـاء ، فمصـادر العشـق — يا اقبال — ليست مادية ، وقوة العشـق لا تعتمد فى قليل أو كثير على قوة أعضـاء الجسد :

« فتح العشق « خيبر » بخبز الشعير ، ترك العشق ندوبـا على وجه القمر » ، فلقد كان على بن أبى طالب — رضى الله عنـه — يأكل خبز الشعير ولكن العشق أودع فيه طاقة تمكن بها من أن يخلع باب قلعة خيبر . لقد ترك العشق ندوبا على وجه القمر(٢) .

ألم أقل لك انها طاقة غير محدودة تلك التى تكمن فى العشق ، لقـد

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، الترجمة العربية ص ٢١٤ .
(٢) اشارة الى قصة المهندس الايرانى فرهاد الذى شق فى صخور الجبل الأصم قناة للتدليل على حبه لشيرين . انظر الدكتور عبـد النعيم حسنين : نظامى الكنجوى ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٣) نيكلسون : الترجمة الانجليزية لأسرار خودى ، المقدمة ، ص ١٦ . وعزام : محمد اقبال ، ص ٥٨ .

(٢) اشارة الى معجزة شق القمر التى تقول بأن المصطفى (ص) استطاع أن يظهر ندوبا على وجه القمر باشارة من أصبعه ، (انظر تفسير قوله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر) .

حطمت جمجمة النمرود(١) دون أن تضربه ، لقد الحقت الهزيمة بجيوش فرعون دون حرب .

« ان العشق فى الروح — يا صاحبى — شأنه شأن البصر فى العين » ، فالبصر كامن بداخل حدقة العين ولكن ميدانه خارج عنها . كذلك العشق يسكن القلب ولكنه موجود — من حيث الفعالية والتأثير — خارج القلب .

« والعشق رماد وشرر وشأنه افضل من الدين والعلم » ، فهو يجمع صفات متضادة ، وتتجلى كل صفة من هذه الصفات فى نفس العاشق تبعا لاختلاف المواقف ، كما قال تعالى « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين »(٢) .

أتريد السلطان يا اقبال ... ان العشق هو السلطان وهو البرهان المبين الواضح الذى لا شك فى صحته ، فالعشق يمنحك دون ادنى ريب السلطان الذى تبحث عنه لتكسر به قيد الزمان والمكان ، ولا غرو فان كلا العالمين تحت سيطرة العشق .

« منه اللازمان والأمس والغد ، ومنه اللامكان وفوق وتحت » فالعشق مستقره القلب والوجدان ، وهذا الوجدان هو الذى يجعل الانسان يحس بقيد الزمان والمكان فى حين انهما أمران اعتباريان ولكن العاشق عندما يطلب من الله سبحانه مشاهدة ذاته فى علاها فان كل العالم يصبح مركبا له وهو راكبه فيسيطر عليه كما يسيطر الراكب على دابته ويمسك قياده ويوجهه حيثما شاء .

« ويصير به مقام القلب أكثر وضوحا ، وبه تبطل قيود هذا الدير القديم (الدنيا) » فالقلب باعتباره المضغة التى ان صلحت صلح الجسد كله ، تتأكد اهميته الحقيقية بالنسبة لحياة الانسان على هذه الأرض ومصيره بعد الموت بالعشق ، وبالمحبة الالهية ، اذ يصبح القلب بالعشق ذا حساسية خاصة يسيطر بها على قيود هذا العالم ويتحكم هو فيها ، لا يجعلها تتحكم هى فيه .

٦ — اطرح العقل التأويلى جانبا :

وبعد أن استفاض الرومى فى الحديث عن العشق — كما رأينا — نجده يحدد ما يتعين على العاشق أن يلتزمه فى سبيله الى هدفه ، اذ يقول ان العاشقين يهبون أنفسهم لله ويضحون بالعقل التأويلى ، فان كنت عاشقا حقا فعليك اذن بأمرين : أولهما أن تسلم وجهك لله تعالى كما يفعل

---

(١) اشارة الى انتصار ابراهيم عليه السلام على « النمرود » كما وردت فى سورة البقرة : ٦٨ — ٦٩ وتشير قصص الأنبياء الى أن بعوضة دخلت أنف النمرود حيث تخللتها الى مخه وقتلته . (انظر تفسير ابن كثيرج ١ ص ٣١٣ — ٣١٤) .

(٢) سورة المائدة : آية ٥٤

العاشقون الصادقون وعملا بقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه »(١) .

وثانيهما : أن تضحى بالعقل التأويلى أى تطرح جانبا التأويلات العقلية ، لأن العقل لم يخلق الا لتقصى الحقائق الحسية ولم يبلغ شأو التذوق الروحى .

« فان كنت عاشقا ، فتبختر من ناحية الى لا ناحية ، وحرم الموت على نفسك » ، ان كنت عاشقا حقا يا اقبال فعليك أن تحرص على أن تصعد روحك فى سلم الرقى الروحى درجة بعد درجة ، وأن تحافظ على حالة التوتر فى ذاتيتك وعندئذ يصبح الموت محرما عليك .

يقول اقبال على لسان الرومى مخاطبا الخلق أجمعين :

— « يا من تشبه الموتى فى تابوت القبور ان البعث ممكن دون نفخ الصور » ، فغير العاشق حي وليس بحى ، انه يبدو أمامك يتحرك هنا وهناك فيه المظاهر البسيطة للحياة لكنه فى الواقع شأنه شأن الموتى فى القبور . يوجه الرومى كلامه الى أمثال هذا الانسان وينصحهم بأن البعث ممكن دون نفخ الصور .. انما بعثك يكون بالعشق وحده .

ان لديك استعدادا فطريا يقبل العشق ، لديك قدرة على الاتيان بألحان بديعة جميلة غير أنك تشدو بها فى الوحل كالضفدع .

امتط صهوة الزمان والمكان ولا تتردد ، وانطلق من طيات هذا الزنار الذى يقيد حركتك .

واصقل بصر عينيك وأجل سمع أذنك . وتشرب كل ما تراه بطريق الفؤاد عملا بقوله تعالى : « وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون »(٢) . فثمة وسائل أودعها الله فى الانسان لادراك المحسوسات ووسائل أخرى أودعها فيه لادراك الحقائق الروحية والمعنوية ، « ان من يسمع حديث النمل(٣) فى مقدوره أيضا أن يسمع لغة الكون ذاته وأن يسمع من الحياة سر الحياة » .

فخذ عنى أيها الانسان هذه النظرة التى تمزق الحجب اذا وقعت عليها ، فهى نظرة منبعثة من قلب عاشق ، هى نظرة لا تحتويها العين ، انما هى صادرة من كيانى كله . ولذلك تجدنى فى « المثنوى » أسمى الانسان نظرا فأقول :

« ما الانسان الا نظر ، وما بقى منه فهو مجرد جلد لا نفع فيه ، والنظر هو الذى يرى الحبيب ، فالرؤية الحقيقية انما تكون فى المشاهدة الالهية، أذب كل الجسد فى البصر ، وتعمق فى النظر ، تعمق فى النظر ، تعمق فى النظر » .

« هل تخشى هذه السماوات التسع ؟ لا تخف اتخاف من سعة العالم ؟

---

(١) سورة البقرة : ١١٢

(٢) سورة النحل : ٧٨

(٣) اشارة الى النبى سليمان الذى سمع حديث النمل « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها » (سورة النمل : ١٨ و ١٩).

لا تخف ، بل افتح بصيرتك على حقيقة الزمان والمكان ، فهما ليسا سوى حالتين من أحوال الروح » ، لا يمكنك أن تتعرف عليهما بواسطة العقل لأنهما كامنان فى داخل الشعور ، واذا سيطرت المحبة الالهية على شعورك – يا صاحبى – فلن يكون هناك زمان أو مكان .

« فمنذ أن وقع «النظر» صريع الجلوة ، وانشغل بالمادة والمحسوسات، تولد اختلاف الليل والنهار ونشأ تقلب الأمس والغد وأصبح الوهم حقيقة ووقعت النفس فى أسر هذا الوهم ، كالبذرة ترقد فى تربة كلها ظلام ، فى غربة عن هذا الفضاء الفسيح . ألا تعرف البذرة أن فى الفراغ اتساعا ؟ ألا تعرف أن بامكانها أن تظهر نفسها فى صورة أغصان وارفة ؟ ولكن ما جوهر هذه الحبة ؟ وما حقيقتها ؟ ان حقيقتها تكمن فحسب فى الشوق الى النمو والى التكمل .. هذا الجوهر هو مقامها وذاتها فى نفس الوقت »

كذلك الانسان ليس له قيمة حقيقية اذا لم تكن لديه نزعة الى الرقى والى الكمال ، واذا لم ينتف عنه اطار الزمان والمكان كما تخرج البذرة – فى صورة شجرة – من التراب .

يقول اقبال على لسان الرومى : « يا من تقول ان الجسد حامل للروح ، انظر سر الروح ولا تعبأ بالجسد » ، فبعض الفلاسفة يرون أن الجسم بمثابة محمل للروح ، وهذا خطأ بلا ريب تمعن يا صاحبى فى حقيقة الروح ولا تعبأ بالجسد ، « فالجسد ليس محملا للروح بل هو حال من أحوالها والقول بأنه محمل لها أن هو الا خداع . والروح هى الجذب والسرور والحرقة والألم ، هى الشوق الى تسخير الفلك الدوار ، أما الجسد فهو التطبع بالمادة والارتباط بها والاعتياد على البقاء فى هذه الجهات الأربع والأبعاد المكانية » . فالجسد أسير للمادة لكن الروح تنزع الى السيطرة على المادة .

ان ما تسميه بعدا وقربا انما ينبع من الشعور ، فما المعراج ؟ هو ثورة فى الشعور .

هذه الثورة فى الشعور لا تتم الا بطريق العشق (الجذب والشوق) فالعشق يحرر الشعور من قيود المكان .

ان هذا الجسد ليس مخزنا لروحنا ولا رفيقا لها ، يذهب معها حيثما ذهبت ، بل أنه لا يزيد عن كونه حفنة من التراب ، وهل تحول حفنة من التراب دون تحليق الروح ؟

الفصل الرابع

« زروان » وهو روح الزمان والمكان
يحمل المسافر للسياحة فى العالم العلوى

رأينا كيف بين اقبال فيما سبق أن الانسان لو اختار العشق الالهى تطرأ على تجربته الشعورية ثورة من شأنها أن تجعله يتحكم فى الزمان والمكان ويسيطر عليهما .

وهنا يصور اقبال مشهدا مسرحيا تظهر فيه روح الزمان والمكان (زروان) وتتحدث عن نفسها ثم تنقل المسافر ، اقبال ، للسياحة فى العالم العلوى .

« وزروان » كلمة بهلوية معناها الزمان أو الزمان اللامتناهى(١) وقد استعملها اقبال هنا بمعنى روح الزمان والمكان .

١ — زوروان ملاك هبط من السماء :

يقول اقبال :

ما أن سمعت كلام الرومى هذا حتى استبد بى الشوق الى التحليق ، وانتاب روحى قلق واضطراب وأصبحت كل ذرة فى جسدى تتحرك كالزئبق لا يقر لها قرار .

وفجأة رأيت السماء — فيما بين المشرق والمغرب — غارقة فى سحابة من نور هبط منها ملاك له وجهان أحدهما مضىء كالنار ، والآخر كالدخان .

وجهه الأول كالليل البهيم ، ووجهه الثانى كالشهاب المنير ، فى كل وجه عين ، فعين الأول يقظة ، وعين الثانى نائمة .

« أما جناحه فتتبدى فيه مختلف الألوان . وهو مثل الخيال : فى مزاجه حدة وجموح وسرعة ، لا تستغرق منه المسافة بين الأرض والمجرة لحظة واحدة ، ولديه رغبة متجددة على الدوام فى نشر جناحيه فى سماء أخرى »(٢) .

ولعل اختلاف اللون فى جناح الزمان ، والحدة والسرعة والانتقال الذى يتجلى فى حركته ، رمز للتغير الذى يتجلى كل لمحة فى الكائنات ، فالزمان فى حالة تغير ومرور فى كل حين .

---

(١) انظر كريستسن : ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٢٢ ، ١٣٨ — ١٤٧ ،د شير أحمد دارا : اقبال أور مسئله زمان ومكان،ماهنو،اقبال نمبر ، أبريل ١٩٧٠ ،ويوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ٣٥٦ ، ودكتور محمد معين اقبال وايران باستان ، مقال منشور فى « اقبال نامه » ص ٥٠ — ٦٣ .

(٢) ويمكننا أن نلمح هنا استفادة اقبال فى هذا المشهد من الخصائص التى ذكرها كتاب السيرة (للبراق النبوى) .

٢ ــ زروان يتحدث عن نفسه :

قال « زروان » يصف نفسه وأحواله :

ــ « أنا زروان قاهر العالم ، أنا خفى عن النظر كما أنى ظاهر » . فذاتى لا تتراءى للنظر وان كانت أفعالى وآثارى ظاهرة للعيان ، فالجميع يحسون بى لكنهم لا يروننى .

ــ « ان كل تدبير معلق بقدرى ، والناطق (الانسان) والأعجم (الحيوان) فى قبضتى ، بفعلى تنمو البراعم على الأغصان وتشدو الطيور فى أوكارها . وتتجول الحبة بمرورى الى أغصان ويتحول كل فراق وبعد يفيضى الى وصال . اقبل وأعرض ، أظمىء لكى أحضر الشراب . أنا الحياة، أنا الممات ، أنا النشور ، أنا الحساب ، أنا النار ، أنا الفردوس والحور . الانسان والملاك أسرى قيودى ، عالم الأيام الستة مولودى ، أنا كل وردة تقطفها من الغصن،... بل أنا كل شىء تراه.فهذا العالم أسير فى طلسمى، هذا العالم يشيخ كل لحظة من خلال أنفاسى » .

ونلاحظ ان اقبالا يتحدث هنا عن روح الزمان والمكان بما يشبه حديثه فى « تجديد التفكير الدينى » عن الزمان الكلى ، فهو يقول : « والزمان باعتباره كلا ، هو الذى يسميه القرآن « القدر » ...وبالاختصار هو الزمان كما نشعر به لا كما نفكر فيه أو نحسبه ....والزمان بوصفه قدرا هو ماهية الأشياء ذاتها كما جاء فى القرآن « انا كل شىء خلقناه بقدر(١) » . فتقدير شىء اذن ليس قضاء غاشما يؤثر فى الأشياء من خارج، ولكنه القوة الكامنة التى تحقق وجود الشىء ، وممكناته التى تقبل التحقق ، والتى تكمن فى أعماق طبيعته ، وتحقق وجودها فى الخارج بالتالى دون أى احساس باكراه من وسيط خارجى »(٢) .

« على أن أى أمرىء يستطيع أن يحطم طلسمى اذا استقر فى قلبه الحديث القدسى : «لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولانبىمرسل» ، فلو أردت أن تزيلنى من طريقك ، فقل بلسان الروح : « لى مع الله » .

وربما كان اقبال يقصد هنا أن المرء اذا عاش فى « الزمان الالهى » استطاع أن يتغلب على الزمان المتجدد الذى ينقسم الى ماض وحال ومستقبل .

٣ ــ ثورة فى شعور اقبال :

يقول اقبال : وبعد أن انتهى « زروان » من أقواله نظر الى نظرة لم أشعر بعدها الا وكأن هذا العالم القديم قد نزع من ناظرى انتزاعا . . هل

---

(١) القمر : ٤٩ ، ويمكننا ان نذكر آية شريفة أخرى فى هذا الصدد هى قوله تعالى : وأن من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم (الحجر : ٢١) .

(٢) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، الترجمة العربية ص ٦٠ ــ ٦١ ، والترجمة الفارسية ص ٦٠ .

انفتح بصرى(١) على عالم آخر ، أم أن هذا العالم نفسه قد تبدل .

لقد قضيت نحبى فى عالم اللون والرئحة ، عالم الحس ، وولدت فى عالم بدون أنات وآهات ، وانقطع رباطى بالكلية عن ذلك العالم القديم وأصبح بين يدى عالم جديد .

وأخذت الروح منى ترتجف فرقا من ضياع عالم ، حتى تفتح من غبارى عالم آخر .

واضحى جسدى أكثر رشاقة وخفة وازدادت نزعة الأقدام فى روحى ، وصارت عين القلب أكثر حدة ويقظة .

والآن — هاهى ذى الحقائق الخفية تتجلى دون لبس او غموض . . . ثم ، تناهى الى سمعى شدو النجوم .

« أنشودة النجوم »

فى هذه الأنشودة الرائعة التى يستمع اليها اقبال بينما هو يصعد فى السماء ، وبعد أن أحس فى نفسه خفة ، ووجد فى شعوره رغبة فى التحليق — فى هذه الأنشودة تتحدث النجوم عن الانسان ، وعن قدره وقيمته وعن القدرات التى يمكنه أن يجتنيها من مسلك العشق فتقول :

١ — لا تنشغل عن هدفك الأسمى :

« عقلك هو ثمرة الحياة ، عشقك هو سر الكون ، ياصرح التراب مرحبا بك فى هذه الناحية من عالم الجهات » ، أيها الانسان ! لقد حباك الله بنعمتين هما العقل والعشق ، فما العقل ؟ هو ثمرة الحياة لانك تحصل على المعلومات بواسطة حواسك وتختزنها فى عقلك ، فهو حصيلة نظرتك الى الحياة . أما العشق فله شأن آخر أنه سر الكون . . . فمرحبا بك ، أيها الانسان ، ياصرح التراب ، بعيدا عن عالم المادة وعن قيود المكان .

«تتنافس بسببك الزهرة والمشترى وتتدافع التجليات على نظرة منك»، فرغم أنك ترابى ، الا ان هذه الأجرام السماوية المتألقة تغبطك على صفاتك الذاتية ، بل وتتنافس الكواكب عليك ، بل وتتنازع الكائنات كلها مع بعضها البعض علها تظفر بنظرة منك وتحظى برضاك .

« فى طريق الحبيب تجليات متجددة مستحدثة فى كل لحظة، ان صاحب الشوق والأمل لا يطمئن الى الكليات » ، فيا اقبال ! يامن تحلق فى طريق المحبوب الحقيقى ستعرض لك فى طريقك كل حين تجليات جديدة ، والعاشق الصادق لا يسلم قلبه للكليات العقلية ، شأنه فى ذلك شأن الرسول (ص) الذى لم يقتنع بالصفات ولم يرض الا بالذات الالهية .

---

(١) لعل فى هذا اشارة الى الحديث النبوى الشريف الذى يقول فيه الرسول (ص) « فانعكس بصرى فى بصيرتى » كما شرحه صدر الدين الشيرازى فى كتاب المبدأ والمعاد ص ٧٨ طبع حجر ، طهران سنة ١٣١٤ هـ حيث ينسب هذا الشرح للسهرودى المقتول .

فليكن هدفك الأسمى اذن هو وجه الحبيب ، ولا تصرفنك هذه التجليات ــ بما لهــا من سلطان ــ عن هدفك ، ولا تظنن أنك بمجرد أن حلقت فى السماء ستصل حتما الى الحبيب فالشقة أمامك ما زالت بعيدة والصعاب كثيرة .

وربما كان اقبال يشعر فى هذا البيت الشامل الى الخطر الذى تتعرض له الذات الانسانية فى بحثها عن الله فقد « يعرو نشاطها بعض الفتور نتيجة لاستمتاعها واستغراقها فى التجارب التى تسبق التجربة الأخيرة »(١) .

وتزود النجوم اقبالا بهذه النصيحة كى لا ينشغل عن هدفه بمطالعة التجليات ، وأن يركز على هذا الهدف دون سواه . « الحياة صدق وصفاء ، والحياة نشوء وارتقاء ، فسارع من الأزل الى الأبد ان الحياة ملك الله »(٢) . فالحياة حق من شأنها الرقى الدائم . والتكامل المتواصل ، ولا حد لا رتقاء الانسان ، فاطو أيها الانسان طريق الرقى حتى الأبد ، فلن تجــد نهايــة لرقيك .

٢ ــ أدع الى سبيل العشق :

تدعو النجوم اقبالا هنا الى الدعوة للعشق بين الناس أجمعين لكى تنصلح وتستقيم لهم الأمور ويفوزوا بمكانتهم فى الدنيــا والآخرة على السواء .

يقول : « امنح لشوق الشاعرية اجازة الآهات ، ورد الخمر للخليع والمحتسب زجاجة فى أثر زجاجة » ، فعندما يتضح لك أن العشق يمنح الانسان صبغة الصفات الالهية فلا تتردد ، واختر سبيل العشق ، وادع الناس جميعا الى هذا السبيل .

« لقد عودوا الشام والعراق والهند وفارس على سكر النبات ، فامنح مرارة الشوق لطبيعة السكر » ، . . . لقد ابتعدت الشعوب الاسلامية (فى الشام والعراق والهند وايران وغيرها) عن سبيل العشق وتطبعت بالخمول وايثار الراحة ، فامنحمن آثروا الراحة لذة العشق . . « امنح قلب الغدير لذة اندفاع السيل (الحركة) . فربما يدخل معركة مع المحيط ذى الأمواج العالية » .

« الرجل الفقير نار ، الحكم والقيصرية هشيم ، أن سيفا عاريا يكفى (لتدمير) عظمة الملوك وأبهتهم » . . . .

أما عرفوا أن الفقر(٣) (القوة ثم الاستغناء) نار تتأجج ، وأن الغنى والملك هشيم لا نفع منه ولا قيمة له أمام الفقر .

---

(١) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ــ الترجمة العربية ص ١٢٦ .

(٢) ويرى الأستاذ يوسف جشتى فى شرح جاويد نامه (ص ٣٦٥) أن فى البيت تلميحا للآية الكريمة « ولهم أجر غير ممنون » اى أجر لا حد لــه ولا نهايــة .

(٣) اصطلاح خاص باقبال يعنى التمكن ثم الاستغناء وسيأتى شرحه .

٣ — بين القلندر والاسكندر :

على لسان النجوم يقارن اقبال هنا بين « القلندر » و « الاسكندر » ، والقلندر اصطلاح استعمله اقبال بمعني المؤمن الذى يتصف : بعرفان الذات ، والرضا بقضاء الله ، والاستغناء ، وعلو الهمة ، والدأب المتواصل والجهاد ، والذى تتجلى فيه روح اعجاز لا تتجلى فى الجحافل الضخمة لكبار الفاتحين مثل الاسكندر ، يتمتع بالهيبة والوقار حيثما جل(١) .

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى مقدمته لترجمة ديوان « ضرب الكليم » احدى منظومات اقبال فى معنى القلندر : « يعنى به اقبال الانسان الذى لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار . وهو فى الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب واحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون فى مكان ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن »(٢) .

يوازن اقبال هنا بين القلندر — بصفاته المذكورة ، وبين الاسكندر بصفة القهر والغلبة فيقول :

« دبدبة القلندر ، هى جذبة الكليم ، طنطنة الاسكندر ، هى سحر السامرى » ، فوقع اقدام القلندر فيه جذبة الكليم حيث يكمن شأن النبوة ، فلقد تحلى القلندربعدد من صفات النبى ، ولكنه ليس بنبى . امـــا ضجة الاسكندر وصخب جحافله ففيها سحر السامرى انها خداع كالطبل الأجوف، فهى كالسراب بالنسبة لوقع اقدام القلندر ، آثارها تزول برحيل الجيوش اما آثار القلندر فتبقى خالدة فى القلوب .

« تلك بنظرة تقتل ، وهذه بجيش تقتل ، تلك كلها صلح ووئام ، وهذه حرب وصدام » . . . . اذ ان القلندر يحقق أهدافه — وهى الدعوة الى طريق الحبيب — بنظرة حانية رحيمة ، فها هو ذا شمس الدين التبريزى مرشـــد مولانـــا جـــلال الدين الرومى — وهو مرشد تتمثل فيه صفات القلندر — نظر نظرة واحدة الى الرومى فى أول لقاء بينهما فأحـــاله الى انســان آخر ، اختلفت كل أحواله عما كانت عليه من قبل(٣) . أما الاسكندر فلا يحقق هدفه — حب السيطرة والغزو — الا بالجيوش الجرارة والصدام والحرب .

« كلاهما فاتح للعالم ، كلاهما يبغى الخلود والدوام ، الأول دليله المحبة والثانى دليله القهر » فهدف كل من القلندر والإسكندر فتح العالم ، فكلاهما من هذه الناحية فاتح للعالم ، وكلاهما يريد لاسمه الخلود بعد

---

(١) انظر مولوى غلام محمد : « قلندر به اصطلاح اقبال ، اقبال ريفيو ، جـــولاى ١٩٦٣ ص ٢٠ — ٦٧ وقـــد ورد هـــذا البيت فى خطاب أرسله اقبال لمولانا سيد سليمان الندوى ضمن اربعة ابيات (انظر : اقبال أور سياسيت ملي ص ١٠٨ — ١٠٩) .

(٢) ضرب الكليم — الترجمة العربية ، المقدمة ص ع .

(٣) أنظر نيكلسون ، قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز ، ص ١٨ ، والترجمة العربية للمثنوى — مقدمة الجزء الأول للدكتور محمد كفافى ، ص ٤ ، ٥

وفاته ، ولكن شتان بين الوسيلتين فوسيلة القلندر الى ذلك هى المحبة ، ووسيلة الاسكندر القهر .

والآن وقد تبدى لك بوضوح الفرق بين الاثنين ، « فاقبل ومعك معول القلندر وحطم به سد الاسكندر ، وجدد رسم الكليم ، وحطم فتنة السحر ».

والأساطير الفارسية — بل والاسلامية بصفة عامة — تنسب الى الاسكندر المقدونى انشاء سد يأجوج ومأجوج ، وهو السد الذى قال فيه الله تعالى : « فاذاجاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا »(١) . وان كانت بعض الدراسات الحديثة تميل الى أن قورش هو ذو القرنين الذىبنىالسد المذكور(٢) .

وعلى هذا فاقبال يدعو القلندر الى تحطيم هذا السد لكى ينتهى هذا العالم الذى يزخر بظلم الملوك واستعبادهم للناس ولكى ينشأ عالم آخر جديد خال من الرق والعبودية ، ويقول على لسان النجوم : « لقد قلت لك ان ضجيج الاسكندر سحر سامرى ، فأقدم من الخلوة اذن وانسف هذا السحر — كما فعل موسى الكليم — وارفع شـأن القلندر وأبطل سحر سامرية العصر الحاضر » .

---

(١) سـورة الـكهف الآية ٩٤ وانظر : الدكتور عبد النعيم حسنين : بحث فى قصة السكندر ذى القرنين كما صورها الأدب الفارسى الاسلامى ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، ١٩٦٩ ، ص ١٠٣ — ١٢٨ .

(٢) أنظر كتاب « ويسألونك عنذى القرنين » لمولانا أبو الكلام آزاد ، طبع مصر ١٩٧٢ م .

الباب الثاني

العروج في الأفلاك

الفصل الأول

فلك القمـــر

يحتل فلك القمر فى فلسفة « الفيض » فى الافلاطونية الحديثة المركز العاشر والأخير فى سلسلة العقول التى صدرت بالتداعى عن المبدأ الواحد الذى تفيض منه جميع الكائنات(١) .

بينما يرى الحكماء وأصحاب الكشف من المسلمين — ولا سيما أولئك الذى تأثر بهم اقبال — مثل عبد الكريم الجيلى(٢) — أن القمر ليس بصادر ولكنه مخلوق خلقه الله تعالى من جملة الأفلاك التى يبلغ عددها ثمانية عشر فلكا . يحتل فلك القمر المركز الرابع عشر فى ترتيبها(٣) .

ويقول الجيلى : « جعل (الله) فلك الكوكب القمرى هو المتولى تدبير الأرض كما أن الروح هى تتولى تدبير الجسد »(٤) فهو مخلوق من حقيقة الروح . فالقمر بل — والافلاك كلها — وأن كانت أجساما الا أن لها ذواتا بريئة عن المادة(٥) .

ولقد جعل اقبال القمر أول مراتب الصعود فى معراجه الروحى(٦) . ويبدو اقبال وهو مقدم على القمر — بقيادة الرومى وارشاده — متحمسا غير عابىء بالمشكلات ، فما باله يتردد والكون مسخر له كانسان ، ان عليه أن يمضى فى ترقيه باغيا وجه الحق غير ملتفت الى مظاهر هذا الكون فلا وجود حقيقيا لها لأنها تحمل فى طياتها بذور الفناء والعدم . . . عليه الا يسكن لحظة واحدة الى هذه المظاهر وأن يتجاوزها الى ما وراءها .

ولكن يبدو أن الرومى — الخبير بأحوال النفس — يلاحظ وهما يقتربان من القمر تردد اقبال ، وربما كان هذا التردد راجعا الى شوائب المادة التى ما زالت الى الآن عالقة بروح اقبال والتى لم يتخلص منها رغم حماسه للعروج ، ولذا قال له الرومى « تطهر من الظنون » ورجاه بعد أن هبطا على سطح القمر الا يفقد يقظته وأن يتبعه فى صمت الى داخل احدى المغارات.

على أن اقبالا لم يكن قد تخلص بعد تماما مما علق بروحه من شوائب المادة ، اذ بينما هو يسير فى السرداب الموصل الى عمق المغارة هاجمته الأوهام والظنون من جديد وساوره الخوف من الظلام وخلا قلبه من لذة اليقين ، بيد أن هذا كله ما لبث أن تبدد وعم النور المكان ، فاطمأن قلبه

---

(١) انظر الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٢٨٨ وما بعدها ، والدكتور محمود قاسم : فى النفس والعقل ص ٢٢٤ .

(٢) Buch Der Ewigkeit, p. 3

(٣) عبد الكريم الجيلى (الجيلانى) : الانسان الكامل ج ٢ ص ٦٩ .

(٤) أيضا ، ج ١ ص ٦١ .

(٥) انظر الدكتور عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل ورسالة حى بن يقظان .

(٦) شأنه فى ذلك شأن عبد الكريم الجيلى فى معراجه الذى بينه فى الانسان الكامل ج ٢ ص ٦١ — ٦٩ .

بعد أن شاهد عارفا هنديا وصل الى مكانة رفيعة فى معرفة الحق بممارسته للرياضة الروحية .

وبعد أن يقدم الرومى اقبالا للعارف الهندى يسأل العارف كلا من الرومى واقبال بضعة أسئلة حيوية فيجيبان عليها ، وعندئذ تدب النشوة فى روحه ويفضى اليهما بأفكار تسع استخلصها من خلال تجربته الروحية.

وما أن ينتهى العارف الهندى من أقواله حتى تغيب روحه عن الوجود وتنشغل بالاتصال بالملأ الأعلى . ثم يبدأ ملك الوحى والألهام فى الالتفاف حوله ، وينصح الرومى اقبالا بأن يصيخ السمع الى الأنشودة التى يترنم بها هذا الملك والتى يدعو فيها اقبالا الى النظر الى الكون بعين العشق لا بعين العقل حتى يتسنى له فهمه وتسخيره .

وبعد أن ينتهى ملك الالهام والوحى من أنشودته يبدأ الرومى فى التعليق عليها ، فيتحدث عن الألهام الشعرى ويتحدث عن مكانة الشاعر باعتباره ملهما لأمته ، ثم ينتقل الى الحديث عن الوحى ممثلا فى النبوة وآثارها فى تطور الحياة الانسانية .

ويدعو الرومى اقبالا الى أن يسرع الخطو معه ليصلا الى وادى الطواسين ، الذى نقشت على حجارته لمحات من تعاليم أنبياء أربعة هم : بوذا وزردشت والمسيح ومحمد .

ولعل اقبالا ينادى هنا بفكرة جديدة فى تقسيم التاريخ البشرى على أساس النبوات ويعتبر أن للنبوة دورا رئيسيا فى توجيه التاريخ ، ويحاول تطبيق هذه الفكرة فيتحدث عن عصر البوذية الذى نظر الى المادة على أنها رجس فلجأ الى الرهبانية ، ثم عن الزردشتية التى دعت الى الحركة والى نبذ العزلة ، ثم المسيحية التى دعت الى الاعتدال والى تغليب الجانب الروحى على الجانب المادى ، وينتقل فى النهاية الى عرض آراء الاسلام فى القضايا الانسانية — والتى ما زالت تشغل البشرية الى يومنا هذا — وهى قضايا التفرقة العنصرية والوطنية والعدالة الاجتماعية ووحدة بنى الانسان .

* * *

والآن ننتقل الى التحليل التفصيلى :

يقدم اقبال لدى دخوله فى مدار القمر بتمهيد يتناول فيه أربعة أغراض هى :

١ — الكون مسخر للانسان :

يتحدث فى النقطة الأولى عن نظريته الخاصة بالحياة فيقول : « هذه الأرض والسماء ملك الله ، هذا القمر وهذه الثريا كلها ميراث لنا » فالكون وأن كان ملكا لله الا أنه ميراث للانسان « وكل ما يصادفه نظرك فى هذا الطريق ، انظر اليه بنظرة الألفة » ، اذ يجدر بنا أن ننظر الى الكون بعين فاحصة دراسة لمعرفة خواص الأشياء وتسخيرها لفائدتنا ، فاننا أن لم نفعل ذلك نكون كالغريب فى داره ، « فلا تسر فى ديارك كالغرباء ، يا من أنت غافل عن نفسك كن جسورا ولو قليلا »، وعناصر الكون طوع أمرك تمتثل

لحكمك « فهذا وذاك يتحرم حكمك ، واذا قلت لا تفعل هذا وافعل ذاك يمتثل لأمرك » لأن الله قد سخر لك الكون كله(١) .

« وما العـالم سوى أصنام العين والأذن ، وكل غـد له سيموت كالأمس » ،

فالواقع أن هذه الكائنات التى نراها أمامنا ونهيم بها ليست سوى أصنام نحتناها نحن بحواسنا ، فوجودها ليس حقيقا وانما هو اعتبارى محض ، هو مجرد خداع نظر. فانك لو تمعنت فى الكون لوجدت كل شىء فيه فى تغير دائم ويمضى الى زوال ، فعليك الا تنخدع بهذه الأوثان التى يمج بها العالم ، « وانطلق كالمجنون الى صحراء الطلب ، أى كن ابراهيم هذا الموثن » واسلك سبيل العشق تأسيا بابراهيم عليه الصلاة والسلام الذى حطم الأصنام بعد أن عرف الحق تعالى .

وعندما تطوى المقامات الأولى فى سبيل العشق ، « فترحل من هذه الأرض والسماء ، عندما تترك هذا العالم وذاك اطلب من الله سبع سماوات أخر ، اطلب مائة زمان ومكان آخر » لأن العشق يحقق لك الحياة المطلقة الخالدة ، وهى بحث وحركة .

« لو كانت نجاتنا هى الفراغ من الطلب لكان القبر أفضل من الجنة بألوانها وروائحها » .

أيها الانسان ، انك مسافر والشقة بينك وبينى أصلك الالهى بعيدة ، فعليك بالتحليق المستمر ، فرقى الحياة متوقف عليه ، أما السكون والمقام فهو الموت والفناء بعينه « أيها المسافر ! أن الروح تموت من المقام ، وتكون أكثر حياة بفعل التحليق المستمر » .

وهكذا نرى أن اقبالا يركز فى هذه النقطة على مبدأ الحركة ، فالحركة عنده هى الحياة ، أما السكون والمقام فهو الموت والهلاك ، وهذا هو الرأى الذى وصل اليه الاسلام باعتباره حركة ثقافية(١) .

٢ ـ التطهر من الظنون :

يتحدث اقبال عن احساسه بالمتعة لدى تحليقه وسط النجوم ، ويعبر عن دهشته من ارتفاع جسده الترابى الكثيف فوق قنديل الليل ، أى القمر، الذى كان يقترب رويدا رويدا حتى بدت جباله ، وعندئذ :

« قال الرومى : تخل عن ظنونك ، وتعود على طريق الفلك ورسمه » ، تطهر ـ يـا اقبـال ـ من الظنون ، والق بالشوائب الأرضية التى ما زالت عالقة بك جانبا فأنت فى عالم الأفلاك ويجدر بك أن تتعود على الحياة فى العالم الأعلى .

« ان القمر بعيد عنا لكنه يعرفنا ، وهو أول منزل فى طريقنا ، من الممكن مشاهدة عصوره البعيدة والقريبة ، من الممكن مشاهدة المغارات فى جباله»، فهيا بنا لنلقى نظرة عليه .

(١) انظر المحاضرة السادسة من كتاب اقبال : تجـديد التفكير الدينى ص ١٦٨ من الترجمة العربية وعنوانها : مبدأ الحركة فى بناء الاسلام.

٣ — وصف للقمر :

« ذلك الصمت وتلك الجبال المخيفة ، المملوءة بالنـــار فى باطنها ، الممزقة قطعا من خارجها . وهناك مئات من الجبال مثل « خافطين ويلدرم(١) » على فمها الدخان وفى باطنهـــا النار ، لا ينبت من قلبه أى عشب ، لا يطير فى فضاءاته أى طائر ، السحب فيه خالية من الندى ، رياحه سريعة حادة كالسيف ، كلاهما (السحب والرياح) فى معركة شرسة مع الأرض الميتة » ،

« جملة القول أن عالم القمر عالم منهك . الألوان ، والأصوات لا وجود لها فيه ، بل لا دليل فيه على الحياة أو الموت » .

« ليس فى نافجتــه جذر لنخل الحياة ، ليس فى صلب أيامه أحداث تقع ورغم أنه يعد واحـــدا من كواكب المجموعة الشمسية الا أن صباحه ومساءه — وهما رمزان للتغير والحركة — لا يتمخض عنهما أى انقلاب » .

٤ — الانتقال الى أحدى مغارات القمر :

ولما راى الرومى اقبالا مستغرقا فى تأمل ما حوله نبهه قائلا : « انهض وهلم بنا نمضى الى الأمام » ، ورجاه الا يفقد يقظته ثم قال : « ان باطن القمر افضل من ظاهره وفى كهوفه عالم آخر مختلف » عن العـــالم الذى تشهده على سطحه .

« أننا الآن سندخل أحد كهوف القمر ، ولكن أنصحك بأن تمعن النظر وتصيخ السمع جيدا ، فكل ما يعرض لك أيها الرجل النجيب ، خـــذه فى حلقات العين والأذن ، فالعين أن كانت مبصرة ترى كل شىء فى ميزان النظر ، وامض الى حيث يقودك الرومى ، وكن غريبا عمن سواه بضـــع لحظات » .

يقول ان الرومى أخذ بيدى برقة وأسرع الى أن وصل الى فتحة احد الكهوف .

لقـــاء بالعـــارف الهندى

الذى التزم الخلوة فى احدى مغارات القمر ويسميه الهنود

(جهـــان دوســـــت)

يقول اقبال « اننى وضعت يدى كالأعمى على كتف رفيقى وخطوت فى ذلك الكهف العميق ، وكان فى البداية مظلما للغاية ، وبدا لى أن قلب القمر كان قروحا وجروحا من ظلمة هذا الكهف بل كانت الشمس نفسها تحتاج فيه الى مصباح ، وحملت الأوهام والظنون على حملة شعواء ، وشجبت عقلى وتفكيرى فمضيت فى طريقى و (كأن) قطاع الطرق كامنون ، وخلا القلب من لذة الصدق اليقين ، الى أن تبددت الظلمة وعم النور المكـــان فتجلى للنظر دون حجب ، صبح مضىء دون بزوغ الشمس ،لم يكن ذلك ناتجا عن طلوع الشمس ولكن عن اشراق النفس ، فرأيت الكهف كأنه

---

(١) جبلان بركانيان فى القمر .

واد كل حجارته تربط الزنار(١) فبدا كمأوى للشياطين بسبب ما فيه من نخل عال . . . فتساءلت بينى وبين نفسى هل هذا المكان ينتمى الى عالم الماء والتراب أم أن خيالى يرسم الصور فى حلم من الأحلام ، فجو المكان كالخمر يبعث الشوق والسرور فى النفس،والظل بتقبيل ترابه هو نفس النور، لم يرسم شفق أفقه الأحمر والأصفر ، وهناك لم يكن النور فى قيد الظلام ، هناك لم يكن الضباب يغلف الصباح والمساء » .

١ — العارف الهندى جهان دوست :

وهناك جلس عارف من أصل هندى تحت شجرة نخيل ، سواد عيونه مضىء بالكحل . عارى الجسد ، عقد شعره على رأسه،وحوله ثعبان أبيض يتلوى . انه انسان أرقى من الماء والطين ، والعالم مجرد صورة فى دير خياله(٢) ، ووقته لا يتعلق بمرور الأيام ولا شأن له مع الفلك الدوار فهو لا يحسب بمرور اللحظات الزمنية وتقلب الليل والنهار(٣) .

ويرى « باوزانى » فى ترجمته الايطالية لرسالة الخلود ، و « يوسف سليم جشتى » فى شرح الرسالة أن جهان دوست هذا الذى يتحدث عنه اقبال هو « وشوامتر » الذى كان حاكما لأحدى الولايات الهندية ، وكان « شتريا » وهى الدرجة الثانية فى الترتيب الطبقى الهندوسى . ولكنه أرتقى الى درجة « برهمن » بفضل رياضته الروحية وزهده ، ثم نال لقب « راجارش » اى عابد البلاط لسعة علمه وفيض بيانه ، فنقم عليه الحاسدون وارادوا الكيد له بابعاده عن الحياة الروحية فزجوا له بأمرأتين جميلتين تزينان له الوقوع فى الخطيئة فاستطاعت أحداهما الايقاع به(٤) .

وهنا يثير الأستاذ يوسف جشتى شارح رسالة الخلود فى اللغة الأردية سؤالا حول السبب الذى دفع اقبالا الى اختيار وشوامتر بالذات مع أنه كان مشركا ؟ ويرجع ذلك الى ثلاثة أسباب :

---

(١) « أى كانت فيها خطوط تشبه الزنار » يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ص ٣٧٩ .

(٢) يرى الغزالى ان كمال النفس العاقلة هو فى ادراك العلم والسمو فى تحصيله حتى تنقلب فتصبح عالما عقليا تنعكس فيه صور الكون وما ينطوى عليه من نظام وخير ، وهى فكرة السعادة عند فلاسفة الاسلام . انظر دكتور ابراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية ص ٤٣ ، ٤٤ ، الآمدى ، غاية المرام فى علم الكلام ص ٤١ . وانظر د. محمود قاسم : فى النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام ص ٢٢٤ .

(٣) اتصال المريد بالذات الأزلية يبعث فى نفسه شعورا بأن الزمان المتجدد لا حقيقة له » محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، الترجمة العربية ص ٣٠ — ٣١ .

(٤) يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ٣٨٠ .

٢ — أن اقبالا أراد بذلك أن يثبت أنه لم يكن متعصبا لطائفة دون أخرى وذلك ردا على الأعتراضات التى وجهت اليه بأنه يذكر المسلمين فى الهند وحدهم فى مؤلفاته .

٢ — انه أراد أن يوجه رسالة الى أبناء الهند بلسان عالم من علمائهم .

٣ — انه اراد ان يبين أن وشوامتر مع طول باعه وعلو مرتبته فى الرياضة الروحية لم يبلغ مبلغ الرومى من العلم والمعرفة لأنه يطالب الرومى بتوضيح بعض المسائل الرئيسية فى الحياة .

وربما كان السبب الثالث — فى رأيى — هو السبب الرئيسى ، اذيبدو لى أن اقبالا يرمز بجهان دوست الى المعرفة الناقصة ، وهى المعرفة التى يحصلها الانسان دون اعتماد على مصدر سماوى أو على الوحى(١) ، ولسنا نقصد بذلك أن نقول ان الأقوال والأشارات التى أوردها اقبال على لسان جهان دوست خاطئة ، انها سليمة ومتمشية مع الروح الاسلامية ولكنها تبدو مبتورة ليس فيها وحدة أو تماسك ، وسيتضح هذا من خلال عرضنا لاشعار اقبال فى هذه النقطة ، ونلاحظ أن جهان دوست اعترافا بفضل الرومى وعلو كعبه فى ميدان المعرفة يوجه اليه بضع أسئلة قبل أن يتحدث هو ، فهو يسأله أولا :

٢ — من اقبال ؟

يعرف اقبال بنفسه على لسان الرومى ، وذلك حين يسأل جهان دوست الرومى قائلا : من معك ؟ ان فى نظراته شوقا الى الحيــاة (يعنى حيــاة الخلــود) .

ويجيب الرومى :

« هو رجل هائم فى الطلب (انه يبحث عن الحق) ثابت (كنجم) ، بفطرة سيارة » ، لقد قابل اقبال بين لفظى « ثابت » و « سيار » لكى يوضح حقيقة شخصيته ، فهو يسعى وراء هذا الهدف الذى حدده لنفسه ألا وهو الوصول الى الحق . وهذا الهدف ثابت على الدوام ، فهو المحور الذى ترتكز عليه حياة الباحث عن الحق ، والمحور دائما ثابت ، أما عملية البحث عن الحق فهى تجعــل الانســان هــائما لا يقر لــه قرار ، اذ يسير من مقام الى مقام فى بحثه بينما الهدف وهو الحق ثابت أمامه لا يتغير .

« عمله أنضج من خامته ، وأنا — شهيد عدم كماله » فرغم أنه يبدو فى الظاهر فجا غير ناضج لم يحصل القدر الكافى من المعرفة الا أن عدم اكتماله ذاك يؤكد أنه سيصل فى النهاية الى هدفه ، ويشير اقبال فى هذا

---

(١) وقد أشار اقبال الى أن مثل هذه المعرفة التى تعتمد على التفكير المجرد دون أن تجعــل للانســان سلطانا على أوضــاع الوجود المحسوس أنما تفتقر الى النضــج (أنظر تجــديد الفكر الدينى — الترجمة العربية ص ١٤٤) . وستصــادفنا هذه الفكرة كثيرا فى منظومتنا هذه .

البيت على لســان الرومى الى أن رقى الانسان متوقف على ادراكه أن علمه لم يكتمل ، والتدهور يبدأ من النقطة التى يظن فيها الانسان أنه بلغ ارقى درجات العلم ، ولا ريب أننا يمكننا أن نسند هذه الفكرة الى نظرية اقبال عن « مبدأ الحركة » التى تحدث عنها فى « تحديد التفكير الدينى فى الاسلام(١) » . يقول الرومى : « أنا شهيد عدم كماله » . فلقد أراد بعد أن تحقق من قصور معرفته أن يتزود بالعلم والمعرفة فاتجه الى مؤلفاتى والى مسلكى فى الحياة ، وهكذا تحولت الى دوافع تدفعه الى الرقى فى مدارج المعرفة ، وأنا فداء هذا الدافع الجـليل . والفكرة أصلا يتضمنها حديث يروى عن النبى (ص) « لا يزال الرجل عالمـا ما طلب العلم فاذا ظن انه قد علم فقد جهل » .

« جعل من زجاجته مدخلا الى الفلك ، ان فكره يطلب الصداق من جبريل » لقد تعالى على الماديات وربط قلبه (زجاجته) بالعالم العلوى ، أما أفكاره فهى سامية بدرجة تجعلها تطلب الصداق من جبريل ، (حيث نال مقاما عليا فى الشوق) وهو ينقض « كالعقاب لصيد القمر والشمس ، ويطوف فى حماس بين الأفلاك التسعة » . فهو يسعى الى بلوغ درجة رفيعة فى عالم الروح(٢) .

« خاطب أهل الأرض فى كلمات سكرى ، وسمى الحور أصناما والجنة موثنا »(٣) ، فلقد أعلن لأهل الأرض وهو ثمل بالعشق — وفى شطحة من شطحات العارفين — أن الحور أصنام والجنة ما هى الا موثن لا يجدر أن يلتفت اليها . فهدفه الأسمى ليست الحور والجنة بل خالق الحور والجنة. والواقع أن وجه الله هو هدف الصوفية الأسمى ، يقول الأمام الغزالى : « من يعبد الله للجنة فقد جعل الله تعالى واسطة طلبه ولم يجعله غاية مطلبه . . . وأما من لم يكن له محبوب سوى الله ولا مطلوب سوى الله ، بل حظه الابتهاج بلقاء الله والقرب منه والمرافقة للملأ الأعلى المقربين من حضرته فيقال انه يعبد الله لله لا على معنى أنه غير طالب للحظ ، بل على معنى أن الله تعالى هو حظه وليس يبغى وراءه حظا »(٤) .

يقول الرومى . « رأيت فى موج دخـــانه شعلات ، رأيت الكبرياء فى سجوده »(٥) .

فحياته وأن كانت مادية فى الظاهر الا أن العشق كامن فيها ، وهو لا يسعى الى الفناء فى الله وانما يسعى الى احكام ذاته حتى وهو ساجد أمام الحق . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه،وهو ساجد»ان القرب من الله يحقق للانسان الكمال ولكن ليس القصد

(١) المحاضرة السادسة : مبدأ الحركة فى بناء الاسلام ص ١٦٨ — ٢٠٨ من الترجمة العربية وص ١٤٧ — ٢٠٤ من الترجمة الفارسية .
(٢) انظر يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ٣٨٣ .
(٣) الموثن : المكان الذى تعبد فيه الأصنام .
(٤) أنظر الغزالى : المقصـــد الأسنى فى معرفـــة أسماء الله الحسنى ص ٢٣ .
(٥) « موج الدخان » كناية عن الحياة المادية ، والشعلة كنايـــة عن المعرفة . شرح جاويد نامه ص ٣٨٤ .

من هذا القرب أن يفنى وجوده فى وجود الله ، كما تقول فلسفة الاشراق بل هو ، على العكس من هذا يمثل الخالق فى نفسه(١) » فتتجلى فيه وهو ساجد صفة الكبرياء .

ففى كل حين تطرأ عليه جذبة العشق ، وكما أن الفراق يقتله فان الوصال — وهو بغية العاشقين — يقتله أيضا . فالعاشق الصادق يسعى للوصول الى المحبوب ولذا لا يروق له الفراق ، لكنه يعرف أن الوصال معناه نهاية الطلب لذا فالوصال لا يروق له أيضا ، وهكذا تصبح حياته سلسلة من التوتر الدائم ، يقول اقبال(٢) : « وشخصية الانســان من الوجهة النفسانية حال من التوتر . ودوام الشخصية موقوف على هــذه الحال .فان زالت هذه الحال اعقبتها حال من الاسترخاء مضرة بالذات.فان يكن فى حالة التوتر هذه كمال الانسان فعليه أن يعمل لدوام هذه الحال والحيلولة دون حال الاسترخاء . وكل ما يمكننا من أدامة حال التوتر يمكننا من الخلود » .

يواصل الرومى وصفه لاقبال قائلا : على أننى « لست أدرى ما الذى فى مائه وطينه ، لست أدرى شيئا عن مكانته ومقامه » .

وبعد أن اطمأن جهان دوست الى اقبال وجه الى الرومى ثلاثة أسئلة فى آن واحــد :

٣ — ما العالم ، ما آدم ، ما الحق ؟

والواقع أن الفلسفة حاولت منذ نشأتها الأجابة على هذه الأسئلة الثلاثة ولكنها ظلت مستعصية على الحل .

وقد نصح حافظ الشيرازى بحلها بطريق آخر حين قال وهو يشير الى هذه المشكلة : تحدث عن المطرب وعن الخمر ولاتبحث فى شئون الدهر فلم يحل أحد بالفلسفة ولن يحل هذا اللغز(٣) .

فحافظ يرى أن الفلسفة (حكمت) لا يمكنها أن تحل هذا التساؤل ، لذا فقد أحالنا على المطرب (المرشد) والخمر (شراب المعرفة) .

ويحاول اقبال الاجابة على هذه المعضلة فيقول — بلسان الرومى — فى بيت من الشعر جامع :

«الانسان سيف ، والحق تعالى هو ضارب السيف ، أما العالم فهو المشحذ الذى يسن به حد السيف » . فالانسان آلة فى يد الله ينفذ بواسطتها

(١) محمد اقبــال ، مقدمتــه لأسرار خودى ، أنظر ص ٥٢ من كتاب « محمد اقبال . . » لعزام .

(٢) مقدمة اقبال على الترجمة الانجليزية لأسرار خودى التى نشرها نيكلسون ص ١٤ ، وقد ترجم عزام مقتطفات من هذه الترجمة فى كتابه « محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره » أنظر ص ٥٦ .

(٣) ديوان حافظ الشيرازى ص ٥ ، وانظر الدكتور ابراهيم الشواربى أغانى شيراز ج ١ ص ٥٤ .

فالجسد كما يقول اقبال ليس اطار او محملا للروح بحيث يكون كل

احكامه وأوامره ولا يحصل الانسان (السيف) على الامكانيات التى بها يستطيع أن يؤدى رسالته الا اذا اجتك بمشكلات الكون ، ومن ثم فان الانسان اذا ما ترك العالم وانعزل عنه علاه الصدأ ولم يعد له من فائدة « باعتباره عنصرا ثابتا فى تركيب الوجود(١) » . ولذا فقد ذم الاسلام الرهبانية والانعزال عن الدنيا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية فى الاسلام » .

وطالما كان الانسان أداة فى يد الله فعليه اذن أن يتحول بكليته اليه ، وهو ما يسميه التصوف اصطلاحا « بالتسليم والرضا » .

يقول الرومى :

— لقد رأى الشرق الحق ولم ير العالم ، وزحف الغرب فى العالم ، وجمح من الحق .

فمما يبعث على الأسى أن أهل الشرق والغرب على السواء نسوا أن الله بمنزلة ضارب للسيف وأن العالم هو المشحذ الذى يسن هذا السيف ، أى أن الانسان يجب عليه أن يرتبط بالحق والعالم كليهما .

لكن أمم الشرق اتجهت بكليتها الى الحق صارفة أنظارها عن العالم ، مما جعلها لا تعبأ بتسخير الكون ، فتحولت الى فقر وعوز واستذلها غيرها .

أما أمم الغرب فقد وجهت كل أهتمامها للعالم وغفلت عن الحق تعالى تماما ، الأمر الذى أدى بها الى عبادة المادة والتجرد من خلال الانسانية الحقة .

يعقب الرومى على هذا بقوله : « ان العبودية هى رؤية الحق والحياة هى رؤية الذات (الالهية) بلا حجاب » . فانك اذا عرفت الحق تعالى دانت نفسك بالطاعة والتسليم ووقفت منه موقف العبودية وجعلته فى كل حال نصب عينيك ، واذا عرفت نفسك باعتبارك اداة فى يد الله ، وباعتبارك أشرف مخلوقاته ، وخليفة له فى أرضه عمدت الى اجراء أحكامه فى الكون فسخرته وسيطرت عليه . . وهذه هى الحياة . « وعندما يحصل العبد على نصيب من الحياة ، فان الله ذاته يتلو عليه الصلوات » ، أى أنه يرضى عنه ، فرضا البارى تعالى هدف حياة الانسان يقول تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »(٢) .

وفى النهاية يقول الرومى : «اذا غفل إمرؤ عن قدره ، فان ترابه لا يأتلف مع نار الروح » ، فاذا لم يعرف الانسان قدره — أى المقصد الأعلى من حياته — فان شخصيته تظل محرومة من حرقة الروح وجذبة العشق ، ويعيش كما تعيش الهوام والدواب ممزق الشعور ، مفتقدا سكينة المعرفة وطمأنينتها .

وبدا الانفعال على « جهان دوست » بعد أن سمع هذه الحقائق تتدفق على لسان المرشد الرومى ، فبدأ يتحدث بدوره .

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، الترجمة العربية ص ١٩
(٢) سورة الناريات : ٥١

٤ — جهـان دوست :

« لقد وقع الشرق فى شرك الوجـود والعدم ، فرأى قليلا من هــذه الأسرار » فقد أنفقت أمم الشرق أجيالا من أعمارها فى البحث عن مسائل الوجود والعدم ، وقلما اهتمت بهذه الحقائق والمعــارف الأساسية التى ذكرها الرومى ، ورغم ذلك فانى « لست يائسا من مستقبل الشرق ، فقد هبط بالأمس من السماء ملاك على جبل قشمرود »(١) يتقطر من نظراته شوق المشاهدة ، وهو لم ينظر الا نحو بلادنا (الهند) ، فسألته : قل لى بربك ولا تخف سرا عن أصدقائك ما الذى تراه فى هذا الرماد (البـلد) الخامد لكى تعجب به على هذا النحو ، هل ذبت فى جمال زهرة ؟ هل ألقيت القلب فى بئر بابل(٢) ؟ فأجاب الملاك : ان الشرق مقبل على تطور عظيم ، اذ توشك أن تظهر فيه شمس جديدة هى شمس الحرية ، لقد رأيت فى جنباته بعثا جديدا ، فطوبى لشعب ازدهرت روحه وخلق نفسه من طينه من جديد ، انها رغبة التحرر هى التى بعثت فيه الحياة ، انه يكون عيدا كبيرا لملائكة العرش يوم تستيقظ أمة » .

٥ — جهان دوست يوجه عشرة أسئلة لاقبال :

يقول اقبال ان جهان دوست سكت برهة ثم التفت الى ووجه الى فى لهفة عددا من الأسئلة :

١) قال : « ما موت العقل ؟ » قلت ترك الفكر ، اى أن عقل الانسان يموت عندما يترك التفكير ويصبح فريسة للتقليد الأعمى .

٢) قال : « ما موت القلب ؟ » قلت ترك الذكر ، فقلب الانسان يموت حين يغفل عن ذكر الله أى عن طاعته والتفكر فيه .

٣) قال : « ما الجسد ؟ » قلت هو الذى ولد من غبار الطريق ، ولقد قال اقبال فيما سبق :

— يا من تقول ان الجسد حامل للروح ، انظر سر الروح ولا تعبـأ بالجســد .

---

(١) جبل من جبال القمر ، أنظر جاويد نامه ص ٣٦

(٢) فى البيت تلميح لقصة هاروت وماروت ، واشارة الى ما اتفق عليه أغلب المفسرين لقوله تعالى فى ســورة البقرة الآية ١٠٢ : « . . . يعلمون النــاس الســحر وما أنــزل على الملكين ببابــل هاروت وماروت . . . » .

يقول البيضاوى فى تفسيره : « وهما ملكان أنزلا من السماء لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزا بينه وبين المعجزة ، وما روى (من) أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها « زهرة » فحملتهما على المعاصى والشرك ثم صعدت الى السماء بما تعـلمت منهما . . . الخ » (تفسير القرآن الكريم ، للبيضاوى ، ص ٣٠) .

— ليس حاملا ، هو حال من أحوالها ، واعتباره حاملا لها انما هو خـداع أقوال .

فالجسد كما يقول اقبال ليس اطارا أو محملا للروح بحيث يكون كل منهما منفصلا عن الآخر ، بل ان الجسد ليس له وجود مستقل بل هـو عبارة عن حالة من مختلف أحوال الروح .

وهو هنا يقول ان الجسد هو الشيء الذى ولد من غبار الطريق أى الشيء الذى ظهر على جوهر الحياة بسبب طول السفر فى هيئة الغبار الذى يظهر على شخص سافر سفرا طويلا . فلقد اختارت الحياة السفر الطويل ، ومن الواضح أن اقبالا يريد هنا أن يستعير تصوير الرومى فى المثنوى لرحلة الحياة حين يقول عن الانسان :

— لقد جاء أولا الى اقليم الجمـاد ، ثم انتقـل من الجمادية الى النبـاتية .

— فعمر سنوات طويلة فى النباتية ، وبسبب الصراع لم يذكر شيئا عن الجمادية .

— ولـما انتقل من النباتية الى الحيوانية ، لم يذكر شـيئا قط عن حالتـه النبـاتية .

— الا هذا الميل الذى يحس به نحوها لا سيما فى وقت الربيع وتفتح الأزهـار والرياحين .

— ثم دفع به من حيوانيته الى الانسانية ، ذلك الخالق الذى يعرفه حق المعرفة .

فالسفر الطويل هو عبور الانسان لأطوار الجماد والنبات والحيوان قبل أن يصبح انسانا .

(٤) قال : ما الروح ؟ أجبت : هى حقيقـة « لا اله الا الله » .

مجمل القول أن :

(أ) المـادة ليست شيئا مستقلا بذاته ، بل هى عبارة عن شـكل كثيف للروح .

(ب) والروح ليست شيئا مستقلا بذاته(١) بل هى قبس من النـور الالهـى .

(٥) قال : ما الانسان ؟قلت من أسراره « لقد سـألنى عن حقيقة الانسان ، فقلت له كما أن الروح هى سر لا اله الا الله ، فان الانسان سر من أسرار الله » .

يقول اقبال فى ضرب الكليم تحت عنوان « الانسان » :

ذا طلسم الـكون والعـدم	سـمى الانسـان من قـدم
هـو سر اللـه جـل فـلا	يحتـويه الوصـف فى كـلم
ان هـذا الدهـر مـن أزل	مـن سـفار بـاء بالسـقم

(١) انظر شرح جاويدنامه ص ٤١٦ .

(٢) الترجمة العربية لضرب الكليم — للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٣٩

ومضى الانسان سيرته لم يصب بالضعف والهرم
واليك السر أعلنه ان تسعه غير متهم
ما بدا روحا ولا بدنا ذلك الانسان للفهم

ويقول فى « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام(١) » :

« ومع أن نصيب الانسان فى الوجود شاق ، وحياته وهن كورقة الورد ، فليس للروح الانسانية نظير بين جميع الحقائق فى قوتها ، وفى الهامها ، وفى جمالها ، ولهذا فان الانسان فى صميم كيانه كما صوره القرآن قوة مبدعة وروح متصاعدة تسمو فى سيرها قدما من حالة وجودية الى حالة أخرى » .

وكأن اقبالا يريد أن يقول ان الانسان ما هو الا نفحة من نفحات الله ، كما يصرح فى القرآن : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »(٢) .

(٦) قال : ما العالم ؟ « قلت هو نفسه فى مواجهة نفسه » أى أن العالم هو تلك الظواهر المادية كما تتمثل فى الحواس الخمس للانسان ، ولما كان العالم لا يدرك الا بحواس الانسان وبنور عقله . والانسان بدوره جزء من العالم ، فكأن العالم لا يرى الا من خلال نفسه .

ويمكن أن نقول : ان العالم الا مجلى للذات الالهية ، أو انعكاسا لأسمائها وصفاتها غير أنه — بدون الانسان — يسبح خالقه بالفطرة المسخرة دون وعى منه ، فاذا جاء الانسان آخر التجليات وأكملها والذى هو مخلوق على الصورة الالهية أمكنه بفطرته الواعية أن يدرك العالم ويشهد تجلى الحق — تعالى — فيه . فالعالم اذن — وهو فيض الذات ومظهر الحق — يكون فى مواجهة مستوى آخر وأعلى من التجلى والفيض وهو الانسان العارف . . . أنه اذن نفسه فى مواجهة نفسه .

٧ — « قال : ما حقيقة العلم والفن ؟ قلت انها قشور » ، لأن الانسان لا يستطيع أن يصل الى الله عن طريق الفلسفة والعلم وحدهما .

٨ — قال : « ما الحجة ؟ قلت وجه الحبيب » أى اذا كان العلم والفلسفة قاصرين عن الوصول الى معرفة الله فما الوسيلة اذن لحصول اليقين ؟ وكيف يمكن التوصل الى معرفة الله والايمان به ؟ فأجبت بأن ذلك ممكن بالمشاهدة ، أى برؤيته بالقلب . فالقلب هو الأداة الباطنية التى ترى الجواهر غير المادية ، ولما كانت الذات الالهية خارجة عن نطاق الحس ، فان القلب هو أداة رؤيته .

والصوفية يسمون تزكية هذه الأداة بالتصفية أو التجلية ، التى لابد أن تسبق « التحلية » التى هى المعرفة أو الرؤية أو الكشف .

٩ — قال : ما دين العوام ؟ قلت « الاستماع » ، أى الاكتفاء بالتقليد . والتقليد ينطوى على دمار للعقيدة لأن اليقين اذا تم عن طريق التقليد فانه يزول بمجرد ظهور اية بادرة للشك .

---

(١) الترجمة العربية ص ١٩ ، وانظر الترجمة الفارسية ص ١٦ .
(٢) سورة الحجر : ٩ وسورة ص : ٧٢ .

١٠ ــ قال : ما دين العــارفين ؟ قلت : « النــظر » فالعــارفون لا يطمئنون الى التقليد ولا يعولون عليه ســواء كان تقليدا للنصوص أو بقضايا العقول ، وانما يركنون الى التحقيق سعيا وراء اليقين ، ولذا فان ايمانهم يكون بمنأى عن أن تعصف به الشكوك والظنون أو تزعزعه .

يقول اقبال « فانتشت روحه من كلامى ، وافصح لى بدقائق رائعة » فقد تركت اقوالى هذه التى صدرت عن عقيدتى الاسلامية تركت آثارها على العارف الهندى فانتشت روحه وبدأ يفضى الى ببضع نكات دقيقــة استقرت فى قلبه .

٦ ــ تسع كلمات للعارف الهندى :

الكلمة الأولى :

« ان هذا العالم ليس حجابا لذات الحق ، فهيئة المــاء لا تحول دون الغوص فيه » . فانك لو أردت ذات الحق تعالى ، فان هذا العالم لن يحول بينك وبين ما تريد ، كما لا يحول سطح المــاء بين الغواص والغوص فى أعماق البحر . فالعالم هنا هو الوسط الذى يمكن للانسان أن ينفذ من خلاله الى معرفــة الله(١) ، وهو نفس المعنى الذى نجــده عند حــافظ الشيرازى اذ يقول :

ــ ليس بين العاشــق والمعشــوق حــائل قط ، فاكشف حجاب الذات يا حافظ(٢) .

الكلمة الثانيــة :

« ما افضل الولادة فى عالم جديد ،
شباب جديد » . فالولادة فى عا
ستصبح شابا من جــديد
من قيود الزمان والمكا
من جديد) اذا

الكلمة الثا

« الحق ,
(الحق) لا يدر
« فرغم أننا
الموت » . يقول الـ

---

(١) واليه الاشارة :
آياتنــا فى الآفاق
فصلت : ٤١

(٢) ديوان حافظ ، ص ٥
تصوف در اسلام » له

بل هو عين الحياة . والعبد يموت لأنه لم يوفق الى معرفة هذه الحقيقة وهى أن الحق عين الحيــاة ، ولو توفر للمرء اليقين بأن الحــق هو عين الحياة لحاول اظهار صفات الحق فى نفسه ، واول صفات الحق هى الحياة المطلقة الخالدة ، وسوف نرى اقبالا يوجه — فى نهاية رسالة الخلود — سؤالا الى الذات الالهية وهو ماثل فى الحضور فيقول :

— انت لا تموت فقل لى لم أموت أنا ؟

فيرد الحق تعــالى :

— لقد كنت فى العالم ذى الأبعاد ، كل من يختزن فيه يموت فيه .

فالموت مصير الانسان اذا ظل فى قيد الزمان والمكان ، وعليه أن يحطم هذا القيد اذا أراد الحياة الخالدة ، وذلك شأن العارفين .

ان ذات الله أعلى من الموت والعدم وقيود الزمان والمكان ، ولابد لكل انسان أن يتذوق طعم الموت ولو مرة . فالله حياة خالصة ، حيــاة ذاتية بريئة من مخالطة الموت .

الكلمة الرابعــة :

« ما الوقت ؟ هو حلوى ممزوجة بالسم ، هو رحمة شاملة مخلوطة بالقهر . فأنت لا ترى الحضر والبادية بمنأى عن قهره ، أما رحمته فتكمن فى قولك : لقد مضى » .

يبين اقبال — على لسان جهان دوست — ماهية الوقت (الزمان) ، ولقد اتضح فيما سبق أن اقبالا يرى أن الزمان فى الأصل هو الاستمرار والتوالى المتجدد لشئون البارى تعالى ، فلله تعــالى شئون لا تحصى ، « كل يوم هو فى شأن » ، ولله تعالى شــأنان معروفان هما : الرحمــة والقهر ، أو هما : الجمال والجلال فى اصطلاح الصوفية ، فالرحمــة هى شأن الجمال ، والقهر هو شأن الجلال ، وكلاهما ينعكســان فى شأن الزمان.

ويتحدث العارف الهندى عن هذين الشأنين فى هذه الكلمة فيقول ان

وقد يظن من لا يعرف رأى اقبال فى الجهاد أنه بهذين البيتين من الشعر يغض من شأن النضال المسلح ، فالجهاد بمعناه الواسع ــ والنضال المسلح ضد الباطل ركن من أركانه ــ هو أساس فلسفة اقبال . ولكن اقبالا يتحدث هنا عن جهاد النفس وهو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث مشهور « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ... جهاد النفس » .

الكلمة السادسة :

« الكافر اليقظ القلب الذى يتعبد أمام الصنم ، أفضل من المتدين النائم فى الحرم » .

ولعل اقبالا قد استعمل كلمة « حرم » هنا بمعنى العالم الاسلامى ، وهو يشير بذلك الى حالة السبات العميق التى كانت تنتاب العالم الاسلامى فى ذلك الحين ، ويقول ان الكفار فى يقظتهم أفضل من المسلمين فى نومهم وسباتهم .

وربما أراد اقبال بهذه القسوة فى التعبير أن تكون بمثابة الصدمة الكهربية التى تهز أفكار المسلمين من الأعماق فتجعلهم يفيقون ، وهو أيضا يجرى مع فلسفته التى تعتبر أن الكافر الحقيقى هو الجاهل بحقيقة نفسه المبدد لطاقاتها .

الكلمة السابعة :

« عمياء تلك العين التى ترى السوء والخطأ ، ان الشمس لا ترى الليل أبدا » . فالعين العمياء هى التى ترى الخطأ ، فاذا كان قلبك طاهرا نيرا فلن يتبدى لك فى الدنيا أى رجس أو سوء ، فتكون كالشمس لا ترى الظلمة (السوء) أبدا ، ويتبدد من أمامك الشر كما تتبدد الظلمة أمام الشمس . فالنقص أو الشر فى العالم ليس حقيقيا بل هو من نقص المعرفة وخفاء الحكمة(١) .

الكلمة الثامنة :

يتحدث العارف الهندى فى هذه الكلمة عن الآثار المترتبة على اختلاف الطبائع بين المخلوقات فيقول :

« ان رفقة الطين تجعل من الحبة شجرة ، (فرفقة الطين اذن مفيدة للحبة) بينما يسوء حظ الانسان من رفقة الطين » . فصحبة الانسان للمادة ــ اذا أخلد اليها ــ أمر يلحق بروحه أفدح الأضرار .

---

(١) وقد قال أبو ماضى (كن جميلا ترى الوجود جميلا) ومن قبل قال المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

على أن لهذه الفكرة أصولا فى الفلسفة لدى الفلاسفة المسلمين . راجع : (الفارابى عيون المسائل ص ٨ ، ابن سينا : النجاة ٣٨٤ ، ٢٩١ ، الشهرستانى نهاية الأقدام ٢٥١ ــ ٢٥٣ ، الغزالى : الاقتصاد ٤٨ ، ابن تيمية : الفرقان ١٠٩ ــ ١٢٠ ، والآمدى : غاية المرام ص ١٥٥) .

ويمضي اقبال قائلا على لسان العارف الهندي « فالحبة تحصل من الطين على التلوى والتعرج ، حتى تصيد بها أشعة الشمس » .

الكلمة التاسعة :

يبين « جهان دوست » فى هذه الكلمة أن الحق تعالى أودع فى كل شىء قوة تمكنه من جذب العناصر الملائمة له ، قال تعالى « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى(١) » ، وقال تعالى « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى(٢) » .

يقول : قلت للزهرة : أجيبيني يا ذات الصدر المزق ، كيف تحصلين على هذا اللون (الرائع) وتلك الرائحة (العطرة) من الهواء والتراب(مع أنه ليس فيهما لون ولا رائحة ؟) .

« فقالت الزهرة : أيها الذكى الذى يفتقر الى الذكاء كيف تحصل أنت على رسائل من (أسلاك) البرق الصامتة ؟ ، ان الروح فى جسدنا تكون من خلال جذب هذا وذاك ، جذبك أنت واضح وجذبنا نحن خفى » ، ففينا روح تجعلنا نجذب هذا وذاك مما هو مفيد لنا من مختلف العناصر ، والفرق بيننا وبينك : هو أن جذبك ظاهر وجذبنا نحن خفى ، وهذه اشارة الى ظهور أسلاك البرق فى الأرض ، أو الى الجذب الواعى لدى الانسان فى اقتناصه لما ينفعه ، واللاواعى فى الكائنات الأخرى .

٧ ــ العارف الهندى يغيب عن نفسه :

وبعد أن أفضى العارف الهندى بهذه الكلمات التسع لزم الصمت وطرأت عليه حالة من الانقطاع التام عن العالم . « انتزعه الشوق من نفسه ، وعندئذ دخل فى الوجود بواسطة سحر المشاهدة الالهية » ، فلقد ذهبت به جذبه العشق ، وانتقل الى الملأ الأعلى ليحظى بالمشاهدة .

ويبدو لنا أن ثمة تشابها بين « جهان دوست » هذا وبين « حى بن يقظان » على نحو ما وصفه ابن طفيل فى رسالته الشهيرة ، فكلاهما سلك طريق العقل والنظر للوصول الى الحق ، فأخذ فى تصفح الموجودات والبحث عنها للوصول الى فاعلها ، وكلاهما لزم مغارته لمزاولة رياضته الروحية معرضا عن جميع المحسوسات وانتهى بكليهما الأمر الى التعلق بالعالم الأرفع المعقول(٣) والاتصال بالملأ الأعلى .

ولكن هذه المعرفة التى كان طريقها الاستدلال العقلى ليست هى المعرفة الكاملة فى رأى الصوفية ، وهى أيضا عرضة للفتنة والوقوف فى منتصف الطريق والاكتفاء بالعالم عن خالقه وبالعقل عن الوحى ، كما حدث لجهان دوست نفسه حين وقع فى عشقه الأرضى وغفل عن الخالق

---

(١) سورة الأعلى : ٣

(٢) سورة طه : ٥٠ .

(٣) أنظر ابن طفيل : رسالة حى بن يقظان ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ١١٤ و ١٣١ و ١٤٢ وغيرها .

الحقيقى — كما تحكى الرواية — واكتفى بالمعرفة العقلية عن المعرفة الروحية(١) .

يقول عبد الكريم الجيلى : « ذهب أئمتنا الى أن العقل من أسباب المعرفة وهذا من طريق التوسع لاقامة الحجة وهو مذهبنا ، غير أنى أقول ان هذه المعرفة المستفادة بالعقل منحصرة مقيدة بالدلائل والآثار بخلاف معرفة الايمان فانها مطلقة ، فمعرفة الايمان متعلقة بالأسماء والصفات ومعرفة العقل متعلقة بالآثار فهى ولو كانت معرفة لكنها ليست عندنا بالمعرفة المطلوبة لأهل الله تعالى »(٢) . فلابد اذن للمعرفة من الايمان الذى حددت النبوة سبيله ، وسلكه أهل الكشف من العارفين .

وقد ساق ابن طفيل لحى بن يقظان فى عزلته بالجزيرة النائية ، وبعد وصوله الى هذه الدرجة من المعرفة ، « سلامان » الذى ينتمى الى ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن احد الانبياء المتقدمين صلوات الله عليهم(٣) فآمن حى — على يد سلامان — بهذا النبى وصدقه وشهد برسالته لعلمه بأنها الحق ، ولتطابقها مع ما وصل اليه بتأمله الذاتى .

أما اقبال فقد جعل « سروش » الذى يمثل ملك الوحى والالهام يتجلى أمام « جهان دوست » الذى حصل هذه المعرفة بغير طريق الرسالة .

« ظهور سروش »

١ — سروش هو مصدر الوحى والالهام :

« سُرُوش » كلمة بهلوية(٤) ، وهى فى اصطلاح الزرادشة ملك عالى الرتبة(٥) يبلغ رسالات الله الى رسله ، فهو من هذه الناحية يشبه جبريل الأمين . وقد أشار اقبال الى هذا المعنى حين قال على لسان الرومى :

فيه شان جبريل واسمه سروش .

---

(١) وفكرة الاعتماد على العقل الانسانى وحده موجودة أيضا لدى كل من ابن سينا ، والسهروردى المقتول . انظر كتاب احمد أمين (حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى) ، طبع دار المعارف مصر ١٩٥٩

(٢) الانسان الكامل ج ٢ ص ١٨ — ١٩

(٣) انظر حى بن يقظان ، تحقيق احمد أمين .

(٤) انظر مقال بالانجليزية كتبه عباد الله فاروقى بعنوان الزردشتية واقبال ، مجلة اقبال ريفيو ، اكتوبر ١٩٦٤ ، ص ١ — ٢٠ ويوصف « سروش » عند الزرادشة بأنه : ينزل قدره (أى قدر الله) على كل الكائنات ، وهو الذى يساعد فى خلق العالم .

(٥) انظر كرستنسن ، ايران فى عهد الساسانيين الترجمة العربيةص١٤٨

ثم استعلمت هذه الكلمة بعد ذلك بمعنى العقل الأول أو العقل الكلى ، وهو أول شيء « صدر » عن الله كما يقول بعض الفلاسفة ، ويطلق عليه عند كثير من فلاسفة المسلمين العقل الأول(١) أو « القلم » .

يقول اقبال ان العارف الهندى صرف النظر عن عـالم المحسوسات واستغرق فى المشاهدة ... ما أروع أن يصل الانسان الى هذا المقـام الرفيع ، الى الحضرة الالهية ، فيمثل فى مقام الحضـور « ان الذرة فى حضوره (الله) كالجبل ، أما بدون حضوره فلا يكون ثمة نور ولا ظهور » ولذا فقد تحول هذا العارف الهندى هذا « المخلوق الرقيق فى ظلمة السماء الى كوكب لهذا الليل البهيم ، يستمد من وجهه الضياء ، هو غريق فى جلوة السكر ، هو ثمل بدون كأس وقد غنى بشجى . بينما أخذ فانوس الخيال يدور أمامه . هذا الفانوس «ذو فنون» ففيـه من الأشكال والأجنـاس ما فى هذا الفلك العتيق ، تتراءى لك فيه صور متعددة عجيبة ، فالصقر يصيد العصفور ، والنمر يصيد الظبى ، فكأن العالم بدقائقه يتبدى فيه»(٢).

وسألت الرومى عن حقيقة الأمر فأجابنى قائلا :« ان هـذا الكائن الشبيه بالفضة البراقة قد ولد أصلا فى ذهن الخـالق الأعظم ، (فقد كان أصلا فى نطاق المعلومات الالهية ، أو ما يسمى بعـالم « الأعيان الثابتة » أو « خزائن الجود ») ثم حن بلهفة الى اظهار نفسه فهبط الى حرم الوجود (وأصبح جزءاً من العالم) انه مثلنا هائم وغريب فأنت غريب ، وأنا غريب، وهو غريب ، ولكن فيه شـأن جبريل ، (فهو المبـلغ للوحى) واسمه « سروش » وهو يتمتع بالصفات الآتية :

(أ) « يمحو من العقل ويثبت فى العقل »(٣) ، اذ هو يحمل الرسالات المتجددة ، رسالة بعد أخرى .

(ب) « براعمنا تتفتح بفضل نداه » ، أى اننا نصل الى الكمال الروحى والمـادى بفضله اذ هو الواسطة فى الرقى والتكمل لكل ما دونه من الكائنات الممكنة .

(جـ) « تتوهج النار الخابية من لهيب أنفاسه » فهو يبعث الحياة من جديد فى الممات ، اذ هو أكثر المخلوقات عشقا لقربه من الله ،

---

(١) انظر شرح جاويد نامه ص ٤٤٤ ، والدكتور محمود قاسم : فى النفس والعقل ص ١٩٣ وما بعدها . وانظر أيضا دكتر محمد معين : اقبال وايران باستان ، مقال منشور فى اقبال نامه ص ٥٠

(٢) هذا الوصف يشبه وصف الرومى للعقل الكلى فى المثنوى ، أنظر : مثنوى ، دفتر جهارم ص ٨٧٥ ، تحت عنوان : « بيان آنكه مجموع عالم صورت عقل كلست ... الخ » .

(٣) ربما كان فى هـذا اشـارة الى قوله تعـالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » سورة الرعـد : آية ٣٩ ، وانظر رأى اقبال فى الوحى ووصفه له فى تجديد التفكير الدينى فى الاسـلام ص ١٤٣

واصفاها لبعده عن المادة . وعشقه بلا واسطة ، وعشق من يليه بواسطته هو(١) .

(د) « ويفعله تجد ألحان الشاعر هوى فى القلب » فهو مصدر الالهام الشعرى .

(هـ) « وبسببه تجد التمزق فى ستارة المحمل » فهو الذى يدعو الانسان الى كشف الحقيقة الخفية للكون .

ويرى الأستاذ يوسف سليم جشتى فى « شرح جاويد نامه » أن الأول أو « يد الله » عند الغزالى ، وهى اليد التى بها يعطى ويمنع أو يمحو أميل الى القول بأنه يقدم لـ « سروش » صورة مشابهة لصورة العقل الأول أو « يد الله » عند الغزالى ، وهى اليد التى بها يعطى ويمنع أو يمحو ويثبت . على انه فى نظر الصوفية — وخاصة من رجال وحدة الوجود — أول تجل للصفات الالهية فى عالم اليقين .

فلقد اراد الغزالى فى كتابه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة(٣) » ان يؤول معنى « يد الله » بقوله : ان الله يعطى ويمنع بواسطة ملائكته كما قال عليه الصلاة والسلام : أول ما خلق الله العقل فقال بك أعطى وبك أمنع ، ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضا كما يعتقده المتكلمون اذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق ، بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلا من حيث يعقل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة الى تعلم ، وربما يسمى قلما باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم فى قلوب الانبياء والأولياء وسائر الملائكة وحيا والهاما » .

فهو عند الغزالى واقبال ملك ، وهو أيضا مصدر الوحى والالهام . وهذا التفسير يتمشى — فى رأينا — مع سياق « رسالة الخلود » وهو السياق الذى يتسلسل صاعدا درجة بعد درجة فى الرقى الروحى ، لا سيما وأن اقبالا يلتقى بسروش باعتباره مصدر الوحى النبوى عقب لقائه مباشرة بالعارف الهندى الذى يمثل المعرفة الفجة لعدم استنادها الى شريعة نبوية . ان اقبالا لا يترك هاهنا هذه الدرجة من المعرفة التى تعتمد أساسا على التفكير المجرد أو الزهد العشوائى غير المنهجى (التى يجسدها العارف الهندى جهان دوست) وينتقل الى درجة أخرى أكثر رقيا واكتمالا وهى المعرفة عن طريق الوحى الالهى أو الالهام على الأقل كما يتمثلان فى سروش . وسيكون لقاؤه « بسروش » بمثابة تمهيد لالقاء نظرة على عصور النبوة الأربعة .

وينصح الرومى اقبالا بأن يأخذ قبسا من النار التى تضطرم بها أنشودة سروش قائلا : « لقد رأيت من خلال أنغامه عالما فاشتعل الآن لحظة بلحنه » ، فينصت اقبال الى الأنشودة التى يترنم بها سروش .

---

(١) وربما كان لنا ان نذكر هنا الآية الكريمة فى وصف الرسول (ص) « علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى » .

(٢) شرح جاويد نامه ص ٤٤٩ .

(٣) ص ٤٠ — ٤١ طبع مصر سنة ١٩٠١ .

٢ — أنشودة سروش :

ينشد اقبال على لسان « سروش » غزلا من أروع الغزليات الواردة فى المنظومة ورغم أن كل بيت من أبيات هذا الغزل يمثل فى حد ذاته فكرة مستقلة قائمة بذاتها الا أن وحدة الفكر والرمز تربط بين أبيات الغزل جميعا ، وتتمثل هذه الوحدة فى فكرة اقبال القائلة بأننا اذا أردنا أن نفهم الكون فلننظر اليه بعين العشق بدلا من العقل .

يقول سروش :

« **اننى أخشى أن تدفع بالزورق نحو السراب ، لقد ولدت فى حجاب ، فهل تموت فى حجاب ؟ ؟ ؟** » .

فالعقل لم يخلق الا لتفهم الكون المادى الذى ليس له فى الأصل وجود حقيقى فهو كالسراب ، ولكنه لم يخلق لتحصيل المعرفة الكاملة . لذا فان محاولة الوصول الى الحقيقة عن طريق العقل لا طائل وراءها كما لو كنت تسير بالزورق فى السراب فلا يسير لأن سيره فى الماء .

فالتوصل الى الحقيقة لا يكون بالعقل بل بالعشق وعليك الا تجعل العقل يمتلك قيادك فى سبيل الوصول الى الحقيقة لأن هذا من شأنه أن يحول بينك وبين الحقيقة على الدوام .

« لما أزلت كحل الرازى(١) من عينى رأيت أقدار الأمم مختفية فى الكتاب » أننى عندما نظرت فى القرآن بعين العشق بدلا من عين العقل . أيقنت أن فيه حقائق ومعارف خفية من شأنها أن تبدل مصائر الأمم التى تجعله دستورا لحياتها .

وهنا نلاحظ أن اقبالا يشن على الاتجاه العقلى الذى يمثله الرازى حملة شعواء سبق له أن شن مثلها على هذا الاتجاه ولكن ممثلا فى « أبن على بن سينا(٢) » .

فلقد فضل اقبال « الرومى » الذى يعتبر قائد الاتجاه الروحى فى الثقافة الاسلامية على أبى على اذ يقول فى « بيام مشرق » :

لقد ضاع أبو على (بن سينا) فى غبار الناقة ، بينما أمسكت يد الرومى بستارة المحمل .

يقول سروش :

« انطو على الزرع والشارع ، انطو على الجبل والصحراء ، فالبرق الذى ينطوى على نفسه يموت فى السحاب » .

أيها الانسان أنت برق فاحرق البدو والحضر ، أحرق الفيافى والجبال ، ولا تنطوى على نفسك فتفنى وتموت فى السحاب ولا تصل الى هدفك .

---

(١) المفسر الشهير للقرآن الكريم ، الامام فخر الدين الرازى (٥٤٣ — — ٦٠٦ هـ)وهو قائد الاتجاه الى خلط علم الكلام بالفلسفة والاعتداد بالعقل ، ويمثل هنا غلبة الاتجاه العقلى على الفكر الاسلامى ، وهو الاتجاه الذى يعارضه اقبال .

(٢) أنظر ، بيام مشرق ص ١٢٢ .

فحياة الانسان وموته سيان اذا لم يعرف هدف حياته ، فهو كالبرق عمله (هدف حياته) الأحراق وهدف المؤمن احراق الباطل . فاذا لم يقع المؤمن على الباطل وقوع البرق(١) فان وجوده وعدمه يستويان .

« عشت مع أهل الغرب ، بحثت كثيرا وشاهدت قليلا أن المرء صاحب المقامات لا يحتويه الحساب » فقلما وجدت من يعبأ بالروح .

ويصل « سروش » هنا الى بيت من أبلغ أبيات هذا الغزل الرائع ذى المعانى الفياضة . وفى البيت مقطع وهو «الرائحة فى ماء الورد» مأخوذ من بيت صوفى مشهور أنشده « خواجه نصير الدين أودهى » الملقب بـ « جراغ دهلى » أو مصباح دهلى ضمن غزل مطلعه : —

ذرسينة نصير الدين جزء عشق نمى كنجد

أين طرفه تماشا بين دريا بحباب انــــدر

ومعنــــاه :

— ان صدر نصير الدين لا يحتوى الا على العشق ، انظر هذه الطرفة : ان البحر كله فى فقاعة واحدة .

ويبين الشيخ فى هذا الغزل ما حصل له من قرب لذات البارى تعالى ووصف هذا القرب بقوله :

أو در فى ومن دراو جون بو بكلاب أندر(١) .

— هو فى وانا كمثل الرائحة فى ماء الورد .

ويجىء اقبال فيخرج من هذا التشبيه صورة جـديدة يرسمها حين يقول :

بى درد جهانكيرى آن قرب ميسرنيست

كلشن بكريبان كشى اى « بو بكلاب اندر » .

— ان القرب لا يمكن الحصول عليه دون معركة ، أنت يا من تتحدث عن « الرائحة فى ماء الورد » ، اذهب واخطف خميلة الورود « أن القرب من الله امر ليس يسير المنال ، انه فى حاجة الى جهاد مع النفس ومع قيود الزمان والمكان . فلا تتحدث عن غربتك وعن رغبتك فى القرب الالهى وأنت خامل ، وانما انهض واعمل على ترقية روحك حتى تصل الى هدفك .

يقول سروش :

« أيها الزاهد الظاهرى ، أنا أسلم (معك) بأن الذات فانية ، لكنك لا ترى الطوفان فى الحباب » ، لقد تناهى الى خاطرك بأن الذات فانية ... يا الهى !! لم لا يبدو فى حبابك (قلبك) طوفان (العشق) ؟ !

لقد استخدم اقبال هنا أسلوب الأستفهام الانكارى لكى يؤكد عدم فناء الذات واستقلالها حتى فى أقصى درجات القرب من الخالق تعالى ،

(١) وقد يكون هذا التصوير أصلا مستمدا من الآية الكريمة : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » — سورة الأنبياء آية ١٨ .

(٢) آربرى ، ترجمة الانجليزية لمنظومة « جاويد نامه » ، ص ١٤٩ .
وأنظر أيضا جشتى ، شرح جاويد نامه ، ص ٤٥٧ .

ومذهب اقبال فى « الذاتية = خودى » معروف ، ولكنه يضيف هنا معنى جديدا وهو أن « العشق » او الطوفان الذى يجتاح القلب دائما لا يعمل فحسب على تأكيد استقلال الذات بل يعمل أيضا على خلودها .

وينهى سروش غزله قائلا : ان هذا الصوت الرائع لا يأتى من قيثارة العازف ، فان مهجور جنان الحور ينوح من خـلال الرباب ، هذا اللحن الشجى الذى سمعت لا ترجع روعته الى وقعه الموسيقى بل الى كونه تعبيرا عما يعتمل من شوق الى المحبوب الحقيقى فى صدر الانسان منذ أن هبط من جنان الحور ولا زال يشتاق للعودة الى موطنه الأصلى .

التحرك نحو وادى « يرغميد » الذى يسميه الملائكة وادى الطواسين

١ ــ الرومى يعلق على أنشودة سروش :

يقول اقبال أننى التفت الى مرشدى الرومى ، وهو دليل السائرين فى طريق المحبة والعشق ، مترقبا أن يعلق على هذه الأنشودة التى انتهى سروش لتوه من أنشادها ، كما يترقب الظامىء الماء ، فكلام الرومى بمثابة الماء السلسبيل للظامئين الى المعرفة فقال : « هذا شعر فيه نار ، أصله من حرارة : هو الله » ، يا اقبال ! الا تعلم أهمية ما قاله سروش ، أنه شعر ولكن فيه نارا هى نار العشق والمحبة الألهية ، انه شعر صادر فى الحقيقة عن الحب الالهى الذى يعبر عنه السالكون بكلمة « هو الله » .

« بهذا اللحن يتحول البلقع الى روض والصحراء الى مروج ، بل فى مقدوره أن يصيب الأفلاك بالاضطراب » ، فهو يحدث انقلابا فى قلوب سـامعية .

« هو شاهد على وجود الحق ، داع اليه ، يودع فى وجدان الفقير وكيانه قوة السلطان » .

« به تسرى فى البدن الحيوية والنشاط فيزداد الدم تدفقا فى العروق ، وتزداد رهافة القلب فيصبح أكثر يقظة من الروح الامين جبريل » حيث أنه يحيى جذبة العشق الالهى فى القلب . مجمل القول أن من شأن هذا الشعر أن يجعل الانسان يحيى حق الحياة ويؤمن حق الايمان .

٢ ــ نقد لبعض الشعراء :

يواصل الرومى تعقيبه على أنشودة سروش فيوجه نقدا للشعراء الهنود فيقول :

« مـا أكثر الشعراء الذين يسرقون القلوب بسحر الفن ولهم رأى ابليس » ، انهم يستخدمون فنون الشعر فى سلب القلوب من الخيالات الطاهرة المودعة فيهـا ، وفى جعل الانسـان ينظر الى كل شىء بمنظار الشيطان . والواقع أن قلب الانسان اذا حرم من الخيالات الطاهرة ، وحرم نظره من نور الايمان يصبح عندئذ لا فرق بينه وبين الحيوان .

وهـــذه هى حال اغلب الشعراء الهنود . . . لذا يدعو الرومى الله تعالى ان يحرم امثال هؤلاء الشعراء من لذة القول والنظم .

« علموا الشعر ان يصبح غناء ، علموا اتباع الخليل فن آذر » ، لقد جعلوا الشعر وهو فن شريف — وسيلة لتسكين الرغبات والأمانى الخلاقة الكامنة فى النفس وعلموا اتباع الخليل (المسلمين) عبادة الأصنام متمثلة فى تقديسهم للمادة .

وينتقد الرومى شعر هؤلاء الشعراء فيقول : « كلماتهم زقزقة عصفور لا حماس فيها ولا ذوق » فقد خلت من حرقة العشق وانعدم فيها الابداع ، أما هؤلاء الشعراء « فاهل الذوق لا يسمونهم رجالا بل جيفا » ، لعدم أصالتهم ولترديدهم أفكار غيرهم .

« وأنضل من لحن عذب لا جوهر له ، كلمات تتفوه بها فى المنام » ، فانكار الشاعر لدوره من شأنه أن يهبط بالشعر الى الحضيض ويجعل الكلام الذى ينظمه كالتخاليط التى يهذى بها النائم .

٣ — الشاعر ملهم الأمة :

يقول الرومى : انفطرة الشاعر كلها بحث ، انه خالق ومبدع للارادة فهـــو الذى يدفع النفوس نحـــو الرقى الخلقى والروحى ، ويصوغ لهـــا الأمانى المتجددة دائما وهو بمثابة القلب من صدر الأمة . حقا ان « الأمة بدون شاعر تكون كومة من طين » .

ان النار والسكر (جذبة العشق) معماران للعالم ، والشعر بدون نار وسكر مأتم ، فالشعر الخالى من العشق مجرد تشجيع على عبـــادة المادة وتمجيد للذات الحسية ، وهو مع ذلك ليس بشعر بل هو مرثية فى حق الأمة لأنه كالسم الزعاف يسرى فى كيانها .

ويختم الرومى قوله بهذا البيت الفاصل فى الشعر والشاعرية : « فاذا كان هدف الشعر هو صياغة الانسان ، كان الشعر ميراثا للنبوة » أى اذا كان هدف الشعر هو اطلاع الانسان على مكانته الحقيقية باعتباره اشرف المخلوقات ، كان الشـــاعر بلا ريب وارثا للنبى فيصبح الشعراء خلفاء للأنبياء ، لأنهم انما يؤدون رسالة شبيهة برسالة النبى وهى اصلاح النفوس الانسانية وتطهيرها وتقويمها .

٤ — ما حقيقة النبوة ؟

وما ان يسمع اقبال كلمة النبوة حتى يسأل الرومى عنها ، ما هى هذه الظاهرة البارزة فى تطور الحياة البشرية ؟ وما هدفها ؟

يجيب الرومى :

أ — « ان الأمم والشعوب آيات لهـــا » ودلائل عليها ، فالنبى هو الذى يجعل قومه يظهرون على مسرح التاريخ الانسانى .

ب — « ان عصورنا من مخلوقاتها » فهى تقسم تاريخ العالم الى عصور ، وكل عصر من هذه العصور انما هو تعبير عن النبى أو الأنبياء

الذين ظهروا فيه . حقـا لقد خلق الرسول (ص) عالما جديدا ، وأحدث انقلابا فى عالمى الفكر والعمل .

جـ — « أنفاسها تجعل الحجر واليابس ينطقان » فشريعة النبى تودع فى الحجارة (الغافلين من الناس) قوة النطق (القابلية للمعرفة) .

د — « انما مثله مثل الزرع ، بينما نحن كالحصاد » ، أى أن النبى كالزارع الذى يضع بذرة الصلاح فى أرض القلوب .

هـ — « هو يطهر العظام والجذور » اذ أنه يطهر حياتنا من رجس المادة .

و — « يعطى للفكر جناح جبريل » فهو يثرى الوجدان والفكر ، ويجعل شخصيتنا ترتوى بالكمال .

ز — « ان الآهات فى أعماق الكائنات ، تصبح على شفته النجم والنور والنازعات » فشرائع الأنبياء هى استجابة لنزوع الكون الى التكمل والرقى الروحى ، وتتمثل هذه الاستجابة من الخالق تعالى فى كلامه المنزل على رسله ولا سيما فى القرآن الكريم ، على نحو ما نشهده مثلا فى سورة النجم والنور والنازعات .

ح — « لا زوال لشمسه » فشمس (شريعة) النبوة لا تزول ، لأن مخالفيها لا تحصل لهم الغلبة عليها .

ط — « ولا كمال لفكره » ولا يصل منكر النبى أبدا الى درجة الكمال الانسانى .

ى — « صحبة احرارها (المؤمنون بالنبى) رحمة الهية لبنى أدم » .

ك — ضرباتها المتلاحقة الممثلة فى الجهاد هى قهر الهى للاعداء ، ففيها تتمثل صفتان الهيتان متضادتان هما الرحمة والقهر . .

« فلا تجمح منها ولو كنت عقلا كليا ، فهى ترى الجسد والروح شيئا واحدا » ، لا تكن كالذين استغشوا ثيابهم من النبوة حتى ولو كان العالم كله ملكيمينك ، واقبل علىتعاليمها التىتعتبرالجسد والروح شيئاواحدا . . . فالرقى المادى المحض هو هدف الفلاسفة والمعولين على عـالم الحس واستدلالات العقل ، أما الرقى الروحى الذى به تنقاد الكائنات للانسان فلا يتم تحصيله الا بطريق النبوة .

٤ — التوجه الى وادى الطواسين :

وبعد أن بين الرومى لاقبال حقيقة النبوة قال له : أغذ السير وضع القدم فى طريق « يرغميد » كى ترى ما يجب رؤيته فى هذا الوادى الشريف من وديان القمر الذى اطلقت عليه الملائكة اسم « الطواسين » ويتعين عليك أن ترى فيه الطواسين أى التجليات الأربعة للنبوة تتجلى على كل واحد منها بعض ملامح من أديان أربعة دعا اليها الأنبياء ، وهذه التجلياتمنقوشة على حجارة القمر .

وواضح أن اقبالا يطلق اسم الطواسين على وادى « يرغميد » تشبها بالحلاج الذى الف كتابا فريدا فى بابه يبين فيه تجليات الحق تعالى وأسماه

« كتاب الطواسين(١) » أو التجليات . والطواسين جمع ط س وهما حرفان من حروف المقطعات فى القرآن الكريم تبدأ بهما سورة النمل . ويرى فريق من العلماء أن حروف المقطعات من أسرار القرآن ، بينما يرى فريق آخر أن ط = جبل الطور ، وس = سيناء . أى أن ط س = طور سيناء ، وهو الجبل الذى تجلى عليه الحق سبحانه لما دعاه موسى عليه السلام ، فكلمه من جانب الطور الأيمن فى الوادى المقدس .

ونجد اقبالا يستعمل كلمة طواسين بنفس المعنى أى بمعنى التجليات الالهية ، أو بمعنى ملامح رئيسية من شرائع هؤلاء الأنبياء .

يقول اقبال وهو يسير مسرعا مع الرومى متجهين الى وادى يرغميد : « ان الشوق ليعرف سبيله دون دليل ، فما العشق اذن ؟ هو شوق التحليق بجناح جبريل » ، فالانسان يستطيع بواسطة العشق أن يحصل على طاقة التحليق التى يتمتع بها جبريل نفسه .

« وبالنسبة للشوق فان الطريق الطويل يصبح مجرد خطوتين ، فمثل هذا المسافر يضجر من المقام » ، فالعاشق متحرر من قيود الزمان والمكان وهو لا يطيق البقاء فى مكان واحد ، ولذا وجدت نفسى بعد برهة — رغم بعد الشقة — اقترب من وادى يرغميد ، « ماذا أقول عن رفعة ذلك المقام ، انه مقام رفيع فالكواكب السبع السيارة تطوف حوله فى كل حين ، ضمائر اهل الأرض وبواطنهم تستنير بنوره ، ويكتحل حملة العرش بترابه فيبصرون » .

يقول اقبال « لقد أعطانى الحق عينا وقلبا ولسانا كما أعطانى الرغبة فى البحث عن الأسرار » ، قد أودع الله فى قلبى جذبة التفتيش عن الأسرار ، ووهبنى قوة الأبصار والادراك والاستيعاب والتعبير لذا فلا باس على من ان اكشف النقاب عن أسرار الكون وأفصح لك عن طواسين الرسل .

طواسين النبوة الأربعة
(بوذا — زردشت — المسيح — محمد)

يتساءل الأستاذ يوسف سليم جشتى شارح جاويد نامه فى اللغة الأردية عن السبب الذى دفع اقبالا الى اختيار بوذا وزردشت وعيسى ومحمدا بالذات من بين مؤسسى الأديان ؟ وهل هناك رابطة تنتظم هذه الأديان الأربعة جميعا فى رأى اقبال ؟

ويجيب على ذلك بقوله بأن هذه الرابطة موجودة بلا شك فى نظرة كل من هذه الأديان الى مسألة الخير والشر التى حيرت الانسان منذ بدأ يفكر فى الوجود فكيف خلق الله — وهو مصدر الخير المطلق والكمال المطلق — الشر الموجود فى العالم ؟

وحاولت البوذية — كما يقول الأستاذ جشتى — أن تحل المسألة بقولها أن العالم كله شر ، ولا وجود للخير المطلق ، أى لا وجود لله . .

(١) نشره ما سينيون سنة ١٩١٣ م .

ونصحت باعتزال العالم والرهبنة هربا من هذا الشر .

ثم جاء زردشت ليقول انه لا شك فى وجود الشر مع الخير فى العالم ، لكن الله ليس هو خالق الشر بل أهرمن (الشيطان) . . وهكذا آمن الزردشتيون بالثنوية وبوجود الهين اثنين خالق الخير « آهورا مزدا » ، وخالق الشر « أهر من » .

أما المسيحية فترى أن العالم يسوده كل من الخير والشر ومصدرهما ان الحق تعالى هو الوجود المطلق ، وهذا الوجود كله خير ، لأن العالم يمكنه من التغلب على الشر اذا سار على نهج المسيح عليه السلام .

ويستطرد الأستاذ يوسف جشتى قائلا ان الشريعة الاسلامية ترى أن الحق تعالى هو الوجود المطلق ، وهذا الوجود كله خير ، لأن العالم ظل للوجود المطلق فهو كله خير . . . . أما الشر فهو اضافى وليس حقيقيا .

ويأتى الأستاذ جشتى ببعض الشواهد لتأكيد نظريته هذه(١) .

غير انى أرى نظرة فاحصة لأقوال اقبال على لسان الرومى فى شأن النبوة تجعلنا نضع أيدينا على الخيط الحقيقى الذى ينتظم هذه الأديان الأربعة فى فكر اقبال .

فاقبال يطبق هنا فكرة أشار اليها اشارة عابرة فى وصفه للنبوة حين قال : ان عصورنا من مخلوقاتها .

فبوسعنا — فى رأى اقبال — أن نقسم تاريخ الانسان على وجه الأرض تقسيما جديدا على أساس الرسالات السماوية ، ذلك أن للنبوة دورا أساسيا فى توجيه التاريخ ، وكل دور تاريخى بارز ، أو بعبارة أخرى كل حضارة أصيلة فى تاريخ الانسان — انما تولد وتنمو فى حضن نبى .

ويمكننا أن نجد سندا لا ستدلالنا هذا فى كتاب « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » حيث يقول اقبال : « وهذا هو السبب فى أن الدين استطاع دائما أن ينهض بالأفراد ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها وينقلهم من حال الى حال »(٢) .

ويحاول اقبال هنا تطبيق هذه الفكرة بتقسيم التاريخ الانسانى الى عصور أربعة هى عصور : بوذا ، وزردشت والمسيح ومحمد .

ويبدو لى أن اقبالا لم يجعل نظرة هذه الأديان الى قضية الخير والشر هى أساس هذا التقسيم — كما مال الى ذلك الأستاذ جشتى — فهذه القضية — حسبما أعرف(٣) — لم تشغل فكر اقبال الى هذا الحد . ولكن

---

(١) شرح جاويد نامه ص ٤٦١ — ٤٨٢ .

(٢) تجديد الفكر الدينى ص ٢٠٧ .

(٣) يرى اقبال — كما سبق أن ذكرنا — أن حل مشكلة الخير والشر انما يكمن فى الذات نفسها ، وقد عالج موضوع الخير والشر باختصار فى تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ص ٩٤ . وسوف نجده يتعرض لهذه المسألة أيضا على لسان سيد على الهمدانى عندما يصل الى الفردوس .

الذى شغله حقا ذلك الخطأ فى فهم الحياة الذى ظلت البشرية تتردى فيه ثم تنهض ثم تتردى وتنهض حتى عصر الرسالة المحمدية حيث اكتملت معرفة الانسانية — عن طريق الوحى الخاتم — بالحياة ودور الانسان فيها.

لقد نظرت البوذية الى الحياة على انها رجس يجب البعد عنه والتحرر منه ، فظهرت الرهبنة .

وجاء عصر الزرد شتية فحدث بعض الرقى فى فهم الانسان للحياة حيث دعا زردشت الى نبذ الخمول والعزلة كما دعا الى الحركة والتجمع لا الى العزلة والزهد . لكن اتباع زردشت أخطأوا فى تهويلهم من شأن المشكلات التى يواجهها الانسان لكى يصبح صالحا ، ولذا تنازعتهم فيما بعد اتجاهات متطرفة كالمانوية والمزدكية تنزع الى المادية أو الزهد كنتيجة الفشل .

واستمرت هذه الدعوة التى نادى بها زردشت احتفالا بالحياة ونبذا للاعتكاف حتى جاءت شريعة موسى تهتم بهذا الجانب نفسه مع اهتمامها بالجانب الروحى،ولكن اليهود غلبوا الجانب المادى فعبدوا المادةالتى كانتوبالا عليهم ومدعاة لظهور المسيح يدعو الى تغليب الجانب الروحى مرة أخرى على المادى ، « ولا شك فى أن المسيحية عندما رسمت مثلا أعلى لحياة أخرى نجحت فى تهذيب الحياة وطبعها بالطابع الروحى ، ولكنها قصرت همها على حياة الفرد فأصبحت عاجزة عن ادراك ما للعلاقات الانسانية والاجتماعية المتشابكة من قيمة روحية »(١) .

وجاء محمد — صلى الله عليه وسلم — فانتقلت المشكلة من هذا الطابع الميتافيزيقى البحت واتخذت شكلا واقعيا تمثل فى معالجة الاسلام — كما سنلاحظ فيما بعد(٢) — لصميم قضايا الحياة الانسانية معالجة موضوعية مثل التفرقة العنصرية والطبقية ووحدة بنى الانســـان ، وغير ذلك من القضايا الحضارية التى ما تزال الى الآن هى قضايا الانسان المعاصر . ولقد عالجت الشريعة المحمدية هذه القضايا بأسلوب من شأنه أن يشحذ ما لدى الانســـان من ملكات خـــلاقة مبدعة لكى يستطيع تسخير الكون باعتباره خليفة الله فى أرضه ، ولكى يفوز فى النهاية بالخلود والسعادة فيحقق الخير المنشود الذى بدا بعد التجارب الانسانية السابقة بعيد التحقق.

وقد نستطيع أن نلمس هذا التطور من العرض التالى لعصور النبوة الأربعة كما وصفها اقبال .

على اننا ينبغى أن نقرر هنا أن اقبالا لا ينفرد وحده بهذا التفسير الروحى للتاريخ البشرى ، فالشيخ محمد عبده — وهو معاصر لاقبال — نزع أيضا هذا المنزع ولكن بصورة مختلفة ، فرأى أن الانسانية تطورت من الحس فى زمن موسى الى العاطفة فى زمن عيسى الى العقل فى زمن محمد (ص) فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية .

وقد انتقد الدكتور عبد الحليم محمود فكرة الشيخ باعتبار أن الانسانية — أينما سرنا وعند أى فرد رأينا وفى أى مجتمع شـــاهدنا — تتمثل فيها

---

(١) تجديد التفكير الدينى ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٢) جاويد نامه — طاسين محمد ص ٥٨ — ٦٠ .

جوانب الحس والعاطفة والعقل . ثم انتقد ضمنا وفى نفس الموضع فكرة التطور عند اقبال وأسندها الى تأثيرات أوربية(١) .

ولسنا هنا فى مجال الرد على هذا الرأى ، ولكننا نستطيع أن نقرر فى ضوء دراستنا لاقبال أن فكرة التطور عند اقبال مأخوذة أساسا من القرآن ، فى ضوء « المثنوى » لجلال الدين الرومى(٢) ، ومن الفكر الاسلامى بعامة . فمذهب اقبال — كما هو مذهب مفكرى المسلمين — ينتهى الى غير ما ينتهى اليه « دارون » فى نظريته الخاصة بالنشوء والارتقاء فقد لاحظ المسلمون — ومن بينهم اقبال — التدرج فى مراتب المخلوقات من الجوامد الى الانسان ، ولكنهم لم يقولوا — كما قال دارون — أن الانسان من أصل حيوانى ، ولم يبخسوه قدره وردوا تميزه الى ارادة الله الصريحة من خلقه على هذا النحو ليصبح فى النهاية خليفة الله فى الأرض .

والآن نعود الى وادى الطواسين .

طاسين بوذا(٣)

توبة الراقصة الخليعة

من الواضح أن اقبالا يعرض فى هذا الطاسين الجانب الأخلاقى الصرف لتعاليم بوذا ، وهو الجانب الذى يفضله اقبال على فلسفته الالهية . فبوذا ينصح راقصة خليعة من بنات الليل باختيار الحياة الطاهرة .

والزنا فى الأخلاق البوذية من الرذائل العشر الواجب التجنب عنها(٤)، لذا فقد جعل اقبال هذه المرأة الخليعة بمثابة القطب السالب فى الطاسين ، لكى يمرر اليها — على لسان بوذا — الملامح الرئيسية للتعاليم الأخلاقية البوذية . وأعتقد أن اقبالا يرمز بهذه الراقصة الى مادية الانسان أو الحياة البهيمية التى عاشتها البشرية فى العصر السابق على عصر البوذية مباشرة .

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود « الاسلام والعقل » ص ١٥٤ — ١٥٦ .

(٢) انظر الدكتور رفيع الدين ، فكرة التطور عند اقبال ، مقال بالانجليزية نشره فى مجلة اقبال ريفيو ، ابريل ١٩٦٠ ، ص ٢٠ — ٤٢ .

(٣) ولد سنة ٥٦٠ ق.م على حدود نيبال ، وكان اسمه (جوتم) كما يسميه اقبال فى النص ، كان أبوه رئيسا لاحدى القبائل لكنه اختار حياة الزهد والتقشف لما رأى أن المادة تحجب النفس عن كل معرفة حقة ، ثم دعا الى الزهد فى الحياة . وقد توفى سنة ٤٨٠ ق.م. ولم يترك كتابا يتضمن تعاليمه وانما تولت أجيال لاحقة من أتباعه تدوين هذه التعاليم ، لذا يأخذ الدارسون تعاليمه بحذر شديد ، بل يشك البعض فى وجوده أصلا . أنظر الدكتور محمد غلاب : (الفلسفة الشرقية ص ١٢١ وما بعدها) وأيضا الدكتور هنرى توماس ، أعلام الفلاسفة — ترجمة الى العربية مترى أمين ص ٣٨ — ٤٤ .

(٤) أنظر الفلسفة الشرقية ص ٢٤١

يقول بوذا مخاطبا الناس جميعا : « الخمر المعتقة والمحبوب الشاب ليس شيئا ، ان حور الجنان ليست شيئا عند أصحاب النظر » . ربما تذهب بك الظنون الى أن هـدف الحيـاة هو الحصول على الخمر المعتقـة والوصول الى المعشوق الشاب . لكن كليهما ليس له وجود حقيقى ، فعل الخمر عارض وجمال المعشوق عارض ، ولا يدرك هذه الحقيقة سـوى العارفين ، الذين يعتبرون أن حور الجنان أيضا ليست شيئا يمكن التعويل عليـه(١) .

فالأشياء التى تعتبرها محكمة راسخة كلها عابرة (فلا بقاء لشىء منها) فالجبل والصحراء والبر والبحر والساحل ليس شيئا .

« علم أهل الغرب ، فلسفة أهل الشرق .. كلها موثن (وتقـدير) ما يطوف حـول الأصنام ليس شيئا » . فالفلسفة سواء كانت غربيـة أم شرقية ليست هى الوسيلة المثلى للنجـاة ، انمـا الفلسفة موثن ، ولن ينال من كل الأفكار والنظريات التى تتجمع فى عقله أى طـائل . . . ولمـا كان المرء لا يصل الى الله بعبادة الأصنام كذلك لا يمكن الوصول الى الحقيقة الكاملة بواسطة الفلسفة .

« فتفكر فى ذاتك ، ولا تخش المرور من هذه البادية ، فأنت موجود ووجود العالمين ليس شيئا » ، اجتهـد فى اصلاح شخصيتك وتكميلها ، ولا تمضى فى الحيـاة خائفا مذعورا ، فوجودك هو الوجود ووجود العالمين ليس شيئا اذا قيس بوجودك باعتبارك مكرما من جانب الله تعالى . ومن الملاحظ أن النظرية البوذية ترى أن كل ما فى الكون ليس حقا ، انه حالات نسبية متغيرة للحركة الكونية الأبدية(٢) .

« فى الطريق الذى حفرته بطرف أهدابى . المنزل والقافلة والكثبـان الرملية ليست شيئا » . فقد حفرت بطرف أهدابى طريقـا — هو طريق اصلاح النفس — ووصلت الى درجة عالية من الرقى الروحى ، ولم يعد للمعالم التى شاهدتها ومررت عليها فى طريقى — مثل المنزل والقـافلة والكثبان الرملية — من أثر فى خاطرى .

والفكرة الأساسية السائدة فى هذا البيت هى أن يهمل الانسان كل ما لا يعنيـه فى الوصـول الى الهدف المنشـود ، الا وهو وجه الحق تعـالى .

« اترك الغيب ، لأن هذا الوهم والخيال ليس شيئا ، أن تكون موجودا فى الدنيا وتتحرر من الدنيا ، يعد شيئا » . دع عنك التفكير فيما تأتى به الأيام ، فلا يمكن الوصول الى علم يقينى لها(٣) ، فكمال الحيـاة لا يكون الا بالوجود فى العالم والتحرر منه أى عدم التعلق به .

فالجنة التى وهبك الله اياها ليس لها اية قيمة أو اعتبار ما لم تكن جزاء على عمل صالح قد قدمته .

---

(١) وقد سبق أن ذكرنا أن الهدف الأسمى للعارفين هو وجه الله وحده .

(٢) انظر الفلسفة الشرقية ١٣٧

(٣) وهو ما يسمى فى المصطلح الصوفى اسقاط التدبير .

« أتبغى راحة الروح ؟ راحة الروح ليست شيئا ، ان الدموع الجارية تعاطفا مع رفاقك تعد شيئا » اذ لا وجود مطلقا للراحة ولكنك يمكن أن تشعر بالسعادة الحقيقية اذا تعاطفت مع جميع المخلوقات وذرفت الدموع من أجلها .

« العين المشبعة بالخمر ، ونظرة الاغواء ، والغناء ... كلها أشياء طيبة ولكن هناك ما هو أحسن منها » يقول بوذا أن التنعم والمتع الحسية بما فيها العيون الناعسة والنظرات المغرية والغناء ، كلها أمور مرغوب فيها ، ولكن هناك أفضل منها وأحسن : « هو حسن الفعـــال ، وحسن الخيـــال ، أما حسن الطلعة فهو شيء عارض لا بقـــاء له » ، فان شأنه فى ذلك شأن كل اللذات الحسية .

الراقصـــة

وبعد أن تسمع الراقصة التى تمثـــل — فى رأيى — الحيـــاة المـــادية والبهيمية التى سادت العالم قبل ظهور البوذية مباشرة — هذه الموعظة التى وجهها اليها بوذا تتوب ، وتنشد هى الأخرى غزلا يفيض بالتطلع الى المحبوب الحقيقى وبالأمل فى الوصول اليه عن طريق العشق .

لقد نقل اقبال هذا الغزل أيضا من ديوانه « زبور عجم » (١) ، وواضح أن اقبالا قد وفق فى اختيار هذا الغزل لكى يعبر تعبيرا صادقا عن وجدان الراقصة بعد توبتها ، كما وفق فى اختيار الغزل السابق باعتباره مرآة انعكست فيها تعاليم بوذا الأخلاقية .

فثمة توازن فكرى ملحوظ فى الغزل ، لقد حل العشق محل التبجج ، وحل الاهتمام والتركيز محل اللامبالاة ، وحفل الغزل كله بأفكار دقيقة وتعبيرات رائعة جميلة بصورة تجعلنا نتمثل هذه النفس الانسانية الشريفة — نفس الراقصة — وقد انزاح عنها كابوس مؤلم مخيف وتطهرت من أدران الحياة البهيمية وتجلت فيها بروق العشق التى شده لها العالم بأسره .

على أن الفكرة الأساسية للغزل تكمن فى أن الانسان اذا فهم الحياة حق الفهم اتجه الى العشق واختاره مسلكا له لأنه هو الطاقة التى بها يستطيع الانسان أن يواجه مشكلات الحياة .

تقول الراقصة : « لا تعط هذا القلب الحائر فرصة التعارض ، أضف تجعيدة أو اثنين على هذه الطرة المجعدة » .. أيها المحبوب الحقيقى ، لا تعط قلبى الحائر فرصة الوقوع فى التعارض ، فقد تكون نجاتى وخلاصى فى اضافتك الى جمالك المزيد من الجمال ، فزد من جمالك كى أتجه بكليتى اليك وأصرف النظر عن هذه الأشياء التى ليس لها وجود حقيقى .

أيها المرشد الكامل « ان ومضة تجليك فى صدرى جعلتنى أعطى القمر والشمس مرارة الترقب والانتظار » . فومضة التجلى التى برقت فى أعماق صدرى — بفضلك أنت — جعلت الشمس والقمر يتوقفان عن سيرهما ليرقبا ما فى هذه الومضة من حسن وجمال

---

(١) ص ٧٢

« والشوق الى الحضور أسس فى العالم رسم الميل الى الأصنام ، فالعشق يروغ من الروح المملوءة بالأمل » لقد انتشرت الوثنية فى العالم لأن الانسان اشتاق الى أن يرى محبوبه بعينه ، فعاطفة الشوق تدفع العاشق الى أن يسلى نفسه بتصوير معشوقه ، فالعاشق يصاب أحيانا بعبادة الأصنام لأن الشوق يغلبه .. لذا فاننى ألجأ اليك أيها المرشد لكى توصلنى الى محبوبى الحقيقى وأنجو من عبادة الظاهر .

« ولكى انشد لحنا جديدا فى فراغ بال ، أعد طائر المروج الى المروج » فأنا فى الأصل طائر فى مروج العالم العلوى ، غير أنى ابتعدت عن عالمى الأصلى وأصبحت أسيرا فى القفص (الدنيا) ، فأعدنى الى عالمى حيث يتاح لى هناك فراغ الخاطر واطمئنان القلب فأترنم بألحان العشق المتجددة(١) .

ولقد نظم جلال الدين الرومى هذا المعنى فى أغنية « الناى » التى صدر بها المثنوى حين قال : كل من يبقى بعيدا عن أصله ، يظل يبحث عن زمان وصاله .

ثم تعرب الراقصة عن رغبتها فى اختيار مسلك العشق واللجوء الى الأعتاب الالهية بواسطة المرشد ، اذ تقول :

« لقد وهبتنى الحنين الى التحليق ، فانزع القيود عن أقدامى ، كى أستبدل خلعة السلاطين بلباس المريدين » ... يا الهى ! لقد أودعت فى روحى الدافع الى الرقى ، لذا فاننى ألجأ اليك كى تحررنى من العلائق الدنيوية حتى يفضل رضاؤك عندى رضا أصحاب السلطان والملوك .

« لو ضرب الأزميل فى الحجر ، فأى عجب فى ذلك ؟ فالعشق بامكانه أن يحمل على عاتقه كل هذه الجبال » .

ولا غرو فقد استطاع فرهاد أن ينحت فى صخور الجبل الأصم قناة للتدليل على حبه لشيرين(٣) ، حقا ان فى العشق طاقة تجعله يسيطر على الكون بأسره .

طاسين زردشت

لم يقرر اقبال فى أى من مؤلفاته أو منظوماته الأخرى أن بوذا نبى ، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لزردشت اذ يطلق عليه اقبال فى كتابه « تطور

---

(١) ونلاحظ هنا أن فكرة هبوط النفس من العالم العلوى الى سجن الدنيا موجودة ايضا لدى ابن سينا . انظر قصيدته فى النفس والتى مطلعها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

(انظر ضيابك « خرابات » ج ١ ص ٢٨٣) .

(٢) مثنوى ، دفتر أول ، ص ٣

(٣) اشارة الى قصة خسرو وشيرين لنظامى الكنجوى . انظر الدكتور عبد النعيم حسنين : نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة ص ٢٣٥ وما بعدها .

الفلسفة فى ايران » اسم « النبى الايرانى »(١) . والواقع أن اقبالا ينظر الى هذه المسألة — وأعنى بها مسألة النبوة من زواية أخرى ، زواية الآثار التى تركها هؤلاء الأفراد على مسيرة الحياة الانسانية ، فالشاعر يقول عن رسولنا الكريم :

« ان فى امكانك انكار الخالق ، لكن ليس فى الامكان انكار شأن النبى (ص) » اذ يمكن لبعض الناس انكار الخالق ولكن ما من أحد يستطيع انكار النبى (ص) لأن آثاره ماتزال ظاهرة فى الكون وأمته ماتزال حية والويته متزال مرفوعة .

كما يقول فى موضع آخر من « جاويد نامه » ان كارل ماركس نفسه نبى ولكن بدون « جبريل »(٢) ، فاقبال اذن يعنى بناحية الآثار التى خلقتها النبوات فى عالم اليوم .

ولا ريب أن هناك انبياء ذكرهم القرآن كان لهم آثار كبيرة على مسيرة الحياة البشرية ، ولكن اقبالا يهتم فى الطواسين الأربعة للنبوة بالأديان التى مازال لها اتباع يدينون بها حتى الآن .

وقد اهتم اقبال فى هذا الطاسين أيضـــا بالجانب الأخلاقى لتعاليم زردشت ، وعنى بصفة خاصة بمبدأ الحركة الذى تدعو اليه هذه التعاليم والذى تكمن أهميته فى أنه يحدد مصير الانسان فى الكون .

ويصف اقبال مبدأ الحركة هذا فى كتابه المذكور على النحو التالى :

يتسم رأى زردشت فيما يتعلق بمصير الانســـان بسهولة كبيرة ، والطبيعة الانســـانية (التى تتكون فى نظر الصوفية من القلب والنفس والروح) تعد من خلق الله عند زردشت ، ومع أن لها بداية فى الزمان الا أن بوسعها تحصيل الحياة الخالدة بنضالها ضد الشر ، كما أن لديها القدرة على الاختيار بين الخير والشر ، فاذا ما اختارت الخير مضت الى العوالم العليا متحررة من القيود الجسدية وتدرجت خلال مقامات الوجود الآتية :

١ — مقام الأفكار الطيبة .
٢ — مقام الكلمات الطيبة .
٣ — مقام الأفعال الطيبة :
٤ — مقام العظمة الخالدة حيث تتحد روح الفرد بأصل النور دون أن تفقد شخصيتها (٣)

---

(١) ويرى « مولانا أبو الكلام آزاد » أن الزردشتية دين توحيد ، انظر بحثه القيم « ويسألونك عن ذى القرنين » ص ١٤٤ — ١٦١ طبع مصر ١٩٧٢ .

(٢) ص ٦٩ ، فلك عطارد وسنتعرض للحديث عن ذلك بالتفصيل فى الفصل التالى .

(٣) The Development pp 9 — 11
والترجمة الفارسية بقلم الدكتور
آريان بور بعنوان « سير فلسفة در ايران » ص ٢٢ — ٣٤

أهرمن يختبر زردشت(١)

١ ـــ شكوى أهرمن :

« مخلوقاتى تنوح كالنـــاى بسببك ، وربيعنا أصبح خريفا بسببك » فتعاليمك يازردشت بثت الاضطراب فى أتباعى . فاصبح ربيعنا خريفـــا وأوشكت دولتنا أن تدول ، « جعلتنى فى الدنيا ذليلا حقيرا ، لقد لوثت صورتك بدمى ، الحقيقة نحيا من خلال جلوة سيئاتك ، بينمـــا موتى يكمن فى يدك البيضاء » قد ازدهرت حياة الحق فى الدنيا بدعوتك الى الله ، فشريعتك انما تعد موتا لى .

٢ ـــ طعن فى النبـــوة :

لا ريب فى أن من يريد ان يصيب مقتلا من الأديان السماوية عامة فان أقرب شىء اليه ان يشكك فى الأساس الذى تعتمد عليه هذه الأديان وهو فكرة الوحى والنبوة(٢) لذا نجد أهرمن يعمد الى هدم الأديان من أساسها بالطعن فى النبوة ، فهـــو يقول يا زردشت « ان من السفه الاعتماد على ميثاق يزدان (خالق الخير) وان السير على أحكامه ضلال ، « فالاعتماد على ميثاقه سفه اى سفـــه . فـــلو أنك نفـذت أحـكامه فسوف تضـــل فحـــاذر لأن « السمـــوم تسرى فى خمره الوردية ، والمنشـــار والدودة والصـــليب هى أنعـــامه وهبـــاته » ، فالأذى يـــكمن فى الأمـــانى التى يبشر بها أنبياؤه ، أولئك الأنبياء الذين ابتلاهم بتشديد المصائب ، فقـــد ابتلى يحيى (عليه السلام) بالمنشار ، وابتلى بدن أيوب (عليه السلام) بالدود ، وابتلى عيسى (عليه السلام) بالصلب ، وذلك بدلا من ان يمنحهم الراحة فى الحيـــاة .

اضف الى هذا ان « النبوة فى حد ذاتها شىء عديم الفعالية والتأثير ، وها هو ذا نوح لـــا استيأس من قومه لجأ الى الدعاء عليهم ، ولو كان لتعاليم هذا « المسكين » من أثر لـــا كان قد اضطر الى هذا الدعاء »(٣) ، وهكذا يتبين لك يا زردشت ان سلسلة النبوة هذه لا معنى لها .

٣ ـــ نصيحة لزردشت :

وبعـــد أن فرغ أهرمن من محاولته التشكيك فى النبوة ، يشير على زردشت بأن يعمد الى اصلاح نفسه بدلا من اصلاح الخلق ، ولا يتـــأتى اصلاح النفس ـــ فى رأى أهرمن (الشيطان) ـــ الا باتبـــاع الرهبنـــة والعزلة(٤) ، يقول أهرمن :

« اترك المدينة اذن واجلس فى غار ، واختر صحبة فرسان مخلوقات النور » ، اذ يجـــدر اذن يا زردشت أن تترك تبليغ الرسالة وأن تختار الخلوة فى غار ، وعندئذ تتزكى نفسك وتظهر فيك أمارات الملائكة ، فيتحول التراب بنظرة منك الى ذهب ، وتحدث مناجاتك ضجة كبرى فى العـــالم

---

(١) أهرمن هو اله الظلمة وخالق الشر فى العالم عند زردشت ، وهـــو يقابل « يزدان » خالق النور والخير أما « آهورا مزدا » فهو الاله الواحد الذى يعلو عليهما .

(٢) أنظر الدكتور ابراهيم مدكور « فى الفلسفة الاسلامية » ، ص ٩٢ .

(٣) فى البيت اشارة الى قوله تعالى على لسان نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ... » (سورة نوح : ٢٦) .

(٤) وهكذا يرى اقبال أن الرهبانية من أمر الشيطان .

الأعلى . . . حول التراب بنظرة منك الى ذهب ، أشعل النار فى الأفلاك بمناجاة ودعاء منك ، وكن هائما فى الجبال كالكليم ، وكن نصف محترق فى نار النظر » ، اختر العزلة — كالكليم موسى — لكى تعد نفسك لمشاهدة النور الالهى(١)

« لكن يجب عليك أن تترك النبوة ، يجب عليك أن تترك مثل هـذا التطبع بطبع الملأ (٢) .فالمرء وسط الأذلة ذليل ، ولو كان هو شعلة لتحول الى رماد » فما شأنك وشأن هؤلاء الأذلة الحقراء الذين تدعوهم الى رسالتك ، الا تعرف أن من يعيش وسط الأذلة يتحول فى نهاية الأمر الى ذليل هو الآخر ، وحتى لو كان قبسا من نار لتحول فى النهاية الى رماد(٣).

هذا الى أن « النبوة أقل من الولاية ، والنبوة أيضا مشقة للعشق »، فما الذى يدعوك اذن الى التدنى والى المشاق والمصاعب فالنبوة عناء ومشقة للعاشق . « فقم الآن ، واجلس فى عش الوحـدة ، وتخل عن الخلوة واجلس فى الخلوة » اترك الدنيا اذن واعتزل الناس وتجنبهم واستقر فى الخلوة .

زردشـت

١ — الحياة هى حركة الذات واختبار ملكاتها :

يرد زردشت على « أهرمن » قائلا : النور (يزدان) بحر والظلمـة (أهرمن) ساحله ، لم يولـد فى قلبه سـيل مثلى ، فى داخـلى مـوج لا يهدأ فهل للسيل (النبى) من عمل سوى الاغارة على الساحل (الظلام)، لكى يجعل النور يغطيه ويطغى عليه .

« ان الصورة غير الملونة التى لم يرها أحد قط ، لا يمكن رسمها الا بدم أهرمن » ، فصوره « الله » البعيدة عن ادراك الخلق لا يمكن أن تظهر وترتسم الا بدماء أهرمن .

يقول زردشت : « ان اظهار ذاتك هو سر الحياة ، فالحياة هى تجربة ضرب ذاتك » .

يا أهرمن ، أنك تشير على بالاعتزال وباخفاء ذاتى ! حقا أنك لمضلل ! فما الحياة الا أظهار الذات ، ما الرهبنة فهى اخفاؤها ومن ثم كانت الرهبنة هى الموت بعينه . وما الحياة الا تجربة طاقات الذات واختبار الامكانات المودعة فيها(٤) .

---

(١) لا يضرب الشيطان المثل بالكليم موسى هنا استشهادا بصفته النبوية، وانما يريد فقط بحثه عن التجلى خلال الأربعين يوما .

(٢) الملا فى اصطلاح اقبال هو الشيخ المتزمت .

(٣) تلميح رائع لاستكبار ابليس وامتناعه عن السجود للانسان وتفضيله النار على الطين « خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(٤) وقد سبق لاقبال أن قال ان من ينجـح فى الامتحان يكون موجودا حقا (أنظر جاويدنامه ص ١٤ وفيما سبق ص ٧٥) وقد لاحظ الأستاذ عباد الله فاروقى بحق أن « الحركة هى محور فلسفة اقبال — شأنه فى ذلك شأن زردشت فهما يؤمنان بأن الانسان يبلغ مكانته ويحقق قدره من خلال حياة حافلة بالنشـاط ، أنظر مقالا له بالانجليزية بعنوان : الزردشية واقبال ، اقبـال ريفيو ، أكتوبر ١٩٦٤ ، ص ١ — ٢٠ .

٢ — مرحبا بجفاء الحبيب :

ينتقل زردشت الى نقطة أخرى فيتحدث عن البلاء باعتباره امتحانا للايمان والاستقلال ، وليرد على تشكيكات أهرمن .

يقول : « بالبلاء يزداد نضج الذات حتى ترفع الذات الحجب التى تحجب الله » ، وتصل فى نضجها الى درجة من الأحكام والاعتدال بحيث تتجلى فيها صفات البارى تعالى .

« ورجل الحق لا يرى ذاته الا من خلال الله تعالى يقول لا اله الا الله ويتخبط فى دمه » ، فهو يقول دائما لأعداء الله : لا اله الا الله ، مضحيا بدمه فى سبيل اثبات صدق عقيدته(١) .

« ان التخبط فى الدم هو شرف كبير للعشق ، والمنشار والخشب والحبل عيدان بالنسبة للعشق » ، ليس الأمر كما تقول يا أهرمن ! فالتخبط فى الدماء على هذا النحو ليس كارثة تحيق بالانسان انما هو شرف عظيم بالنسبة للعاشق . ولذا كان المنشار والصليب وحبل المشنقة بمثابة عيدين للعاشق . فما يحدث فى سبيل مرضاة الحق كله خير ، لذا فان العاشق الصادق يقول عندما تعترضه المشكلات : « مرحبا بجفاء الحبيب » .

٣ — العشق يكتمل بالخلوة والجلوة معا :

ينتقل زردشت الى نقطة أخرى تتميز كل أبياتها بالعمق وبأن كل واحد منها يعبر عن فكرة محددة .

يقول زردشت « ان عينى لم تطلب فقط تجلى الحق ، فمن الخطأ رؤية الحسن دون تجمهر » فعين النبى لا تكتفى بجلوة الحق ، ولكن فطرة النبى تنشد أن تعم هذه الجلوة — باعتبارها نعمة من الله بها عليه — الناس جميعا . فاستمتاع المرء وحده بتجليات الحسن المطلق (الله تعالى) تعد خطأ كبيرا .

« ما الخلوة ؟ هى معاناة ولوعة وشوق . التجمهر رؤية ، والخلوة بحث » فالعاشق (السالك) يتطلع للوصول الى الحبيب ولذا يواصل البحث وذلك لا يتم الا بالخلوة . فالخلوة ضرورية بلا شك لتجميع شتات النفس ودفعها فى المسار الصحيح سعيا وراء البحث عن الحبيب مجمل القول أن الخلوة بحث ، أما الجلوة فهى مشاهدة ، فحينما حظى الرسول (ص) بالمشاهدة ترك خلوته فى غار حراء وبدأ يبث دعوته بين الناس كى يتمتعوا بمثل ما تمتع به هو من نعيم المشاهدة .

« العشق فى الخلوة له شأن الكليم ، فاذا ما سار فى الجلوة ، فهو ملك » ، وشأن العاشق فى الخلوة هو شأن المناجاة — مثل النبى موسى عليه السلام — ولكنه لا يلبث بعد الانتقال الى الجلوة أن يصبح سلطانا يسيطر على القلوب ويأخذ بقيادها الى الطريق المستقيم .

على أن « الخلوة والجلوة هما تمام العشق ، كلاهما أحوال ومقامات للعشق » فهما تمثلان العشق المتكامل ، فالنبى حينما يصل الى مرتبة النضج تبرز فيه خصلتان ، فهو فى الخلوة يصرف سره وعلانيته لله تعالى وهو فى الجلوة يؤدى فريضة الارشاد لعباده .

ثم يعود زردشت فيتساءل : « ما الخلوة ؟ هى ترك الدير والكنيسة »

---

(١) ونجد صورة الحلاج صاحب القولة المشهورة : « أنا الحق » واضحة الى حد ما فى هذا البيت .

انها السمو عن رسوم العبادة الممثلة فى الدير والكنيسة : « وما الجلوة اذن ؟ عدم المضي وحيدا فى الجنة » انها ارشاد الناس وهدايتهم . فالنبى لا يمضى فى الجنة وحده بل يمضى ومعه قومه .

« ومع أن الله موجود فى الخلوة والجلوة ، الا أن الخلوة هى البداية والجلوة هى النهاية » ، فالنبى يبغى وجه الله فى الخلوة والجلوة على السواء ، ومن ثم فهو لا يغفل فى أى وقت عن الحق فالحياة كلها عنده معية الهية . غير أن حياة الرسالة تبدأ عند النبى بالخلوة وتنتهى بالجلوة .

والآن ، يوجه زردشت خطابه الى « أهرمن » قائلا انك قلت — وقولك باطل — ان النبوة مشقة وعناء ، ان العشق اذا ما كمل فانه يصوغ الرجال ، فالنبوة أعلى مقام يمكن للانسان أن يصل اليه ، فالنبى عاشق وحين يصل عشقه الى درجة الكمال تتفجر فى روحه الطاقة التى بها يحدث ثورة فى الحياة الانسانية .

ويختتم زردشت حديثه قائلا : « ما أطيب السير فى طريق الحق مع القافلة ما أطيب السير فى العالم حرا كالروح » ، فسير النبى مع القافلة فى طريق الحق أمر جليل ، اذ حين ينشر النبى رسالته يكون كالروح فى هذا العالم ومن شأن الروح أن تجعل الحياة تدب فى الأجسام(١) .

طاسين المسيح

١ — الحكيم تولستوى يصف رؤياه :

ينتقل اقبال بعد ذلك الى عصر المسيح ، فينقل على لسان تولستوى (٢) رؤيا شاهدها فى منامه .

يقول تولستوى :

وسط جبال «هفت مرك» (أى الموتات السبع) واد قاحل لا طير فيه ولا أغصان ولا أوراق ، يتحول ضياء القمر بفعل الدخان المتصاعد منه الى ما يشبه النار ، وتموت الشمس ظمأ فى أفقه بفعل الحرارة الشديدة المنبعثة منه .

وثمة نهر من الزئبق يجرى وسط ذلك الوادى ويتعرج مجراه كما تتعرج مجموعة النجوم المعروفة بدرب التبانة فى السماء . المرتفعات والمنخفضات أمامه لا شىء ، ما أسرع جريانه ، موجة فوق موجة ، ثنية فوق ثنية وفى النهر رجل غارق الى خاصره ، يتفوه بآلاف الآهات التى لا أثر

---

(١) يعبر عن الوحى فى القرآن بأنه روح وأثره هو الحياة ، قال تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » . (الشورى : ٥٢) « دعاكم لما يحييكم » (الأنفال : ٢٤) .

(٢) ليو تولستوى (١٨٢٨ — ١٩١٠) : روائى وحكيم روسى عظيم نال شهرة عالمية بعمليه العظيمين « الحرب والسلام » و « آنا كارنينا » أخذت الشكوك التى كانت تنتابه منذ شبابه تزداد حدة حوالى سنة ١٨٧٩ وشرع فى التقصي والتأمل ولم يعد من ذلك جميعا بشىء الا بالجحود بما تقول الكنيسة (أنظر محمود الخفيف — ليو تولستوى ص ٢٧٠ وما بعدها) .

لها ، لا نصيب له من السحاب والرياح والماء ، يتحرق شوقا الى الماء ليطفىء ظمأه ولكن ليس فى النهر سوى الزئبق .

يقول تولستوى :

ورأيت على الشاطىء فتاة بديعة القسمات ، ساحرة النظرات ، عينها تقطع الطريق على مـائة قافلة ، تعلم الكفر لرهبـان الدير (فما بالك بغيرهم) ، وفى سحرها قوة من شأنها أن تظهر الخير فى صورة الشر والشر فى صورة الخير .

فسألتها : من انت ؟ وما اسمك أيتها الحسناء ؟ ومن هذا الذى كله نواح وبكاء ؟

قالت : اسمى افرنجين ، وصنعتى السحر ، ويتجلى فى عينى سحر السامرى .

واضح ان اقبالا يرمز بالزئبق الفضى الى الثراء والغنى الذى يولع به اليهود ولعا يصل الى درجة العبادة ، كما يرمز بالرجل الغارق فى نهر الزئبق الى الأمة اليهودية التى حكمت على نفسها بالعزلة وباءت بغضب من الله ولم تنل رحمته . أما الحسناء فيرمز بها الى الحضارة الأوربية التى جعلت تعاليم المسيح وراءها ظهريا وحولت العالم الى بوتقة من الصراع المـادى لا تخمد .

يواصل تولستوى وصف رؤياه قائلا : وما أن ذكرت الحسناء اسم السامرى حتى تجمد النهر الفضى فجاة فتحطمت عظام الشاب فى بدنه فصاح ألمـا : واه من قدرى ، واه من صياحى الذى لا اثر له ولا مجيب .

٢ — النصارى يطعنون على اليهود :

ثم تبدأ افرنجين — التى تمثل النصارى — فى الطعن على هذا الشاب الذى يلقى صنوفا من العذاب — والذى يمثل اليهود — فتقول له :

« ان كان لديك نظر ، فانظر قليلا الى اعمالك » ، فان ما تناله من عذاب انما يرجع أساسا الى سوء افعالك ، ارجع بذاكرتك قليلا الى الوراء ، « أبن مريم ، وهو مصباح الكون كله ، نوره يضىء الجهات واللاجهات ، وفلاطوس والصليب وذلك الوجه المصفر . . . ماذا فعلت انت وماذا فعل هو تحت السماء » . . الا تذكر كيف تصرفت مع ابن مريم (المسيح عليه السلام) ؟ ذلك هو وجه المسيح المصفر ، تلك هى عدالة فلاطوس(١) ! ذلك هو الصليب .. تمعن قليلا فيما قدمه المسيح من افضال على قومك وفيما رد به قومك على هـذه الأفضـال ، لقد كان نصيبه منكم التحقير والصلب والاتهام بالكفر .

« يا من لذة الأيام حرام على روحك ، يا من انت مطيع ومذعن للأصنام الفضية » ، ان لذة الايمان لم تخالج روحك ، حقا لقد حرمت من لذة الأيمان « فلم تعرف قدر روح القدس الذى أنزل الرسالة على المسيح من أجل

---

(١) الحاكم الرومانى الذى كان يحكم القدس أيام ظهور المسيح .

خلاصك ، لقد خسرت الروح واشتريت الجسد » ، فضحيت بالدين والآخرة من أجل الدنيا .

٣ ـ طعن فى الحضارة الأوربية :

لقد كان طعن تلك الحسناء السكرى بالتجلى التى ترفل فى بهائها بمثابة الخنجر اخترق قلب الشاب ، فتملكه الغيظ واندفع يحدثها قائلا : أيتها الماكرة ، أيتها السارقة ، « يامن تعرضين القمح ثم تبيعينه شعيرا ، بسببك يبيع الشيخ والبرهمى وطنه » ، لقد لقنت أسلوب الغدر ، وبيع الوطن للمسلم والهندوسى . « العقل والدين ذليلان من مظاهر كفرك ، العشق ذليل من أوجه تجارتك » ، لقد أصبحت العلامتان المميزتان للبشرية وهما العقل والدين ذليلتين منكسرتين بفعل أعمالك الشيطانية ، وجعلت الانسان بمنأى عن الجذبات الطاهرة التى تكمن فى العشق . « أن حبك أذى وأذى خفى(١) ، وضغينتك موت وموت مباغت » ينطوى على الدمار .

« لقد اخترت صحبة الماء والطين ، لقد اختطفت العباد من أمام الله » الا تدرين أنك جعلت الأنظار تنصرف عن الروح وعن الأخلاق السامية وجعلت هدف الحياة هو اللذة الجسمانية وحدها واختطفت عباد الله من أمام الله فباعدت بينهم وبينه .

« ان الحكمة التى فتحت عقدة الأشياء ، لم تعطك سوى الفكر الجنكيزى » فقد وهب الله سبحانه الحكمة(٢) للانسان وجعل له فيها خيرا كثيرا ، ولكنك تستعملين هذه الحكمة استعمالا سيئا وتحاولين بها اقامة الهمجية من جديد فى العالم .

« وكل عاقل يعرف جيدا أن وزرك أكثر وأشد جسامة من وزرى ، بأنفاسه أرتدت الروح الذاهبة الى الجسد وأنت تجعلين البدن قبرا للروح»، فليس هناك من شك فى أنك نسخت شريعة المسيح ، حقا لقد أحييت هذه الشريعة فى الظاهر ولكنك حولت ـ بأسلوبك الخاص ـ الأحياء الى أسوأ من الموتى بداخل القبور .

« ان ما فعلناه بناسوته ، فعلته أمته بلاهوته » فاذا كنا نحن (اليهود) قد أضررنا بناسوت (جسد) المسيح ، فانك قد حطمت لاهوته أى شريعته .

أيتها المخادعة ان « موتك حياة لأهل العالم ، انتظرى ، وسترين كيف تكون نهايتك » وهكذا ينذر اقبال ـ على لسان تولستوى ـ بنهاية الحضارة الأوربية التى تدعى القوامة على تراث المسيح .

---

(١) يشير اقبال هنا اشارة خفيفة الى الرغبة فى الاستعمار التى تستبد بأمم الغرب والتى يعقبها الغزو الفكرى حيث يتم به تحطيم معنويات شعوب المستعمرات .

(٢) يستعمل اقبال لفظ « حكمت » بمعناه الواسع الذى يشمل العلم والفن والفلسفة .

طـاسين محمد (ص)
نواح أبى جهل فى حرم الكعبة

الخصم هنا هو أبو جهل (عمرو بن هشام) الد أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويبين اقبال على لسان أبى جهل الانقلاب الذى احدثته الشريعة المحمدية فى الحياة الانسانية .

ولقد وفق اقبال توفيقا باهرا فى عرضـــه لمزايا الاســـلام ومعطياته للانسانية على لسان أبى جهل الذى يبدو من خلال أقواله وكأنه يتحدث من عالم آخر — اندثرت معالمه — عن عالم جديد يتميز بالبساطة والواقعية والطهر والخلو من التعقيدات .

ويبلغ هذا المعنى من نفس أبى جهل ذروته عندمـــا يستصرخ — فى نهاية كلمته — أوثان الجاهلية أن تعمل على هدم الدين الجديد وتقويض أركانه .

١ — أبو جهل يبكى الماضى :

يقول أبو جهـــل :

ان قلوبنا — معشر الجاهليين — قروح وجروح ، مما صنع محمد(ص)، لم ؟

— فقد اطفأ نور الكعبة حين حطم أصنامها .
— ونعى قيصر وكسرى ، ودعا الى زوال النظام الملكى من العالم .
— واختطفت شريعته شباب قومنا من بين أيدينا ، فثاروا علينا .
— هو ساحر ، كلامه يسحر الألباب والقلوب .
— وهل هناك كفر أعظم من قوله « لا اله الا الله » ، وانكاره لجميـــع الآلهة التى آمن بها آباؤنا وأجدادنا .
— لقد اتخـــذ موقف الانكار والتحقير من آلهتنا لكى يطوى بساط دين آبائنا .
— ولم يكتف بهذا فحسب بن عمد الى اللات ومناة(١) فحطمها اربا اربا الا فلتنتقمن منه ايتها الكائنات وتأخذن بثأر الآلهة .
— لقد صرفت رسالته القلوب عن معبود مشهود يرى ويلمس (الأصنام) وربطها بمعبود غير مشهود (الله) .
— متى كان الايمان بالغيب أقوى واعمق من الايمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الايمان أساس ، وهل لما لا يرى وجود ؟

---

(١) اللات : « كانت قريش وجميع العرب تعظمها . . فبعث رسول الله (ص) المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار » (انظر كتاب الاصنام لأبى المنذر هشام الكلبى ص ١٦ و ١٧) .
وكانت مناة أقدم الأصنام التى عبدها العرب وعظموها فبعث الرسول عليا اليها فهدمها . (أيضا ص ١٣ — ١٥) .

— أليس من العمى والسفه أن يسجد الانسان أمام الغائب ؟ ان الدين الجديد يأمر بالسجود أمام الغائب ، فهو اذن عمى وضلال .
— هل يجد الانسان لذة وحلاوة فى ركوع وسجود أمام اله لا تعرف هويته؟

٢ — نقد جاهلى للرسالة المحمدية :

وبعد ان بكى ابو جهل ما كان من أمر تقديس المادة وسيادة الوثنية على الحياة الانسانية ، وبكى انقراض العصر الذهبى للنظام الملكى ممثلا فى كسرى وقيصر يبدأ بعد ذلك فى توجيه الانتقادات الى الرسالة المحمدية ، وهى الانتقادات التى تظهر بها مميزات تلك الرسالة المحمدية ، وفضائلها على الانسانية ، التى تتمثل فى معالجتها للقضايا الحضارية مثل قضايا الوطنية والتفرقة العنصرية ووحدة بنى الانسان يقول أبو جهل :

— ان دينه حتف للملك والنسب (الوطنية والعصبية القبلية) .
— هو من قريش ، لكنه ينكر فضل أمة العرب !
— لا يفضل حرا على عبد ، ولا رفيعا على وضيع .
— انه يجلس مع غلامه على مائدة واحدة ويأكل معه .
— ومن أسف أنه لم يعرف قدر أحرار العرب ، فسوى بينهم وبين العبيد من الحبش(١) .
— لقد قضى على التميز باللون ، فاختلط الأحرار البيض بالعبيد السود وأهدرت الكرامة القبلية .
— ولا نشك أبدا فى أن هذه المساواة والمؤاخاة أعجمية فهى ليست من خصال العرب . ولعله تعلم هذه الشيوعية من سلمان المزدكى ، لقد خدع هذا الرجل ابن عبد الله ، فأدال دولة العرب .
— ان هذا الفتى الهاشمى لم يعرف قيمته وشرفه ، حقا لقد سلبت الصلاة التى يصليها النور من عينيه .
— أين العجمى من العدنانى(٢) ، وهل يستطيع الأبكم أن يصل الى مرتبة سحبان وائل(٣) .
— عجبا لعقلاء العرب هل عميت عيونهم ، ألا فلتهب يا زهير(٤) من قبرك، ولتحطم بشعرك البليغ أثر هذا الكلام الذى يسميه محمد « صوت جبريل »(٥) .

٣ — ابو جهل يستصرخ الأصنام :

وبعد أن يفرغ أبو جهل من الاستنجاد بشعراء العرب وخاصتهم ،

---

(١) يقصد بلالاً رضى الله عنه .
(٢) عدنان الجد الأعلى للعرب .
(٣) سحبان أحد فصحاء العرب .
(٤) زهير بن أبى سلمى الشاعر العربى المشهور .
(٥) يقصد القرآن الكريم .

يتجـه الى الأصنام فيستصرخهـا ، قائلا : أيها الحجر الأسود لا تنطق وتشهد بما رأيناه من محمد (ص) (١) .

ولم لا تقوم ياهبل (٢) ، لكى تطهر الكعبة من أولئك الملحدين .
وأغر عليهم ، واجعل شملهم مرتعا للذئاب وابعث المرارة فى تمورهم وهى على النخيل .
أرسـل عليهم ريحـا صرصرا عاتيـة ، تجعلهم كأنهم اعجاز نخل خاوية (٣) .

يامناة ، يالات ، يا من ارتبط وجودكما بأبصارنا ، لا ترحلا من ديارنا ، وان أردتما الرحيل ، فلا ترحلا من قلوبنا .
وان كان لابد من الرحيل ، فلا تعجـلا ، وامهـلانا ان كنتما أزمعتما الفراق (٤) .

* * *

وقد عنى اقبال بالنواحى الاخلاقية وحدها فى الأديان الأربعة بصورة تفوق عنايته بالجوانب الالهية .
لقد رأينا كيف طبق اقبال فى « جاويد نامه » فكرته هذه الجديدة ، التى تدعو الى تصور التاريخ البشرى على أساس عصور النبوة .

ونلاحظ أن الخصم فى كل عصر من هذه العصور الأربعة يعد تمثيلا حقيقيا للروح الجاهلية التى سادت الحياة الانسانية فيه قبل أن يبعث النبى ليعمل على تصحيحها . ففى عصر بوذا نجد الراقصة تمثل النزعة البهيمية التى سيطرت على الحياة البشرية قبل دعوة بوذا .
الى أن جاء هو (٥) يدعو الى البعد عن رجس المادة ، ثم جاء زردشت فدعا الى الحركة والحياة وترك العزلة التى دعا اليهـا بوذا ، وقد بالغت البشرية فى اقبالها على الحياة بجانبها المادى وحده قبل عصر المسيح الذى دعا الى تغليب جانب الروح ، وهى الدعوة التى لم تلق أذنا صاغية من أتباعه الذين تمثلهم الحضارة الأوربية بما فيها من أصول مادية يهودية (٦) .

---

(١) يدعوه أبو جهل بالطبع باعتباره صنما ، والعقيدة الاسلامية ترى فى الحجر الأسود مجرد حجر لايضر ولا ينفع .
(٢) كان أعظم الأصنام فى جوف الكعبة . أنظر كتاب الأصنام ، ص ٢٧ .
(٣) وفى البيت تلميح الى الآية الكريمة : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » (الحاقة : ٦) .
(٤) و يه تلميح لبيت فى معلقة امرىء القيس يقول فيه :
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى .
انظر ، جمهرة أشعار العرب ، ص ٩٧ .
(٥) سبق أن ذكرنا أن اقبالا يهتم هنا بالأديان التى مازال لها أتباع يدنيون بها حتى الآن .
(٦) وكأن اقبالا يرى أن الحضارة الأوربية تنتمى الى الجاهلية السابقة على ظهور المسيح .

ثم جاءت عملية تصحيح مسار البشرية على الطريق المستقيم على يد محمد عليه الصلاة والسلام . فبرزت المشكلات الانسانية الحقة بجلاء ، حيث ظهر التعصب القومى والوطنى ، وظهر اهتمام الإنسان بالحس ونكران الجانب الروحى ، وظهر الجمود وروح الولاء الأعمى للأوضاع القائمة دون تمحيص ، واعتقد كل فريق أنه على حق وأن غيره على الباطل، وظهرت التفرقة العنصرية والتميز على أساس اللون والجنس ... وما الى ذلك من مشكلات ما زالت تؤرق الانسان وتجر عليه الويلات والمصائب الى يومنا هذا .

لقد عالج الاسلام هذه المشكلات العلاج الناجع ، ولكن المسلمين المعاصرين تركوا الاسلام ، وفتنوا بحب التقليد ، ولم يجعلوا من أنفسهم مثلا يحتذيه الانسان المعاصر فى حل تلك المشكلات التى تمسك بتلابيبه ، ويمكن لدينهم أن يقدم لها حلولا مناسبة .

ولكن ما أسباب المحنة التى تردى فيها المسلمون المعاصرون ، وكيف السبيل الى حلها — سيكون ذلك موضوع الحديث على الفلك التالى — فلك عطارد .

الفصل الثانى

فلك عطـــارد

يمكننا الآن فى ضوء مطالعتنا لفلك القمر ولفكر اقبـــال فى مصنفاته الأخرى(١) أن نقرر أن « القمر » عنده يمثل « المعرفة » بمصادرها الثلاثة على وجه الاجمال وهى : الرياضة الباطنية والتأمل العقلى المتمثلين فى محاوراته مع العارف الهندى ، والوحى والالهام المتمثل فى « سروش » ، والتاريخ المتمثل فى وادى الطواسين .

أما فلك عطارد ـــ الذى نحن بصدده ـــ فاقبال يخصصه للفكر وهو فى هذا أقرب ما يكون الى عبد الكريم الجيلى ، الذى قال عن سماء عطارد : « خلقهـــا الله تعـــالى من الحقيقة الفكريـــة فهى للوجود بمثابة الفـــكر للانسان(٢) » ، كذلك اقبال أضفى عليه طابع الفكر ، الذى لا يصلح به حال المسلمين وحدهم وانما حال البشرية جمعاء . . . وهو طابع انسانى يعبر عن مفهومه الراسخ للاسلام باعتباره دينا عالميا غير اقليمى .

فلقد التقى اقبال فى هذا الفلك بروح المصلح الاسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى وروح المفكر الحر سعيد حليم باشا ـ الصدر الأعظم فى تركيا ـــ ومن خلال هاتين الشخصيتين ، اللتين حظيتا بالاحترام والتقدير فى العالم الاسلامى ،عرض اقبال آراءه فى معالجة مشكلات المسلمين ، ثم انطلق بعد ذلك ، على لسان جمال الدين ، يدعو الشيوعيين الى الاسلام مبينا نقاط الالتقـــاء بينه وبين الشيوعية ، منذرا بأنهـــا ستتحلل وتزول فى النهاية اذا هى لم تعتنق الاسلام وتؤمن بالخالق تعالى .

والواقع أن اقبالا وفق الى حد كبير ـــ كما سنلاحظ فيما بعد ـــ الى تحديد المشكلات التى تأخذ بخناق العالم الاسلامى ، وهى كما بينا : النزعة الاقليمية والنظرة الوطنية الضيقة ، الفرقة التى شتت شمل المسلمين ، الاستعمار ، تفشى روح الشيوعية التى تنزع منزع الحس وترفض الروح ، سيادة الملوك الذين يريدون أن يجعلوا من عبـــاد الله عبيـــدا لهم ، ترك التقنية (التكنولوجيا) التى كانت سببا فى تقدم الغرب ، ثم الابتعاد عن التراث الاسلامى وتقليد الغرب تقليدا أعمى كما يتمثل فى حركة مصطفى كمال أتاتورك .

ووفق اقبال كذلك فى معالجة هذه المشكلات معالجة موضوعية على ضوء القرآن الكريم ، ففصل بين مراتب الدوام والتغير فى تعاليم الاسلام ،

---

(١) أنظر مثلا تجديد الفكر الدينى فى الاسلام (الترجمة العربية) ص ١٤٥ وما بعدها .

(٢) الانسان الكامل ج ٢ ص ٦٤ .

أو بعبارة أخرى فصل بين الثابت والمتطور فى الشريعة الاسلامية ، وأطلق على الثوابت اسم المحكمات ، وركز الأضواء على هذه المحكمات فتبدى لنا بوضوح « عالم القرآن » .

وبعد أن يبين اقبال ملامح « العالم القرآنى » — على لسان جمال الدين — يشكو الى المصلحين الكبيرين حالة العالم الاسلامى والخراب الذى آلت اليه النفوس ، بل والموت الذى سرى فى روح الملة البيضاء . . كيف يمكن لهؤلاء الموتى أن يعملوا على احياء هذا العالم الناصع النقى ، « عالم القرآن » .

ويرد عليه سعيد حليم بأن ذلك ممكن ولكن بشرط أن نطلق هذه الروح المبدعة الكامنة فى نفس كل مسلم من عقالها وأن نحررها من كبت المتزمتين الذين يحاربون كل تجديد . . ذلك ممكن ولكن باطلاق حرية « الاجتهاد » من جديد . فالقرآن ينطوى على عوالم لا نهائية ، يبلى عالم فى نفس المؤمن فيمنحه القرآن عالما آخر جديدا ، يمنحه عالما له نفس « المحكمات » ولكن صورته متغيرة متجددة أبدا(١) .

ويحمل جمال الدين اقبالا رسالة الى « الأمة الروسية » يدعوها فيها الى الله ، ويحدد نقاط الالتقاء بين الشيوعية والاسلام فى : هدم النظام الملكى ، تحرير العبيد ، نصرة المظلومين ، محاربة الربا ، الدعوة الى وحدة بنى الانسان ، وانفاق « العفو »(٢) . ويبين لها حقيقة القرآن باعتباره ليس مجرد كتاب وانما هو روح تسرى فى الوجود(٣) .

° ° °

لقد انطلق اقبال من فلك القمر حيث حصل على « المعرفة » من مصادرها الحقيقية واستوعبها من روافدها الفياضة ، فتدافعت بين جنبات وجدانه وتدفقت تدفق النهر وسط السهول لا يقف فى سبيله نحو هدفه شىء . وهبط اقبال — فى صحبة الرومى — على سطح عطارد ، وانضما الى صلاة الجماعة التى كان جمال الدين يؤم فيها سعيد حليم ، وبعد أن فرغوا من الصلاة قدم الرومى اقبالا الى الشيخين على أنه « زنده رود »

---

(١) لاتزال مشكلة التطور فى الفكر الاسلامى تواجه معضلة الحفاظ على المحكمات المبدئية والمتغيرات الزمنية ، وقد عولجت فى مصر أخيرا فى كتابين هما : الفكر الاسلامى والتطور لفتحى عثمان ، والتطور والثبات فى حياة البشرية لمحمد قطب .

(٢) اشارة الى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (البقرة : ٢١٩) .

(٣) اشارة الى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » (الشورى : ٥٧) .

أى النهر الحى ، وسيظل هذا الاسم ملتصقا باقبال الى أن تنتهى الرحلة السماوية .

* * *

ولا ريب فى أن اقبالا نجح فى اختيار شخصية جمال الدين الأفغانى(١) لكى يعرض من خلالها آراءه فى الاصلاح ، فجمال الدين شخصية اصلاحية فذة دعت الى الوحدة الاسلامية مرة ودعت الى اقامة حكومات اسلامية مستقلة يرتبط بعضها ببعض فى شبه اتحاد مرة أخرى . . ولكن الشىء الذى لم يتغير عنده هو الدعوة الى الأخذ بتعاليم الاسلام سواء فى قيام الحكومة الواحدة ، أو فى ارتباط الحكومات المختلفة(٢) .

عاصر اقبال الجانب الأكبر من حياة السيد جمال الدين فتعرف على نضاله عن كثب ، ولا شك عندى فى انه قرأ بعمق رسالته القيمة ، « الرد على الدهريين » ، وهى الرسالة التى ألفها جمال الدين باللغة الفارسية وترجمها تلميذه الأمـــام محمد عبده الى العربية ، لأن ما أجراه اقبال فى « رسالة الخلود » على لسان جمال الدين هى آراء جمال الدين نفسها فى الدين(٣) ، والاستعمار(٤) ، والشيوعية(٥) ، وان كان اقبال قد عنى بتعميقها وتقريبها واثرائها بنظرته الاسلامية والفلسفية الفريدة وبطبعه الوقاد ، بل نلاحظ أن اقبالا استعمل فى الأشعار التى أوردها على لسان جمال الدين — نفس المصطلحات التى استخدمها هذا المصلح الكبير فى رسالته المذكورة ، مثل لفظ « اشتراك » الذى تردد غير مرة فى « الرد على الدهريين » بمعنى الشيوعية والاباحة(٦) ، والذى جعله اقبال عنوانا لباب مستقل تحدث فيه على لسان جمال الدين عن الشيوعية(٧) .

وفى ظنى أن اقبالا لم يشك للحظة واحدة — وهو ينظم هذه الأبيات الرائعة الحافلة بأسرار الحياة الحقة — فى أن جمال الدين لو قيض له أن يصرف الجانب الأكبر من نشاطه فى التوفيق بين الدين ومتطلبات العصر — وهو العمل الذى كان مؤهلا له كل التأهيل — لكان هذا الذى قدمه اقبال هو منهجه بالتمام والكمال ، بل ربما لم يشك اقبال لحظة فى أن الأفغانى

---

(١) ولد سنة ١٨٣٩ ، وكانت وفاته سنة ١٨٩٧ م .
(٢) أنظر الدكتور محمد البهى: الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٤٧ وما بعدها .
(٣) انظر الرد على الدهريين ص ٨٢ — ٨٣ مثلا .
(٤) أيضـــا ، ص ٦٧ ، انظر أيضـــا عبد القـــادر المغربى ، جمال الدين الأفغانى ، ص ٦٩ .
(٥) الرد على الدهريين ص ٨٦ وما بعدها .
(٦) أيضا ص ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٩ .
(٧) أنظر جاويد نامه ص ٦٩ « اشتراك وملوكيت » .

لو أدرك الثورة الروسية سنة ١٩١٧(١) وعاين اعتناق الروس للشيوعية لكان قد وجه رسالة مماثلة لتلك التى وجهها اقبال — على لسانه — الى الأمة الروسية يدعوها الى الايمان .

حقا ، لقد كان جمال الدين — فى نظر اقبال — شخصية فذة : « وكان دقيق البصر بالمعنى العميق لتاريخ الفكر والحياة فى الاسلام ، جامعا الى ذلك أفقا واسعا نشأ عن خبرته الواسعة بالرجال والأحوال خبرة تجعل منه همزة الوصل بين الماضى والمستقبل . . . ولو أن نشاطه الموزع الذى لم يعرف الكلال اقتصر بتمامه على الاسلام بوصفه نظاما لعقيدة الانسان وخلقه ومسلكه فى الحياة . . . لكان العالم الاسلامى أقوى أساسا من الناحية العقلية مما هو عليه اليوم »(٢) .

ولا غرو ، فاقبال يعترف فى « رسالة الخلود » بامامة جمال الدين له فقال عنه — على لسان الرومى : « سيد السادات مولانا جمال ، كلماته تبعث الحياة فى الحجر والصلصال » وجعله يؤمه فى الصلاة وقبل يده على سبيل التقدير والاحترام ، وقال عنه وعن سعيد حليم باشا : « لم ينجب الشرق (فى القرن التاسع عشر) أفضل من هذين الرجلين ، لقد تولت أناملهما حل مشكلاتنا » .

على أن اجلال « اقبال » لجمال الدين الأفغانى كان موضع انتقاد من جانب بعض المستشرقين ، ومن بينهم « جب » الذى يعلق فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الاسلام » ، على رأى اقبال فى جمال الدين بقوله : « ان العمل الوحيد الذى نشر لجمال الدين هو كتاب « الرد على الدهرين »، وهو عمل لا يوحى مطلقا بأن جمال الدين انسان له هذه الاستطاعة العقلية على نحو ما تصور اقبال »(٣) .

غير أننا نستطيع أن نقول ان رأى « جب » ليس نقدا لاقبال بقدر ما هو تعريض بهذا المصلح الاسلامى الكبير ، الذى لم يلق من جانب المستشرقين ، الا العنت وسوء الظن والاتهام بالسطحية ، لأنه انما واجه الاستعمار الغربى وجها لوجه ولم تلن له قناة ، والقى الأضواء على نقائص الغرب فى المجتمع البشرى،واشاد بالاسلام فى مواجهة المسيحية(٤) .ليس هذا فحسب بل كان هو الشرارة التى أطلقت حركة اليقظة الفكرية فى أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى ولا سيما فى العالم العربى .

* * *

(١) توفى جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٩٧ ، وقد ذكر روسيا باعتبارها مسرحا حافلا لنشاط المرتدين عن الدين : « وكثرت أحزابهم — يعنى الطبيعيين — ونمت شريعتهم فى اقطار الممالك الأوربية ، خصوصا فى مملكة الروس » (الرد على الدهرين) .

(٢) اقبال : تجديد التفكير الدينى ، ص ١١١ .

(٣) Gibb, H.A., Modern Trends in Islam, pp. 26 - 29.

(٤) الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ص ٧٧ .

ولكن من هو سعيد حليم باشا ؟ أننا — معشر أبناء هذا الجيل — لا نكاد نعرف مصلحا اسلاميا بهذا الاسم يقف على قدم المساواة مع جمال الدين ويدلى بأفكار فى الاصلاح غاية فى القيمة ، ويتحدث عن « عالم القرآن » حديث من عاين هذا العالم وعاش فيه . . . فهل هو اكتشاف جديد خاص باقبال ؟

ان كتب التاريخ تحدثنا عن شخصية بهذا الاسم كانت تشغل منصب « الصدر الأعظم » فى تركيا ابان الحرب العالمية الأولى(١) . ولكنها لم تحدثنا عن الجوانب الاصلاحية البارزة فى هذه الشخصية ولا ما توصلت اليه من آراء خطيرة فى الدين والمجتمع على السواء .

على أن سعيد حليم لم يكن رجل دولة فحسب ، وانما كان مفكرا اسلاميا أهمته أحوال المسلمين ، وكان يجيد العربية وعددا من اللغات الأوربية اجادة تامة ولاسيما الفرنسية،التى كتب بها عددا من المقالات ترجم بعضها الشاعر التركى محمد عاكف الى التركية(٢) .

---

(١) ولد سعيد حليم فى القسطنطينية سنة ١٨٦٥ م ، أبوه ابراهيم حليم الابن الثانى لمحمد على باشا الذى حكم مصر ، قضى الشطر الأول من حياته فى مصر ، ثم انتقل الى القسطنطينية حيث ترقى الى أن وصل الى منصب وزير للسلطان عبد الحميد ولكن السلطان ما لبث أن عزله بعد أن قبل رئاسة حزب الاتحاد والترقى ، فعاد الى مصر سنة ١٩٠٥ . ثم سافر الى القسطنطينية من جديد سنة ١٩٠٨ ، بعد أن أرغم شباب الحزب المذكور السلطان على اجراء عدد من الاصلاحات ودعوا سعيد حليم ليتولى قيادة الحزب مرة أخرى . وفى سنة ١٩١١ عين قنصلا للدولة ، وفى سنة ١٩١٢ انتخب رئيسا لحزب الاتحاد والترقى،ثم عهد اليه بوزارة الخارجية.وفى سنة ١٩١٣ أصبح الصدر الأعظم لتركيا (رئيس الوزراء) ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى أعلن حياد تركيا ، لكنه ما لبث أن اضطر الى اعلان الحرب على بريطانيا بعد اذاعة نصوص المعاهدة السرية بين روسيا وبريطانيا على تقسيم أملاك الدولة العثمانية ، وقد هزمت تركيا فى الحرب ودخلت الجيوش البريطانية القسطنطينية سنة ١٩١٩ وألقت القبض على سعيد حليم ونفى الى جزيرة مالطة . ثم عاد الانجليز فأطلقوا سراحه بعد عام واختار الاقامة فى « روما » وفى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ أطلق أرمنى متعصب النار عليه فأرداه قتيلا فى العاصمة الايطالية .

(٢) Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turky, p. 235.
وقد يكون محمد عاكف — وهو من مريدى اقبال — قد تأثر فى ذلك بفكرة اقبال عن سعيد حليم باعتباره مصلحا فذا .

وقد وقف سعيد حليم فى سنة ١٩١٧ حيما كان يشغل منصب الصدر الاعظم فى تركيا ضد نزعات التعصب الاقليمى التى تفشت بين الأتراك ، وأعلن فى أصرار أكيد أن « وطن الاسلام هو الموضع الذى تسود فيه الشريعة(١) » ، وقد عرض سعيد حليم أفكاره الاصلاحية القيمة فى كتابه «بحرانلرمز » أى أزماتنا(٢) ، كما نشر مقالا مطولا تحدث فيه عن روح الاسلام العالمية بعنوان « اسلاملاشمق »(٣) أى الجامعة الاسلامية ، عد فيه التعصب الاقليمى والأثرة القومية أخطر المخاطر على المسلمين من حيث كونها بعدا عن روح الاسلام ، وقال : « أن نهضة الأمة أنما تكمن فى التمسك بمبادىء الاسلام(٤) » .

وقد نشر سعيد حليم هذا المقال بعنوان « اصلاح المجتمع الاسلامى » فى صورة معدلـة باللغـة الفرنسية فى مجلـة « الشرق والغرب(٥) سنة ١٩٢١ قبل بضعة أسابيع من اغتياله فى روما . وقام «مولوى عبد الله» بترجمة المقال الى اللغة الانجليزية ونشره فى عدد ابريل سنة ١٩٢٧ من مجلة « الثقافة الاسلامية »(٦) ، التى تصدر فى الهند وربما يكون اقبـال قد تعرف على آراء سعيد حليم الاصلاحية من خلال هذا المقال(٧) ، فقد استفاد به فى التعريف بآراء هذا المصلح الكبير فى كل من كتاب « تجديد التفكير الدينى » (١٩٢٨)(٨) و « جاويد نامه » (١٩٣٢) .

لقد تحدث اقبال فى كتاب التجديد عن سعيد حليم بوصفه زعيما لحزب الاصلاح الدينى وزعيما لحركة الدعوة الى فتح باب الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية ، باعتبار أن الاسلام — كما يقول الصدر الأعظم — تنسيق يجمع بين المثالية والواقعية ، وليس له وطن ينسب اليه « ..ان الأثرة القومية ليست فى رأى هـذا الكـاتب البعيـد النظر سوى صـورة من صـور الهمجية(٩) » .

ولننتقل الآن الى الدراسة التفصيلية . .

---

(١) Bernard Lewis, The Emergence... p. 358

(٢) طبع فى استانبول ٣٥ — ١٣٣٨ هـ ، وهو يشتمل على فصول فى : الحكم النيابى، دعاة التقليد ، الأزمة الفكرية ، والأزمة الاجتماعية ، فصل فى التعصب .

(٣) نشر لأول مرة سنة ١٣٣٧ ، وقد طبع مع « بحر انلرمز » فى الصفحات من ١٤٥ — ١٨٣ .

(٤) اسلاملا شمق ص ١٤٦ .

(٥) L'Orient et l'Occident

(٦) Islamic Culture.

(٧) The Late Prince Said Halim pasha, the Reform of Muslim Society, pp. 110 - 135, Islamic Culture, Hyderabad, January 1927.

(٨) أنظر ١٧٧ — ١٧٨ .

(٩) تجديد التفكير الدينى ص ١٧٩ — ١٨٠ ، وقد تحدث سعيد حليم عن فكرة المثالية والواقعية أو بتعبيره هو بالتركية « فكريه واثباتية » فى ص ١٤٨ من « اسلاملاشمق » .

زيارة روح كل من
جمال الدين الأفغانى وسعيد حليم باشا

١ ـ كلمة تمهديـــة :

يقرر اقبال لدى دخوله هذا الفلك حقيقة استنبطها من تجاربه الذاتية، فيقول : « لقد نفذت قبضة التراب مهمتها اذن ، بالتفرج على تجلياتها »(١)، فعندما تتأمل قبضة التراب (الانسان) تجلياتها وامكاناتها غير المحدودة ، فانها تندفع الى الأمام فى سبيل الرقى الروحى ويحالفها التوفيق على الدوام.

« اما أننى وقعت فى شبكة الوجود ، واما أن الوجود وقع أسيرا فى شبكتى ،

هل انا سبب التمزق فى هذا الحجاب الأزرق ، هل أنا من الأفلاك ؟ ام الأفلاك منى ؟

اما أن الفلك قد احتوى ضميرى ، أو أن ضميرى هو الذى احتوى الفلك .

هل هذا هو باطن ذلك الظاهر ؟ ما هو ؟ ما هذا الذى تراه العين ؟ ما هو ؟ » .

ويمكننا ان نقول انه يوحى الينا بأنهاستطاع أن يتخلص من أسر الزمان والمكان ، وأن بوسعه الآن أن يتحرك كيفما شاء وأن يتحكم هو فى الكون ولا يتحكم الكون فيه ، فلقد نال « السلطان » والفضل يرجع الى العشق الذى مكنه من شق هذه السماء .

ولم لا ؟ ألم يسخر الله هذا الكون للانسان ؟ ان هذا الكون لا يمكن أن يحتوينى وانما ضميرى هو الذى يحتوى الكون(٢) ؛ لقد قدر لى ـ كانسان ـ أن « اشارك فى أعمق رغبات العالم الذى يحيط بى ، وأن اكيف مصير نفسى ومصير العالم كذلك »(٣) .

٢ ـ وصف لعطارد :

« اننى اضرب بجناحىفى سماء اخرى » ..فأنا الآن أحلق فى سماء عطارد . « واشهد أمامى عالما آخر فيه جبال وفيه سهول ، فيه بحر وبر . . هو عالم اقدم بكثير من أرضنا،عالم نبت من سحابة صغيرة،عالم لم يسيطر الانسان عليه بعد ، لم ترسم بعد فيه صورة على « لوح الوجود » ـ ومن ذا الذى ينقش هذه الصور على اللوح الا الانسان ـ فلم يولد فيه بعد من يعترض على الفطرة ، وليس فيه افراد منحوا نعمة العقل » .

---

(١) مشت خاكى كار خودرا برده بيش . در تماشائى تجلى هائى خويش.

(٢) اشارة الى الحديث القدسى : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

(٣) تجديد التفكير الدينى ص ١٩ .

٣ ــ هاهنا مقام الأولياء :

قلت للرومى : ان هذه الصحراء بديعة حقا ، ما أروع صوت تلاطم الماء فى الجبال ، لا أجد ــ ياصاحبى ــ هنا أثراً للحياة ، ولكننى أسمع صوت الأذان ، فمن أين يأتى هذا الصوت ؟

قال الرومى : الا تعلم أن « هاهنا » مقام الأولياء ان هذه الكومة من التراب تعرف ترابنا ، فهذه الأرض تألف بنى الانسان ، اذ عندما رحل أبو البشر (آدم) من الفردوس ألقى الرحال فى هذا الفلك بضعة أيام ، ولقد أحست هذه الأرض الرحبة الشاسعة بحرقة آهاته كما استمعت الى أناته عند الأصباح . وزوار هذا المقام الشريف رجال أطهار ذوو مقامات رفيعة ، رجال أطهار مثل الفضيل بن عياض ، وأبى سعيد بن أبى الخير ، عارفون من أمثال الجنيد وأبى يزيد البسطامى . . فهلم بنا الآن ودعنا نصلى فى الجماعة ، كى نتعرض لنفحات الشوق بضع لحظات » .

٤ ــ صلاة الجماعة يؤمها الأفغانى :

فمضيت مع الرومى ، حيث شاهدت رجلين يصليان : المقتدى هو التاتارى ــ سعيد حليم باشا ــ والأفغانى هو الأمام . فالتفت الى الرومى فوجدت وجهه يتألق بنور الشوق والسرور ، ولاغرو فهو فى كل حين يحظى بحالة « الحضور » والمثول فى الحضرة الالهية ، فأدرك الرومى مرامى على الفور وقال لى :

ان الشرق لم ينجب أفضل من هذين الرجلين (فى القرن التاسع عشر) فلقد تمتع كل منهما بفراسة لا تبارى وتولت أناملهما حل مشكلاتنا . هذا هو سيد السادات مولانا جمال فى كلامه سحر يبعث الحياة فى الحجر والصلصال . وهذا قائد الترك « حليم » المحزون ، افكاره فى مثل سمو منصبه . . . ان الصلاة مع أمثال هذين الرجلين طاعة حقيقية ، ولو أن ثواب هذا العمل (الصلاة) هو الجنة » .

٥ ــ الأفغانى يتلو سورة « النجم » :

فوقفنا بجانب سعيد حليم ، وأخذ امامنا الأفغانى ــ ذلك الشيخ الدؤوب الذى لا يعرف الكلل الى نفسه سبيلا ــ أخذ يتلو سورة « النجم »(١) فرددت جنبات هذا السهل الصامت الفسيح تلاوته ، انها تلاوة تجعل الخليل ابراهيم والأمين جبريل يصلان الى حالة الوجود ، تلاوة تجعل القلب يفقد صبره فى الصدور ، فلو استمع اليها العاشق لتحرك قلبه فى صدره حركة من نفد صبره من الفراق وتاق الى الوصل . وتبعث صيحة « الا الله » من القبور . فهى تجعل شهادة « لا اله الا الله » الكامنة فى أعماق القلوب ــ حتى قلوب أقلنا شأنا وأكثرنا انغماسا فى الماديات ــ تنهض من القلب كقيام الموتى من قبورهم يوم الحشر .

---

(١) وهى السورة القرآنية التى تتضمن المعراج النبوى ، ولقد اختارها اقبال بالذات لهذا المغزى حيث أن المعراج هو الفكرة الأساسية لهذه المنظومة .

« تعطى الدخان اضطراب اللهيب ، تمنح الحرقة والسكر لداود » ، فتلاوته تبعث الحياة فى قلوب الموتى ، وتمنح « النبى داود » (١) نعمة العشق اذا استمع اليها .

وتلاوته تجعل الغائب عن البصر ماثلا أمام البصيرة ، بحيث أننا استغرقنا فى صلاتنا بين يدى الله استغراقا كاملا ، كما تبدد تلاوته الحجب بيننا وبين « أم الكتاب » اذ أنها تجسد تعاليم القرآن ، وتكشف عن روح الاسلام .

٦ ـ الرومى يعرف الشيخين باقبال :

وما ان فرغنا من الصلاة حتى نهضت من مكانى وقبلت يد الأفغانى بكل تواضع واحترام . . فنظر الرومى الينا وتدمنى اليه قائلا :

انه يبدو فى الظاهر ذرة لكنها تطوى الأفلاك ، وتنتقل فى مدارج الرقى الروحى ، فى قلبه عالم كامل من الحرقة والألم (على أمته) لم يفتح العين الا على ذاته ومكنوناتها،وطفق طوال حياته يعمل على اصلاح ذاته وتربيتها، هو حر لم يسلم قلبه لأحد سوى الله . يحث السير فى هذا الوجود الفسيح طلبا للمعرفة ، واننى أدعوه « زنده رود » على سبيل الدعابة والمزاح .

وبعد أن يقدم الرومى اقبالا للأفغانى يسأل الأفغانى زنده رود عن أحوال المسلمين قائلا :

« زنده رود !! ، حدثنا عن ترابنا ، حدثنا عن أرضنا وسمائنا ، فأنت ترابى ولكنك مضىء البصر كالقدسيين فهيا وخبرنا عن المسلمين » .

٧ ـ الاستعمار والشيوعية هما علة العلل :

يرد زنده رود قائلا :

« لقد رأيت فى ضمير الأمة ـ التى قوضت أركان العالم ذات مرة ـ تعارضا بين الدين والوطن » ، فقد اصبح المسلمون اسرى للتعصب الاقليمى والوطنى ، لأنهم « يئسوا من قوة الدين المبين ، فماتت أرواحهم فى أجسادهم من ضعف الايمان واليقين » .

لقد أصبح المسلم ـ سواء كان تركيا أم ايرانيا أم عربيا ثملا بأوربا واقعا تحت تأثير المدنية الأوربية ، حقا لقد « اصطادتهم أوربا كما يصطاد المرء السمك ، فأصبح فى حلق كل مسلم شص أوربا » .

« وآل حال المشرق الى الخراب بسبب الاستعمار الغربى ، بينما ذهبت الشيوعية ببريق الدين والأمة » .

انهما الاستعمار والشيوعية وحدهما السبب فى خبو هذا البريق ولذلك سنجد اقبالا يتعرض ـ على لسان الأفغانى ـ لهاتين المشكلتين بالتفصيل ، ألا وهما الاستعمار الذى قسم البلاد الاسلامية وجعلها أشتاتا ونفخ فى نفوس المسلمين نوازع التعصب الاقليمى ، ثم الشيوعية التى لاشأن لها الا بالحس والمادة كما سيتحدث ضمنا عن الرأسمالية .

---

(١) اشتهر داود ـ عليه السلام ـ بحسن الصوت والتلاوة وقد شبه به النبى أحد أصحابه فقال (لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود) .

الأفغاني يتحدث عن :
الـدين والوطــن

يكاد اقبال أن يكون صاحب نظرية مستقلة فى « الوطنية » ، فهو يرى أن ثمة فرقا بين الوطن ونظرية الوطنية التى تعتنقها أوربا ، اذ يقول : « لفظ الوطن الذى نستعمله فى أقوالنا هو اصطلاح جغرافى ، وهو لايتعارض من هذه الناحية مع الاسلام . . . والانسان بفطرته ينزع الى حب مسقط رأسه حبا جما ، وهو على استعداد للتضحية من أجله . . ولكن فكرة الوطنية القومية شىء مستقل تماما عن حب الوطن ، فلقد جعل الغرب من الوطنية نظرية اجتماعية قائمة بذاتها » (١) .

لقد كانت هذه النظرية ـ فى رأى اقبال ـ صدى للحركة التى قام بها « مارتن لوثر » فى أوربا ضد سيطرة الكنيسة وسلطتها ، وهى الحركة التى أسفرت عن احلال تدريجى لنظم أخلاقية قومية محل الأخلاق المسيحية العالمية (٢) . ومزقت رباط الوحدة الأوربية ، « فأخذت الأمم المسيحية تنفصل عن كل معنى انسانى فى الاخاء والاتحاد ، وانزلقت الى مضـايق الحقوق القوميـة والاقليمية والعنصرية والطائفيـة ، فنشأت النعرات الوطنية ، وفى ضـوء هـذه النعرات نشـأت أنظمة وتشريعات خاضعة لمؤثراتها ، ولم يعد لأمة من الأمم المسيحية وجود سياسى اليوم الا وهو متأثر بهذه النزعات » (٣) .

ويرى اقبال أن مفهوم الوطن فى القاموس السياسى للعصر الحديث : « لم يعـد مجرد مفهوم جغرافى بل أصبح الوطن عبارة عن مبدأ سياسى للهيئة الاجتماعية الانسانية ، واذا كان الاسلام هو القانون الأول لمجتمع ما ، فان لفظ الوطن يكون متعارضـا مع الاسـلام اذا استعمل كتصور سياسى » (٤) .

ويرى اقبـال أن شرر هـذه النظرية اندلع لهيبه وأحـاط بالعـالم الاسلامى كله ، وأن شباب المسلمين يودون اليوم تطبيق هذه المبـادىء واقرارها فى حياتهم العملية دون أن يتبينوا البواعث والعلل التى حملت أمم الغرب على اعتناق تلك المبادىء .

ولا يعجب اقبال من هذا الذى حدث فى أوربا : « فلو تصورنا الدين (المسيحى) على أنه يبدأ من الآخرة وينتهى اليها دون أن تكون له وشيجة

---

(١) أنظر ، محمد طاهر فاروقى ، اقبال كاتصور وطنيت ، خيابان اقبال ، فبراير ١٩٦٦ ص ١٦٣ — ١٧٠ .

(٢) تجديد التفكير الدينى ، ص ١٨٨ .

(٣) محمد اقبال : الخطبة التى ألقاها فى الحفل السنوى للرابطة الاسلامية بمدينة الله آباد سنة ١٩٣٠ ، وقد وردت ترجمة لها فى ص ٢٢ — ٤٠ من كتاب فلسفة اقبال للأستاذين محمد حسين الأعظمى والصاوى شعلان .

(٤) نقلا عن المقال القيم الذى كتبه الدكتور محمد طاهر فاروقى فى مجلة خيابـان ، فبراير سنة ١٩٦٦ بعنوان : « اقبال كاتصور وطنيت » ص ١٦٣ — ١٧٠ .

اتصـال بدنيـا هذا العـالم لكان الذى حدث فى شـعوب الغرب أمرا لا غرابة فيه ولا مناص منه ، بالنظر الى مبادىء المسيحية ، التى حلت مكانها فى حياة الأقوام انظمة السياسة الجديدة وانحصر أمر الدين بأعماله ومعاملاته فى حيـاة الفرد داخـل نفسه وفى حـدود ذاته دون أى اتصال بالحيـاة الدنيوية » (١) .

ويرى اقبال أن للاسلام شأنا آخر ، فهو حقيقة مفردة لا تقبل التحليل، وهـو لا ينزع الى تفريع وحـدة الانسـان الى حقيقتين منفصـلتين متمايزتين ، وانما الحقيقة فى نظر الاسلام هى بعينها ، تبدو دينـا اذا نظرنا اليها من ناحية ، وتبدو دولة اذا نظرنا اليها من ناحية أخرى ، وليس صحيحا أن يقـال فى الاسلام ان الدين والدولة جانبان أو وجهان لشىء واحد ، لأن الاسلام كيان مفرد لا سبيل الى تجزئته (٢) .

وقد ظلت « مشكلة الوطنية » — كنظرية سياسية — تشغل بال اقبال حتى أخريات حيـاته ، فقـد كان يشفق على العـالم الاسلامى من مخاطر اعتنـاق هذه النظرية التى من شـأنها أن تذهب بروح الأخوة الاسلامية وصبغتها العالميـة ، وهى الأخوة التى يقول فيها اقبـال : « ان المبدأ الرئيسى لقوميتنا ليست اللغة المشتركة ولا الوطن المشترك ولا الأهداف الاقتصادية المشتركة بل اننـا من هذه الأسرة الأخوية التى أقامها الرسول (ص) ، اننا مشتركون فى هـذه الأسرة لأن مصـدر عقائدنا واحـد والتقاليد التى ورثناها واحدة » .

يقول اقبـال :

— لو جعلت النسب جزءا من الأمة ، فقد أحدثت صدعا فى أمر الأخوة.

— العشق فى الروح ، أما النسب ففى القوام والجسد ، رباط العشق أقوى من رباط النسب .

ويقـول أيضـا :

— لسنا افغانيين ولا أتراك أو تتاريين ، انما نحن أبناء دوحة واحدة ومن غصن واحد .

— حرم علينـا التميز باللون والرائحة ، لأننـا تربينـا (كالزهور) فى ربيع واحد(٣) .

قلت ان مشكلة الوطنية ظلت تشغل بال اقبال حتى أخريات حياته ، حيث ذهب الى أن التصـور السياسى للوطنيـة لا يتفق والدين الاسلامى — بصبغته العالمية وباعتباره حقيقة مفردة لا تقبل التجزؤ أو الفصل أو حتى التمييز بين الدين والحيـاة — فى مكان واحـد ، وقال : « قد تبين لى بوضوح من مؤلفات الغربيين أن أهـداف أوربا الاستعمارية تقتضيهم أن يشتتوا شمل الوحدة الدينية الاسلامية وذلك باشـاعة نظرية الوطنيـة

---

(١) فلسفة اقبال ص ٢٤ — ٢٥

(٢) انظر : تجديد الفكر الدينى ص ١٧٧

(٣) محمد طاهر فاروقى ، اقبال كا تصور وطنيت .

فى البلاد الاسلامية . وان كان بعض المسلمين يظنون أن بالامكان الجمع بين الدين والوطن (بتصور سياسى) فاننى أحذرهم من أنهم سيواجهون اللادينية فى آخر هذه المرحلة ، وان لم تكن اللادينية فانهم سيفصلون الاسلام عن النظم الاجتماعية وسيفرغونه من مضمونه الأخلاقى » (١) .

والآن نعود الى « رسالة الخلود » لنرى كيف تحدث اقبال — على لسان جمال الدين الأفغانى — عن الدين والوطن .

١ — المؤمن صقر وليس فأرا :

يقول جمال الدين الأفغانى : ان سادة الغرب وكلهم مكر وخداع ، علموا المسلمين البعد عن الدين ، وعن روحه العالمية . فأصيبوا بضيق الأفق وغلبوا الأثرة الاقليمية على المبادىء الانسانية الشاملة التى تنطوى عليها طبيعة الاسلام .

على أن مكر ساسة الغرب وخداعهم انما يتمثل فى أنهم «يفكرون فى المركزية ويسعون نحو الوحدة ، ولكنكم تفكرون فى الانقسام والتجزؤ . قل لى بربك ما معنى الشام وفلسطين والعراق ؟ » ليس لهذه المناطق معنى الا فى الحظيرة الاسلامية فليس ثمة اختلاف بين شعوبها .

« ولو كان فى مقدورك أن تميز بين الحسن والقبح لما ربطت قلبك بالطوب والحجر والآجر » .

« ما الدين ؟ هو السمو من وجه التراب وعن الماديات لكى يطلع المرء على ما بين جوانحه من روح طاهرة بريئة من أوضار المادة » .

« ان من قال « هو الله » لا يحتويه هذا النظام ذى الأبعاد » فمن شأن الموحد الذى ينطق بالشهادة الا يحتويه هذا الكون على سعته . لكن الوطنية تجعل الانسان محصورا فى نطاق جدران الوطن الأربعة ، فكيف يمكن للوطن أن يحتوى المسلم الموحد بالله اذن .

« ان نبتة العشب من تراب ، وما تزال تنمو من التراب ، أما الروح الطاهرة فمن الظلم أن تموت فى التراب » . فالانسان أصله حقا من تراب ، مثله مثل ورقة العشب ما تزال تنبت من تراب ، لكن من الظلم حقا أن تموت روح المسلم الطاهرة وتفنى فى المادة .

فرغم أن الانسان نبت من الماء والطين ، واجتذب — كالزهر — اللون والعصارة من الماء والطين . الا أن من الظلم حقا أن يتمرغ فى الماء والطين على الدوام ويقضى حياته كلها فى المادة ... من الظلم حقا ألا يسمو ويرتفع عن هذه الدرجة المنحطة من درجات الحياة .

والجسد — كما سبق أن قلنا — مجرد حالة من أحوال الروح ، لكن له مطالبه ومقتضياته ، وهو يحق مسف فيها يبغى أن ينزل بالانسان الى الحضيض ، اذ « يقول له : اندمج فى تراب المعبر » أى انهمك بكليتك فى الماديات ، أما الروح فمطالبها تسير فى اتجاه مضاد تماما ، الى السمو والى الارتفاع اذ « تقول الروح للانسان : تطلع الى سعة العالم »، تطلع الى الآفاق وهيمن على هذا الكون كله .

(١) محمد طاهر فاروقى ، اقبال كاتصور وطنيت .

« فالروح لا تحتويها الجهات أيها الذكى ، والرجل الحر بمناى عن كل قيد » فلعلك تعرف — يا زنده رود — أن الروح ليست مقيدة بالزمان والمكان ، وأن المؤمن الحر الذى يغلب مطالب روحه ويجعل لها السبق على الدوام بمنـأى عن القيود والأكبال . « والرجـل الحر ينهض صائحا من التراب المظلم ، فالصقور لا يليق بها أن تعمل عمل الفـأر » . اذ المؤمن الحر ينفر بفطرته من العلائق المـادية ولا يقضى حياته فى الجحور مثل الفئران وانما يحلق عاليا فى السماء شأنه شأن الصقور ، لا تحده حدود .

٢ — العـالم كله وطن للمسلم :

يوضح الأفغانى فى هذه الفقرة أنه بذلك لا ينادى بطرح محبة الوطن ولا يدعو الى التخلى عن الذود عن حياضه ، فهذا شىء أبعد ما يكون عن مقصده ، انما هو يتحدث عن الوطنية فحسب باعتبارها نظرية للحياة قائمة بذاتها ، فيقول :

« سأحدثك عن تلك القبضة من التراب التى سميتها الوطن ، أو ما يقال عنه مصر وايران واليمن » ان كل انسان ينتسب الى وطن من الأوطان ، وان الاسلام لا ينكر هذه النسبة ولكن يجدر بنا على الدوام أن نضع فى أعتبارنا أن العالم كله وطن لنا(١) .

يقول الأفغانى : « فثمة علاقة بين الوطن والشعب ، فمن تربته نما هذا الشعب ، لكنك اذا دققت النظر فى هذه العلاقة فستجد أن ثمة حقيقة أدق من الشعرة . ولأضرب لك مثلا يسيرا بالشمس ، فرغم أن الشمس تشرق من المشرق مجلية نفسها فى جراة وتألق ودون حجب ، فانها تظل تحترق وتتوهج بما فيها من نار داخلية حتى تفر من قيد المشرق والمغرب ، وتقف وسط السماء عند انتصاف النهار فتصبح لا شرقية ولا غربية » .

« انها بزغت من مشرقها ثملة بالجلوة ، لكنها ظلت تواصل سيرها الحثيث الى أن استولت على الآفاق كلها عندما انتصف النهار وسيطرت من عل على المشرق والمغرب . ففطرة الشمس اذن بريئة عن المشرق والمغرب برغم كونها « مشرقية » على سبيل النسبة » .

كـذلك المسـلم ، منسوب الى وطن من الأوطان لكن فطرته كفطرة الشمس لا هى شرقية ولا غربية وانما عالمية ، والعالم بأكمله وطن له .

الشيوعية والرأسمالية

يؤكد اقبال فى كل مؤلفاته أن الأنظمة السياسية الخالية من الدين هى لعنة فى حق البشرية(٢) ، ومن بين الأنظمة التى عناها اقبال : الشيوعية والرأسمالية .

---

(١) وصف اقبال — فى موضع آخر — هجرة الرسول — ص — بانها درس فى عالمية الاسلام : حل المسلم عقدة القومية فلقد هاجر سيدنا (النبى) من الوطن .

(٢) انظر عبد الرحمن طارق : جهان اقبال ص ٢١٩

فهو يرى أن الشيوعية حركة مادية ملحدة ، تقبل على الدنيا وتنبذ الدين ، وهذا هو وجه الخلاف بين اقبال والشيوعية(١) .

على أن اقبالا يرى أن ثمة سمات مشتركة بين الشيوعية والرأسمالية، فالرأسمالية تدعوا الى احلال « عبادة البطون »(٢) محل عبادة الله ومن ثم كانت النتائج المترتبة على كليهما واحدة لا فرق بينها ، فكلاهما يعبد المادة ويعبر عن الجانب الحسى وحده من الانسان(٣) .

وسوف نلاحظ فيما يلى أن اقبالا يشبه الشيوعية والرأسمالية بحجرين يسحقان الانسانية كما تسحق الحجارة الزجاج .

* * *

١ ـ نقد منصف للماركسية :

سبق لاقبال أن تحدث عن الشيوعية فى كتابه تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، حيث قال : « والاشتراكية الملحدة الحديثة ، ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة ، لها نظرة أوسع أفقا (من القومية) ، لكنها وقد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب « هيجل » قد أعلنت العصيان على ذات المصـــدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف . ولابد للقومية والاشتراكية الالحادية فى الأوضـــاع الانسانية الراهنـة ـ على الأقـــل ـ من أن تتأثر بالقوى السيكولوجية للكراهية والارتياب فى نيات الغير ، والغيظ : تلك القوى التى تنزع الى اضعاف روح الانسان وانضاب ينابيع قوته الروحانية الخفية ، فلا أسلوب التصوف فى العصور الوسطى ، ولا القومية ، ولا الاشتراكية الالحادية بقادرة على أن تشفى علل الانسانية اليائسة »(٤) .

وفى « رسالة الخلود » يقول اقبال « ان ماركس صاحب كتاب رأس المال ـ الذى وضع فيه مبادىء الشيوعية ـ من ذرية ابراهيم الخليل فهو نبى بدون جبريل » ، اذ قدم للانسانية شريعة من صنعه هو ، ولم يتلقها عن الوحى الالهى .

« ولما كان الحق فى باطله مضمرا ، كان قلبه مؤمنا وعقله كافرا » ، ففى الماركسية بعض الحق ، ولكن فيها أيضا قسط لا بأس به من الباطل ، ولاعجب فقد كان قلب ماركس مؤمنا وعقله كافرا .

وهذا نقد عادل يوجهه اقبال الى الماركسية ، فهو يتفق معها فى أهدافها الانسانية التى سيستطرد فى شرحها بعد قليل فى « رسالة الأفغانى الى الأمة الروسية » ولكنه يختلف معها كما سبق أن ذكرنا فى كفرها بالله من ناحية وفى أنها تقيم أساسها على « المساواة المادية » لا على الأخوة الروحية، فالمساواة بين « البطون » وهى التى تنادى بها الشيوعية ليست علاجا للصراع الطبقى فى رأى اقبال .

---

(١) أنظر عبد الستار جوهر براجه : اقبال اور نظرية سياست ، خيابان اقبال ، فبراير ١٩٦٦ ص ١٧٧ ـ ١٩٦ .

(٢) هى نفس الكلمة التى استعملها الأفغـــانى فى كتابـــه « الرد على الدهريين » ص ٨٠ : « عبيد البطون » وستتكرر هنا كثيرا .

(٣) راجع عبد السلام ندوى : اشتراكيت ، اسلام اور اقبال .

(٤) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧

وقلب ماركس مؤمن لأنه يضطرم بمشاعر التعاطف مع بنى الانسان ويقف فى وجه الرأسمالية المستغلة والتحكم الكنسى واكتناز الذهب والفضة، والاستغلال غير المشروع ، وهذه هى نفس التعاليم الأخلاقية للأنبياء ... ولكن وا أسفاه ، قد كان عقله كافرا لانه لم يؤمن بالله .

يقول اقبال « لقد فقد أهل الغرب الأفلاك . انهم ينشدون الروح الطاهرة فى البطون » ، لقد فقدوا التطلع الى الأفلاك ، وحرموا لذة التطلع الى الرقى الروحى ، لذلك تجدهم يبحثون عن الروح ... يبحثون عنها أين ؟ .... فى المعدة والبطن .

ولكن هيهات .. « فالروح النقية الطاهرة لا تحصل على اللون والرائحة من الجسد ، ولا شأن لشيوعية الا بالجسد » ، فشريعة هذا النبى المنكر للحق مؤسسة على « مساواة البطون » .

لكن هذه المساواة التى تنشدها الشيوعية هى ما نسميه نحن المسلمين بالأخوة ، ومقر هذه الأخوة القلب ، « وطالما كان للأخوة مقام فى القلب ، فان جذورها فى القلب لا فى الماء والطين » ، فهى لا تستمد جذورها من الماديات ، انما تستمدها من عقيدة التوحيد .

٢ — الرأسمالية تذهب بالروح :

كذلك الرأسمالية غايتها هى أيضا تسمين البدن ، ان صدرها الخالى من النور خال أيضا — كالشيوعية — من القلب .

وهنا يرسم اقبال منظرا رائعا ينطوى على مغزى عميق ، لكى يبين مدى استغلال الرأسمالية للانسان :

فها هى ذى نحلة ترفرف بجناحيها وتتنقل هنا وهناك بين الزهور ، ولا تلبث أن تحط بين الحين والحين على تلك الزهر فتمتص العسل وتترك الزهرة كما هى بأوراقها ولونها ورائحتها ، ويأتى بلبل فيرى روعة المنظر وجمال الورد والأزهار ، فيصدع مترنما بأعذب الألحان .

يقول اقبال : اصرف النظر عن الطلسم واللون والرائحة واترك الصورة ، اترك هذا المنظر البديع لحظة ، ... وتمعن فى المعنى وحده ، ومع أن من الصعوبة بمكان أن تلمح الموت الداخلى الضارب فى الأعماق ، الا أنه لا يجدر بك ان تسميها زهرة ، لانها فى الحقيقة مجرد قطعة من الطين.

كذلك الانسان عندما يتعرض لاستغلال الرأسمالية تراه حيا أمامك ، يتصرف كما يتصرف الاحياء تماما ، ولكن روحه ماتت فى رقه وعبوديته للرأسمالية .

٣ — انما الحياة تحرق وابداع :

وبعد أن استعرض اقبال السمات المميزة لكل من الشيوعية والرأسمالية عمد بعد ذلك الى توجيه الانتقادات اليهما سويا . والواقع أن هذه الانتقادات تعد بمثابة ادانة لكل الأنظمة المادية . يقول :

ان لكل من الشيوعية والرأسمالية روحا غير صبورة قليلة التحمل ، وهما لا تعرفان الله ، وتخدعان الناس .

الانتاج هو حياة الشيوعية ، والخراج (النظام الضرائبى) حيــاة الراسمالية .... حقا ان الانسان زجاج محاصر بين هذين الحجرين .

« حطمت الشيوعية العلم والدين والفن،واختطفت الراسمالية الروح من الجسد والخبز من اليد»(١)فالشيوعية تعمل على تحطيم العلم والدين والفن ، حيث انها تقضى على الروح الخلاقة والطموحة للانسان ، أما الرأسمالية فتقتل فيه الجانب الروحى الذى هو أغلى وأثمن شيء عنده ، ليس هــذا فحسب بل تختطف لقمة العيش من يده ، ولاتكاد تتركه يعيش فى أدنى درجات الحيــاة .

يقول اقبال : « لقد رايت كلتيهما غارقة فى الماء والطين (الماديات) ، الجسد منهما مضيء براق ، والقلب مظلم » ظلمة القبور .

لكن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان .. « انما حياة الانسان هى تحرق الوجدان ، هى الابداع ، هى وضع بذرة القلب فى الطين الموات » ، ومن شأن هذه البذرة أن تنبت وتترعرع وتتحول الى دوحة وارفة تظلل الحياة الانسانية وتحميها من هذا الجدب المميت .

سعيد حليم باشـــا
يتحدث عن الشرق والغرب

ليس هناك من يستطيع أن يتحدث عن الشرق والغرب أفضل من سعيد حليم باشا الصدر الاعظم لتركيا ابان الحرب العالمية الأولى ، فهو تركى يقع جزء من وطنه فى أوربا ، والجزء الآخر فى آسيا . وهو متصل من هذه الناحية بالأوربيين يعرف عن كثب طريقتهم فى الحياة واسلوبهم فى التفكير ، وهو الى جانب ذلك متضلع من عدة لغات أوربية . لذلك فقد اختاره اقبال لكى يسوق على لسانه رسالة الى الأمة الاسلامية يحذرهم فيها من تقليد الغرب تقليدا أعمى .

وليس هناك أيضا من يستطيع ان يوجه النقد الى حركة التتريك التى قادها مصطفى كمال سوى سعيد حليم الذى كان زعيما لحزب الاصلاح الدينى ، وهو الحزب الذى دعا الى التمسك بالاسلام والى نبذ الأثرة القومية التى « ليست الا صورة أخرى من صور الهمجية » .

لقد كان اقبال معجبا أشد الاعجاب بتركيا الحديثة ، فقد كان يرى « أن تركيا ، فى الحق ــ هى الأمة الاسلامية الوحيدة التى نفضت عن نفسها سبات العقائد الجامدة ، واستيقظت من الرقاد الفكرى ، وهى وحدها التى نادت بحقها فى الحرية العقلية ، وهى وحدها التى انتقلت من العالم المثالى الى العالم الواقعى ، تلك النقلة التى تستتبع كفاحا مريرا فى ميدان العقل والأخلاق »(٢) .

وكان معجبا أيضا والى حد بعيد بمصطفى كمال أتاتورك وقد تبدى

---

(١) تجديد التفكير الدينى ص ١٨٠

(٢) أيضا ص ١٨٦

هذا الاعجاب من قصيدته التى نشرت فى ديوانه « بيام مشرق » بعنوان : « خطاب الى مصطفى كمال باشا أيده الله (يوليو ١٩٢١) » (١) .

ولكنه ما لبث أن لاحظ أن تركيا الحديثة التي علق عليها الآمال الكبار والتى اعتبرها رائدة فى مجال فتح باب الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية لكى تتواءم مع متطلبات الحاضر ، والتى اعتبرها نموذجا شجاعا يجب على باقى الدول الاسلامية أن تحتذيه .... ما لبث أن وجد تركيا حادت عن هـذا الطريق واخذت فى تقليد أوربا تقليدا أعمى وخلعت عنها ثوب الدين الحنيف، وتنكرت لتاريخها المجيد .

لم يكن هناك — فى رأى اقبال — من هو أفضل من سعيد حليم لكى يوجه مثل هذا النقد العنيف لبنى وطنه .

١ — انهض أيها المسلم وضع تصميما لعالم جديد :

يقول اقبال على لسان سعيد حليم :

« ان المهارة عند أهل الغرب هى بضاعة الحياة ، أما عند أهل الشرق فالعشق هو سر الكون » ، فكل اعتماد الغربيين قائم أساسا على العقل ، اما المسلمون فسر الحياة قائم عندهم على المحبة الالهية .

« المهارة تصير عارفة بالله من خلال العشق ، وتتوطد أركان العشق بالمهارة » ، فثمة علاقة بين العقل بما ينطوى عليه من مهارات وامكانات ، والعشق الذى هو السر العجيب لهذا الكون . فالعشق وحده هو الذى يقود العقل الى معرفة الحق تعالى ، بينما العقل يدعم عمل العشق ويقويه ، فلا ريب فى أن المحبة الالهية من شأنها أن تصون العقل من الضلال ، واذا قاد العشق العقل ، فسوف ترعى كل الانجازات العقلية جانب الحق وتصبح نعمة على البشرية جمعاء .

يقول سعيد حليم : « اذا ما رافقت المهارة العشق ، يصبح العشق قادرا على تعمير عالم جديد » ، فحين يتلازم العقل والعشق ويتم التكامل بينهما عندئذ يكون فى مقدور العشق أن يضع تصميما لعالم جديد .

«فقم أيها المسلم وضع تصميما لعالم جديد ، وامزج العشق بالمهارة» . ولا تقلد أهل الغرب لأن « شعلة الأوربيين خابية ، أعينهم بصيرة وقلوبهم ميتة » ، فعقل الأوربيين خاب سقيم ، أن تبدت عيونهم كعيون الفـارفين فان قلوبهم ميتة لاروح فيها لاغراقهم فى المادة .

« لقـد اصيبوا بـالجراح من سيوفهم هم ، وقعوا صرعى كحيوان اصطادوه » ، فقد اخذوا يتنافسون فيما بينهم تنافس الذئاب على الجيفة فأصابوا انفسهم بسيوفهم ، ووقعوا صرعى كحيوان ذبيح ، وهم أنفسهم الصيادون .

« لاتبحث عن السكر من كرمهم، فليس فى افلاكهم عصر جديد » ، عليك اذن الا تنخدع بمظاهرهم ، فلا تظنن انك ستجد فيها لوعة العشق ، ولا يمكن لحضارتهم أن تتمخض عن عصر جديد طالما بقيت ناقصة خاوية من مضمونها الروحى ومن تطلعها الى الحق تعالى .

(١) بيام مشرق ص ١٦١

« من نارك أنت يأتى التوهج للحياة ، ان مهمتك هى خلق عالم جديد »، أيها المسلم ، أنك على الحق ، فأساسك العشق ، واتقاد الحياة واصطلام نيرانها لايكون الا بنارك أنت ، فخلق عالم جديد هو مهمتك أنت وحدك ، وليست مهمة أحد غيرك .

٢ — نقد لمصطفى كمال (١):

يقول اقبال — على لسان سعيد حليم — وهو ينتقد اتجاه : « لا دين للدولة » ، الذى قطعت فيه تركيا الحديثة شوطا بعيدا بقيادة أتاتورك :

قال مصطفى كمال — الذى يتغنى بالتجدد — (٢)ان الصورة القديمة ينبغى أن تصقل وتنظف .

الا أنك يا صاحبى لن تجدد حيوية الكعبة الشريفة اذا أحضرت « لاة ومناة » جديدتين من أوربا ووضعتهما فى الحرم .

لقد أحضرت أصنام التعصب الاقليمى التى يعبدها الأوربيون من دون الله واستقدمت النظريات السياسية الخاوية من المضمون الدينى ووضعتها فى ديار المسلمين بهدف تجديد الاسلام ، ولكنك بهذا فى الواقع لا تبعث الحيوية فى الدين بقدر ما تحيى عبادة الأصنام من جديد .

« لا ، ليس فى قيثارة التركى (مصطفى كمال) لحن جديد،فان مايسمونه جديدا انما هو نغمة تركتها أوربا وأصبحت قديمة بالية » ، فرغم التعصب الاقليمى والعنصرى السائد فى الدول الأوربية ، الا أن من « سخرية القدر حقا أن ترى هذه الدول بعد أن أضاعت ثروة المعتقدات الدينية والمبادىء الخلقية أخذ يطيف بها الحلم الذهبى فى توحيد أوربا » (٣) .

يقول سعيد حليم : « لم يدخل صدره نفس جديد ، ليس فى ضميره عالم آخر » ، فليعرف مصطفى كمال انه لم يتنفس هواء جديدا ، وأن ليس فى ضميره حلم بعالم جديد ، ولا عجب فيما أقول ، فلقد انسجم مع العالم

---

(١) مصطفى كمال : (١٨٨٠ — ١٩٣٨) مؤسس تركيا الحديثة الغى السلطنة فى تركيا وأقام الجمهورية ١٩٢٣ وانتخب رئيسا لها ، وعمد الى تغيير معالم تركيا ففصل الدين عن الدولة واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية وسن قوانين مدنية على أصول أوربية بدل الشريعة الاسلامية .

(٢) تجدد : وهو غير التجديد ، فالمجدد يحرر الشريعة من البدع والعقائد الباطلة ، أما المتجدد فلا علم له بالدين ولكن سوء الحظ يفرضه على شعب ما فيشرع فى النظر فى الدين بعقله السقيم ورأيه القاصر المختلط فتكون العاقبة وخيمة ولا تتحمل عبئها الا الأمة . (انظر سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ٦٠٦) ، ونلاحظ أن سعيد حليم باشا استعمل نفس اللفظ فى مقاله (اسلاملا شمق ص ١٤٨) ، فقال : « انهم أصيبو بلوثة هدم كل شىء بدعوى التجدد » .

(٣) من الخطاب الافتتاحى الذى القاه اقبال فى حفل الرابطة الاسلامية سنة ١٩٣٠ ، أنظر فلسفة اقبال ص ٢٦ .

الراهن بصورته المنهكة المتمثلة فى الحضارة الأوربية وذاب كالشمع من لهيب هذا العالم .

« ان الأصالة — ياصاحبى — كامنة فى جذور كل مخلوق ، وهذا شىء يعرفه الجميع ، واصلاح الحياة وتقويمها لايكون أبدا بالتقليد » .

« ان القلب الحى ، هو الخلاق للعصور والدهور وروحه تصبح دون حضور بالتقليد » .

ثم يمضى سعيد حليم يخاطب بنى وطنه ، الأتراك ، :

أيها التركى «ان كان لك قلب كالمسلمين،فانظر فى ضميرك وفى القرآن».

أنك حين تطالع القرآن سيتبين لك أن « فى آياته مئاتا من العوالم الجديدة ، عصور باكملها تنطوى فى آناته ولحظاته » ، فما يزال المسلمون العاملون بالقرآن يصعدون مدارج الرقى يوما بعد يوم ويشهدون عالما جديد فى كل يوم من خلال مشاعرهم المتجددة المستمدة من القرآن .

« ان عالما واحدا من عوالمه يكفى العصر الحاضر ، فتمعن ان كان فى صدرك قلب مدرك » ، ويكفى واحد فحسب من هذه المئات العديدة لهذا العصر الحاضر ، فالقرآن كتاب خالد يصلح لكل العصور ، كما يصلح أيضا للعصر الحاضر ، والعصور التى تليه ، ولكن الأمر يقتضى نظرة جديدة كما يقتضى فتح باب الاجتهاد من جديد .. ومن ثم فعليك اذن أيها التركى أن تنشد الهداية فى القرآن الكريم ، ولا تقلدن غيرك . على انك لن تدرك معنى ما اقصده الا اذا كان فى صدرك قلب يستوعب الحقائق .

ولكننى ما زلت متفائلا ، « فالعبد المؤمن (آية) من آيات الله ، كل عالم كالثوب على صدره » فالمؤمن باق فى الدنيا الى أن تقوم الساعة ، اننى لست خائفا على مصير الاسلام ومستقبله وانما أنا مشفق فحسب على المسلمين الذين اصيبوا بالجمود : مع ان القرآن يدعوهم الى الحيوية .. الا تدرى أن كل عالم انما يعد كالثوب بالنسبة لصدر المؤمن ، « وحين يتقادم عالم على صدره يمنحه القرآن عالما آخر » .

٣ — « زنده رود » يسال : اين عالم القرآن ؟ والأفغانى يجيب :

ويبدو أن « زنده رود » لما سمع هذه الأقوال القيمة خالجه شعور بأن الجزء الأخير الخاص بالقرآن ربما كان مصطبغا بصبغة نظرية مثالية ليست قريبة الى الواقع ، وأنها ناجمة عن حماس هذا المصلح الكبير للاسلام ، فلم يجد بأسا من ان يوجها سؤالا الى هذين المصلحين :

ان زورقنا — نحن ابناء التراب — دون ملاح يوجهه ، ولا أحد يدرى ممن يركبون هذا الزورق أين « عالم القرآن » ؟

فيرد عليه الأفغانى قائلا : « هو عالم مفقود الآن فى صدورنا ، عالم ما زال ينتظر الأمر بـ « قم » فيقوم » ، لقد ابتعدنا نحن عن عالم القرآن ، ولم نعد نراه ، ولكنه قاب قوسين منا ، انه فى صدرنا ، فى انفسنا ، ولن نعثر عليه الا اذا غيرنا اتجاه هذا الزورق نحو الوجهة الصحيحة .

ولا تسلني عنه ، يا زنده رود ، ما أروعه من عالم ، انه رحمة للعالمين لا تمييز فيه للدم واللون ، وليله أسطع من صبح أوربا .

هو عالم مطهر من السلاطين والعبيد ، فالكل فيه سواسية كأسنان المشط ، لاحدود له مثل قلب المؤمن .

وهو عالم رائع ، هو فيض نظرة واحدة ، فوحدة النظر هى التى تجمع شمله ، وبذرته ملقاة فى روح عمر .

« هو عالم خالد وارداته (آثاره) جديدة أبدا ، ومحكماته (أسسه) كالدوحة الوارفة أوراقها وثمارها متجددة أبدا » ، فهذه الأسس تتمخض عنها نتائج جديدة دائما .

باطنه (مبادئه الرئيسية) ليس قلقا من التغير فهو ثابت لا يتبدل ، أما ظاهرة فانقلاب فى كل لحظة ، اذ أن فروعه تقبل التغيير الأمر الذى يجعله مطابقا لكل عصر .

أيها المسلم : « اشهد هذا العالم الذى يكمن فى داخلك ، وسأحدثك الآن عن محكماته » ، ان هـذا العالم فى ضميرك ، فانظر اليه فى أعماق وجدانك ، وبوسعك أن تنفذه ولكن ذلك يقتضى منك عزما وجهدا كبيرين .

والآن دعنى أنبئك بالمبادىء الثابتة للعالم القرآنى :

محكمات(١) العالم القرآنى

يقسم اقبال — على لسان الأفغانى — هذه المحكمات أى المبادىء الثابتة المستقرة التى لا تقبل التبديل والتغيير الى أربعة مبادىء :

١ — خلافـة الانسـان

٢ — الحكومـة الالهيـة

٣ — الأرض ملك اللـه

٤ — الحـكمة خير كثير

ثم يأخذ فى الحديث عن كل واحدة منها على حدة :

أولا — خلافـة الانسان(٢)

١ — احترام الانسان أساس الحضارة :

« ان آثار العشق ظاهرة هنا وهناك ، فى كلا العالمين ، والانسان نفسه سر من أسرار العشق . وسر العشق لا ينتمى الى عالم الأرحام

---

(١) استعمل اقبال الكلمة العربية التى وردت فى القرآن (محكمات) : « منه آيـات محـكمات » (سـورة : آل عمران : ٧) « والآيات المحكمات ... التى احكمت فلا يحتاج سامعها الى تأويلها » (القاموس المحيط) أو « التى احكمت عبارتها بأن حفظت من الاجمال والاحتمال ، وهى أم الكتاب أى اصله يرد اليها غيرها » تفسير البيضاوى ص ٦٣

(٢) اشارة الى الآية الكريمة : « انى جاعل فى الأرض خليفة » (سورة البقرة : ٣٠) .

فهو ليس من حام ولا سام ، أو الروم والشام » ، انه لا ينتمى الى أجناس بشرية سامية كانت أم حامية ، ولا الى أوطان أو بلدان . « انه كوكب لا شرقى ولا غربى ، كوكب لايغرب أبدا،وليس فى مداره شمال ولا جنوب». فهو متحرر من قيد الجهات وسوف يظل فى هذا العالم الى أن تقوم الساعة ثم ينتقل الى العالم الآخر وينال الخلود .. انه الانسان .

ونلاحظ أن اقبالا يشبه الانسان تشبيها بديعا فيه جدة وعمق ، فكأن الانسان كوكب منير لا يخبو نوره أبدا ولا يتحول ، وقد استقى اقبال هذا التشبيه من الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركةزيتونه لا شرقية ولا غربية ... » (١) ففى البيت تلميح ضمنى الى أن الانسان قبس من هذا النور الالهى الخالد .

« وكلمتا « انى جاعل » هى قدره ، تفسيرهما من الأرض الى السماء» فالهدف من خلق الانسان (قدره) مصداق قوله تعالى « انى جاعل فى الأرض خليفة » . فقد خلقه الله لكى يؤدى مهمة الخلافة هذه . ولكن الخلافة الالهية للانسان ليست مقصورة فحسب على الأرض وحدها ، وانما تشمل الأرض والسماء والكون بأسره .

«أحواله هى الموت والقبر والحشر والنشور أى له نور الآخرة ونارها»، فالموت ليس نهايته بل هو مرحلة من مراحل حياته ، فثمة حياة أخرى ، بعد الموت يحاسب الانسان فيها على أعماله اما بالجنة (نور) واما بالنار.

« انـــه الامـــام (فهو فى طليعة المخلوقات من حيث التكوين البدنى والنفسى) وهو الصلوات وهو الحرم ... هو المداد والكتاب وهو القلم » ، فهو الهدف من خلق العالم،ولو لم يكن هو لما كانت هناك ضرورة لهذا كله.. ولا غرو فالانسان خليفة الله فى كونه .

« غيبه يصبح حضورا بالتدريج ، ليس له حدود ولا لملكه ثغور » ، وشيئا فشيئا تتجلى الطاقات الكامنة فى أعماقه وتظهر فى صورة أعمال وآثار فى هذا الكون .. على أنه لانهاية لرقيه الروحى ، فمملكته لا تحدها حـــدود .

« وجوده يعطى قيمة واعتبارا للكائنات ، اعتداله هو محك الكائنات وعيارها » فوجود الانسان فى الكون يجعل لكل المخلوقات قدرا وقيمة ، كما أن مراتب المخلوقات من حيث الهبوط والسمو فى سلم الحياة تقاس به هو ، فهو معيار الأحياء ، وهذه حقيقة علمية معروفة .

« ماذا اقول عن بحره الذى لا ساحل له ، وعن قلبه الذى تغرق فيه العصور والدهور ، هو الشيء الذى فى الانسان ويحيط بالعالم ، هو الشيء الذى لا يجعل العالم يحتوى الانسان » ، فهذا القلب الذى يحمله الانسان

---

(١) سورة النور : آية : ٣٥

بين جوانحه فى مقدوره ، لو صلح واتسم بالصفاء والنقاء ، أن يستوعب العالم ، وليس فى مقدور العالم أن يستوعبه ، أن سعته لا حد لها ، وهو أشد اتساعا بلا ريب من السماء والأرض كما ينص الحديث القدسى : «ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

« ان الشمس والقمر ظاهرتان من جلوته ليس لجبريل نفسه سبيل الى خلوته » فان للانسان حالتين هما الجلوة والخلوة ، فظهوره (جلوته) هو السبب فى ظهور الشمس والقمر ، فلو لم يكن الانسان قد خلق فمن ذا الذى يدرك خصائص الشمس والقمر ومميزاتهما ولمن كانتا تسخران ؟ . أما فى خلوته حيث ينصرف بسره وذاته لمناجاة ربه فهو يصل الى مقام قريب من الذات الالهية ، لا يستطيع ملك مقرب (كجبريل) أن يصل اليه (١) .

مجمل القول أن الانسان أسمى من السماء والأرض (٢) ، ولذا فان أساس الحضارة الانسانية هو احترام الانسان من حيث هو انسان .

٢ ــ طهر نفسك أولا ، ثم تعرف على قدسية المرأة :

« هل تدرك ياذا القلب الحى ، ما الحياة ! عشق النظرة الواحدة فى تأمل اثنين » ، فلقد خلق الله تعالى بنى آدم من « نفس واحدة » (٣) . فالرجل والمرأة بينهما رباط جعله الله لحفظ النوع الانسانى ، فهما يصوغان كائنات العشق ، انطلاقا من رغبة كل منهما فى أن يجد نفسه فى مخلوق واحد هو الطفل .

« ان المرأة هى الحارسة لنار الحياة ، وفطرتها لوح أسرار الحياة ، بروحها تشعل نارنا ، فجوهرها يحيل التراب الى انسان ، فى ضميرها تكمن كل الصور الممكنة للحياة انما دوام الحياة لا يكون الا بحرارتها وضيائها » .

وربما استعمل اقبال هنا الحرارة بمعنى الجاذبية التى أودعها الله فى المرأة ، كما استعمل الضياء بمعنى الحنان الشامل الذى تضيفه على بنيها خاصة والذى لاحياة لهم بدونه .

« انها شعلة يتناثر منها الشرر (الأطفال) ، وبدون اتقادها لا يمكن للروح والجسد أن تتخذا صورة انسان .

« ان ما نملكه من قيمة هو من حبها ، اننا جميعا صور من صنعها » ، فلقد عكفت على صنعنا ونحن أجنة فى بطنها .

---

(١) اشارة الى الحديث النبوى الشريف : لى مع الله وقت لا يسعنى فيه نبى مرسل ولاملك مقرب ، وصدق الله العظيم : « .. وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .. » (النجم ٧ ــ ٩) .

(٢) اشارة الى المعراج النبوى .

(٣) اشارة الى الآية الكريمة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء... » (النساء : ١) .

« اذا كان الله قد منحك بصيرة ملتهبة ، فطهر نفسك ثم انظر الى قدسيتها » لا تنزلق فى مهاوى الضلال فتنظر للمرأة من الناحية الحسية وحدها ، وعندئذ ستتعرف على قدسيتها بعد أن تطهر نفسك أولا .

٣ — سر الحجاب :

يقول اقبال على لسان جمال الدين :

« أنت يا من العصر الحاضر قد اختطف من دينك كل نار ، دعنى الآن أحدثك بصراحة عن أسرار الحجاب » ، ولماذا فرض الحجاب :

ان شوق التخليق .. فى الأصل نار فى الجسد يعم ضياؤها العالم كله ، وكل من له من هذه النار نصيب — سواء كان رجلا أو امرأة — يرقب فى يقظة وحرص ناره الخاصة (انفعالاته الذاتية) .

« ويثبت طول الوقت نظرته على صورته هو ، كى لا يقبل لوحه صورة غيره » .

ولتكن لنا فى المصطفى (ص) أسوة حسنة فقد اختار الخلوة فى غار حراء ، حينما اشتعلت فى قلبه نار تخليق أمة ذات شأن ، وبقى مدة لم ير أحدا الا نفســه فلقد تجنب الجلوة والاختلاط بالناس . وعندئذ سكبت صورتنا (الأمة الاسلامية) فى قلبه . فنهضت من خلوته أمة .

« وقد يكون فى امكانك انكار الله ، ولكن لا يمكن انكار شــأن النبى وعظمته » لأن آثار النبى محسوسة فى صورة أمة لا سبيل الى انكارها .

« وان كانت لك روح مضيئة كالكليم ، فان أفكارك تبقى عقيمة دون خلوة » فحتى لو كان للانسان روح مضيئة كروح موسى عليه الســلام فستظل افكاره عقيمة مالم تمكث فى الخلوة ، فانهــا تضفى طابعا حيــا خلاقا ومبدعا على هذه الأفكار .

« التخيل يزداد حياة من الخلوة ، يزداد حياة ويزداد بحثا ، ويزداد عثورا على الحقائق » فالخلوة تجعل الخيال أكثر حيوية وتودع فيه طاقة تخليق هائلة .

ويمكننا أن نقيس الحجاب على الخلوة ، فلما كانت الخلوة (الحجاب) لازمة لاداء فاعلية التخليق على الوجه الاكمل ، ولما كانت المرأة هى أكبر مظهر من مظــاهر فاعلية التخليق ، لذا كانت خلوتها (حجــابها) أمرا لا محيص ولا معدل عنه لكى يتم التخليق فى أحسن صورة .

٤ — قد قال ربك « لن ترانى » (١) .

ان العلم والعشق من مقامــات الحياة ، فكلاهما ضروريان لحيــاة الانســان ، وكلاهما ينال نصيبا من الالهام الالهى (الوردات) ، وحيــاة

---

(١) اشارة الى الآية الكريمة : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » (الأعراف : ١٤٣) .

الانسان انما تطوى مراحل الوجود اعتمادا عليهما سويا ، لا على أحدهما دون الآخر .

« والعلم يسعد من التحقيق والتحرى ، أما العشق فيسعد بالتحقيق » ويروق له الابداع والاختراع .

ولذا فالجلوة محببة لدى العلماء من أصحاب التحقيق ، أما صاحب التخليق فالخلوة محببة لديه عزيزة عليه .

لقد طلبت عين موسى — بدافع لذة التحقيق وهى متأثرة بالعلم ذى الافادة المحدودة — أن ترى الوجود المطلق (الله) . ولكن الله قال له : « لن ترانى » . انها كلمة دقيقة : « لن ترانى » وتنطوى على معنى عميق، انها بحر عميق فته فيه قليلا .

« ان آثار الحيــاة الخالدة (الله) ظاهرة هنا وهناك ســافرة دون حجب ، وينبوعها يتفجر فى ضمير الكون » ... ألا تكفيك هذه الأشياء كلها للبرهنة على صفات الصانع جل وعلا شأنه .

« فتأمل الجلبة التى تسرى من خلال الآفاق ، ولا تشق على الخالق بطلب الجلوة » فقد وضح من قبل أن الخلوة محببة الى الخالق ، ومن ثم فهو محتجب عن العالم .

« فالخلوة حماية لكل مبدع ، والخلوة هى فص لخاتمه » . ولو اختار الجلوة وتخلى عن الخلوة لأصبح ابداعه ناقصا كغياب الفص من الخاتم .

ثانيا — الحكومة الالهية

١ — أسس الحرية الاسلامية :

« ان عبد الله لا يحتاج الى مقام ، لا غلام له ولا هو غلام لأحد فالمسلم لا حاجة به الى مناصب أو مراكز دنيوية فهو ليس بحريص على حكم أحد ، ولا على جعل أى انسان عبدا له بقدر حرصه على الا يكون هو عبدا لأحد الا لله ، وهذا من شأن العبد تنفيذا للآية الكريمة « ان الحكم الا لله » »(١) .

من هو عبد الله ؟ « عبد الله رجــل حر وكفى ، ملكه وشرعه عطاء الله وحده » هو الرجل الحر ، الذى اذا استقرت فى قلبه كلمة التوحيد تحرر من الرق والعبودية للناس ، « رسمه وسبيله ودينه وشرعه من الله ، قبحه وحسنه ، مره وحلوه من الله » ، فهو لا يأخذ توجيهه لا من الوطن ولا من الناس وانما من الله وحده دون أحد سواه ، فلا قيد له سوى أحكام الله ، وهذه فى حد ذاتها ليست قيودا بل هى وسائل تتطهر بها نفسه وتتزكى وتترقى فيفوز فى النهاية بمقام الخلافة الالهية .

ثم تناول الأفغانى مسألة حساسة للغاية يوضح منها ان الله لم يمنح أحدا حق التشريع فيقول :

---

(١) سورة الأنعام : ٥٧

« العقل المزهو بنفسه غافل عن منفعة الغير ، يرى نفعه ولا يرى نفع الغير ، أما الوحى الالهى فيرى نفع الجميع ، فى نظرته نفع الجميع وصالحهم ، هو عادل فى السلم كعدله فى الحرب ، هو فى وصله وفصله لا يراعى ، لا يخاف » .

فعقل الانسان مغرض لا يجعل الانسان ينظر الا الى نفسه هو والى منفعته هو ولا يراعى مصالح الآخرين ونفعهم ١٠) . ولكن الوحى الالهى لا يهدف الى خدمة قوم دون قوم ولا الى تغليب منافع طائفة على منافع طائفة أخرى . ولا تقديم مصالح أمة من الأمم على مصالح أمة غيرها . انما هو ينظر الى الناس جميعا سواء ويضع مصالح الجميع ومنافعهم فى اعتباره ، فالقانون الالهى عادل فى السلم والحرب على السواء .

فقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »(٢) . هذا فضلا عن أن القانون الالهى لايخشى أحدا فى حالتى الوصل والصداقة، أو الفصل والعداء .

يقول اقبال على لسان الأفغانى : « وحين يتولى غير الله مهمة الأمر والنهى (حق التشريع) عندئذ يطغى القوى على الضعيف » . فينبغى اذن الا يكون التشريع لغير الله ، لقد ترك الله فينا كتابه الذى يصلح لجميع العصور ، وهو حسبنا ولكن علينا أن نتفهمه ونستلهم منه شرائعنا وقوانيننا .

« فالأمر والتشريع فى هذه الدنيا ينشأ من القوة القاهرة ، والأمر عن ما سوى الله يعد كفرا » .

٢ — دستور الدكتاتور :

« والحاكم الطاغية المتضلع من السلطة يجعل من القوانين قلعة حوله، فمثله مثل الصقر الأشهب ، حاد المخالب ، كالبرق فى السحاب ، وهو يجعل من العصفور مستشاره فى الأمور » .

« انه يضفى على الطغيان صبغة دستورية شرعية ، . . ما أشد عجبى . . . . أعمى يقدم لأعمى » .

ولكن ، دعنا نسأل أنفسنا « ما النتائج المترتبة على القوانين والدساتير التى يضعها الملوك ؟ » :

« أن يسمن سادة القرية ، أما الفلاحون فيصبحون هزالى كالمغزل » .

٣ — تحرر من أغلال تقليد النظم الأوربية :

« آه ثم آه من دستور الديموقراطية الأوربية ، حقا ان الميت يشتد موتا مثل صور أوربا » ، فعندما تستلهم الشعوب نظمها من أوربا أملا فى الحياة ورغبة فى اليقظة بعد السبات ، لا تلبث بعد تطبيق هذه النظم أن تمعن فى تخلفها وتغط فى نوم أكثر عمقا عن ذى قبل .

---

(١) اقبال أقرب ما يكون هنا الى الأشاعرة فى نظرتهم الخاصة بنسبية المعرفة الانسانية .

٢) سورة المائدة : ٨

« أولئك الأفاقون (يعنى الحكومات الديموقراطية الأوربية) الذين يشبهون الأفلاك فى تقلبها ، انما يلعبون بالشعوب لعبة النرد » .

« لصوص ، هذا ثرى ، وذاك مكدود ، وهم دائما يترصدون ويكمنون لبعضهم البعض » .

« يجب الآن اذاعة سر هؤلاء السحرة الفاتنين : انما نحن (الشعوب) سلعة ، وهم (الحكومات) جميعا تجار » يحصلون على كل الفوائد .

« ان أعينهم جافة من حب الذهب والفضة ، والأبناء عبء على أكتاف أمهاتهم » . فلقد أفسدت أنظمة الحكم الأوربية فطرة الانسان فى تلك البلاد ، فأصبح الرجال فيها لا هم لهم الا عبادة الذهب ، وتخلت النساء عن أمومتهن ، واعتبرن الأطفال عبئا ثقيلا ، وصدرت القوانين باباحة الأجهاض فعلا ، « فواحسرتاه على قوم يمحون الطل من فوق الشجر خوفا من الثمر . ولكى لا يأتى من وترهم لحن ، يقتلون الأجنة فى الأرحام »(١) .

« ومع أن النظم الأوربية تتميز بتنوع أساليبها ، الا أننى لم آخذ من هذه النظم شيئا . . . سوى العبرة » . فهذه النظم تنطوى على مضار كثيرة للانسانية وتقف عقبة فى سبيل رقيها ، بل وترجع بها الى عصور الهمجية والبربرية .

« فيا من أنت أسير تقليد أوربا ، انج ، أمسك بتلابيب القرآن . . . وانج » ، انك مكبل بأغلال التقليد الأوربى ، فتحرر من هذه الأغلال وتشبث بتلابيب القرآن .

ثالثا — الأرض ملك الله

يتحدث اقبال هنا على لسان الأفغانى عن النواحى الاقتصادية الاسلامية على نحو ما وردت فى القرآن ، ومضمونها أن الأرض وجميع مصادر الثروة لله وحده ، لا هى للدولة ولا للفرد ، قال تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، فلا ملكية لأحد الا لله :

١ — الأرض متاع لنا وليست ملكا :

« ان تاريخ الانسان فى الشرق والغرب انما هو قصة من الحروب والمعارك والاشتباكات من أجل الأرض .... هى عروس ونحن آلاف الملايين من الناس كلنا أزواج لها ، تلك الساحرة ليست مع احد وهى فى نفس الوقت مع الجميع ولديها من الحيل والمكر الكثير ، فلا هى معك ولا معى » .

« ولكن هذه الحجارة والصخور لا تتلاءم مع فطرتك فهى من أسباب الحضر وأنت فى سفر » ، فكيف يسيغ المسافر (الانسان) التوقف ويؤثر الاقامة (الأرض) .

---

(١) ويرى الأستاذ يوسف سليم جشتى الى أن الاشارة هنا غالبا للقانون الشيوعى الذى صدر فى روسيا سنة ١٩٢٨ وأبيح فيه الاجهاض ، (شرح جاويد نامه ص ٦٥٢) .

انك أيها المسلم يقظ حى والأرض موات ، فأنى للنائم واليقظ أن يمتزجا سويا ؟ وما شأن الثابت (الأرض) بالسيار (الانسان) ؟ . فسوف تغادره اليوم الذى ترحل فيه عن الدنيـــا ، فلماذا تربط قلبك بما سوف تغادره وتتركه ؟ !

« ان الله تعالى جعل هذه الأرض متاعا لنا ، ان المتاع الذى لا قيمة له ، هو متاع مجانى ، شأنه شأن الهواء والضياء والماء والنار » ، كل هذه الأشياء ليست ملكا لنا ولكن أباح الله لنا أن نستفيد بها دون مقابل .

« يا صاحب الأرض ! تقبل هذه النصيحة منى ، خذ من الأرض رزقك وقبرك ، ولكن لا تأخذها هى . . . الى متى صحبتها؟أنت موجود وهى ليست موجودة » ، أنت وجود حى وهى مظهر بلا حياة ، فمهما طالت بك رفقتها فسوف تنتهى حتما ، فمقامك أسمى من الأرض والمادة ، فلا تجعل من الأرض هدفا لحياتك ، أنظر من أنت وما هى ! .

« أنت كالعقاب ، فطف الأفلاك اذن ، وابسط جناحيك واعل متطهرا عن التراب » ، .

« ان المعنى الباطنى لـــ « الأرض لله » جد واضح ، وكل من لا يرى هذا الوضوح كافر » . فكلمتى « الأرض لله » جزء من الآية الشريفة : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » والمقصود بهذا الجزء واضح لا يحتاج الى تفسير . ومن لا يراه ويعمل به يعد كافرا ، فهذا حكم من جـــانب الله سبحانه وتعالى « ومن لم يحكم بمـــا أنزل الله فـــأولئك هم الكافرون . . »(١) فضـــلا عن أن التغاضى عن هـــذا المعنى يعد عبادة للأرض من دون الله ،فهو كفر من جانب آخر .

٢ ــ القلب وقف على الله وحده :

يتحدث اقبال ــ على لســـان الأفغانى ــ هنا عن « الفقر » بمعنى جديد ، وهو يقسم الفقر الى نوعين : فقر اسلامى ، وفقر غير اسلامى ، ويعبر عن النوع الأول بفقر المؤمن ، وعن الثانى بفقر الكافر ، وقد بين اقبال الفرق بين هذين النوعين فى منظومته « بس‌جه بايد كرد أى أقوام شرق » فقال :

ــ فقر الكافر خلوة السهول والوديان ، فقر المؤمن اضطراب البحر والبر.

ــ ذاك بحث عن الله بترك البدن ، وهذا صياغة الذات على نسق الله :

يستطرد الأفغانى فى أبيات تنطق بالاقدام والحماس :

« أنا لا أقول لك اعتزل العالم ، فهذه الدنيا الزاخرة بالألوان والروائح، وبالمادة والحس هى مملكتك ، فاجمع من تربتها الجواهر حبة حبة ، وخذ الصيد من سمائها كالصقر ، وأعمل فأسك فى سلاسلها الجبلية ، وأدرك بعقلك ما خفى من ثرواتها » واستخرج المعادن البراقة ومصادر الطاقة من باطنها .

---

(١) سورة المائدة : ٤٤

« ولكن كن بعيدا عن طريق « آذر » فلا تعبد الأرض والمادة من دون الله ، بل انحت عالما جديدا ووفق مرادك » (١) ، افعل ما فعل سيدنا ابراهيم حين نأى بنفسه عن عبادة الأصنام ، وقال : « انى ذاهب الى ربى سيهدين » .

« ولا تسلم قلبك للون أو لرائحة ، لقصر أو لدرب » ، لا تسلم قلبك لهذه الدنيا ، فالقلب وقف على الله وحده ، فلا تسلمه لغيره .

« ألا تعرف ما الموت دون زاد ، ودون قبر ، وكفن ؟ هو الضياع فى الفضة والبنين والنساء » ، فان جعل الانسان هدف حياته جمع الذهب والفضة وضاع فى الاستمتاع بالنساء والبنين ، فهو ميت على هذا النحو لا محالة . . . انك تراه حيا ولكنه فى الواقع ميت دون أن يكفن أو يذهب الى القبر .

« كل من يلتفظ من قلبه بكلمة « لا اله الا الله » ، يمكنه أن يفقد عالما فى ذاته » فالتوحيد ، يابنى هو أساس الحياة ، فمن عمل بالشهادة ضاعت الدنيا فيه ولا يضيع هو فيها ، والانسان لا يفوز بمكانته الا بالتوحيد ، الا بالتطلع الى الله وحده وعندئذ تدين له الدنيا بأسرها . . . الا تدرى ان العز فى طاعة الله .

قل لى « ما فقر الجوع والرقص والعرى ؟ الفقر هو السلطنة الحقيقية فما الرهبانية ؟ » ما الفقر الذى ينادى به الاسلام ، انه ليس الجوع ، ولا هو الرقص والغناء بمفاهيمها الخاوية من المضمون .. ليس اهدار كرامة النفس الانسانية وبث الوهن فى وشائجها بالرهبنة ، انما الفقر قوة ، والفقير هو السلطان الذى يغزو العالم ثم لا ينظر اليه باعتباره ملكا له هو ، بل يعمل على تنفيذ أحكام الله فيه وهداية الخلق الى عبادة الحق .

رابعا — الحكمة خير كثير

الحكمة هى العماد الرابع لعالم القرآن ، يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (٢) . ويدعو اقبال — على لسان الأفغانى — المسلمين الى تحصيل الحكمة باعتبارها فرضا دعا اليه القرآن اكريم .

ويستعمل اقبال لفظ الحكمة بمعنى العلم فى أوسع معانيه أى العلم والفن والفلسفة ، وبعبارة جامعة علم الأنفس والآفاق ، يقول فى بيام مشرق (ص ٦) :

---

(١) آذر هو أبو ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكان مقيما على عبادة الأصنام ، والبيت كله تلميح لسيدنا ابراهيم مأخوذ من جو الآية الكريمة : « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين » (الصافات : ٩٩) .

(٢) البقرة : ٢٦٩ ، ويأتى لفظ الحكمة فى القرآن الكريم فى عشرين موضعا .

— الحياة جهد وليست استحقاقا ، الحياة ليست الا بعلم الأنفس والآفاق .

— قال الله ان للحكمة خيراً كثيراً ، فخذ هذا الخير حيثما وجدته :

— هاهو ذا سيد الكل ، صاحب أم الكتاب ، الغيب على ضميره بلا حجاب :

— رغم أنه شاهد عين الذات دون حجاب ، فقد تقطرت من لسانه كلمة « رب زدنى » :

— ان علم الأشياء من علم الأسماء ، هو العصا وهو اليد البيضاء :

— لقد أضفى علم الأشياء على الغرب ضياء ، حكمته تعقد الزبد من اللبن الخثير

وهكذا يرى اقبال أن الحكمة نعمة عظمى ، اذ هى تساعد الانسان على تسخير الكون ، وهى التى جعلت الغرب يسيطر على العالم اليوم .

يقول الأفغانى ، أيها المسلم : قال الله تعالى ان الحكمة خيرا كثيرا ، فخذ هذا الخير حيثما وجدته (١) .

فالعلم بأوسع معانيه — أو الحكمة — يعطى الجناح للكلمة والصوت فنستمع اليها فى المذياع على بعد آلاف الأميال ، ويجعل الأشياء التافهة فى نقاء الجوهر .

« وللعلم طريق على أوج الأفلاك ، لكى ينتزع من عين الشمس نظرة نسخته هى نسخة التفسير الكلى ، أقدار الكل مرتبطة بتدبيره » فبالعلم يمكن للانسان أن يفسر الكون كله ، ولا شك فى أن مستقبل البشرية يعتمد على تدابير العلم وحسن استخدامها .

ويمكن للانسان بواسطة العلم أن ينجز أعمالا تبدو مستحيلة حقا ، فهو يستطيع بالعلم أن « يقول للصحراء : اعط الحباب فتعطى ، وللبحر : اعط السراب فيعطى » .

« وعين العلم معلقة على كل أحداث الكون ، لعله يرى القوانين المتحكمة فى الكون » .

« واذا ما ربط العلم قلبه بالله ، كان نبوة وأصبح رحمة للعالمين ، أما اذا ابتعد العلم عن الحق تحول الى كفر » ووبال على بنى الانسان .

« فالعلم بدون حرقة القلب شر محض ، نوره ظلمة للبحر والبر (فهو يجعل نور الدنيا ظلاما ويصيب العالم بكارثة) ويصيب الغاز المنبعث من المختبرات الناس بالعمى ، ويتسبب ربيعه فى سقوط أوراق الوجود ، وتتلف البحار والسهول والحدائق والمنازل من أثر القنابل التى يلقيها من طائرته » .

---

(١) اشارة الى الحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ... » .

« انها نار ذلك العلم التى تتلظى فى صدر أوربا ، فهى تستمد منها لذة الاغارة والسلب » ، ويكتوى العالم أجمع بهذه النار .

ان ذلك العلم — الخالى من العشق الالهى — يرجع بالانسانية الى عصور البربرية ، فهو نكسة الى الوراء ، وهو يسلب رأس مال الشعوب.

يبين الأفغانى بعد ذلك أن الانسان اذا حصل العلم دون العشق فانه يتحول بعد ذلك الى عبد للشيطان بدلا من الله فهو يقول :

ان قوة هذا العلم تصبح عونا للشيطان ، ويتحول الانسان (النور) الى نار (شيطان) من صحبة النار ورفقتها .
مسلما وتجعله قتيل سيف القرآن » (١) .

ولكن كيف تتخلص من شيطانك ؟ لاريب فى أن « قتل الشيطان مهمة صعبة ذلك لأنه مختف فى أعمال القلب . ولذا كان يجدر بك أن تحيله

يا الهى « نجنا من جـلال بلا جمال ، يا الهى نجنا من فراق بلا وصال » ، نجنا من قوة دون حب الهى ، ونجنا يا الهى من أن يذهب بنا العلم بعيدا عنك فتكون القطيعة النهائية ولا نراك أبدا .

« فالعلم دون عشق شىء شيطانى ، العلم مع العشق شىء الهى » ، أن العلم بدون عشق يجعل الانسان تابعا للشيطان ، أما العلم الممتزج بالعشق فهو يجعل الانسان ملاكا .

« والعلم والحكمة دون محبة جيفة لا نفع فيه بل يعم ضرره ، والعقل دون محبة يكون كالسهم الطائش لا يصيب هدفه أبدا » .

« فاجعـل الأعمى بصيرا بمشاهدة الله ، اجعل من أبى لهب حيدر الكرار (عليا) كرم الله وجهه » .

زنـده رود

وبعد أن فصل الأفغانى الحديث عن عالم القرآن قال له « زنده رود » لقد أظهرت محكمات كتاب الله للعيان . غير أن هذا العالم ما يزال فى حجاب ، فلماذا لا يكشف النقاب عن وجهه ؟ لماذا لا يخرج من ضمائرنا ؟

ثم يشكو اقبال من واقع العالم الاسلامى قائلا :أمامنا عالم دب فيه الفناء ، أمامنا أمة قد رقدت فى ترابها .

لقد تلاشت حرقة العثمانيين والأيوبيين وولت بغير رجعة ، فاما أن المسلم مات أو مات القرآن !

« سعيد حليم باشـا »

يرى اقبال أن « الملا » هو السبب فى تقهقر الدين وضعفه . والملا لفظ يستعمله اقبال بمعنى ذلك المتزمت الذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب،

---

(١) وفى هذا تلميح الى الحديث النبوى الشريف « ان الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم . . . حتى أنا الا أن الله أعاننى عليـه فأسلم » .

لكنه لايعيه عن بصيرة ، والسنة والشريعة أمامه عبارة عن نصوص جافة لا روح فيها ولا حياة ، يحارب الاجتهاد فى الشرع ، ويذود عن حياض الفهم التقليدى الجامد للشريعة .

وسوف نلاحظ أن سعيد حليم سيجيب فيما يلى على تساؤل اقبال قائلا : لن يكون للأمة الاسلامية بعث حقيقى الا بفتح باب الاجتهاد فى الشريعة من جديد ونبذ التعصب للأحكام الشرعية التى قال بها السلف فى مسائل الحياة الجارية ، واضعين نصب أعيننا دائما محكمات القرآن الثابتة التى لا تتغير بتغير العصور ، ولا بد أيضا لأولئك الذين اعتزلوا الحياة ودخلوا فى الخلوات أن يخرجوا ليبينوا للناس حقيقة الدين . ان فى الأمة الاسلامية طاقة فريدة من شأنها أن تخلق عالما جديدا فى كل لحظة ، فلتطرح عن نفسها التخاذل والفرقة ولتتجه نحو قبلتها الواحدة ، وليس فى قلبها سوى الله .

١ — دين ((الملا)) فساد :

يقول سعيد حليم باشا لزنده رود : « ان دين الحق (الحكومة القرآنية) أكثر خزيا من الكفر ، والسبب فى ذلك هو أن « الملا » مؤمن بالتجارة فى الكفر » ، فهو حريص كل الحرص على أن يجعل المسلم يرتد عن اسلامه بتعصبه وجموده ، والتعصب والجمود كما تعلم يتنافيان مع روح الاسلام.

« ندانا فى أعيننا بحر ، وبحرنا فى عينه ندى » ، فالشئون الفرعية فى شريعتنا (الندى) بحر فى نظرنا ، ولكن بحرنا ، أى المبادىء الأساسية فى ديننا ، فى نظره كالطل فهو لا يعى خطورة هذه المبادىء الأساسية ولا يلقى اليها بالا(١) .

« لقد رأيت جبريل (الروح الأمين) نفسه يصيح من عجائب هذا الذى يبيع القرآن . قلبه غريب عما يكمن وراء السماوات ، أم الكتاب عنده ليس سوى خرافة » فهو غريب عن المحبة الالهية ، وهو يعتبر أن القرآن الكريم هو كتاب أساطير يتضمن قصص القدماء ، ولكنه لا ينظر اليه من حيث أنه دستور الحياة .

« لا نصيب له من حكمة الاسلام ، الأمر الذى جعل سماءه (فهمه) مظلمة تماما لا بصيص فيها من النور » .

« كليل البصر أعمى الذوق ، ينفق وقته فى الترهات ، قيله وقاله يجعل الأمة مشتتة » فهو يتسم بقصر النظر وانعدام الذوق ، يهذى والأمة أشتات بسبب أقواله منقسمة على نفسها بسبب آرائه الفجة التى لاتمس القلوب ولا تراعى الجمع بين المثال والواقع ، فيصرف الناس بذلك عن حوض الدين .

« أن المدرسة والملا أمام أسرار الكتاب ، يشبهان الأعمى أمام ضوء الشمس » .

---

(١) أنظر شرح جاويد نامه ص ٧٢٠ — ٧٢١ .

« دين الكافر فكر وتدبير وجهاد ، دين الملا فساد فى سبيل الله » ، فعقيدة الكافر هى فكر وتخطيط وجهاد مقدس ، اذ يصرف كل همـه فى ترويج عقائده وبثها بين الناس ، أما دين الملا فهو كله فساد فى سبيل الله .

٢ — احفظ القرآن وانشر دين الحق :

وثمة طائفة أخرى غير الملا تضر بالمسلمين لأنها تضن عليهم بالجلوة ، هى طائفة الصوفية الذين يعيشون فى الخلوات ويعتزلون العالم ، ويخاطب اقبال — على لسان سعيد حليم — هذه الطائفة قائلا :

« ان رجل الحق هو روح هذا العالم ذى الأبعاد ، فأبلغ عنى ذلك الذى ذهب الى الخلوة هذه الرسالة :

« يا من أفكارك هى الحياة ذاتها للمؤمن ، يا من أنفاسك ثبات للأمة» ودفع لها فى سبيل الاستمرار على الطريق الصحيح .

« ان شرعتك هى حفـظ القرآن العظيم ، ودينـك هو نشر كلمـة الحق » .

« يا من يتكلم الله معك ، الى متى ستظل منكس الرأس ؟ تعـال ، واخرج يدك من جيبك » . فليس هناك شىء أفضل من نشر كلمة الحق بين الناس .

« وحدث عن تاريخ الملة البيضـاء ، حـدث المسلمين عن تاريخهم المجيد ، وأطلع الغزال (المسلم) على مدى اتساع الصحراء (تعـاليم الاسلام) .

« ان فطرتك مستنيرة بنور المصطفى (ص) ، فأخبرنا الآن : أين مقامنا ؟ » فلا أحد يعرفه خير منك .

٣ — رجل الحق يتصف بصفات الحق :

« ان رجل الحق — الذى قلت لك يا زنده رود انـه روح العالم — لا يأخذ لونا ولا رائحة من أحد » **فهو لا يتطبع بطبع أحد غيره ، انما رجل الله** يقبل اللون والرائحة من الله ولا يتصف الا بصفات الله . « فى كل لحظة تلقى جسده روحا أخرى ، له فى كل حين شأن جديد ، كالله . افض بالأسرار للرجل المؤمن ، واشرح له سر : كل يوم » ، قل للمسلمين عنى يا زنده رود أن يدللوا على أن لهم فى كل لحظة شأنا جديدا فى الدنيا وأن يتصفوا بهذه الصفة التى هى من أجل صفات الله حيث وصف نفسه فى القرآن الكريم قائلا : « كل يوم هو فى شأن »(١) .

« ليس للقافلة (الأمة الاسلامية) من هدف سوى الحرم ، سـوى الاتجاه الى الكعبة الشريفة ، ليس فى قلب القافلة سوى الله » .

« أنا لا أقول ان طريقها مختلف ، فالقافلة هى المختلفة ، ونظرتها مختلفة » ، فرغم أن القرآن يحتوى على هذه الامكانيات المتجددة والطاقات اللامتناهية الا أن طريق الأمة الاسلامية واحد ، وهو الاتجاه كلية نحـو

---

(١) سورة الرحمن : ٢٩ .

الكعبة وفى قلبها الله سبحانه . لكن لكل قافلة تسير فى هذا الطريق ولكل جيل من اجيال الأمة الاسلامية نظرة أخرى تختلف عن سابقتها ، فهى تشق طريقها الى الهدف بتصور جديد .

الأفغــــــانى

يلتقط الأفغانى طرف الحوار ، ويستأنف حديثه من جديد ، وحديثه مطول كعادته ، يبدأ أولا بمعالجة الاحساس باليأس من واقع العـــالم الاسلامى على النحو الذى كرره زنده رود ، يقول الأفغانى :

هل لك من أحاديث المصطفى (ص) نصيب ؟ لقد أصبح دين الحق (الاسلام) فى هذه الدنيا « غريبـــا » . أؤنبئك بمعنى هذه الكلمة البكر ؟ ان غربة الدين ليست فقر أهل الذكر ولا تعنى افلاس المسلمين ، فغربة الدين تعنى — عند أصحاب النظر — ندرة آياته .

« وغــربة » الدين تتنوع بتنوع الزمان . . . ، فالاسلام تظهر له فى كل وقت خصائص ومميزات جديدة . . . أدرك هذه الطرفة ان كان لديك نظــر .

« فاربط القلب مرة أخرى بالآيات المبينة ، فربما التقطت فى وهقك عصرا جديدا » ، وربما أفضت على العالم من خصائص هذا العصر مايصلح من شأنه ويقيم من عوجه .

« لا أحــــد يعرف الأسرار الداخلية للقــرآن ، فالشرق والغرب على السواء يتلويان ويدوران هنا وهناك » ، انهم فى محنة ، ولا يدرون أين المخرج منها ، بينما المخرج قريب ، فلينظروا فى القرآن ويتمعنوا فيه .

« لقد وضع الروس أسس تصميم جديد ، فأخذوا المـــاء والخبز ، وخسروا الدين » .

يا زنده رود ، « أدرك الحق ، وقل الحق ، ولا تبحث عن غير الحق ، وأبلغ تلك الأمة (الروسية) عنى بضع كلمات » :

رســــالة الأفغــــانى الى الأمـــة الروسية

تبدو لنا هذه الرسالة وكأنها ورقة تفاوض تتقدم بها الأمة الاسلامية الى الروس ، ففيها روح ديبلوماسية رفيعة ، لأنها تعمد أولا الى تحديد نقاط الاتفاق بين الاسلام والشيوعية ، ثم تركز فى النهاية على نقطـــة الخلاف الأساسية وهى الاعتراف بالخالق ، ثم تنتقل الى التحذير من ميل الأمة الروسية الى التطبع بطبائع أهل الغرب ، وتدعوها الى الاقبال على مطالعة القرآن وتدبر ما فيه ، والى أن تبنى عالمها الجديد فى ضوء القرآن تلافيا لعيوب المـــادية الغربية .

وفى نهاية الرسالة يدعو الأفغانى الأمة الاسلامية الى طرح الغفلة ، وترك التقليد والظن وبناء عالم جديد يذهب ضياؤه بهــذا الخبث الذى يصرف أنظار الناس عن الاسلام ذاته كدين عالمى .

١ — المسلمون مسئولون :

يقول الأفغانى : « منزلة القرآن وهدفه شيء آخر ، قانون المسلم وشرعته شيء آخر ، ليس فى قلبه نار تحترق ، وليس المصطفى حيا فى صدره » لقد ابتعد المسلمون عن أهداف القرآن ، هذه الأهداف التى تجعل المسلم لا يتصف الا بصفات الخالق وحده . فكانت نتيجة ابتعاده عن هذه الأهداف السامية أن خلا قلبه من النار المحرقة ، من المحبة الالهية وانصرف الى المادة . . . لم يعد المصطفى (ص) حيا فى قلبه ، « لم يعد المسلم يأكل من ثمار القرآن . . . ولذا فلست أرى فى كأسه خمرا ولا ثمالة » . لقد انصرف عن المعرفة القرآنية تماما ، ولجأ الى التقليد .

« حطم المسلم طلسم قيصر وكسرى ، ثم لم يلبث أن جلس هو على العرش . فلما قوى غصن الملوكية صار دينه مولعا بالنظام الملكى واصطبغ بصبغة هذا النظام » .

« لكن الملك يغير النظرة ، ويغير العقل والفهم والعادة والطريق » ، فمن أسف أن المسلمين لم يتبينوا أن النظام الملكى ، نظام غير اسلامى ، من شأنه أن يبدل فى المسلمين **النظرة** والوجهة الصحيحة ويصرفهم عن هدفهم الأسمى ، ويجعل شريعتهم مغايرة تماما لشريعة القرآن .

فهم المسئولون اذن عن التدهور الذى أصابهم ، لأنهم ابتعدوا عن أهداف القرآن، واستسلموا للملوك يفعلون بهم ما يشاؤون، فما لبثت الوجهة أن تبدلت ، وتركوا الدين وراء ظهورهم وانطلقوا فى طريق يباعد ما بينهم وبين القرآن .

ثم يتجه الأفغانى بعد ذلك الى الأمة الروسية قائلا :

٢ — اتركى « لا » وغذى السير نحو « الا » :

لقد وضعت — أيتها الأمة الروسية — اسس مشروع جديد وحررت قلبك من النظام القديم ، نظام الملوكية ، فمثلك فى ذلك مثلنا نحن المسلمين ، لقد حطمت عظام القيصرية . . . ولكن خذى العبرة من قصتنا المحزنة لكى تضيئى مصباحا فى ضميرك ، ولا تتردى فيما تردينا فيه .

« اثبتى فى المعركة ، ولا تطوفى من جديد حول اللات ومناة ، فهذا العالم المعمر يريد أمة تكون بمثابة البشير والنذير » ، تزف البشرى الى المؤمنين بخلق علم يرنون اليه ويتطلعون ، وتنذر بتحطيم أصنام العالم القديم .

ولعل الأفغانى يريد هنا بأصنام العالم القديم تلك النظم الأوربية البالية التى تستعبد الانسان لأنه يدعو الروس بعد ذلك الى الاتجاه الى الشرق لا الى الغرب قائلا :

يا أمة الروس ! عودى من جديد الى شعوب الشرق فأيامك مرتبطة بأيام الشرق(١) . لقد أشعلت شعلة جديدة فى روحك ، ان ضميرك يشتمل على ليل ونهار جديدين ، فما شأنك بأوربا ان شرعتها ودينها قد أصابهما البلى فلا تتطلعى نحو هذا الدير ثانية .

اننا نحن المسلمين المعاصرين نغبطك ، لقد فرغت الآن من السادة سواء كانوا ملوكا أم اقطاعيين أم رأسماليين . على أننا ندعوك الى أن تتركى « لا » وتغذى السير نحو « الا » لقد قلت (لا اله) فقولى اذن (الا الله)، اتركى « لا » اذا كنت باحثة حقا ، كى تأخذى طريق الاثبات الحى . ففطرة الانسان لا تطمئن ولا ترتاح الى الرفض والنفى والانكار وحده بل انها تتجه بطبيعتها الى الاثبات ، فلا شىء يقوم على السلب أبدا ، ولا يكون النظام راسخا مستقرا الا اذا قام على الاثبات .

وقد بين اقبال هذا المعنى فى ديوانه « بس جه بايد كرد » ، فقال :

— وهكذا ترى أنه فى عصر (السيطرة) الأوربية ، نشبت الحرب بين العبيد والسادة .
— فتحول قلب روسيا الى دم ، وخرجت من ضميرها كلمة « لا » .
— لقد قوضت أركان ذاك النظام القديم ، فغرست سنا حادا فى شريان العالم .
— ولقد القيت نظرة على مقاماتها ، (فوجدتها) : لا سلاطين ، لا كنيسة ، لا اله .
— وبقى فكرها فى مهب عاصفة « لا » ، ولم تدفع بركبها نحو «الا» .
— غير أن الحياة لا تستريح فى مقام « لا » ، الكون يمضى قدما نحو « الا » .

يقول الأفغانى ، انك يا أمة الروس ، تريدين اقامة نظام عالمى ، فهلا بحثت له عن أساس محكم اذن ؟ وهذا الأساس المحكم يكمن فى قولكم « الا الله » وفى ايمانكم بالخالق جل شأنه ، وفى اعتقادكم بوحدانيته .

٣ — انظرى بنور القرآن :

يا أمة الروس « لقد محوت القصة القديمة فصلا فصلا فانيرى فكرك من أم الكتاب » فلقد نظرت فى الأديان السابقة وحكمت فى النهاية ببطلانها ورفضها بالجملة . لكننى أدعوك الى أن تضيئى فكرك بالقرآن الكريم - أنه هو الذى أعطى اليد البيضاء للرجل الأسود (للعرب) (٢) انه هو الذى بشر بزوال القيصرية والكسروية وكل النظم الاستبدادية .

---

(١) ومن عجب أن الركيزة الأساسية فى الهجوم الدعائى الصينى الآن ضد الروس تقوم على أنهم أوربيون لا يفهمون الشرقيين ويحتقرونهم .

(٢) واليد البيضاء عند اقبال معناها ايقاف السنن الطبيعية العادية لتعمل الارادة الالهية بصورة مباشرة .

« فتخلى عن التجليات ذات الألوان العديدة ، وأدركى ذاتك بتجنب أوربا .. ولو كنت خبيرة بمكر أهل الغرب ، فاتركى أسلوب الثعلب واحترفى عمل الأسود » ، . . . تخلى عن أوربا ، فكل أنظمتها قائمة على المكر والخداع ، لا تحترفى عمل الثعالب الماكرة وانما كونى ضيغما يرعى جانب الاخلاص .

« ما الثعلبية ؟ البحث عن الغذاء والمتاع ، لكن أسد الله يطلب الحرية والموت » ما الذى اعنيه باحتراف عمل الثعالب ؟ اننى أعنى به البحث عن الطعام والرفاهية ، ولكن أسد الله يبحث عن الحرية ، فهو لا يكون عبدا الا لله ، ولا يستعبد خلق الله ، ويفضل الموت على الرق أو الاستعباد .

على أن الأسد يصبح — دون القرآن — ثعلبا ، فالنظم السياسية اذا خلت من روح القرآن تكون بمثابة خداع وأذى للانسان . . الا أدلك على أفضل نظام للحكم ، انه الفقـر على النحو الذى يمكن استنباطه من الاسلام .

ان فقر القرآن هو اختلاط الذكر والفكر (أى امتزاج العشق الالهى بالعلم) ، اننى لم أر المعرفة كاملة الا بذكر الله .

ما الذكر اذن ؟ هو تهذيب الذوق والشوق (المحبة الالهية) ودفعهما نحو الطريق الصحيح ، على أن الذكر لا شأن له بالفم والشفة وانما بالروح .

« تنبعث منه شعلات تحرق الصدور ، لا يزال الى الآن غير متفق مع مزاجك . ومن الذكر ينبعث لهيب يورث الصدور حرقة ، ويودع فى الانسان قوة لا تستمد عناصرها من الماديات » ، فالذكر اذن قوة روحانية خالصة لا شائبة فيها من المادة ومن ثم فهو ما زال غير متوائم مع مزاجك الآن ، انك لم تتعرفى عليه بعد ، ومن ثم فأنت لا تقدرينه حق قدره .

« يا شهيدة الحسناء الجميلة للفكر ، سأحدثك عن تجليات الفكر » ، لقد وقعت فريسة لجمال العقل الخلاب ، فأنت تقدسين العقل ولا تجدين عنه محيصا ، لذا فسوف أحدثك (فى الفقرة التالية) عن تجليات الفكر على نحو ما نعرفه نحن المسلمين من القرآن الكريم .

٤ — نقاط الالتقاء والاختلاف :

يتحدث اقبال — على لسان الأفغانى — هنا عن روح الحضارة الاسلامية حديثا من شأنه أن يثير اهتمام الروس لما فيه من تطابق مع مبادىء الماركسية اللينينية ، ولا سيما المبادىء التى تركز على روح الثورة وانصاف العبيد وتحريم الربا والدعوة الى وحدة بنى الانسان .

يقول الأفغانى : ما القرآن ؟ هو رسالة موت فى حق السادة واعلان بنعى الرأسمالية والاقطاع ، هو نصير للعبيد المحرومين العزل .

« لا تبحث عن الخير فى رجل جامع للذهب . . . لن تنالوا البر حتى تنفقوا . ما الذى يتولد عن الربا فى النهاية ؟ الفتن ، الا يعرف أحد لـذة

القرض الحسن » فكما حرم القرآن اكتناز المـــال حرم ايضا الربا واجتناء المـــال بغير وجه حق . . لا أحد يدرى الســعادة الكامنة فى « القرض الحسن » ان الربا يؤدى الى اظلام الروح التى لا يشوب نورها ظلمـــة ويجعل القلوب كالحجارة أو هى أشد قسوة ، ويحيل الانسان الى وحش كاسر ، وان بدا بلا أنياب ومخالب .

« ما افضل أن تستخرجى الرزق من الأرض ، انها متـــاع الانسان وملك الله » فثمة تحريم آخر فرضه علينا القرآن ، يتعلق بملكية الأرض ، فحرم الله على الانسان امتلاكها وسمح له باستغلالها والحصول على رزقه منها . « فالعبد المؤمن أمين والله مالك ، كل ما ترينه سوى الله فهـــو هالك » حقا ان المؤمن أمين والأرض وديعة الله عنده ، فهو لا يربط قلبه بشىء فان ، فان كل ما ترينه أمامك هالك سوى وجه الله .

كذلك حرم القرآن الملوكية لأن « الملوك نكسوا دائما راية الحق ، القرى من دخولهم ذليلة ضعيفة » فهم لم يعملوا بأحكام الحكومة الالهية ، ولقد قال تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون(١) » .

وهناك خصيصة برزت فى القرآن الكريم ، وهى وحدة بنى الانسان ، « فماؤنا وخبزنا من مائدة واحدة ، وذرية آدم كنفس واحدة » ، فلقد قال تعالى : ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة(٢) » .

كذلك أزال القرآن الوسائط بين الله وبين البشرية فحكم على الكهنوتية والبابوية بالزوال ذلك أنه « عندما نزلت صورة القرآن فى هذا العالم ، حطمت صور الكهنة والبابوات » .

يتجه الأفغانى بعد ذلك — فى رسالته الى الأمة الروسية — الى بيان بعض خصائص القرآن الكريم ، فيقول :

« سأبوح لك بما هو كامن فى قلبى ، ان القرآن ليس كتابا (كغيره من الكتب السماوية) ، بل هو شىء آخر ، عندما يتغلغل فى الروح تتحول الى روح أخرى وعندما تتحول الروح يتغير العالم » اذ تحدث فى الروح ثورة تنعكس على العالم الخارجى فينقلب الى عالم جديد (٣) .

« ان القرآن كالحق تعالى ، ظاهر وخفى وهو حى وخـــالد وناطق أيضا » .

---

(١) سورة النمل : ٣٤

(٢) سورة لقمان : ٢٨ .

(٣) اشارة الى الآية الـكريمة : ان الله لا يغير ما بقـــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

(٤) و « حى » هنا اشارة الى قوله تعالى : انا نحن نزلنا الذكر وانـــا له لحافظون .

« فيه اقدار الغرب والشرق كونى سريعة الفكر مثل البرق » . . .

فلو نفذ الانسان — حيثما كان — أحكامه وعمل على جعله هاديا له فى كل شئون حياته فانه عندئذ يصل الى مرتبة الكمال الانسانى . . . والعكس صحيح . .

« قال القرآن للمسلمين : ضع أيها المسلم روحك على كفك وجاهد فى سبيل الله حق جهاده ، وأنفق ما زاد عن حاجتك(١) .

يقول الأفغانى للأمة الروسية :

« لقد خلقت شرعا وقانونا جديدين ، فانظرى اليهما قليلا فى ضوء القرآن ، عندئذ ستقفين على ما فيهما من مرتفعات ومنخفضات ، وحسن وسوء » . . . عندئذ ستقفين على قدر الحياة وغايتها وهدفها الأسمى ، فالقرآن هو وحده الذى يهدى الانسانية الى بلوغ مرتبة الكمال .

٥ — ما أشد جزعى على مصير الأمة الإسلامية :

يوضح الأفغانى فى هذه الفقرة — بعد أن يأخذ على المسلمين غفلتهم وانحرافهم عن القرآن — ان القرآن ليس بحاجة الى من ينشره بين الناس، ويعرب عن خوفه من أن يأتى اليوم الذى يرفع الله فيه القرآن من أمام الأمة الاسلامية ويعهد الى أمة أخرى بتنفيذ أحكامه . ولعله كان يعتبر أن الأمة الروسية هى أقرب الأمم الى تولى هذه المهمة بدلا من الأمة الاسلامية بوضعها الراهن .

يقول الأفغانى : « محفلنا دون خمر ودون ساق ، وللحن القرآن أصوات باقية » فوا أسفاه أن الأمة الاسلامية تخلت عن الدعوة الى الاسلام ولم يعد فيها من يشعل فى قلوبها الشوق أو العشق، مع أن أنغام القرآن العذبة ما زالت هى هى لم تبل أو تتقادم بعد أربعة عشر قرنا من نزوله على المصطفى .

« ورغم أن عزفنا ليس له من اثر ، الا أن السماء فيها آلاف العازفين » فاذا كان مضرابنا الآن يتحرك له على الأوتار دون أن يبعث نفسا على التأثر، فان السماء بها آلاف من خيرة العازفين .

« وذكر الله (القرآن) غنى عن الأمم وغنى عن الزمان والمكان » بل هو فى غنى عن الكون كله .

« ذكر الحق منفصل عن ذكر كل ذاكر ، فما حاجته اذن الى الروم والشام ؟ » انه ليس بمحتاج الى أحد لكى ينشره ويبثه بين خلق الله ، اننا اذا تخاذلنا عن نشر الاسلام « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليهم »(٢) .

---

(١) تلميح للآية الشريفة : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ، وفى البيت اشارة الى ما تطلق عليه الماركسية اسم « فائض القيمة » .

(٢) المائدة : ٥٤ .. وفى هذا المعنى أيضا قوله تعالى : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (سورة محمد : ٣٨) .

« فلو رفعه الله من أمامنا ، سيقنعه أمام قوم آخرين » .

يقول الأفغانى محددا اسباب انحطاط المسلمين : « رأيت من المسلمين التقليد الأعمى والظن ، ان روحى تضطرم كل آن فى البدن ، اننى أخشى اليوم الذى يحرمونها فيــه منه ، حيث يشعلون ناره فى قلوب أخرى » . اننى دائم الفرق والجزع من يوم يحرمنا الله فيه من القرآن ويعهد الى غيرنا بهذه المهمة المتواصلة — مهمة النظر فيه على الدوام ونشره بين الأمم والأقوام ، ما أشد جزعى وفرقى من يوم تشتعل فيه نار القرآن فى قلوب أمة اخرى غير الأمة الاسلامية .

الشيخ الرومى يقول لزنده رود ترنم باغنية

وحين استمع الرومى الى تحذير الأفغانى هذا ، استبد الألم بروحــه وتأوه من اعماق القلب وانهمرت من عينه دموع أشــد احمرارا من دم الشهيد ، انه — وهو الذى لا تثقب سهامه سوى قلوب الرجال — التفت نحو الأفغانى وقال : ان القلب ينبغى أن ينبض بالدم مثل الشفق ، وان اليد ينبغى أن تمسك فى قوة بحزام سرج الحق ، فلقد تحدثت بصدق عن الوضع الراهن لأمــة الاسلام فدميت منــا القلوب ، واعترانا الخوف من أن نتهاوى كسقط المتــاع ... لكن لا يحسن بنــا اليــأس يا صاحبى ، « فالأمل يجعل الروح متدفقة كالغدير ، والتخلى عن الأمل — كما تعرف — هو الموت الخالد » .

ثم نظر الرومى الى ثانية وقال : « يا زنده رود أشــعل النــار فى الوجود ببضعة أبيــات من الشــعر ، فناقتنا متعبة والحمل ثقيل ، ويجب أن يكون حدو الحــادى اكثر مرارة » فالمصائب من كل نوع تترى على المسلمين ، والمشكلات هائلة ضخمة فأنشد لهم اذن أغنية تثير الحميــة فى قلوبهم .

« على أن هذه المصائب تعد امتحانا للرجال الأطهار ومن الأفضل جعل الظمأى أشد ظمأ » ، فما أجدرنا أن نثبت ولا نتراجع .

« دع نهر النيل كالكليم ، وتقدم نحو النــار خطوة كالخليل » ، فاترك بايمان واخلاص نهر النيل مثل موسى الكليم لتخوض البحر ، وتقدم فى ثبــات نحو النــار كابراهيم الخليل الذى كان وحيدا .. انها مسئولية كبرى تحتاج من المسلمين الى الجهاد من اجل الهدف دون خديعة أو مراء ، فالتضحية أمر مطلوب ، وليس ثمة مجال للتعلل بالعقبات .

هيا يا زنده رود ، ترنم بأغنية ، فان « نغمة رجــل يحمل رائحــة الحبيب ويشتم منه تعاليم القرآن الكريم ، تحمل أمة بأسرها الى قرية الحبيب » حيث تثير فيهم لواعج الشوق والمحبة الالهية فتدفعهم الى أن يحثوا الخطو فى طريق الحق .

غزل يترنم به زنده رود

ايها المسلم « انك تقول ان هذه الزهور والشقائق شىء مقيم ، لا ، انها عابرة جميعا شأنها شأن موجات النسيم » — فليس ثمة بقاء أو خلود لشىء منها فلا تربط قلبك بما هو فان .

« أين الحقيقة الجـديدة التى نبحث عنها ، فلا نجدهـا ؟ فالمسجد والمدرسة والحانة كلها عقيمة » ، اننى أشكو من جدب هذه الأشـياء وعجزها عن الافصـاح عن حقائق جديدة فى القرآن الزاخر بالحقـائق فانما نحن نكرر ما قاله السلف بطريقة آلية (١) .

« تعلم أيها المسـلم كلمة من ذاتك أنت ، واحترق فى تلك الكلمة — انها كلمة التوحيد ، واجعل لنفسك نصيبا من العشـق الالهى — فكل الجالسين فى الخانقاه تعوزهم حرقة الكليم (٢) .

« ولا تتحـدث عن محـاولات الصـفاء والتطهر التى يبذلها أولئك الجالسون فى الخانقاه ، فهم مشعثو الشعور ، والبساط لم يغسل » ، فلقد أصيب صوفية العصر الحاضر بداء رعاية المظهر ، لقد أعفوا شعورهم ولكنهم بمعزل عن الحياة الروحية .

« ما المعابد التى أقاموها داخل الحرم ، ان أهل التوحيد موحدو الفكر ولكنهم ممزقون الى قسمين » ، فاذا كانت هذه هى حال صوفية العصر الحـاضر ،فان العلماء قد شادوا فى داخل الحرم أكثر من حرم ، وبثوا الفرقـة بين المسلمين ، فأصبح الموحدون الموحدى الفكر أشتاتا ودب الخلاف بينهم .

« على أن المشكلة الآن ليست هى أن موعـد الحفل قد مضى وولى ، بل المشكلة هى أن الجميع قد أعوزهم النقل والنديم » . فأنا لا أخشى أن يفر المسلمين من حلبة الجهاد والاستماتة فيه ، فهم مستعدون للتضحية بالنفس فى أحلك الظروف ، ولكننى أخشى أن يظل هذا المحفـل دون نقل ونديم — أى دون الحكمة القرآنية المتجددة ، فتظل الأمة الاسلامية تجتر أقوال السلف بصورة آلية خاوية من المضمون ، وتظل الأمـة دون قدوة فكرية وروحية تهديها وتمضى بها نحو الهدف المنشود .

---

(١) « وأظن أن الفيلسوف الانجـليزى هوبز هو الذى لاحظ هـذه الملاحظة الدقيقة : ان من تتناوبه سلسلة من نفس الأفكار المتكررة ونفس الشعور المتكرر لا تتنـاوبه أفكار ولا شعور مطلقـا . وهذا هو نصيب معظم الأمم الاسلامية اليوم ، فهم يكررون القول بالقيم التى قال بها السلف بطريقة آلية » ، (تجـديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ١٨٦ الترجمة العربية) .

(٢) قال الجنيد « ليس الاعتبار بالخرقة انما الاعتبـار بالحرقة » انظر تاريخ تصوف در اسلام ص ٥١

الفصل الثالث

فلك الزهرة

لن نبقى فى هذا الفلك طويلا ، انما سنمر به سراعا .. ، سنلتقى فيه بالأصنام التى كانت تعبدها أمم الجاهلية من دون الله وقد احتفلت بفرار الانسان من الله وعودته اليها من جديد ، وينشد زعيمها «بعل» أنشودة يعرب بها عن سروره وجذله بهذا التحول ، ولكن الرومى لا يلبث أن ينشد غزلا تخر على اثره الآلهة القدامى سجدا .

ثم نمضى بعد ذلك الى بحر الزهرة فنغوص فى أعماقه الحالكة الظلام ، ونلتقى بكل من فرعون وكتشنر — وهما عدوان من أعداء الله مفتونان بالقوة والجبروت . وهنا يذكر الرومى كلمه « اليد البيضاء » ، بمعنى النبوة ، فيدب دبيب الحسرة فى أعماق فرعون ويأخذ فى ابداء الندم على المصير الذى لقيه من جراء انكاره .

ويجىء الدور على كتشنر (ذى الخرطوم) فيتحدث عن سمو أهداف أوربا التى ينبش علماؤها قبور الفراعنة لا بحثا عن الذهب ولكن لدراسة تاريخ الأمم القديمة . وهنا يرد عليه فرعون : « ولكن ما قولك فى قبر المهدى » (١) .

وما ان ينطق فرعون بلفظ المهدى حتى تظهر روح المهدى السودانى وقد قدمت لتوها من الجنة ، فيقول لكتشنر : ان قبرى قد انتقم منك ، فلم تمنحك السماء قبرا ، وانما جعلت مرقدك فى الماء الملح (٢) ، ثم توجه المهدى الى الأمة العربية يدعوها الى اليقظة الروحية والى الوحدة ضد الاستعمار (٣) .

* * *

تمهيد

١ — امكانات لا نهائية للروح :

يقول اقبال ، بعد أن ارتفع ، فى صحبة الرومى — محلقا من «عطارد» متجها نحو « الزهرة » : ان بيننا وبين نور الشمس حجبا عديدة متداخلة..

---

(١) المعروف أن كتشنر أمر بعد استيلائه على الخرطوم فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ بنبش قبر المهدى السودانى واخراج جثته وحمل رأسه الى المتحف البريطانى بلندن ، وبعثرة عظامه .

(٢) مات كتشنر غريقا فى بحر الشمال سنة ١٩١٦ ، وقد اعتبر اقبال هذا المصير انتقاما لقبر الدرويش السودانى .

(٣) نلاحظ أن اقبالا ما زال يتابع الجيلى فى مراحل معراجه كما تابعه من قبل فى فلكى القمر وعطارد . أنظر الانسان الكامل : ج ٢ ص ٦٠

لقد أسدلت أمامنا مئات الحجب - ترى فيها ظواهر نارية . والحقيقة أن هذه الحجب لابد منها لأن من شأنها أن تقلل من حرارة الشمس عندما تصل فى النهاية الى الأرض ، و « التقليل من الحرارة على هذا النحو قد يجعل القلب يشتد تحرقا ، ويصبح قابلا لتوليد الأغصان والأوراق والثمار » ، لقد خلقت هذه الحجب لحكمة اذن ، فلولاها لانعدمت الطاقة فى الحيوان والنبات ولفنى ما فى الأرض ، ولخلت مما فيها من بهجة وجمال ، فمن خلال توهج هذا الضوء الواهن الذى يأتينا من الشمس بعد أن تخف حدته ، بمروره بآلاف الحجب « من خلال توهجه يكمن الدم فى عروق الشقائق ، واختلاجه يحيل الغدير الى زئبق » .

وعلى هذا النحو تماما ، شاء الحق سبحانه أن يخلق بيننا وبينه آلافا مؤلفة من الحجب ، فمن شأن هذه الحجب أن تبث طاقة الروح الطاهرة ، وتجعلها تنفض عن نفسها التراب وتمضى مسرعة الى حيث لا مكان ، تمضى مسرعة بحثا عن الخالق فى علاه(١) . .

فحياة المادة وارتقاؤها فى سلم التطور التدريجى للحياة ثم هبوطها فى هذا السلم — من بعد بلوغها غايتها — لتتهاوى أخيرا فى العدم .. كل هذا وقف على أشعة الشمس(٢) ، أما الروح فى تطورها ورقيها — بل الحياة كلها فلا حياة للمادة دون روح — فهى وقف على الله وحده دون سواه .

والروح الطاهرة فى رحلتها هذه الى الله تمر على العديد من المقامات: « فليس ثمة شىء فى ذلك الطريق سوى الموت والحشر والموت ، وليس ثمة زاد سوى « العشق » ، فبالعشق وبالعشق وحده تواصل الروح الطاهرة تطورها لتصل الى مقام القرب الالهى . وتمر كذلك — فى تحليقها متجهة نحو الهدف المنشود — على المئات من السماوات اللازوردية ، وتغوص باستمرار — لتتزود بزادها من المعرفة فتلتهب فيها نار الشوق — وتطفو كى تواصل رحلتها من جديد » .

انها اذن روح اقبال تلك التى تغوص ثم تطفو ، تغوص فى عدد من الأفلاك كى تستزيد من نار الشوق ، ثم تطفو فى الفضاء الشاسع مواصلة رحلتها الى حيث اللامكان ، فهى تبتغى وجه الله وحده لا يصرفها عنه صارف ولا يشغلها عنه شاغل .

---

(١) وهـذا التشبيه موجود أيضـا عند محيى الـدين بن عربى : حسرن أنوار الشموس ، وقلن لى تورع ، فموت النفس فى اللحظات وشرحهـا ابن عربى قـائلا : ظهرن لـه وارتفـع الحجـاب فسطعت أنوارهن لعينه مثل الشموس ... وقوله تورع يقول : اجتنب الملاحظة لئلا تذهب بنور بصرك المقيد ، كما جاء ، لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه . (أنظر ترجمان الأشواق ص ٣٢ طبع بيروت) .

(٢) وهذه حقيقة علمية ثابتة ، فطاقة الشمس الاشعاعية تتحول فى أجسام النبات وأجسام الحيوان جميعا الى طاقة كيماوية هى مصدر الحياة : أنظر مثلا مقال الدكتور أحمد زكى : وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه ، مجلة العربى ، مارس ١٩٧٠ .

« ان هذه الروح هى ذاتها كعبة ذاتها . (لقد جعلت الله فى قلبها وحده واتجهت اليه) وهى ابراهيم ذاتها ؛ (فقد جعلت من نفسها خليلا لنفسها بعد أن ضمت الحبيب فى قلبها) ؛ وهى مثل الذبيح اسماعيل فى تسليمها » .

« أمامها السماوات التسع وكأنها تسعمن « خيبر » وهى لاتعبأ ولا تراع ، فضرباتها كضربات « حيدر » (١) كرم الله وجهه » .

« على أن هذا الصراع المتواصل يطهرها ويصفيها من الهوى والحرص ويجعلها تتصف بالثبات فى طريق الحق والاسراع نحو الحق ، والفطنة » .

واذا اتصفت الروح بهذه الصفات ، وهى الطهر ، والنقاء ، والثبات ، والاسراع ، والفطنة ، يكون فى مقدورها أن « تبسط جناحيها فى النور اللانهائى ويمسك مخلبها بجبريل والحور » ، فتعلو على مقام الملائكة والجنةنفسها ، وربما تنال نصيبا من « مازاغ البصر » وتشهد عن كثب مقام «عبده» وتصير «قاب قوسين أو أدنى» من الذات الالهية فى علاها(٢).

٢ — اننى أخشى الوصال ، وانوح من الفراق !!

يقول اقبال : « اننى لا أعرف اين مكانى ، ولكن كل ما اعرفه هو اننى منفصل عن الأحبة » ، واننى أسعى الى القرب منهم بدافع الحنين والشوق .

« تنشب فى أعماقى حرب بلافرسان وجيوش . يلمحها جيدا من له نظر مثلى » ؛ ففى شعورى انقلاب دائم متواصل منذ أن حلقت فى الآفاق .

« لا أحد من رجال قومى يدرى شيئا عن معركة الكفر والدين (التى حمى وطيسها فى هذا العصر) . . . ان روحى وحيدة مثل زين العابدين » (٣) الذى بقى وحيدا بكربلاء فى وجه الطغيان .

« لا أحد يدرى شيئا عن المقام والطريق . اليس للطريق مصباح آخر بضيئه غير اناتى (ونواحى على غفلة المسلمين) لا ! فالطفل والشاب والشيخ غرقى فى البحر (العالم المادى) لكن الوحيد الذى كان للروح الفضل فى حمله على الساحل هو أنا ؛ هو هذا العبد الفقير . فلقد ازحت جانبا حجب هذه الخيمة (الزمان والمكان) ، وانطلقت فى سبيلى لا الوى على شى . . . — ما اشد عجبى من نفسى — اننى اخشى الوصل وانوح من الفراق » . فأنا عاشق أهوى الوصال وأتلظى بالفراق ؛ لكننى أخشى

---

(١) حيدر هو على بن أبى طالب .

(٢) وبالبيت تلميح للآية الشريفة : ما زاغ البصر وما طغى (النجم : ١٧) والآية الشريفة « سبحان الذى اسرى بعبده . . . » (الاسراء : ١) .

(٣) هو على زين العابدين بن الحسين الشهيد : رابع الأئمة لدى الشيعة بقى فى موقعة كربلاء — وهو طفل — وحيدا بعد مقتل ابيه ورعته عمته زينب ، فكان وحيدا فى قبضة خصومه .

الوصال أيضا ففيه نهاية بحثي وطلبي . . . فيه نهاية هذا التوتر الذي لولاه لاعترى حياتي الفتور ولما عدت خليقا بالوجود (١) .

« فحذار ان كان الوصال هو نهاية الشوق ، وطوبى للآهات والأنات التي تظل بغير جدوى ». فالسالك يفقد حماسه للسير في الطريق ، اذا جعل هدفه هو الفراغ من الشوق ولكن قلبي له شأن آخر . . . قلبي عجيب الشأن حقا ، فهو بدافع الشوق الى المشاهدة والتشوف اليها يريد كل حين عالما جديدا وآفاقا مغايرة ، انه مولع بالحركة تواق للسفر الدائم .

التفت الى الرومي — وهو الخبير بأحوال روحي — وقال :

تريد عالما آخر ؟ خذ ! فالعشق بارع ونحن مقرة في يده ، أنظر أمامك تجد أرض الزهرة . هي عالم قوامه الماء والتراب ، في غلاف أسود اللون كالحرم المكي . . . . هيا ، اخترق سحابه وضبابه المعتم هذا بنظرة تحرق الحجب وتمزقها أربا ، وعندئذ سترى فيه الآلهة القدامى ، انني أعرفهم جميعا واحدا وحدا ، هم : بعل ومردوخ ويعوق ونسر وفسر ، و « رمخن » واللات ومناة وعسر وفسر ، أنها ليست أصنام الجاهلية العربية وحدها بل هي أصنام جاهلية شعوب أخرى كالكنعانيين والفينيقيين والهنود وغيرهم ، « وكل واحد من هذه الأصنام يقدم البرهان على بقائه من طبع هذا العصر الحاضر الذي لا وجود فيه لابراهيم الخليل » فهذه الأصنام مازالت تستمد كيانها من روح هذا العصر الذي يبدو فيه في كل ناحية صنم ، ولكن ليس ثمة من يحطم هذه الأصنام كالخليل عليه السلام .

اجتماع لآلهة الشعوب القديمة

١ — فرار الانسان المعاصر من الله :

وأمسك الرومي عن الحديث ، بينما نحن نحلق في سماء الزهرة . . . ما أقسى هذا الجو ... « ريح عاصفة وسحاب كقطع الليل المظلم ، لقد فقد البرق ضوءه في ظلمته . وثمة محيط معلق في الهواء ممزق الأطراف ، قليلا ما يجود بالجوهر . ساحله غير مرئي وموجه يغلي ويفور ، وليس في موجة قوة تمكنه من الاعتراك مع الرياح .

« الرومي وأنا في ذلك البحر الذي يشبه القار نبدو وكأننا خيال في مهجع الضمير . لقد مارس هو الأسفار وأنا حديث عهد بالسفر ، لذا فقد عيل صبر النظر في عيني وأخذت أقول : ان نظري غير ناضج ، وليست أرى أين ذلك العالم الآخر » الذي تحدثت عنه يا صاحبي .

« وفي التويدت سلسلة من الجبال ، ثم ظهر نهر ومرج فسيح ، (ما أروع هذا المشهد) . . . ان في جنبات الجبل والسهل مائة ربيع ، وهب النسيم محملا بالمسك من التلال . والطيور تشدو بأعذب الألحان في تناسق بديع وثمة ينابيع وأعشاب مخضرة نصف ناضجة » .

---

(١) عن فكرة التوتر انظر مقدمة اقبال للترجمة الانجليزية التي نشرها نيكلسون لديوان « أسرار خودى » ، ص ١٥ ، وأنظر أيضا عبد الوهاب عزام : محمد اقبال ص ٥٧

« تقوى جسدى بفيض ذلك النسيم العليل ، وقويت بصيرة الروح الطاهرة فى البدن . وسرحت بناظرى الى قمة الجبل . سعيد ذلك الجبل والمنحدر ، سعيد ذلك الوادى الفسيح الذى لا ارتفاع فيه ولا منخفض — فهو منبسط تماما . . . ، ان ماء الخضر يفتقد حقا مثل هذه الأرض » (١) .

وربما كان اقبال يرمز باستواء الوادى وشدو الطيور والمناظر البديعة التى تكتنف جوانبه ، الى الجو الذى تترعرع فيه الاتجاهات والنوازع الحسية للانسان ، وهى الاتجاهات التى تتمثل فى اخلاده الى المادة وبعده عن الروح ، وايمانه بالشاهد وكفرانه بالغائب فيتخذ من الأصنام آلهة .

يقول اقبال : « وفى هذا الوادى تعيش الآلهة القديمة التى عبدتها أمم الجاهلية ، فهذا اله المصريين القدماء ، وهذا رب حمير وهمدان من اليمن (٢) ، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية ، واولئك آلهة وادى الفرات ، وهذا اله الوصل وذلك رب الفراق ، وهذا من سلالة الشمس وذلك ختن القمر ، وهذا يتطلع الى زواج المشترى » .

« ولكل منهم هياة تختلف عن الآخر ، فهذا فى يده سيف ذو حدين ، وذاك لف حول عنقه حية ، كل منهم يرتعد خوفا من **الذكر الجميل** . (فهم مشفقون من القرآن الكريم الذى وضع نهاية لهم ، واقام عالما جديدا على أساس التوحيد) ، وكل منهم مصاب بضربة من ضربات الخليل » (٣) .

كانت هذه الآلهة فى ذلك الحين تعقد اجتماعا تتحدث فيه عن انسان العصر الحاضر . قال مردوخ : وافرحتاه ، لقد فر الانسان من الله ، فر نائحا من الكنيسة والحرم . فلقد عاد بناظره الى العهود البالية كى يتوسع فى العلم والنظر ، واخذ يستمتع بالآثار العتيقة ، ويتحدث عن أمجادنا . ان العصر يفصح عن اسطورة أخرى جديدة ، وتهب من الأرض رياح مواتية .

واخذ بعل — اله الفينيقيين والكنعانيين القديم — ينشد فى طرب ومرح الأنشودة التالية ويفشى فيها لتلك الآلهة أسرارنا .

انشودة بعل

لعل السبب فى اختيار اقبال بعلا لكى يتحدث باسم الآلهة القديمة يرجع الى انه كان أقدم الأصنام التى عبدت فى العالم القديم ، وبعل فى اللغة العبرية معناه السيد ، والزوج وهو اسم لاله الشمس عند الفينيقيين

---

(١) الخضر يرمز به عند اقبال لرجل الحق ، الموجود دائما فى العالم ، وهو هنا يشير الى حاجة العالم المادى رغم مظهره الجميل الى الروح التى يحييها فيه رجل الحق .

(٢) يعوق ونسر وكانا يعبدان فى اليمن (انظر كتاب الأصنام ص ٥٧ ، ٥٨) .

(٣) وفيه اشارة الى قوله تعالى : « وجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم ... » (الأنبياء : ٥٨) .

والكنعانيين ، وفيه قال الله تعالى فى سورة الصافات (الآية ١٢٥) التى تتحدث عن تحطيم ابراهيم للأصنام،على لسان الياس عليه السلام «اتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

ويقسم اقبال أنشودة بعل الى أربعة اقسام يتحدث فى كل منها عن غرض معين .

على أن الأنشودة كلها تربطها فكرة واحدة هى سيادة الحس وعدم الايمان بالغيب فى العالم الاسلامى ، ونلاحظ أن اقبالا يرجع هذه الردة الى المستشرقين الأوربيين الذين نبهوا أطماع الغرب وأحقـاده الى ضرورة التفريق بين المسلمين ، فأصابوهم بعدوى الوطنيات ، والذين حاولوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فكاد الظلام يعم أرض النور ، ونكست راية الدين ، وأخذ المسلم رويدا رويدا يربط قلبه بالمحسوس ويصيخ السمع الى دعوة اللامبالاة بالغيب .

١ — ألا فليحى المستشرقون :

يقول بعل : « لقد مزق الانسان هذه السماء الزرقاء ونظر فيما وراء الفلك فلم يشـهد الاهـا » . فلقـد بلغ الانسـان درجـة كبرى من العلم ، وتوفرت له الوسائل التى مكنته من أن يجيل النظر فى الكون كله ، ولم يعد مجال أبحاثه قاصرا على الأرض وحدها فاتجه نحو السماء يبحث عن الله ، فلم يجده .

« يا بشراى ، ليس فى قلب الانسان سوى أفكار وخواطر (تسنح له ثم تغيب) كالموج هذه تعلو وتلك تتوارى ، وروحه لا ترتاح وتطمئن الآن الا بالمحسوس (ولم يعد لها شأن بالغيب) .. فلعل عصر الجـاهلية يعود من جديد » .

« ألا فليحى المستشرقون الأوربيون .. لقد عملوا على بعثنـا من قبورنا » ، اننـا مدينون لهم حقا بحياتنا الجديدة ، فقد بذروا بذرة الشكوك فأثمرت الالحاد ... « ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة » .

٢ — تحطمت حلقة الوحدة الاسلامية :

« أنظروا ، لقـد تحطمت حلقـة الوحدة وفقد آل ابراهيم (المسلمون) لذة العهد والميثـاق الذى أخذه الله عليهم يوم « ألست » (١) أن وحدتهم مبعثرة ، فكأسهم تحولت الى شظايا تافهة — أولئك الذين كانوا ثملى بخمر جبريل (القرآن) » ، لقد انقسموا على انفسهم وأصبح لكل منهم هدفه وأسلوبه المستقل فى الحياة .

وآل ابراهيم هم المسلمون اشارة الى قوله تعـالى « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين ... » (سـورة الحج : ٧٨) ، و « ألست » اشارة الى قوله تعالى «الست بربكم قالوا بلى ...» (سورة الأعراف : ١٧٢) .

« لقد وقع الرجل المؤمن فى أسر الجهات — وهو الذى لم يكن يعرف الحدود والجهات ، ولم يكن يعبد غير الاله الذى خلق الأرض والسماوات — ارتبط هذا الرجل الحر بالوطن وانفصل عن الله .

بل انه يبدو الآن مذعورا خائفا من عبيد الأصنام والمشركين ، فأصبح قادة المسلمين الدينيون يتقلدون شعارهم ويقتفون آثارهم بل ويلبسون الزنـــار (١) علهم ينالون عندهم الحظوة ويسلمون من لومهم وتقريعهم... ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة .

٣ — ليل الجاهلية الحديثة يطبق على العـــالم :

« لقد عادت (لنا) أيام الطرب فى الدنيـــا وانهزم الدين بالملك والنسب (بالسيادة الوطنية والتعصب العنصرى) ، ولا يحسن بنـــا الآن أن نخشى الاسلام ، ... فما سبب الخوف من مصباح المصطفى ؟ ان هذا المصباح الذى أناره محمد (ص) تألب عليـــه مائة أبى لهب يطفئونه ، ولئن كان صوت « لا اله الا الله » مازال يتردد ، (فهو مجرد صوت يصـــدر عن الشفتين لا عن القلب) ، فكيف يمكن أن يبقى على الشفة ما محى من القلب . ولا ريب فى أن الأجيال القادمة ستنسى كلمة التوحيد .

« ان ســـحر الغرب أحيـــا **أهرمن** — اله الشر والظلام — فى بلاد الاسلام من جديد ، فأصبح يوم **يزدان** — أى دين الله — ممتقع الوجه خوفا من الليل والظلام .. انه ليل الجاهلية الحديثة يوشك أن يطبق العـــالم كله .. ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة » .

٤ — الدين قيد على حرية الانسان :

« يجب فك قيد الدين الذى يكبل رقبة الانسان ، لقد كان عبـــادنا احرارا لهم التصرف المطلق والحرية كاملة فى حيـــاتهم ، ولمـــا كان أداء الصلاة ثقيلا فاننا لم نثقل عليهم بصلاة ، وانما طلبنا ركعة لا سجود فيها ، وجعلنا العواطف تستعر فيهم بالأنغام والألحان .. فأية لذة فى صلاة لا غناء فيها ولا موسيقى(٢) ! . ولا ريب فى أن طاغوتنا يبدو للعيان أفضل من اله غائب لا تدركه الأبصار .. ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة » .

---

(١) يشير الى ملابس القسس ورؤساء الدين المسيحى ، وذلك لأن محاولات تغريب الفكر الدينى الاسلامى كانت تنزع الى تقريبه من المسيحية وتفريغه من روح الجهاد ودوافع المقاومة ليبقى مسخا هزيلا مستسلما .

(٢) قال تعالى عن المشركين : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصـــدية » (الأنفال : ٣٥) والمكاء : الصفير ، والتصـــدية : التصفيق .

الغوص فى بحر الزهرة
ورؤية روح كل من فرعون وكتشنر

١ — ينبغى جعل هذا الموثن حطاما :

يقول اقبال : ان الرومى الذى هو صاحب الذكر الجميل — وهو ما تخشاه تلك الأصنام — فى ضربه قوة تعادل ضرب الخليل ابراهيم ، تجعل الآلهة جذاذا . وما ان ترنم الرومى بهذا الغزل فى عالم السكر حتى خرت كل الآلهة القديمة سجدا :

غــزل

قال الرومى : « يجب اعادة النظر فى الماضى والمستقبل ، فهيا انهض — أيها المسلم ... وتخل عن هذا التقليد الأعمى وهذا الجمود — فلابد من تبديل الفكر من الأعماق » .

« ان العشق يضع أحماله على ناقة الزمن — فهو يجعل الزمن مركبا له الى هدفه — أانت عاشق ؟ ان كنت عاشقا حقا فيتعين عليك أن تصنع راحلة من الليل والسحر » ... لا تجعل الهدف يغيب عن قلبك أبدا .

« قال شيخنا ومرشدنا : ان هذه الدنيا ليست على أسلوب محكم (فهى متقلبة لا تستقر على نمط واحد) ، لذا وجب — على السالك — صرف النظر عن حلوها ومرها ، فلو أنك أردت ترك الدنيا لكى تتجه اليه هو ، فعليك اذن منذ البدايـــة أن تتحول عن نفســـك » الأمارة وتتخلى عن رغبانها ونوازعها .

« قلت للشيخ : ان فى قلبى الكثير من الرغبات (لات ومناة) ، فأشار على قائلا ينبغى جعل هذا الموثن حطاما » .

فلا صلاح للأمة الاسلامية اذن مالم تنظر فى القرآن والشريعة نظرة جديدة وتأخذ نفسها بالمجاهدة فى سبيل الله ، وتتخل عن هذا الحطام الزائل مبتغية وجه الله وحده .

٢ — موت الطغاة من آيات الله :

وبعد أن أنشد الرومي هذا الغزل والذى خرت على أثره الآلهة القديمة صرعى لما فيه من سطوة — التفت الى وقال لى : قم يابنى ، وأمسك بطرف ردائى . هنالك جبال ومرتفعات لا كليم فيها ، انها مغطاة بالثلوج ، تبدو وكأنها أكوام من فضة ، وخلف هذه المرتفعات يقبع محيط فى لون الماس باطنه أكثر شفافية من ظاهره ، لا اضطراب فيه من موج أو سيل ، فى طبعه سكون دائم ... هذا المحيط هو مستقر اثنين من العصاة المولعين بالقوة المفتونين بالجبروت ، اثنين من منكرى الغائب وعبدة الشاهد . أولهما مصرى من الشرق ، والآخر من الغرب . وكلاهما مع رجال الله فى حرب وضرب ، ستشهد على رقبة الأول آثار عصا الكليم موسى عليه السلام(١)،

---

(١) عصا الكليم اشارة الى قوله تعالى : « ان اضرب بعصاك البحر فانفلق .. وانجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين » (الشعراء : ٦٣ — ٦٤) وسيف الدرويش كناية عن الانتقام الالهى من نبش كتشنر لقبر المهدى باغراقه فى بحر الشمال .

والثانى قد قطع نصفين بسيف الدرويش كلاهما فرعون ، ولكن أحدهما فرعون صغير والآخر فرعون كبير .. (كلاهما مات غرقا فى بحار ملح) ، كلاهما يموت ظمأ فى أحضان البحر . ورغم أن الله قد كتب على الناس جميعا أن يذوقوا مرارة الموت ، الا أن موت الطغاة من آيات الله »(١) .

وهنا يبدو الرومى وكأنه مثل موسى عليه السلام ، فهو يأخذ بيد « زنده رود » ويقول له : سر ورائى تماما ، ولا تخش أحدا وضع يدك فى يدى ولا تخش أحدا ... (٢) اننى سوف أشق صدر البحر كموسى ، وسوف أقودك الى أعماقه » .

وهكذا نلاحظ أن مشهد « العبور » فى سورة « طه » هو المصدر الذى استمد منه اقبال الصور البديعية فى هذا الموضع ، وسوف يتلو الرومى هذه السورة وهو يقود اقبالا الى قاع المحيط .

٣ — فى « اليد البيضاء » نور :

يقول اقبال : فتح البحر صدره لنا ... — هل خدعنى بصرى — فبدا لى ماء بينما كان هواء ، قاعه واد عديم اللون والرائحة ، ليس فيه بصيص من نور ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض ، فتلا الشيخ الرومى سورة «طه» فهبط قمر منير — ببركة القرآن الكريم — الى قاع البحر (فألقى الأضواء عليه) فرأيت جبالا جرداء باردة تبعث البرودة فى النفس ، ووسطها رجلان حائران ، فنظرا دفعة واحدة نحو الرومى ثم عادا فنظر كل منهما الى الآخر ونطق فرعون — متعجبا من ظهور النور — فقال : اى سحر هذا !! اى نهر من النور هذا ، من أين يأتى هذا الصباح ، وهـذا النور وهـذا الظهور » .

فأجابه الرومى قائلا : « انه نور تظهر به الأشياء الخفية لان أصله ليس من الشمس بل من اليد البيضاء (النبوة) » ... فلقد ظهر بعـد تلاوة سورة من القرآن الكريم .

٤ — فرعون : خذوا العبرة من قبورنا ، لا تاخذوا الذهب :

ولما سمع فرعون كلمة « اليد البيضاء » تأوه وقال : واحسرتاه ، لقد خسرت نقود العقل والدين سويا ، لقد رأيت هذا النور فلم أعرفه وعاينته فى موسى ، ولكننى أبيت الا الانكار والكفر بالدعوة التى دعانى اليها .

« يا حكام العالم أنظروا جميعا الى ، يا مدمرى العالم ، أنظروا جميعا الى » وخـذوا العبرة منى . .. لا تبحثوا عن الجواهر والتحف فى قبور

---

(١) قال تعالى فى موت فرعون غريقا : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية .. » (سورة يونس : ٦٧) .

(٢) والبيت مشتق من روح الآية الكريمة : « ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسـا لاتخاف دركا ولا تخشى » (سورة طه : ٧٧) .

الفراعنة ، وانما خذوا العبرة من تاريخهم ، « فبئس قوم أعمتهم الشهوة ، يلتقطون اللؤلؤ والجوهر من تراب القبر ، فى حين أن الشفقة الصامتة لكل مومياء فى المتاحف تنطق بالكثير من الأقوال والأســاطير ، تقص تاريخ الاستعمار وتحكى عن عاقبة ظلم الملوك وحماقاتهم ، فتجعل الأعمى يرتد بصيرا . ولكن هيهات ... انهم ينبشون قبورنا لا ليأخذوا العبرة منا بل ليجمعوا التحف واللآلىء » .

« وقد يحسن بى أن أتساءل الآن ، ما هدف الملوك وغايتهم ؟ هو الشقاق ونشدان الأمن بتدبير النفاق وبث الفرقة بين الناس » ، وها هو ذا الاستعمار يسير على دربهم وينهج نهجهم الآن،ويرفع رايه «فرق تسد». ومن شأن هذا المذهب الإبليسى الذى يتبعه الملوك أن يجعل الفســاد والاضطراب فى نفوس الأمة وتتعثر كافة التدابير التى تتخذ لاصلاح النفوس والاوضاع .

« ولو قيض لى أن أرى كليم الله موسى من جـــديد فلن أتردد فى أن أطلب منه قلبا مبصرا » .

٥ ــ الرومى : الحكم دون نور النبوة قرصنة :

وهنا يتحدث الرومى ، فيلخص فى أربعة أبيات فلسفة الحكم ، وخلاصة هذه الفلسفة هى أنه لابد من وجود حاكم ، فالحكومة أمر ضرورى ، ولكن الحكومة التى لا تستمد أساس قيامها من القرآن والسنة تنقلب الى لعنة على الانسانية بدلا من أن تكون رحمة لها .

يقول الرومى : « ان الحاكم الذى تفتقر روحه الى النور هو انسان فج فج غير ناضج ، انسان موتور يبذل قصارى جهده لكى يجعل من رعاياه ــ وهم عباد الله ــ عبيدا له هو ... ومن ثم كان الملك الخالى من نور النبوة حراما ، فالحاكم فيه يستمد قوته من ضعف الرعايا ، وتقوى جذوره من حرمان المحرومين » .

« والتيجان والعروش تستمد وجودها من فرض الجبايات والاتاوات ، وامتصاص دماء الرعايا الذين ينتابهم الهزال ويسرى فى نفوسهم الخور والوهن . فالحاكم الفج اذن يبتلى الرعية بضعف الذات لينمو على حسابها ويصبح الواحد من الرعية زجاجا بعد أن كان صخرا .

« وتصبح الجيوش والسجون والأصفاد بمثابة وسائل لقطع الطريق ، يستخدمها الحاكم الفج لبث الخوف فى نفوس الناس ويشتد بهـــا فى قمع الأحرار والمعارضين لسطوته . . وعندئذ لا يكون ثمة فرق بين هذا الحاكم الفج وقاطع الطريق »(١) ... أما الحاكم الحقيقى فهو فى غنى عن مثل هذه الوسائل جميعا (٢) .

---

(١) أوضح اقبال هذا التشابه فى ديوانه ضرب الكليم .. تحت عنوان « قرصان واسكندر » (أنظر عزام : الترجمة العربية لضرب الكليم ص ١١٠) .

(٢) وهنا يمكننا أن نذكر قول عمر بن عبد العزيز : « ان الله لم يبعث محمدا جابيا بل هاديا » .

٦ ــ كتشنر : ما أنبل أهداف الانجليز :

يطلق اقبال على كتشنر (١) اسم « ذى الخرطوم » وفيه تورية ، فهو من ناحية اشارة الى كتشنر الذى منحته الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٩ لقب « لورد أوف خرطوم » ، بعد تعيينــه حاكما عــاما على السودان (٢) . وربما كان فيه أيضــا اشــارة الى الفيل ، والفيل فى الثقافة الاسلامية كناية عن عدو الكعبة الشريفة مصداقا لقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل »(٣) .

ونلاحظ أن اقبالا نظم « جاويد نامه » (١٩٢٩ ــ ١٩٣٢) فى وقت ارتفعت فيه حمى التنقيب عن الآثار المصرية عقب اكتشاف مقبرة « توت عنخ آمون » سنة ١٩٢١ ، فجاء علماء الآثار البريطانيون الى مصر زرافات ووحدانا للتنقيب عن هذه الآثار . فانتهز اقبال هذه الفرصة لتوجيه النقد لا الى حركة التنقيب نفسها ، ولكن الى بواعث الأوربيين من ورائها .

وقد مربنا من قبل أن « مردوخ » ــ وهو واحد من آلهة الشعوب القديمة ــ اعرب عن غبطته لأن الانسان بدأ فى العصر الحديث يستمتع بالآثار العتيقة ويتحدث عن أمجاد عصور الوثنية ، وأن فرعون أخذ ينعى على الأوربيين دوافعهم فى الاهتمام بالآثار . لأنهم يجدون لذة فى التنقيب عن الذهب لا عن العبرة فى مقابر الفراعنة .

وهنا نجد كتشنر يحاول أن يرد هذه التهمة التى وجهها فرعون الى الأوربيين فيقول :

ان هدف الانجليز هدف نبيل ، فهم لا ينقبون فى مقابر الفراعنة بحثا عن اللآلىء والجواهر ، بل من أجل اعادة كتابة تاريخ مصر القديمة على أسس علمية ، وهذا لا يتيسر الا بدراسة الآثار القديمة ، فالعلم والحكمة هما ــ بكل بساطة ــ كشف النقاب عن الآثار ، والحكمة تصبح ذليلة خسيسة اذا لم يقم الانسان بالدراسة والبحث والتنقيب .

وهنا ينبرى فرعون له ليقول فى سخرية مريرة من الحضارة الغربية وأهدافها النبيلة المعلنة : اذا كنا نسلم معك بأنكم عريتم قبورنا وفتحتموها بحثا عن العلم والحكمة ، فما قولك اذن فى تربة المهدى ؟

---

(١) هو اللورد كتشنر أوف خرطوم وبروم (١٨٥٠ ــ ١٩١٦) تلقى علومه فى الكلية الحربية البريطانية ، وأوفد لمسح قبرص (١٨٧٨) . بدأ حملاته على أتباع المهدى فى السودان سنة ١٨٨٤ كان يعمل ضابطا فى مصر ، وتمكن فى النهاية من دخول الخرطوم سنة ١٨٩٨ ، ثم بعثت بــه بريطــانيا الى حرب الترنسفال فى جنوب افريقيــا (١٨٩٩ ــ ١٩٠٢) ثم عين رئيسا لهيئة أركان الحرب فى الهند (١٩٠٢ ــ ١٩٠٩) ومعتمــدا فى مصــر (١٩١١ ــ ١٩١٤) . ووزيرا للحرب فى بريطانيا (١٩١٤) وغرقت به السفينة الحربية « هامبشاير » وهو فى طريقه الى روسيا (١٩١٦) .
(أنظر نجيب العقيقى : المستشرقون ج ٢ ص ٤٩٣ ، ونعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٢٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٧٤) .

(٢) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٦٧٣ .

(٣) انظر جشتى : شرح جاويد نامه ص ٨٠٦ .

ظهور روح الدرويش السودانى

يبدو المهدى السودانى(١)فى نظر اقبال مجاهدا بحق ، جاهد فى جبهتين: فقد جاهد الاستعمار والطغيان من ناحية ، ودعا المسلمين من ناحية أخرى الى التمسك بأحكام الشريعة الاسلامية والعودة الى ماكان عليه السلف الصالح من طهر واخلاص وابتغاء لوجه الله تعالى .

ويمكننا أن نقول ان اقبالا — جريا على عادته فى « رسالة الخلود » — قد احتفظ بالملامح الرئيسية لشخصية المهدى ودعوته ، بل استقى أغلب المعانى التى أوردها على لسانه من نفس التعاليم ، التى دعا اليها هذا المجاهد العربى . وسوف نشير الى التطابق بين تعاليم المهدى (٢) وأقواله هنـا فى الحواشى عند التحليل .

١ — المهدى : استيقظى يا روح العرب :

عندما ذكر فرعون اسم المهدى « ، أضاء برق خاطف فى الماء ، فطمى الموج ثم انحسر من جديد ، وهبت من رياض الجنة رائحة عطرة ، وتجلت روح ذلك الدرويش المصرى (٣) فأذابت ناره اللآلىء داخل أصدافها ، .. وأذابت الحجر فى صدر كتشنر (٤) .والتفت المهدى الى كتشنر وقال « :

ياكتشنر ! ان كنت متمتعا ببعض الادراك والفهم فتأمل انتقام القبر الدرويشى ، فقد حرمتنى من قبرى (٥) فانتقم الله منك فمت غرقا ، ولم يعطك الله مستقرا سوى فى بحر مالح .

---

(١) هو محمد أحمد المهدى (١٨٤٤ — ١٨٨٥) زعيم دينى تصوف وكثر مريدوه الذين لبسوا الجبة المرقعة دليلا على الفقر فسموا الدراويش . صرح بانه المهدى المنتظر ، ثار على الحكومة وهزم الحملات التى جردتها لتأديبه ، ودعا الى العودة الى تعاليم الاسلام وأعلن صيحة الجهاد (أنظر نعوم شقير: تاريخ السودان ج ٣ فى مواضع متفرقة) .

(٢) نشر « نعوم بك شقير » ضابط المخابرات فى الجيش المصرى ابان الاحتلال الانجليزى والذى أوفد الى السودان للمعاونة فى احباط الثورة المهدية ، نشر هذه التعاليم فى كتابه « تاريخ السودان ج ٣ ص ٣٦٦ وما بعدها » طبع القاهرة سنة ١٩٠٣ .

(٣) لم يكن السودان قد استقل بعد عن مصر خلال نظم « رسـالة الخلود » (١٩٣٢) .

(٤) وتشـبيه القـلوب بالحجـارة وارد فى القرآن الكريم فى قـوله تعـالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشـد قسوة .. » (البقرة : ٧٤) .

(٥) أمر كتشنر بعد دخوله الخرطوم سنة ١٨٩٨ بنبش مقبرة المهدى : « فلغمت القبة فسقطت الى الأرض ولم يبق قائما منها الا أركانها الأربعة . ونبش قبر المهدى واخرجت جثته فحمل رأسه الى معرض التحف بلندن وبعثرت عظامه » (نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٦٤٧) .

وعندئذ تحطمت الكلمات فى حلق المهدى وأخذ يتأوه من أعماق قلبه ويقول : « استيقظى يا روح العرب ، اخلقى الأعصار كما فعل السلف الصالح(١) .. يا فؤاد ، يا فيصل ، يا ابن سعود(٢) .. الى متى الانطواء على النفس كالدخان ؟ الى متى تظلون أسارى للفرقة والتشتت ؟ الى متى تظلون غافلين عن رقيكم الذاتى ؟ لقد آن الأوان لاحياء حرقة المحبة الالهية فى القلوب ، لقد ولت هذه الحرقة من الصدور ، ولكن بالامكان اعادتها من جديد ، فأعيدوا الى الدنيا ذلك اليوم الذى ولى ومضى » .

« يا أرض البطحاء (الحجاز) الا فلتنجبى خالدا آخر ، الا فلتنشدى لحن التوحيد من جديد (٣) ، فى وديانك ينمو النخيل عاليا شامخا ، الن ينمو فيك فاروق (عمر) جديد » .

« أيها المؤمنون السود ، يا قومى وعشيرتى ، يا من أنتم فى لون المسك، اننى أشتم منكم رائحة الخلود — اننى أعقد عليكم الآمال الكبار ، ولكن الى متى الحياة دون شوق الى السير والترحال ؟ الى متى تظلون عبيدا للاستعمار ؟ الى متى تبقى مصائركم فى أيدى الغير ؟ الى متى تغفلون عن مقامكم ؟ .. ان هذه التساؤلات تؤرقنى وتقض مضجعى ، وتجعل عظامى تنوح كالقيثارة من الأعماق .

ولكن خبرونى ، « هل تخشون البلاء ؟ ألم تسمعوا حديث المصطفى : يوم البلاء للرجل مثل يوم الصفاء » (٤) ؟ .

٢ — أحبتنا فى يثرب ... ونحن فى نجد :

يدعو اقبال هنا — على لسان المهدى ، وفى غلالة من الكنايات والاستعارات البديعة — الأمة الاسلامية الى الجهاد ، ويهيب بها الا تركن الى الدنيا وأن تبتغى وجه الله وحده ، مهتدية بالكتاب والسنة (٥).

---

(١) ومن تعاليم المهدى : ينبغى لنا ان نقتفى اثر اصحاب رسول الله (ص) الذين قال فيهم ربنا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » وكن كذلك واحمل نفسك ودسها تحت أقدامك لعل الله يعلوك (تاريخ السودان ج ٣ ص ٣٧٠) .

(٢) ملوك مصر والعراق والحجاز عند نظم رسالة الخلود .

(٣) « دعا المهدى فى تعاليمه الى الاكثار من كلمة التوحيد . . » (أيضا ص ٣٦٥) .

(٤) لم اعثر بعد تصفح عاجل لصحيح مسلم على هذا الحديث وقد يكون البيت اشارة للحديث النبوى الذى رواه البخارى : « عجبت للمؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له » . ومن تعاليم المهدى : « أيها الأحباب كونوا ربانيين وفوضوا أمركم الى الله فان النصر لكم وان القتل الذى ترونه امتحان لكم وليس يريد به تضعيف المسلمين .. » (تاريخ السودان ج ٣ ص ٣٧١) .

(٥) قال المهدى : « لا توجد غاية الا بالجهاد فى سبيل الله والعمل بالكتاب والسنة رأس المال ، والجهاد ثمنه » (أيضا ص ٣٧٠) .

نجده يرمز بحادى القافلة الى تطلعه نحو ظهور قائد مخلص يقود الأمة (الناقة) الى ديار الحبيب (يثرب)(١) . فالأمة قد أصابها الوهن واصبحت فى حاجة الى من يبعث فيها روحا جديدة ، كما أصبحت تركن الى حياة الراحة والدعة (نجد) بعد أن أفاض الله عليها من خيرات الايمان (المطر) ، والشقة بينها وبين هدفها بعيدة ، فلعل حدو الحادى يبث فيها الحماس ويدفعها الى السير قدما نحو الهدف المنشود (يثرب) .

ولكن على الحادى أن يختار للناقة طريقا قليل العشب ، فهى ثملة به (الدنيا) ولن تلبث الصحراء الجرداء — بعد لأى — أن تتحول الى جنة غناء ، ويصبح حصى الصحراء وكأنه الحرير ، فلا يعود الطريق شاقا على الناقة كما كان .

يقول المهدى :

— أيها الحادى ، احبتنا فى يثرب ، ونحن فى نجد .. أحد ، فان حداءك سيجعل القافلة فى حالة وجد .
— أمطر السحاب ، ونبتت الحشائش من الأرض ، قد يكون الوهن أصاب خطو الناقة .
— ان روحى تنتخب من الم الفراق ، فاسلك — اذن — ذلك الطريق ذا العشب القليل .
— ناقتى ثملة بالعشب ، وانا ثمل بالحبيب ، الناقة بين يديك وانا فى يد الحبيب .
— جعلوا للماء سبيلا الى الصحراء ، فها هى أوراق النخيل مغسولة (بالمطر) على الجبال .
— انظر ، هناك زوج من الغزلان يتعاديان فى اثر بعضهما قادمين من أعلى الربوة .
— ينهلان الماء لحظة من نبع فى الصحراء ، ثم يتطلعان نحو المسافر .
— لقد أصبح حصى الصحراء مثل الحرير بفعل الطل ، ولم يعد الطريق شاقا على الناقة .
— والغمام متناثر حلقة اثر حلقة — كأنه جناح الحجلة، اننى أخشى المطر .. فما زلنا بمنأى عن الهدف .
— أيها الحادى ، أحبتنا فى يثرب ، ونحن فى نجد .. أحد ، فان حداءك سيجعل القافلة فى حالة وجد .

---

(١) وعن الاخلاص فى تعاليم المهدى ، انظر تاريخ السودان ج٣ ص٣٧١.

الفصل الرابع

فلك المريـــــخ

يترك الرومى واقبال فلك الزهرة متجهين نحو المريخ .

ولقد رأينا كيف رسم اقبال فى فلك الزهرة صورة للجاهلية الحديثة كما تتمثل فى اتجاه الثقافة الغربية نحو الاستمداد من المعرفة الانسانية فى عصورها الوثنية والبربرية ، بحيث سيطرت تلك النزعات الحسية والمادية على الانسان فنسى الروح وجحد الغيب وربط القلب بالوطن — من حيث هو نظرية سياسية — وانفصل عن الله . وبين اقبال كيف تفشت هذه الروح بين المسلمين الموحدين أنفسهم فقطعت أوصالهم ووقعوا فريسة لا للاستعمار وحده وانما للملوك والحكام الطغاة أيضا ، فامتهنت ذاتياتهم واصبحوا مستضعفين مستذلين وتحول الواحد منهم الى زجاج بعد أن كان صخرا والى فأر بعد أن كان صقرا .... ولكن اقبالا — رغم هذا — مازال يتمسك بأهداب الأمل فى ظهور من يقود الأمة الى هدفها المنشود بعد أن يبعث فيها الحماس والعزم على تخطى العقبات ، وانشاء علم جديد .

* * *

لقد حرص اقبال بعد هذا على أن يمضى بنا الى عالم مثالى تطبق فيه قواعد الشريعة الاسلامية بحذافيرها ويتخلق الناس فيه بخلق المصطفى عليه الصلاة والسلام ... عالم يرد الروح فى موات الأمة التى يئست من قوة الدين الحنيف ، عالم الأبدان فيه مقيدة بالقلوب تأتمر بأمرها سكانه لا يحزنهم الموت ، الحسن كله فى وجـــوههم ، الرقة كلها فى شمائلهم ، والبساطة فى ملبسهم ... هدف العلم والفن عندهم خدمة الخلق لا الكسب المادى ، وشيطان الآلة عندهم ليس غلابا على الطبيعة ... الأرض فى ذلك العالم متاحة لمن يزرعها ... ليس فيه جدود ولا جيوش ... لا يكسب أحد فيه رزقه من سفك الدمـــاء ... ليس فيـــه كاتب يحترف التشهير والكذب ... وليس فيه بطالة .

مجمل القول أن هذا العالم خال من السائل والمحروم ومن الحاكم والمحكوم ... لقد رأى اقبال هذا العالم الطاهر وعايله فى فلك المريخ .

* * *

ما ان يصل « زنده رود » فى صحبة الرومى الى « المريخ » حتى يشاهد مرصدا مقاما على ربوة عالية ، يخرج منه شيخ مسن ذو لحيـــة بيضاء كالثلج تدل نظراته على تعمقه فى العلم والحكمة .

يعرب الشيخ — حين يرى انسانا — عن دهشته من تمكن الانسان من الانعتاق من قيد الزمان والمكان ويأخذ فى الحديث معه باللغـــة الفارسية عن رحلته الى الأرض فى زمن المصطفى (ص) وعن هبوطه فى صحراء الحجاز .

ويطلب الرومى من الشيخ المريخى ، بعد أن يعرفه باقبال أن يرافقهما فى البحث عن تجليات جديدة ، فيقص الشيخ عليهما قصة « برخيا » الجد.

الأعلى لأهل المريخ ، وكيف رفض غواية الشيطان « فرزمرز » له فى الجنة فمنحه الله — ومنح نسله من بعده — هذا العالم المثالى . ويأخذهما الشيخ المريخى فى جولة لمشاهدة احدى مدن المريخ .

ويصف اقبال هذه المدينة ، فيتحدث عن سكانها وعاداتهم وأخلاقهم ويلاحظ الشيخ المريخى دهشته فيقول له : « ليس فى هذا المكان سائل أو محروم ، وليس فيه عبد ومولى أو حاكم ومحكوم » . وهنا يقول له « زنده رود » ان هذا انما يرجع الى قضاء الله وقدره ، فيأخذ الشيخ المريخى فى الافضاء اليه بحقائق دقيقة فى مسألة القدر التى كانت سببا فى خسران أهل الأرض لامكاناتهم وطاقاتهم الذاتية ، ثم يتحدث عن الفطرة وعن خدمة الخلق التى تعدل النبوة ، وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن أن الأرض — التى هى السبب فى كل مصائب البشرية — ليست ملكا لأحد وانما هى ملك لله وحده وأن الانسانية يمكنها أن تتخلص من معظم مشكلاتها اذا أدركت هذا المعنى الدقيق .

كان الحكيم المريخى يحدث « زنده رود » هـذا الحديث القيم بينما هم يتجولون فى مدينة « مرغدين » بالمريخ ، حتى وصلوا الى ميدان فى أطراف المدينة فرأوا حشدا كبيرا من أهل المريخ مجتمعا حول فتاة تدعى النبوة ، ويصف اقبال هذه الدعية بأنها بديعة التكوين ، رائعة الجمال ولكن بدون روح وحرقة ، ولاغرو فهى لا تعرف العشق ولا شرعته . ويروى الحكيم المريخى قصة هذه الدعية فيقول : ان الشيطان اختطفها من الفرنج وجعلها خبيرة بادعاء النبوة والقى بها فى المريخ ، فادعت النبوة ، وتحدثت عن العلاقات بين الرجل والمرأة فى صراحة وتبجح . وهى تدعو نساء المريخ الى كره الرجال والبعد عنهم والى عدم الزواج لأنه مشقة وعناء ولأن الامومة تذهب بجمال المرأة وبهائها ... وأنه يمكنهن بفضل الانجازات العلمية الحديثة تربية الأجنة خارج الأرحام ، وقتل الذكور من الأجنة وترك الاناث حتى : « ينقرض هذا الشيطان اللعين (الرجـــل) كما انقرضت حيوانات العصور السحيقة » .

ونلاحظ أن اقبالا يوجه — من خلال دعوة هذه الدعية — نقدا مريرا : « للأنوثة الأوربية الخالية من الحب والتى تريد أن تهدم انسجام العـــالم الجميل » (١) .

كما يبين أن اتجاه الثقافة الأوربية لن يفضى الى افساد الحياة فحسب بل الى ايقافهـا تماما ، عن طريق افراز وتصـــدير مثل هذه الدعوات الانتحارية .

وأخيرا ، يعقب الرومى على هذه الدعوة معربا عن عجبه ودهشته قائلا : « أنظر مذهب أهل البدع ، انظر ثمرة الحضارة الالحادية اللادينية » .

* * *

ولقد سبق عند من الفلاسفة الى تصور مدينة فاضلة « ترسو عليها الانسانية » كما قال « أوسكار وايلد » وتتخذها نموذجا بين الحين والحين

---

(١) شيميل : مقدمة ترجمتها الألمانية لرسالة الخلود ، ص ٤ .

منذ رسم « أفلاطون » صورة لمدينتـه الفاضلة فى كتابه « الجمهورية » حيث تصور الانسان قد وصل فيها الى مرتبة الكمال البشرى بأسمى معانيه . ثم جاء « فرنسيس بيكون »(١) فصور هذه الفكرة بصورة أكثر تقدما واحكاما فى كتابه « أطلنطس الجديدة » . وأخيرا جاء « ول ديورانت » لكى يرسم صورة هزلية للمدينة الفاضلة فى المجتمع المعاصر(٢) ، ثم يقول : « لقد تحققت المدن الفاضلة ، ولكن فى العالم الخارجى فقط » الا أن علينا اذا أردنا أن نحقق المدينة الفاضلة ألا ننظر « فى اعادة بناء الطبيعة، بل فى صياغة أنفسنا صياغة جديدة وبناء عقولنا وارادتنا حتى تصلح لسكنى عالم أفضل ، صاف صفاء معرفتنا وقوى كقوتنا . ولما كانت الطبيعة البشرية والجهل الانسانى هما السبب فى خراب كل مدينة فاضلة . فعلينا أن نسعى الى تطهير قلوبنا وعقولنا ، ومن الأرجح أن كل شىء آخر سيقبل علينا » (٣) .

واذا جاز لنا أن نعقب على هذا ، فاننا نلاحظ أن تصور امكان وجود المدينة الفاضلة انتهى فى العالم الغربى الى المبـدأ الاسلامى الواضح فى الآية الكريمة « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فقد أيقن حكماء الغرب أخيرا أن هذا العالم المثالى الذى تنشده الانسانية لن يتحقق — كما صرح ول ديورانت — الا اذا عمد الانسان الى صياغة نفسه صياغة جديدة وتصفيتها لتصلح لسكنى عالم أفضل .

وقد اتخذ اقبال من هذه النتيجة التى وصل اليها الفكر الغربى فى هذا الصدد منطلقا أخذ يؤسس عليه تصوره للمدينة الاسلامية الفاضلة ، التى تخيلها عالما روحانيا تحرر من ضغط المادة والحاحها وحقق السيطرة عليها وسخرها لخدمة الرقى الروحى ، الأمر الذى جعل أهلها لا يخشون الموت .

ويبدو لى أن الاختلاف الأساسى بين تصـور المفكرين والفلاسـفة الغربيين للمدينة الفاضلة وتصور اقبـال لها انما يرجع الى أن هـذه المدينة تعتبر من وجهة نظر المفكر الغربى حلمـا من الصعب تحقيقه . أما اقبـال فيراها حقيقة واقعة ملموسة ويصفها على أنها قائمة بالفعل ،

---

(١) فيلسوف بريطانى ، ولد ١٥٦١ وتوفى ١٦٢٦ ، أنظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤٤ ، هنرى توماس : أعلام الفلاسفة، ص ٩٩ ، ٢١١ — ٢١٢ من الترجمة العربية . وثمة مدينة فاضلة أخرى تصورها أحد المصلحين الانجليز هو توماس مور (توفى ١٥٣٥) ولكنها دون مستوى غيرها من الناحية الفلسفية والانسانية ، أنظر زكى نجيب محمود : يوتوبيا — لتوماس مور — ، مجلة تراث الانسانية المجلد الأول العدد الخامس .

(٢) وذلك فى كتابه الذى نشره فى عام ١٩٢٩ بعنوان «صروح الفلسفة»، ثم أعاد نشره فى عام ١٩٥٢ بعنوان « مباهج الفلسفة » وقد ترجمه الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى الى العربية ونشر فى سنة ١٩٥٦ ، أنظر الكتاب الثانى ص ١٧٧ — ١٩٤ .

(٣) ول ديورانت — مباهج الفلسفة — الكتاب الثانى ١٧٩ .

وأنها من فيض العمل بأحكام القرآن . قد لا تكون مدينة اقبال الفاضلة موجودة على الأرض ولكن من السهل ايجادها لأن مقوماتها فى متناول البشرية ، وليس على الانسان الا أن يتقدم ليحقق لنفسه الحياة فى هذا العالم المثالى ، اعتمادا على هدى القرآن الذى أنزل اليه .

وثمة اختلاف آخر أملاه فكر اقبال الذى يأبى الا أن يمزج بين عالم المثال وعالم الواقع ، فهو يرى على عكس المفكرين الغربيين — أن المدينة الفاضلة ليست مبرأة من الفتن ، فهو يسوق لمدينة المريخ فتاة اختطفها الشيطان من بين الفرنج وجعلها تبشر بدعوة هدامة ، لكنه عمد فى الوقت نفسه الى ابراز جوانب السوء فى هذه الدعوة بوضوح وجلاء حتى بدت كدعوة هزلية لا يمكن لكائن عاقل — فضلا عن أن يكون من سكان المدينة الفاضلة — أن يعتنق مبادئها تلك التى يعد العمل بها ضربا من الحمق والسفه .

وهناك ملاحظة أخيرة فى هذا الصدد هى أن اقبالا يجعل الشيطان هو العدو الوحيد لسكان هذه المدينة الفاضلة ، فليس ثمة عداء بين سكان المدينة بعضهم وبعض ولا بين المدينة ومدينة أخرى ، انما العدو الوحيد هو الشيطان ... وذلك عملا بقوله تعالى : « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

بقى علينا أن نذكر فى هذا التقديم أيضا أن اقبالا بدأ — فى هذا الفلك — يحيد عن الطريق الذى اتخذه عبد الكريم الجيلى فى معراجه ، فهو لا يمضى من فلك الزهرة قاصدا الشمس كما فعل الجيلى(١) وانما مضى الى المريخ مباشرة .

١ — تمهيد :

يقول اقبال : « اغلقت عينى فى بحر الزهرة لحظة واحدة فما لبثت أن انقطعت عن نفسى ، فما وجدتنى الا وأنا احمل متاعى (جسدى) متجها صوب عالم آخر ، صوب زمان ومكان آخر . قد وصلت شمسنا الى آفاقه فخلقت نهارا وليلا من نوع مختلف » .

وجريا على عادته وهو مقبل على فلك جديد ، نجد اقبالا يعقد حوارا مع نفسه عن امكانات الذات الانسانية والطاقات الخفية الهائلة المودعة فيها فيقول :

« ما أبعد الجسد والمادة عن عادات الروح ، فالروح تقيم فى الزمن ولا شأن لها بالزمن (٢) ، فهى لا تتقادم (كالمادة) بالمرور السريع المتواصل للوقت ، وهى مصدر النور فى هذا الكون ، كما أنها منبع هذا الانقلاب الدائم لليل والنهار ... فاجعل الروح رحلتك ، فهذا العالم كله ينبع منها » ، انشغل بها هى وحاول أن ترقى بها .

---

(١) الانسان الكامل ص ٦٦

(٢) « والحق أن المادة هى الروح مضافة الى الزمان والمكان » (تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ١٧٧ من الترجمة العربية) . وعن حقيقة المادة فى المفهوم العلمى الحديث القريب من هذا يتحدث العقاد فى كتابه « الله » ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

ونلاحظ هنا أن روح اقبال أشد صفاء وأكثر نقاء مما كانت عليه فى أوائل الرحلة .. فقد كان يعانى ويخوض الأهوال فى طريقه الى القمر وعطارد والزهرة ، بينما يغمض عينيه هنا (ينسى الجسد) فيحمل متاعه بسهولة كأنما فقد الوزن الكثيف للجسد صاعدا نحو المريخ ... انها عادات الروح النقية من الجسم المتحرر من الزمان والمكان .

٢ ـ صفة أهل المريخ :

تراءى لنا ـ ونحن نحلق بين الأفلاك ـ عالم آخر ، اننى أشهد الآن مرجا يحيط بمرصد مرتفع ، عدساته تكاد تقتنص الثريا ، أهو خلوة الخضر ذات القباب التسع ، أم أنه جزء من أرضنا ؟ ... لقد بحثت الآن عن حدود لاتساعه ، ثم دققت فى سعة السماء .

« قال لى الرومى وهو مرشد أهل النظر » أنظر ، هذا العالم هو المريخ ، انه عالم مثل عالمنا ، طلسم للألوان والروائح (فالمادة فيه ليس لها وجود حقيقى بل هى وجود اضافى للروح) . تجد ها هنا المدن والديار والقصور والدروب . سكانه مهرة فى فنون عديدة ـ فهم يشبهون الفرنج من هذه الناحية ـ ولكنهم يفوقوننا بمراحل فى علم النفس والبدن .

« وهم أكثر حظا منا فى التسلط على الزمان والمكان ، لأنهم اكثر مهارة فى علم الفضاء ، لقد انسابوا فى وجوده حتى عرفوا كل عال فيه ومنخفض وكل صغيرة وكبيرة فيه واذا كانت قلوب أهل الأرض مكبلة بالماء والطين (المادية) الا أن أهل المريخ جعلوا البدن فى قيد القلب ، وغلبوا الروح على المادة ، لذا تجدهم يسيطرون على الماديات ... على أن القلب ، اذا ما اتخذ من الماء والطين منزلا فانه يفعل كل ما يريد بالماء والطين اذ يكون مقيدا بقيد المادة وحدها فيجدر بالانسان أن يضع الروح فى المرتبة الأسمى لأن هذا هو وضعها الطبيعى ، فمشاعر النفس الانسانية السامية كلها تأتمر بأمر الروح ، والروح هى التى تقرر غيب الجسد وحضوره لأنها اذا بقيت فيه فهو باق حى واذا تخلت عنه غاب وأدركه الفناء ... وعيبنا الرئيسى ـ نحن أهل الأرض ـ أننا نجعل الوجود مزدوجا ، فننظر الى الروح على أنها غير مرئية والى الجسد على أنه مرئى فنفرق بين كيان واحد لا سبيل الى تجزئته ، بل لا سبيل الى النظر اليه من ناحيتين (١) ،

---

(١) وهذا أمر بعيد الأثر فى السياسة والأخلاق ـ كما يرى اقبال ـ لأن عدم الفهم الصحيح لهذه القضية التى أوضحتها تعاليم الاسلام تماما هو الذى دفع المسلمين الى الأخذ بالنظم الغربية التى تفرق بين الدين والدولة ولكن : « الحقيقة فى نظر الاسلام هى بعينها تبدو دينا اذا نظرنا اليها من ناحية وتبدو دولة اذا نظرنا اليها من ناحية أخرى ... فالاسلام حقيقة

ورغم وضوح هذه الحقيقة الجوهرية فاننا ــ معشر أهل الأرض نعتبر الروح طائرا والجسد قفصا ، أما أهل المريخ ففكرتهم فى هذا الصدد موحدة ولذا نجدهم لا يخشون من الموت .

« فاذا ما اقترب يوم الفراق (الموت) من أحد منهم تتدفق الحيوية فى كيانه ، وقبل يوم أو اثنين من موعده يعلن القوم بأنه مفارقهم » ويبين لهم أنه لاحظ ورود نذر ضعف البدن واشتداد الروح ... « ان أرواحهم ليست ربيبة للأبدان الأمر الذى يجعلها بمنأى عن التطبع بطابع الأبدان . أقول لك ما الموت ؟ هو سحب الجسد الى الداخل ... هو الفرار من العالم الى داخل النفس . اننى أعرف مدى صعوبة أقوالى على ادراكك يا زنده رود فهذا الحديث أعلى من مستوى أفكارك لأن روحك ــ كأهل الأرض ــ محكومة بالبدن ... ولكن هيا اغتنم هذه الفرصة التى لم يمنحها الله غيرك ، وتجول فى هذا الفلك بعض الوقت » .

خروج الفلكى المريخى من المرصد

١ ــ الشيخ المريخى يتحدث الفارسية بطلاقة :

يقول اقبال : هبطت بصحبة الرومى بجوار المرصد الذى يتوسط هذا المرج الجميل ، فشاهدت رجلا مسنا ذا لحية بيضاء كالثلج يخرج من المرصد ، يبدو من سمته أنه قضى السنين الطوال فى العلم والحكمة ، حاد النظر كعلماء الغرب . رداؤه يشبه رداء النساك من المسيحيين ، عمر طويلا ولكنه مازال منتصب القامة كشجرة السرو ، وجهه متألق كأتراك مرو ، خبير بمسالك كل طريق ، يتبدى من عينيه تفكير عميق .

« فلما رأى انسانا يقترب تفتح كما تتفتح الزهور (وأعرب عن دهشته) قائلا باللغة الفارسية ، لغة الطوسى والخيام (١) ، ما أشد عجبى : هل خرج صرح الطين (الانسان) أسير الكم والكيف من مقام

مفردة لا تقبل التحليل ... وهذا الأمر بعيد الأثر .. وحسبنا أن نقول ان هذا الخطأ القديم نشأ عن تفريع وحدة الانسان الى حقيقتين متمايزتين تتصلان احداهما بالأخرى على وجه ما ، ولكنهما أساسا متضادتان » (تجديد التفكير الدينى ص ١٧٧ من الترجمة العربية) .

(١) نلاحظ أن اقبالا يذكر فى هذا الموضع كلا من نصير الدين الطوسى وعمر الخيام بالذات لأن كلامنها كان عالما فلكيا مثال الشيخ المريخى فقد كان الطوسى (توفى سنة ٦٧٢ هـ) مؤسسا وعميدا لمرصد مراغه،كما كان الخيام (توفى على أرجح الأقوال فى سنة ٥٢٧ هـ) هو الذى وضع التقويم المسمى التقويم الجلالى نسبة الى السلطان السلجوقى جلال الدين ملكشاه .

تحت وفوق !! هل أودع فى التراب طاقة الانطلاق دون عون من طائرة ، فمنح الكواكب الثابتة طبيعة الكواكب السيارة ؟! .

يقول اقبال « ان نطق الشيخ المريخى متدفق كأنه الغدير ما أشد حيرتى ... هل هذا كله حلم أم خرافة ان أهل المريخ يتحدثون باللغة الفارسية الفصحى » وهنا بدا الشيخ وكأنه أدرك حيرتى ، فاستأنف كلامه قائلا : كان فى زمن المصطفى (ص) رجل من أهل المريخ الذين يتمتعون بصفاء الروح ، ففتح عينه المبصرة على عالمكم ، واستقر قلبه على زيارة مملكة الانسان (الأرض) . فبسط جناحيه فى فضاءات الكون الشاسعة ، الى أن هبط فى صحراء الحجاز ، ودون كل ما شاهد فى الشرق والمغرب فى سجل بدا أزهى وأغنى ألوانا من رياض الجنة ...

« كنت أنا ، وقد طفت بايران وأوربا وفى ممالك النيل ونهر الجنج (بالهند)وشاهدت أمريكا واليابان والصين من أجل دراسة فلزات (معادن) الأرض ... اننى أعرف صباح الأرض ومساءها حق المعرفة ، ولا عجب فقد طفت فى برها وبحرها ... وضجيج الانسان أمامنا مفتوح ككتاب ، رغم أنه لا يعلم شيئا من أمرنا » .

٢ — الرومى يعرف باقبال :

وهنا — وبعد أن انتهى الشيخ من أقواله — لاحظ الرومى أنه لم يعرفه بعد لا بنفسه ولا بزنده رود ، فقال له « أنا من الأفلاك حيث أننى أنتمى الى العالم العلوى — ولكن رفيقى ينتمى الى الكوكب الأرضى ، انه نشوان وان لم يذق من عروق الكرم ، هو رجل باسل جسور واسمه « زنده رود ». هذا الثمل (الذى تلاحظه عليه) هو ثمرة الاطلاع على آيات الكون .. اننا وقد هبطنا فى مدينتكم هذه قد تحررنا لتونا من عالم آخر ، وان كنا ما نزال فى الدنيا . فكن لنا برهة — أيها الشيخ — رفيقا فى بحثنا عن تجليات متجددة .

٣ — كيف خرج « برخيا » من الجنة ؟ :

قال الشيخ المريخى : « نحن الآن فى ضواحى مدينة «مرغدين برخيا»، وبرخيا هو اسم جدنا الأعلى ، ذات مرة ذهب « فرزمرز » الآمر بالسوء الى برخيا فى الجنة وقال له : كيف يطيب لك المقام ها هنا ، لقد ظللت دهورا تدين بالطاعة لله ، بينما هنالك عالم أفضل بكثير من عالمك هذا ، ان الجنة بالنسبة له ربيع خاطف ، ذلك العالم أسمى من العوالم التى عرفتها ... انه عالم أعلى من اللامكان ... ان الله نفسه لا علم له بهذا العالم ... حقا ، اننى لم أشهد عالما أكثر تحررا منه ، اذ لا يتدخل الله فى نظامه ، ولا كتاب ولا رسول ولا جبريل ، لا طواف فيه ولا سجود ، ولا دعاء ولا سلام ، فرد عليه « برخيا » قائلا : اغرب عنى أيها المخادع وصب صورتك فى ذلك العالم (أى عليك بسكان ذلك العالم). ولما لم ينخدع جدنا الأعلى بخدعته ، عهد الله الينا بعالم آخر ... فادخلا الملك الذى وهبه الله لنا ، وشاهدا « مرغدين » وقوانينها وشرعتها » .

« جولة فى مدينة مرغدين »

يبدأ اقبال جولة فى المدينـــة الفاضلة التى تصورها تستمد مبادئها وأحكامها من تعاليم القرآن الكريم ، الأمر الذى جعلها أشبه بالجنة ، مصداقا لقوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ... »(١) .

يقول اقبال فى وصف المدينة : ها هى ذى مرغدين(٢) وتلك مبانيها الشاهقة ، ماذا أقول عن ذلك المقام الرفيع ، كلام سكانها حلو كالعسل ، الحسن فى وجوههم ، والرقة فى شمائلهم ، والبساطة فى ملبسهم ، بالهم ليس منشغلا بحمى الكسب ، انهم يعرفون سر كيمياء الشمس ، يستخلص كل من يريد الفضة والذهب من النور ، مثلما نستخلص نحن الملح من ماء البحر . وهدف العلم والفن هو الخدمة لا غير ، فلا أحد هنا يزن الأعمال بالذهب ، ولا وجود هنا للدينار والدرهم . فليس لهذه الأصنام سبيل الى الحرم . وشيطان الآلة ليس غلابا على الطبيعة (فليس ثمة اتجاه هنا نحو التحول الى « الميكنة » الكاملة انما كل شىء يجرى فى اعتدال فطرى) ، اذ لا تجد الفضاء هنا مظلما بدخان المصانع وأهل المدينة مجتهدون كل الاجتهاد ، فشعلة المزارع منهم مضيئة على الدوام لا تنطفىء أبدا ، فهو فى مأمن من مسالب ملاك الأرض ، جهده فى زراعة الأرض خال من النزاع على الماء ، محصوله ملكه هو لا يشاركه فيــه أحد (٣) ، وليس فى المريخ شرطة أو جيوش ، ولا يكسب أحد رزقه يوما من القتل وسفك الدماء » ، وهو خال من التضليل الفكرى والصحفى والاعلامى « فليس فيه قلم يكسب بريقه من التشهير وكتابة الكذب ، كما أنه خال من البطالة ومذلة السؤال فلا تجد فى الأسواق جلبة المتبطلين ولا تؤذى الآذان أصوات المتسولين » .

ولعل من الواضح هنا أن المدينة خالية من عيوب العالم الاسلامى المتخلف ، ومن عيوب الحضارة الأوربية وما تحمله بين طياتها من أضرار على البشرية .

ولا ريب فى أن اقبالا يريد هنا أن يبين للمسلمين أن قيام حكومة اسلامية رشيدة تنفذ الشريعة وتعمل بأحكامها من شأنه أن يجعلهم يحيون حياة تعدل الحياة فى الفردوس .

---

(١) سورة الأعراف : ٩٦ .

(٢) اسم مدينة فى المريخ ، ويبدو لى أنها نسبة الى الرغد والغدق والبركات التى أشار اليها القرآن الكريم لمن يلزم طريق الحق ، قال تعالى : « وأضرب لهم مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان .. » (سورة النحل : ١١٢) .

(٣) والشطر الأول مستمد من روح الآية الكريمة : « لأسقيناهم ماء غدقا .. » (الجن : ١٦) .

قال الحكيم المريخى لزنده رود عندما لاحظ دهشته من وجود مثل هـذا العـالم المثـالى : ان كل فرد منا يتمتع بالاستقلال الاقتصادى والسياسى ، « فليس فى هذا المكان سائل أو محروم أو ليس فيه عبد ومولى وحاكم ومحكوم » ، فالكل اخوة على سواء .

وهنا نجد اقبالا يقول — وهو يعبر عما يعرو الفكر الاسلامى ، ازاء هذه المشاكل ، من التردى فى سوء الفهم للقدر — : « السائل والمحروم بقضاء الله وقدره ، الحاكم والمحكوم بقضاء الله وقدره .. وليس من خالق للقدر سوى لله ، ولا ينفع تدبير للخلاص من القدر » فلا ينجى حذر من قدر .. انها حكمة متداولة بيننا تسربت الى قلوبنا لاننا نوردها على السنتنا دائما ، ونحن نؤمن بأنه لا مخرج من دائرة القدر .

ويجدر بنا قبل أن نتعرف على آراء الحكيم المريخى فى هذا الصدد أن نلقى نظرة خاطفة على الآراء التى ساقها اقبال فى هذه المسألة الخطيرة التى أثرت فى العالم الاسلامى أيما تأثير .

والواقع أن اقبـالا يؤمن بالقدر ، شأنه فى ذلك جميع المسلمين ، ويعتبره : « حياة وقوة لاحد لها ولا عائق تقدر الانسان على اقامة الصلاة آمنا مطمئنا والرصاص يتساقط من حوله »(١) ، والقدر عنده مستمد من الايمان ، وهذا الايمان : « ليس مجرد اعتقاد سلبى فى حكم أو أحكام من نوع معين ، وانما هو طمأنينة حية متولدة عن تجربة نادرة لا يسمو اليها والى ما تتضمنه من القدر الأسمى الا الشخصيات القوية » (٢) .

ويتساءل اقبال فى « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام »(٣) : أليس صحيحا أن نوعا مخزيا من القول بالقدر قد شاع فى العالم الاسلامى خلال قرون عدة ؟ . ويؤكد أن هذا صحيحا ، ويرد بعضه الى التفكير الفلسفى من ناحية ، وبعضه الى مقتضيات السياسة ، وبعضه الى ما لحق القوة الحيوية التى كان الاسلام قد بعثها فى أتباعه أول الأمر من ضعف تدريجى ، ويبين أن تفسير الأمور على أنها قضاء من الله كان له تأثير بالغ فى الشعوب الاسلامية .

وقد تعرض اقبال لهذه المسألة فى موضع آخر منكتابه(٤) المذكور وتناولها من الناحية الفلسفية الخالصة ويبين أن القدر ليس قضاء غاشما يؤثر فى الأشياء من خارج ، لكنه القوة الكامنة التى تحقق وجود الشىء ، وهى قوة متجددة تضاد التكرار .

على أننا اذا خرجنا من مجال الفلسفة الى مجال الواقع — وهو هدف نظريات اقبال الفلسفية — نجد فى مقدورنا أن نلاحظ أن نظرة اقبال الى مسألة « القدر » ترتبط اساسا بفكرته عن « مبدأ الحركة والعمل » من ناحية ، ونظريته عن « الذاتية » من ناحية أخرى .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(٢) أيضا ، ص ١٢٦ .
(٣) أنظر ١٢٧ وما بعدها .
(٤) ص ٦٠ وما بعدها .

فاقبال يرى أن الذات الانسانية تتمتع بقوة تستطيع بها أن تغير قدرها ، فقد أودع الله فيها قوى فطرية تنزع الى الحركة والى التحليق ، وهـذه القوى الفطرية الكامنة فى نفس الانسـان لا تضيء أو تشـتعل الا « بالعمل » و « الجهاد » . والجهاد الذى أمرنا الله به لا يعنى أن نحارب قضاء الله وقدره ، بل نعمل على تغيير هذا القضاء(١) .

ونظرية اقبال فى القدر تشبه الى حد كبير تلك الكلمة التى قالها عمر — رضى الله عنه — حين نهى أصحابه من الدخول الى قرية أصيبت بالوباء ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدر الله ؟ قال له عمر: « لو غيرك قالها ياأبا عبيدة ؟ ! نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ، أرأيت لو كانت لك ابل هبطت واديا له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله » ؟؟!

وقد عرض اقبـال فكرته عن القـدر لأول مرة فى أسرار خودى ، فقال :

ان رأى النفس زجاجـا حجـر	فهو فى الحق ، زجـاج يكسر
واذا خـارت قـواه السـائر	قطـع السبل عليـه الفاجر
كم ترى نفسـك طينا قد حقر	شعلة الطـور من الطين أثر
مـا حيـاة دون عزم محكم ؟	ما غنـاء العيش مثـل النعم ؟
زلزل العـالم وافعـل ما ترى	ان حبتك الذات عزما مسعرا(٣)

فلا بد للذات الانسانية من أن تنشط وتجد من أجل تحقيق التغيير الذى تنشده فى قدرها ، لكن الانسان طالما اعتقد أنه مجبر جبرا خالصا فانه سيقعد عن بذل أى جهد فى سبيل تغيير قدره ، وسيظل أسيرا لرأيه الخاطىء طيلة حياته .

وهذه الفقرة واضحة هنا — فى فلك المريخ — الى حد بعيد ، وسوف يعود اقبال الى تناول مسألة القدر فى فلك المشترى خلال محاوراته مع « الحلاج » .

الحكيم المريخى

يرد الحكيم المريخى على « زنده رود » الذى قال له « لا يغنى حذر من قدر » قائلا :

١ — أهذا دين ، أم حبة أفيون ؟

انك مخطىء تماما فى فهم القدر ، ان عليك لا أن ترضى فحسب بقدر الله، بل تطلب المزيد منه . « فادع الله أن يحكم بقدر آخر اذا دمى قلبك بفعل

---

(١) أنظر عبد الرحمن طارق : جهان اقبال ص ٤٧٢ .

(٢) أنظر على الطنطاوى : اخبـار عمر وأخبـار عبد الله بن عمر ص ٩٦ .

(٣) من ترجمة عزام ، انظر ديـوان الأسرار والرموز ، ص ٤٧ ،

قدر واحد ، فانك اذا طلبت قدرا جديدا ، كان ذلك أمرا مشروعا تماما ، اذ لا نهاية لأقدار الله » ..

حقا لقــد فات أهل الأرض الشيء الكثير لأنهم لم يعرفوا المعنى الدقيق للقدر ، فأضاعوا بذلك امكاناتهم الذاتية (نقود الذات) التى يمكنهم بها أن يتعاملوا مع الكون من ناحية ، ومع الخالق من ناحية أخرى ، فالقدر لا يعنى أن يصبح الانسان مجبرا جبرا خالصا شأنه فى ذلك شأن الجماد والنبات ، فهذه السلبية ليست من طبيعة الفطرة الانسانية .

أقول لك سر القدر ، « ان هذا السر الدقيق تنطوى عليه جملة واحدة : اذا غيرت نفسك سيتغير هو الآخر » (١)، فلقد قال تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ويشرع الحكيم المريخى بعد ذلك فى ضرب بضعة أمثلة لتوضيح هذه الدقيقة العجيبة ، فيقول : « كن ترابا يهبك القدر الرياح ، كن حجرا يقذف بك الزجاج ، أأنت قطرة من الندى ؟ السقوط قدرك ، أأنت محيط من المحيطات ، الثبات قدرك » .

« انك تشيد فى كل لحظة « لاتا ومناة » جديدتين ، أتنشد الثبات من الأصنام يامن لاثبات له ؟ » (٢) انك انما تقيم أمثال هذه الأصنام الوهمية فى عقلك لأنك مخطىء فى فهم القدر ، وهذا من شأنه أن يبث الاضطراب فى حياتك ، وتسيطر السلبية المطلقة على تصرفاتك ، ويدب الوهن فى وجدانك ، وطالما ظللت غافلا عن طاقاتك الذاتية ، وفقدت ايمانك بنفسك فستبقى سجين أفكارك الخاطئة هذه .

يستطرد الحكيم المريخى قائلا :

ربما القى فى روعك أن القدر حكم على بعض الناس أن يكدحوا طيلة حياتهم دون أن يصلوا فى النهاية الى تكوين الثروات ، وأنه حكم بأن يحصل البعض الآخر على كنوز وثروات طائلة دون جهد يذكر ... اذا كانت هذه عقيدتك أيها الغافل ، فانها تؤدى بنا الى القول بأن المحتاج سيظل أبداً أكثر احتياجا ، ولن يصبح أى محتاج ثريا أو غنيا .

---

(١) ويقول اقبال فى مقدمته النثرية لـ « بيام مشرق » « على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدل فى أعماقها ، وأن عالمـا جديدا لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضمائر الناس قبلا ، هذا قانون الفطرة الثابت الذى بينه القرآن فى كلمات يسيرة وبليغة « : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . وقد اجتهدت فى كتبى الفارسية أن أبين للناس صدقه » (ص ٥٩ من الترجمة العربية) .

(٢) وقد رأى فرنسيس بيكون : « أن الأصنام عيوب فى تركيب العقل تجعلنا نخطىء فهم الحقيقة » . (أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤٧) .

« فتبا لعقيدة تظل بك حتى تقام ، وما تزال تبقيك فى نوم عميق ، أهذا دين أم سحر وخرافة ، أهذا دين أم حبة أفيون »(١) ؟

ونلاحظ ان اقبالا يرى ان الدين الذى يبعد بالانسان عن العمل ليس دينا بل هو مجرد مخدر تسكن به طاقات الانسان وحيويته الذاتية الدافقة. وهو هنا يدعو المسلمين الى الحركة والى الجد والجهد ، يدعوهم الى صنع أقدارهم ومصائرهم بأيديهم هم ، ويبين لهم أن الفهم الصحيح لمسألة القدر ، والعمل وفق هذا الفهم ، من شأنه وحده أن يرد على الاتهام الماركسى للاسلام — ولغيره من الأديان — بأن الدين افيون الشعوب ، ولا غرو نفلسفة اقبال كلها دعوة الى العمل والى الجهاد .

٢ — الحياة منجم جواهر :

يقول الحكيم المريخى مخاطبا زنده رود : « أتدرى مم يأتى الطبع الدراك ؟ اتدرى ما سبب وجود طبع فى مخزنك الترابى ؟ أتدرى مم تأتى قوة الفكر لدى الحكماء ، ومم تأتى طاقة الذكر لدى كليمى الله ؟ أتدرى من أين هذا القلب وارداته ؟ ومن أين نئونه ومعجزاته ؟ الديك حرارة القول ؟ ..لست أنت سببها ، الديك جذوة الفعل ؟ لست انت سببها . ان هذا كله فيض لربيع الفطرة ، والفطرة مستمدة من خالق الفطرة ... ما الحياة ؟ هى منجم جواهر ، أنت الأمين عليه وصاحبه آخر ، .. الطبع الوضاء تمجيد لرجل الحق ، فهدفه خدمة خلق الله » فالمؤمن انما يستعمل كل طاقاته وامكاناته فى خدمة الخلق لا طمعا فى مدح أو اطراء ، وانما لوجه الله تعالى ، ومن ثم كانت خدمة الخلق على هذا النحو « تنهج طريق النبوة ، لا طريق التجارة ... لانك اذا انتظرت أجرا على خدمتك للخلق كانت وكأنها تجارة مادية » .

ومعقد الطرافة هنا فى الحل المريخى لمشكلة « افعال العباد والقدر » يكمن فى أن الفطرة الانسانية مستودع قوى هائلة وطاقات جبارة منحها الله للانسان ، يحركها فيه اذا عمد هو الى ذلك ، لا سيما اذا استعملها فى خدمة خلق الله .

٣ — الأرض ملك الله :

يعود اقبال هنا ليتحدث من جديد عن هذا المبدأ الاسلامى الذى تحدث عنه فى فلك عطارد وخلال عرضه لمحكمات العالم القرآنى ، غير انه لا يتنـــاول هذا المبدأ كنظرية سياسية كما فعل فى عطارد ، وانمـــا يتناوله كعقيدة ينبغى على المرء أن يعتنقها ويسلم بها ، فهذا من شأنه أن يحل الكثير من مشكلات حياته .

ويبدو أن الأرض فى المدينة الفاضلة التى شاهدها اقبال فى رحلته السماوية ليست ملكا لأحد سوى الله ، ولذا كان الزارع فيها فى مأمن

---

(١) وقــد استقى اقبال روح الشطر الأخير من الجملة الماركسية المشهورة : « الدين أفيون الشعوب » ، ولعله يقصد الى الرد عليها لانه يورد ذلك كله تمهيدا لبيان المفهوم الصحيح للاسلام فى شأن القدر والثروة .

من مسالب ملاك الأرض ، فالأرض اذن لزارعها لا يشاركه فى انتاجها احد ، وهذا هو الحل الذى يقدمه اقبال للتخلص من كل الفتن والمفاسد التى يعانى منها الفرد ويعانى منها البشر جميعا .

وقد درس الأستاذ يوسف سليم جشتى فى « شرح جاويد نامه » هذه الفكرة عند اقبال بكثير من الاستفاضة ، وردها الى القرآن والحديث الشريف ، والى النهج الذى سار عليه الخلفاء الراشدون والسلف الصالح . وتتبعها فى أشعار اقبال وانتهى الى أن اقبالا قال بأن الأرض فى بلاد الاسلام تتاح لمن يزرعها من المسلمين ، وذلك عملا بقول الرسول (ص) « من كانت له أرض فليزرعها أو فليزرعها أخاه ولا يكاريها بثلث ولا بربع »(٢) .

يقول الحكيم المريخى : هذا الريح والتراب والسحاب وهذه الزروع والمروج ، والوديان والقصور والدروب والحجارة ، والطوب . . يا من تقول أن هذه الأشياء التى تعد متاعا لنا هى ملك لنا ، انك غافل حقا ، فهذا كله ملك لله ، فان كنت تعتبر أن أرض الحق أرضك ، فما تفسير آية : لا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها (٣) ، لقد جاء الاسلام فحرر الناس من ربقة القيصرية والكسروية والملكية والتحكم فى العباد ، وأخرج الناس من عبوديتهم للملوك وجعلهم عبادا لله وحده ، والملوك — بنص القرآن الكريم — « اذا دخلوا قرية أفسدوها » ... فلا تدع — أيها الانسان — للملكية وشرورها سبيلا الى حياتك ، بعد أن قوض الاسلام أركان النظم الملكية منذ عهد بعيد ، والسبب الرئيسى فى الشرور التى يعانى منها بنو الانسان يرجع الى ظنهم بأن أرض الله هى أرضهم هم ، الأمر الذى جعل الأرض — التى جعلها الله متاعا للناس أجمعين — مصدر نزاع بين طلاب الدنيا .

« لقد أسلم بنو آدم قلوبهم لابليس مع اننى لم أر من فعل ابليس سوى الفساد » فقد ادعى ابليس ما ليس له ، ورفض الطاعة ، وتأله شأنه شأن النظم المادية الملكية ... ولا يجب أن يغتصب المرء أمانة الله لاستعماله الخاص ، فنحن أمناء على مصادر الثروة التى أودعنا الله اياها ، ولا يجدر بنا أن نقبض عليها لأنفسنا .. طوبى لمن يرد ملك الله لله ويحيله لعباده .

« أيها الانسان ، انك تقبض على شىء ليس ملكالك ، ما اشد حزنى من عمل لا يليق بك » ، فهذه خيانة والخيانة ليست من شيمتك فأنت خليفة الله ، ومن الظلم أن يخون العبد الأمانة التى أودعها اياه مولاه فيدعيها لنفسه .

---

(١) أنظر شرح جاويد نامه ص ٦٥٤ — ٦٩٨
(٢) أنظر سنن أبى داود ص ٣٥٢
(٣) قال تعالى : « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها » (الأعراف : ٨٥) .

« فرد ملك الله لله ، وعندئذ ســوف تحل عقدة محنتك ». وســوف تتخلص من كل الفتن والمفاسـد التى تعانى منها ويعـانى منها البشر جميعا .

وهنا يصل الحكيم المريخى الى خلاصة هذا المبحث فيقول :

« ما سبب الفقر والمسكنة فى الدنيـا ؟ أن تقـول ان مـا للمولى ملك لنـا » ، ان السبب يرجع أساسا الى أن الاقطاعيين وملاك الأراضى يمسكون بكل ما أوتوا من قوة على مال الله (أرض الله) ويشددون عليها قبضتهم ، ويعتبرون ملك الله ملكا لهم .

والآن ، وبعد ان استفاض الحكيم المريخى فى الحديث عن الجانب الاقتصادى لمسألة « الأرض لله » ، ينتقل الى تناول الجانب الروحى فيها فيقول : « ان العبد الذى لم يقفز خارجا من المـاء والطين ، قـد كسر زجاجه بحجارته » ، فالانسان الذى يصبح فريسة للمادة هو فى الواقع عدو لنفسه ، لأنه يحطم الجزء الغالى فيه ، وهو ارادته ، بأردأ ما فيه وهو ماديته .

« انك ـــ ايها الانسان ـــ لا تكاد تميز بين الوسيلة والهدف مع أن قيمة كل شىء تقـاس بمجرد النظر » ، فكل هذه الأشياء التى تراهـا حولك انما خلقها الله للانسان ، وأتاحها له دون مقابل ، ولكن العبرة فى النهاية بنظرة الانسان اليها ، « فطالمـا كان متاعك جوهر فهو جوهر ، والا فانه حجر اقل قيمة من البرنز » .

« فانظر الى الدنيا بطريقة أخرى ، وعندئذ ستتغير هى .. ستتغير الأرض والسماء » .

أحوال فتـاة المريخ التى ادعت النبوة

بعد أن انتهى اقبال من معالجة مسألة الثروة أو الملكية ، أخذ فى معالجة مشكلة المرأة ، لكنه يبدأ بعرض التوجيه الأوربى الحديث للمرأة المعـاصرة فى سخرية لاذعة ، وان كانت هذه السخرية تجعلنا ندرك فى عمق أبعاد دعوات « تحرير المرأة » التى أصبحت طابع العصر الحديث .

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن اقبـالا يريد أن يوضح هنا أن المدينـة الفاضلة ليست بمنـأى عن الفتن والدعوات الهدامـة بل انها أشـد تعرضـا لهذه الفتن وأكثر اغواء لأتبـاع الشيطان ، فلن تتوقف هذه الفتن حتى فى المدن التى تلتزم الاسلام والشريعة .

يقول اقبال : تحدث الحكيم المريخى الينا بهذا الحديث الطويل بينما نحن نسير فى مدينة « مرغدين » ، « فمررنا بآلاف الدروب والقصور » الى ان وصلنا الى ميدان فسيح فى أطراف المدينة ، حيث شاهدنا حشـدا كبيرا من الرجال والنساء قـد التفوا حول امرأة بديعـة القوام وكأنها شجرة من أشجار الرمان ، وجهها متألق ولكن بغير نور الروح تبدو وكأنها

تتحدث فى صعوبة كما لو كانت معانيها ثقيلة للغاية على بيـــانها (١) ، كلامها يفتقر الى الحرقة ، وعيونها تفتقر الى الدموع ، فليس بينها وبين الفطرة الانســـانية لغـــة مشـــتركة ، ولا عجب فهى بمنـــأى عن لذة الشوق وسعادته ، صدرها محروم من فورة الشباب وحماسه ، مرآتها عميـــاء غير قـــابلة لعكس الصـــور الحقيقيـــة ، لا علم لها بالعشـــق ولا بشرعة العشق ، فهى كالعصفور الذى زهد فيه صقر العشق ونبذه .

قال لنا الحكيم المريخى ، وهو عالم بدقائق الحقائق : « هذه الفتاة ليست من اهل المريخ ، واذا أردتما أن أتحدث معكما بكل بساطة وصراحة وبلا مواربة (فاننى أقول) : ان « فرزمرز » اختطفها من الفرنج ، وجعلها خبيرة بحرفة النبوة ، ثم القى بها فى المريخ ، فقالت : « لقد هبطت من السماء ، ودعوتى هى دعوة آخر الزمان » ، وهى تحاضر عن حـــالة الرجل والمرأة وتتحدث بمزيد من الصراحة عن أسرار البدن » والعلاقات الجنسية ، ... والآن دعونى أسرد لكما باللغة الفارسية ملامح دعـــوة هذه الدعية ، وهى التى تظن أنها هى قدر الحياة فى نهاية هذا الزمان .

نصح نبيـــة المريخ

تخاطب هذه المرأة التى ادعت النبوة نساء المريخ ، وتقول :

١ ـــ كونى حرة دون زوج :

« أيتها النســـاء ! ، أيتها الأمهات ! ، أيتها الأخوات ، الى متى نعيش كالحبيبات ؟ من الظلم أن تكونى حبيبة فى الدنيا فالمحبـــة تحكم وحرمان ، فى طرتينا ندير المشط ونظن الرجال فريسة لنا ، ولكن الرجل صياد يلبس مسوح الفريسة ، يدور حولك كى يقتنصك ، أن تماوته مكر وخداع ، وتظاهره بالألم والشوق مكر وخداع .

« فلو جعلك ذلك الكافر كعبة له ، لابتلاك بالعناء والحزن . ان رفقتـــه هى عذاب الحيـــاة ... وصله سم وفراقـــه سكر . أنه أفعى تتلوى فلوذى بالفرار من طياته ، ولا تدعى لسمه سبيلا الى دمك .

« ان الأمهات صفر الوجوه من الأمومة .. يا لها من ســـعادة أن تكونى حرة دون زوج » .

٢ ـــ هيـــا ، واعلنيها حربا على الفطرة :

« الوحى الالهى يأتينى تباعا ، فيؤجج لدى لذة الايمان ، جاء الوقت الذى يمكن فيه باعجاز العلم رؤية الجنين فى بدن الأم ، ان بوسعك أن تجمعى المحصول من حقل الحيـــاة وفق مرادك وهواك ، بنين كانوا أم بنـــاتا . وان لم يأت الجنين وفق هوانا كان قتله ـــ دون رحمـــة ـــ عين الدين » .

---

(١) من قوله تعالى : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبـــين » الزخرف : ١٨

« على ان عصورا أخرى ستلى هذا العصر حيث يكشف النقاب عن المزيد من الأسرار ، وسيتربى الجنين ويتغذى بطريقة أخرى ، فيدرك السحر دون ليل الأرحام (١) .

« وفى النهاية ، سينقرض هذا الشيطان اللعين (الرجل) كما انقرضت حيوانات العصور السحيقة ، وستنمو الشقائق — سليمة طاهرة الذيل — من الأرض بغير حاجة الى الندى ، وستبزغ أسرار الحياة وفق مراد هذه الشقائق (النساء) وستعزف أوتار الحياة دونما عازف » .

« مت أيها الصدف ظامئا فى قاع البحر ، ولا تتناول شيئا من قطرات نيسان »(٢) .

ثم يورد اقبال على لسان نبية المريخ نداء بمحاربة الفطرة وهذا النداء هو الذى تتردد اصداؤه فى جنبات العالم المعاصر داخل الأوساط النسائية وخارجها ، ويقوم أساسا على نوع من الغلو والمكابرة لا يمكن لفطرة المرأة أن تحتملها ، كما قرر ذلك علماء الغرب أنفسهم فى العصر الحديث .

تقول نبية المريخ : « قومى أيتها المرأة وشنى حربا على الفطرة ، فربما تحررت الأمة بفضل حربك هذه .

« ان وحدة النساء لاتتحقق الا بالفرار من ربط جسدين،فكونى حارسة على نفسك ولا ترضخى للرجال » .

تعقيب للرومى : أنظر مذهب عصر البدع :

وبعد أن ينتهى الحكيم المريخى من ترجمة أقوال نبية المريخ الى الفارسية لكى يتفهمها الرومى واقبال ، يعقب الرومى على دعوتها قائلا :

« أنظر مذهب عصر البدع • أنظر ناتج الحضارة الملحدة اللادينية » .

فالدين هو الفطرة ، ومخالفة هذه الفطرة فساد ، بل انتحار .

ويقدم الرومى العشق والمحبة الالهية علاجا ناجعا من هذه التى يأمر بها الشيطان يقول :

« العشق للحياة شرع وقانون ، والدين هو أساس الحضارة . . . الدين هو العشق » .

« وللعشق جانبان ، ظاهر وباطن ، ظاهره محرق نارى ، وباطنه نور رب العالمين » .

فالعاشق مضطرب على الدوام لا يقر له قرار فهو يتلظى بنار الفراق ، وهذا هو الجانب الظاهرى . أما الجانب الباطنى فهو كله خلق وابداع وابتكار ، هو النور الذى يعم هذا الكون كله .

---

(١) وثمة محاولات تجرى الآن فى الغرب لتربية الأجنة فى أنابيب الاختبار.

(٢) ونيسان شهر كثير المطر ، يقال ان بعض قطراته تنزل الى قاع البحر دون أن تمتزج بمائه فتهبط فى جوف صدفة فتتحول بمرور الزمن الى درة ، والبيت زاخر بالكنايات العجيبة الرائعة كما هو واضح .

« والعلوم والفنون مستمدة من حرارة العشق وضيائه الداخلى ، انها بمثابة دافع خفى كامن فى الروح الانسانية تدعو المرء الى الابداع والاختراع . . حقا ان العلم والفن ينبعان من الجنون الحاذق للعشق » (١) .

يقول الرومى : « على أن الدين لا ينضج حقا دون آداب العشق ، فخذ الدين من أرباب العشق » .

فما ان يبتعد الانسان عن شرعة العشق ويتجنب مسلكه حتى يبدأ صرح عقائده الدينية فى الانهيار ويعتريها النقصان على الدوام ، لأن الدين يصبح رسوما خاوية المضمون اذا افرغ من حرقة القلب . ومن ثم فان الدين لا يتأتى بمطالعة الكتب فحسب ، وانما لابد من قدوة ، وقدوة الدين هم أرباب العشق .

يقول اقبال فى موضع آخر من « رسالة الخلود » :

ـ لا تبحث عن الدين فى الكتب أيها الغافل ، العلم والحكمة من الكتب، أما الدين فمن النظر .

ويقول لابنه جاويد فى آخر المنظومة :

ـ انك تتعلم مائة كتاب لأهل الفن والتخصص ، خير لك ذلك الدرس الذى تتلقاه من النظر .

---

(١) وربما كان يعنى « بالجنون الحاذق » العبقرية التى تتجلى فى العلماء والفنانين (م)

الفصل الخامس

فـــلك المشترى

الأرواح الجليلة للحلاج وغالب وقرة العين الطاهرة وقد رغبت عن البقاء فى الجنة وفضلت أن تجول الى الأبد

على هذا الفلك (١) يلتقى اقبال بأرواح ثلاثة ممن اتهموا فى دينهم واعتبرهم معاصروهم من الزنادقة ، وهم : حسين بن منصور الحلاج (٢)، والشاعر الهندى أسد الله غالب (٣) وشهيدة المذهب البابى فى ايران قرة العين الطاهرة (٤) .

والواقـــع اننا مقبلون على « أجمـــل وأروع مشـــهد فى رســـالة الخلود » (٥) ، من الناحية الفكرية ، فهذه الأرواح « الجليلة » التى يلتقى بها اقبال على فلك المشترى تثير معه قضايا غاية فى الأهمية تتعلق بالوجود والعدم ، وبالقدر ، وبالحقيقة المحمدية ، وابليس .

---

(١) عاد اقبال من جديد يسلك نفس المسار الذى اتبعه « عبد الكريم الجيلى » فى مراحل عروجه ، فهو يصل الى المشترى بعد المريخ ، ويقول ان أرض المشترى « نابعة من نور الهمة وكوكبه مظهر للديمومة والخلود » . (أنظر عبد الكريم الجيلى : الانسان الكامل ، ص ٦٧).

(٢) هو أبو المغيث حسين بن منصور الحلاج ، ولد بالقرب من البيضاء باقليم فارس حوالى سنة ٢٤٤ هـ ، تصوف فى شبابه وصحب عددا من مشاهير صوفيه عصره مثل سهل التسترى وعمر المكى والجنيد البغدادى ، وساح فى بلاد الشرق الاســلامى حتى وصل الهند ، وحج فى سنة ٢٩٧ ثم توجه الى بغداد وقال قولته المشهور :« أنا الحق » التى البت عليه العلماء والصوفية والمتكلمين ، فقبض عليه الخليفة سنة ٣٠١ وأفتى العلماء بقتله فصلب وأحرق جثمانه فى سنة ٣٠٩ .

(٣) هو ميرزا أسد الله خان ، ولد فى أكبر آباد فى سنة ١٧٩٧ لكنـــه قضى طفولته وحياته فى دهلى وفيها توفى سنة ١٨٦٩ . نظم الشعر بالفارسية والأردية ونال شهرة عظيمة فى أوائل القرن العشرين ولكن هذه الشهرة ترجع الى ديوانه الأردى الا أنه يرى أن أشعاره الفارسية أفضل بكثير من الأردية ، أنظر المقال الذى كتبه بالانجليزية الدكتور خليفة عبد الحكيم بعنوان « عبقرية غالب » ونشره فى مجلة اقبال ريفيو ، أكتوبر ١٩٦٩ ، ص ١٧ — ٢٣ .

(٤) ولدت فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى بقزوين ، وتم اعدامها فى سنة ١٨٥٢ م ، وسنتعرض بعد قليل لترجمة حياتها .

(٥) آنا مارى شيميل : مقدمة ترجمتها الألمانية لجاويد نامه ، ص ٤ .

على اننا اذا غضضنا الطرف عن الاغنية الشجية التى ترنمت بها الطاهرة ، وعن الغزل الرائع الذى اقتبسه اقبال من اشعار غالب الفارسية ، وعن بعض الأشعار الأخرى التى أوردها اقبال على لسان غالب ، فانه يمكننا أن نعتبر أن اقبالا جعل الحديث كله فى هذا الفلك للحلاج ، وهو الرجل الذى كان اقبال قد حط من شأنه قبل ٢٥ عاما فى رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ميونيخ بعنوان « تطور الميتافيزيقا فى ايران » (١٩٠٨) .

وترى « آنا مارى شيميل » فى مقالها « منصور الحلاج فى رأى اقبال » (١) أن آراء الحلاج وأفكاره تعرضت فى القرن السابع الهجرى للتحوير والتبديل لكى تتطابق مع نظرية وحدة الوجود عند ابن عربى ، و هى النظرية التى لم تكن موضع قبول من اقبال الذى أحس بوضوح كبير بالنتائج الخطيرة التى تنطوى عليها هذه الفلسفة الوجودية ، واعتبرها مجافية للروح الالهامية للاسلام ، الأمر الذى دعاه الى القول فى رسالته المذكورة : « ومع ظهور حسين بن منصور الحلاج تزايد وقع مفهوم وحدة الوجود أكثر من ذى قبل ، لقد صاح حسين على مذهب الفيدانتا الهندى « أنا الله » وهى بلغة الفيدانتا : أهم برهما أسمى » (٢) .

غير أن اقبالا بدأ يغير فكرته عن الحلاج بعد أن اطلع على مجموعة النصوص الحلاجية نفسها فى الكتب التى نشرها والدراسات التى أجراها المستشرق الفرنسى ماسينيون ، ومن أهمها « كتاب الطواسين » الذى نشر سنة ١٩١٤ .

ولقد تأكد اطلاع اقبال على هذا الكتاب من رسالة بعث بها لمولانا « اسلم جيراجبورى » فى ١٧ مارس ١٩١٩ (٣) وقال فيها : « ان عقائد المنصور الأساسية قد اتضحت لى » ولكنه ظل مع ذلك يتردد فى الاعراب عن تقديره لهذا الشهيد الشهير .

وفى سنة ١٩٢٣ نشر « نيكلسون » كتابه عن « الشخصية فى التصوف » (٤) وانتهى فيه الى القول بأن الحلاج لم يكن يدين بمذهب وحدة الوجود .

( ) نشر هذا المقال لأول مرة على دفعتين فى عددين متواليين من مجلة « ماه نو » الباكستانية ، أبريل مايو ١٩٥٨ ، واعادت المجلة نشره باللغة الأردية فى عددها الممتاز الذى أصدرته عن « اقبال » فى ابريل ١٩٧٠ بعنوان : «منصور حلاج اقبال كى نظر مين» ص ١٦٢ — ١٧٦ .

(٢) Iqbal, The Development of Metaphysics in persia. p89

(٣) نشر « بشير أحمد درا » هذه الرسالة ضمن مقاله : حسين بن منصور حلاج اور اقبال ، «ماه نو» اقبال نمبر ١٩٧٠ ص ١٦٩ — ١٧٦ .

(٤) ترجم المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى هذا الكتاب ونشره ضمن كتابه : « فى التصوف الاسلامى وتاريخه — طائفة من الدراسات التى قام بها رينولد آلن نيكولسون » . القاهرة ١٩٥٦ ، أنظر ص ١٠٨ وما بعدها .

وكان « ماسينيون » قد تمكن فى دراسته التى نشرها عن الحلاج فى سنة ١٩٢٢ (١) من البرهنة على ان الحلاج يؤمن فى قوله « أنا الحق » بأن الله منزه ، وأنه متعال على الطبيعة ، لكنه مع ذلك يؤمن بأن الله يستقر فى قلب العبد المؤمن — بفضله — حين يزكى نفسه ويصفها وينزهها، وعندئذ يتخلق بأخلاق الله ويكون « هو هو » (٢)

ويرى «بشير أحمد درا » (٣) أن التطور فى نظرة اقبال الى الحلاج بدا واضحا فى ديوانه « زبور عجم » حيث يقول : « أنا الحق » ليس سوى مقام الكبرياء ، سواء كان الصليب جزاؤه أم لا . لو قاله فرد لاستحق اللوم والانكار ، لو قالته أمة لما كان فى قولها لوم وانكار(٤) .

ويمكننا أن نلمس مزيدا من التطور فى فكرة اقبال عن الحلاج فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » حيث يقول :

« وانفردت العبادة الصوفية بمحاولة فهمها لمعنى وحدة رياضة الباطن التى يصرح القرآن بأنها مصدر من مصادر المعرفة الثلاثة : أما المصدران الآخران فهما التاريخ والطبيعة .

« وبلغ تطور هذه الرياضة ذروته فى تاريخ الاسلام فى عبارة الحلاج المشهورة « أنا الحق » وفسر الذين عاصروا الحلاج والذين جاءوا من بعده عبارته هذه على أنها تتضمن الشرك ، ولكن مجموعة نصوص الحلاج التى جمعها ونشرها المستشرق الفرنسى ماسينيون لاتدع مجالا للشك فى أن الولى الشهيد لم يكن يقصد من عبارته أن ينكر على الله صفة التنزيه . والتفسير الصحيح لتجربته اذن ليس هو أن القطرة تنزلق فى البحر (٥) ولكنه ادراك لحقيقة النفس الانسانية وتأكيد جرىء لدوامها فى شخصية أعمق بعبارة قوية باقية على الدهر .

« وتبدو عبارة الحلاج وكأنها كانت تحديا للمتكلمين » (٦) اه.

غير أن تطور فكرة اقبال عن الحلاج قد بلغ ذروته فى « رسالة الخلود » حيث نرى اقبالا يعرب عن نقمته على معاصرى الحلاج الذين اتهموه بالشرك وأعدموه ، ويصفهم بأنهم قصار النظر فيقول : « قصار النظر أثاروا الفتن ، وعلقوا عبد الله فى المشنقة » (٧) .

ويقتبس اقبال الكثير من أفكار الحلاج وآرائه ويضمنها أشعاره فى

---

(١) نشر ماسينيون هذه الدراسة فى مجلدين كبيرين بالفرنسية بعنوان La passian d'al Hallaj

(٢) أنا مارى شيميل ، فى مقالها المذكور آنفا .

(٣) فى مقاله المذكور آنفا.

(٤) زبور عجم ص ٢٧ .

(٥) أى فناء الذات الانسانية واختفاؤها فى ذات الله ، وهى نظرية وحدة الوجود .

(٦) الفكرة السائدة عند المتكلمين هى مادية النفس ، فهى فى رأيهم بخار لطيف وليست جوهرا روحيا مجردا .

(٧) جاويد نامه ص ١٤٢ .

هذه المنظومة ، فقد كان الحلاج يرى فى العشق آلاما مبرحة ، لأنه يعمق فى الذات الانسانية الأحساس بالفراق عن الحبيب فيكون السهاد ، وتكون الدموع والآهات ، ويعبر اقبال عن هذا بأسلوبه المفعم بالحيوية والحركة قائلا : « الحياة دون وخز ليست حياة حقيقية ، ينبغى العيش وجمرات النار تحت القدم »(١) .

وثمة « حكاية » طريفة أوردها « فريد الدين العطار » فى « تذكرة الأولياء » عن الحلاج قال : سألوا الحلاج — قبل أن يقتل بزمن بعيد — ما العشق ؟ أجاب : أن ترى اليوم وغدا وبعد غد ، قتلوه أول يوم ، وأحرقوه ثانى يوم ، وذروا رماده فى الهواء ثالث يوم »(٢) وفى فلك المشترى تحدث الطاهرة اقبالا عن هذه الحكاية وتقول لـه ان الشوق الـذى لاحدود له يمزق استار الغيب — وفى النهاية يتحقق ما يراه العارف تماما .

وهذا يؤكد أن اقبالا حـاول الاحاطة بحقيقة الحـلاج وتعرف على دقائقه . ومما يدلنا بوضوح وبطريقة عملية على ان اقبالا قد استوعب أفكار الحلاج وآراءه تماما هو ذلك الحوار الذى يدور بينهما عن « الحقيقة المحمدية » و « الشيطان ». ولقد شرح اقبال قول الحلاج « أنا الحق » واعتبره مماثلا لنظريته هو عن « الذاتية » ، فالحلاج بقولته هذه انما كان يعنى أن يقول : ان ذاتى حق لا باطل ، كما يقول المتكلمون وبعض الفلاسفة. لذا نجد اقبالا يشبه نفســه بهذا الولى الشــهيد ويقول على لسانه :

« كان فى صدرى صوت الصور ، لقد رأيت أمة تتجه مسرعة نحو القبر . قالوا امر الحق (أى الروح الانسانية) صورة باطلة ، لأنها مرتبطة بالماء والطين . فأشعلت فى نفسى نار الحياة ، وحدثت الموتى عن أسرار الحياة . ان ما فعلته أنت قد فعلته أنا ، فحذار ، قد دفعت الموتى للبعث فحذار » (٣) .

* * *

ويبدو الشاعر « غالب » فى نظر اقبال ثوريا غيورا ، ولكن فى عالم الأدب ، فهو لم يمت شهيدا كالحلاج والطاهرة ، وانما تعد الحانه ونواحه — فى راى اقبال —مصدرا لالهام الروح الانسانية التى تتميز بالضجر والقلق الحـاد فى بحثهـا عن الســلام الروحى : « هذه الأغـانى تمنح الروح الثبات » (٤) .

وقد صور اقبال « غالبا » راغبا عن المقام فى الجنة شأنه فى ذلك شأن الحلاج والطاهرة ، وكان غالب قد اشار فى اشعاره الفارسية الى هذه الفكرة حيث قال : لن يكون هناك غيم ومطر ... ان لم يكن ثمة خريف

---

(١) جاويد نامه ص ١٤١ .
(٢) تذكرة الأولياء — نيمه أول — طبع طهران ، ص ١١٤ .
(٣) جاويد نامه : ص ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٤) جاويد نامه ص ١٣٥ .

فكيف تأتى (السعادة) بالابسم . وليس ثمة سبيل لاختلاس النظر الى المحبوب، فليست هناك فتحة فى جدار الجنة (١) .

* * *

أما « قرة العين الطاهرة » فنعتقد أن اقبالا معجب بصفة خاصة بهذه الحرقة التى تتجلى فى أشعارها ، وقد نقل من شعرها غزلا فى غاية الروعة والابداع ، يفيض بالمعانى الصوفية العميقة ، وينبىء فى الوقت نفسه عن مأساة هذه السيدة التى لقيت مصرعها لتمسكها بعقيدتها .

وقد حاولت أن أعثر على ديوان لهذه الشاعرة ، فلم أوفق الا الى التوصل الى مقتطفات يسيرة من شعرها ، وجدت بعضها فى كتاب « تذكرة الخواتين » الذى طبع فى بومباى سنة ١٨٨٨ م (٢) وبعضها الآخر فى كتاب للمستشرق الانجليزى ادوارد براون بعنوان « مواد لدراسة العقيدة البابية » ، والكتاب مطبوع فى كيمبردج سنة ١٩١٨ م ، حيث نقل المؤلف قصيدة طويلة وغزلين من أشعارها وقال انه لا يعرف لها غير هذه الأشعار، وعقب عليها بقوله « اذن فان شهرة قرة العين كشاعرة أمر مقطوع به » (٣)

على أننا اذا كنا نعترف بعلو كعب الطاهرة فى نظم الشعر ، وحسن العبارة وطلاوة الأسلوب ، وعمق المعانى وتأثيرها ، الا أنه لا يغيب عن بالنا — ونحن نقرأ أشعارها — تاريخ حياتها وما نسب اليها من فتن وتحريض ودعوة الى الالحاد .

كان اسمها « زرين تاج » وهى ابنة الحاج ملا صالح القزوينى — وكان من اجل فقهاء عصره ، وزوجها الملا محمد تقى ، وهو رجل فضل وعلم وتقوى بين رجال الشيعة الأثنى عشرية ، وقد تبحرت هى فى علوم الشريعة والأدب ، فكانت شاعرة ، ناثرة خطيبة ، محدثة ، حافظة للقرآن ، ولكن ما ان بلغتها أخبار الباب(٤) حتى مالت اليه بكل جوارحها ، وآمنت به عن غيب ، وكانت تكاتبه ويكاتبها ، فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين ، فلقبت بذلك وصارت لا تعرف الا به .

وقد كثر أتباعها لخلابة لفظها ولجمالها وفتنتها ، فلما رأت مالسطانها على القلوبأمرت بقتل ابيها وعمها وزوجها وجميع العلماء والفقهاء وكل من لا يجيب دعوتها فتربص أتباعها بعمها وقتلوه ، فثارت ثائرة قزوين

---

(١) كليات غالب ص ١٦٣ — ١٦٤ وانظر مقالا كتبه الأستاذ « ب.أ. دار » بالانجليزية بعنوان « غالب واقبال » ، اقبال ريفيو ، أكتوبر ١٩٦٩ ، ص ٢٥ — ٤٤ .

(٢) ص ١٥٥ — ١٥٧ وهو مكتوب باللغة الفارسية .

(٣) وقد احالنا براون فى الجزء الرابع من كتابه تاريخ الأدب فى ايران (ص ١٥٤) على الكتاب المذكور فبدا وكأنه لم يعثر على مزيد من أشعار قرة العين ، ونجد بعض أشعارها أيضا فى كتاب « بهترين اشعار » لحسين بزمان ، طبع طهران سنة ١٣١٣ ، ص ٣١٩ .

(٤) هو على محمد الشيرازى ولد سنة ١٢٣٦هـ — سنة ١٨٢١م .

وجد الناس فى البحث عنها ولكنها تمكنت من الفرار . وفى احدى قرى « دشت » نادت بأن أحكام الشريعة المحمدية قد نسخت بظهور الباب وأخذت تنشر هذه الدعوة فى كل مكان ذهبت اليه أو حلت فيه الى أن قبض عليها جنود ناصر الدين شـــاه فى « مازندران » وأحضروها الى طهران فأفتى بحرقها حية ، وطلب اليها أن تقدم التماسا للشاه كى يفرج عنها لكنها ابت ، فخنقت ثم أحرقت جثتها فى سنة ١٢٦٤ (١٨٥٢م) وقـــد تعرض « ناصر الدين شـــاه » لمحاولة اغتيـــال قام بها بعض اتباعهـــا فى سنة ١٨٥٤ م (١) .

وينسب السيد محمود شكرى الألوسى فى كتابه : « مختصر التحفة الأثنى عشرية » احدى طوائف البابية الى قرة العين وهى فرقة تسمى « القرية » ويقول انها « قلدت الباب ثم خالفته فى عدة اشياء منها التكاليف فقيل انها كانت تحل الفروج وترفع التكاليف بالكلية ، وانا لم أحس منها بشىء من ذلك مع أنها حبست فى بيتى نحو شهرين ، ... والذى تحقق عندى أن البابية والقرية طائفة واحدة يعتقدون فى الأئمة ... ويزعمون انتهاء زمن التكليف بالصلوات الخمس ، وان الوحى غير منقطع . . . الخ » (٢) .

وقد اشار الأمير « شكيب أرسلان » فى حواشيه على كتاب حاضر العالم الاسلامى الى نزول « قرة العين » فى بيت « الألوسى » مفتى بغداد فقال اقامت مدة طويلة عنده ، وكان من يطعنون فى البابية يشنعونها ويقولون فيها الأقاويل ، كما هى العادة فى حق من فارق الجماعة . الا ان الألوسى قـــال فيما بلغنى ، ما عهدت عليها من ســـوء . وكانت تناظره وتباحثه وتدافع عن مذهبها حتى قال لى المرحوم عباس أفندى الملقب بعبد البهاء ،

واعلن نفسه فى سنة ١٨٤٤ م « باب المعرفة الى الحق تعالى » وانه واسطة لفيوضات من شخص عظيم هو صاحب الزمان وانه يتحرك بارادته (انظر مقاله سياح درباب وبهائيه طبع حجر ص ٤ وما بعدها) وللباب كتاب اسماه « البيان » تأول فيه قول الله تعالى : ثم ان علينا بيـــانه . وقـــد أخرجـــه فضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج كبحث للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون واشرف عليه ماسينيون . وقد اعتبر البهاء الذى ظهر فيما بعد أنه هو الذى بشر به الباب وقال بشرع جديد ودعا للأخوة الدينية والسلام العالمى .

(١) نقلنا ترجمة حياتها باختصـــار من كتاب تذكرة الخواتين ، ص ١٥٥ — ١٥٦ . وانظر ايضا : محمد فاضل : الحراب فى صدر البهاء والباب ص ١٩١ — ١٩٦ طبع مصر ١٩١١ م ، محمد على مدرس ، ريحانة الأدب ، ج ٤ ص — ٤٤ — ٤٤١ ، وبراون : تاريخ الأدب فى ايران ، الجزء الرابع ، ص ١٥٤ .

(٢) السيد محمود شكرى الألوسى مختصر التحفة الأثنى عشرية ، ص ٢٤ — طبع مصر ١٣٨٧ هـ .

ابن بهاء الله امام البابية ، وابن امامها : « ان قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتى الآلوسى على غزارة علمه وزخور بحر فضله ، وأنشدنى الأمير « فرمان فرما عبد الحسين » ابن عم شاه مظفر الدين الذى تولى الصدارة فى فارس أبياتا بديعة من نظام قرة العين على أسلوب غريب ومأخذ طريف ... الخ » (١) .

والواقع اننى تساءلت عن السبب الذى دعا اقبالا الى الثقة بشخصية الطاهرة الى هذا الحد الذى جعله يضعها فى مرتبة الحلاج ، ويعتبر روحها « روحا جليلة » وفزعت الى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » لعلى أظفر برد له على هذا التساؤل فلم أجده يشير الى الطاهرة ، وانما يذكر أن « الحركة البابية ليست سوى صدى للاصلاح الدينى العربى » (٢) الذى ظهر على يد المصلح المتطهر العظيم محمد بن عبد الوهاب .

هذا هو رأى اقبال فى الحركة البابية ، وهو رأى يخالفه فيه الكثيرون من علماء المسلمين من السنة والشيعة على حد سواء (٣) .

وقد تبين لى أن اقبالا ظل ينظر الى « البابية » باعتبارها حركة اصلاحية حتى سنة ١٩٣٣ ، يتضح ذلك من الخطة التى وضعها فى تلك السنة لتأليف كتاب جديد باللغة الانجليزية بعنوان : « مقدمة لدراسة الاسلام »(٤) .

ولكن يبدو أن اقبالا بدأ فى المرحلة الأخيرة من حياته وبعد نشر جاويد نامه يغير نظرته الى دوافع الحركة البابية فقد كتب فى أحد مقالاته التى بعث بها الى صحيفة « ستيتسمان » البريطانية والتى تحدث فيها عن القاديانية(٥) يقول « يعمل الروس على نشر المذهب البابى ويسمحون للبابية باقامة أول مركز للدعوة لمذهبهم فى « عشق آباد » فى الوقت الذى تعمل فيه بريطانيا على نشر الأحمدية (القاديانية) وتسمح لهم باقامة أول مركز للدعوة لمذهبهم فى « دوجنج » . ان الفصل بين هاتين الظاهرتين عندى أمر جد صعب ، فما السبب الذى يدعو الروس وبريطانيا — رغم اختلاف المشارب — الى الاتفاق فى هذا الاتجاه ؟ » . وانتهى اقبال الى أن هذا العمل ينطوى على محاولة لتفتيت وحدة المسلمين . كما نشر فى ديوانه « ضرب كليم » قطعة تتضمن معنى السخرية والتهكم بالباب عنوانها « محمد على الباب »(٦) .

---

(١) أنظر حاضر العالم الاسلامى — المجلد الرابع ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

(٢) تجديد التفكير الدينى ص ١٧٥ .

(٣) أنظر نقد الدكتور البهى لرأى اقبال فى البابية فى كتابه : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ص ٤٤٠ وما بعدها

(٤) Letters and Writings of Iqbal, p. 89.

(٥) لم أعثر على هذه المقالات فى لغتها الأصلية وهى الانجليزية وانما عثرت على تلخيص لها بالأردية فى كتاب « اقبال أورسياست ملى » لرئيس أحمد جعفرى ، ص ٣٢٤ وما بعدها .

(٦) أنظر الترجمة العربية لضرب الكليم ، ص ٣٠ .

غير أننى لم أعثر على دليل يبين أن اقبالا غير رأيه فى « قرة العين » هذه ، على غزارة وخصب ما كتب بعد نشر « رسالة الخلود » .

وذلك بالرغم من أن مذهب « القرية » يتناقض فى جوهره مع فكرة اقبال الأساسية عن « ختم النبوة » فأصحاب قرة العين يرون أن الوحى غير منقطع ، ولكن اقبالا يرى أن النبوة قد ختمت بمحمد (ص) وهذا الختم يحمل معه أمرين : «ان النبوة فى الاسلام لتبلغ كمالها الأخير فى ادراك الحاجة الى الغاء النبوة نفسها وهو أمر ينطوى على ادراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا الى الأبد على وقود يضاء منه وأن الانسان لكى يحصل كمـــال معرفته لنفســـه ينبغى أن يترك ليعتمد فى النهاية على وســـائله هو »(١) . الأمر الثانى هو الحيلولة دون ظهور الفكرة المجوسية والمسيحية فى المجتمع الاسلامى ، وهى فكرة الترقب الدائم والتطلع لظهور أبناء زردشت الذين لم يولدوا بعد أو ظهور المسيح المنتظر ... : « لقد سار ابن خلدون على هدى من نظرته الى التاريخ فأفاض فى نقده ، وقضى — فيما أعتقد — قضاء نهائيا على الأساس المزعوم لفكرة ظهور مخلص فى الاسلام . وهى فكرة شبيهة فى آثارهـــا السيكلوجية ، بالفكرة المجوسية الأصلية التى كانت قد ظهرت فى الاسلام تحت تأثير الفكر المجوسى »(٢) .

اذن فهناك اختلاف أساسى بين اقبال والشيعة بصفة عامة وبينه وبين أصحاب « قرة العين » بوجه خاص (٣) وسنلاحظ أن اقبالا سيدخل فى حوار حول ختم النبوة مع كل من غالب والحلاج ولن تكون قرة العين طرفا فى هذا الحوار .

* * *

وعلى أية حال فلم تكن ثقة اقبال بقرة العين هى نقطة الضعف الوحيدة التى تغرى المرء أن يوجه النقد الى هذا الصرح الشامخ العتيد الذى بناه ، وأعنى به « رسالة الخلود » بل كانت ثقة اقبال بغالب مثار نقد أيضـــا لاسيما من جانب الهنود الذين يعرفون « غالبا » والذين درسوا حياتـــه ومسلكه .

والشـــارح الباكستانى لجاويد نامـــه مقتنع برأى اقبـــال فى « قرة العين » ... !!! ولكنه يبدو وكأنه لا يستطيع أن يهضم رأى الشاعر فى « غالب » فهو يقول :

« ولا ريب فى أن هذه السيدة (يعنى قرة العين) كانت تتمتع بقدرة

---

(١) تجديد التفكير الدينى ص ١٤٤ .

(٢) أيضا ص ١٧٧ والفكرة التى يشير اليها ابن خلدون هى فكرة « المهدى المنتظر » .

(٣) على ان الأمير شكيب ارسلان يرى اننا اذا تجاوزنا عن مسألة ختم النبوة هذه فى مجال الطعن على تعاليم البابية ونظرنا اليها « على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن فى الطرق الصوفية المتعددة ، فان المرء يجد فيها كثيرا من الآداب السامية والمبادىء المعقولة » (انظر حواشيه على كتاب حاضر العالم الاسلامى — المجلد الرابع ص ٣٥٤) .

عقلية غير عادية ، كما كانت تتميز بعلو المقام لا فى جمال الخلقة فحسب وانما فى العلم والأدب أيضا . وليس من حق أحد أن يعترض على أن كلا من الحلاج والطاهرة كانا عاشقين ، فلقد أثبت كلاهما عشقه بالتضحية بحياته . أما غالب الذى يضعه اقبال فى زمرة هذين العاشقين ، فقد كان هو أيضا باحثا عن الحقيقة ، وفى كلامه عمق فلسفى ينطوى على اثارة لكامن الشوق فى نفس الانسان ، وهذا هو السبب الذى دعا اقبالا الى الثقة فيه ، وقد أعرب عن هذه الثقة بوضوح فى « رسالة الخلود » .

ثم يضيف : « ولكننى أرى أن « غالب خسته » أى غالب السقيم لا يمكن ان يرقى الى مستوى الدخول فى زمرة الحلاج والطاهرة ، فأين غالب من الطاهرة التى رفضت أن تتقدم بالتماس للشاه وتطلب فيه الصفح عنها ، أين غالب منها وهو الذى نظم فى مديح كل ذى سطوة وسلطة ابتداء من ملكة بريطانيا حتى « رئيس لامبور » سعيا وراء المادة » (١) .

غير أن ما نسبه الشارح المذكور الى غالب من مدحه لحكام عصره ، بل وما قيل أيضا عن غالب من أنه كان سكيرا لا يؤدى فرائض الدين ، لا يمكن بأى حال أن يصل الى ما نسب الى قرة العين من دعوة الى اسقاط التكاليف الشرعية والى نبذ الاسلام والتبشير بدين جديد ، فشتان ما بين التهمتين .

ولكن ربما كان اقبال معجبا بوجه خاص بأشعار الطاهرة تلك الأشعار التى تفصح بلا شك عن النفس المحزونة الصادية ، وعن القلب الملىء بالجوى والشوق الى المحبوب الحقيقى والتى تعبر عن تلك المشاعر النبيلة التى لا يمكن أن تنتاب الا روحا جليلة حقا ، غير أن هذه الأشعار تتضاءل بل تتهاوى أمام ما ارتكبته قرة العين فى حق الاسلام من جحود وكفران .

على أننا نلاحظ أن الشاعر لا يدخل فى حوار مع « قرة العين » — كما فعل مع الحلاج وغالب — وانما تركها تتحدث وحدها فى موضوعين : عندما غنت غزلها العجيب ، وعندما عقبت على قول الحلاج عن الذاتية ، وسيتعمد عدم اشراكها فى الحوار بعد أن يبدأ الحديث عن الرسول (ص) ، بوصفه خاتما للنبيين .

أما غالب فقد دخل معه الشاعر فى حوار طويل حول بيت نظمه غالب للتوفيق بين أطراف النزاع فى قضية شغلت علماء المسلمين فى الهندطويلا فى مسألة الحقيقة المحمدية ، وهى : هل يستطيع الله ان يخلق محمدا آخر؟، قال بعضهم يستطيع ولكنه لن يفعل ، وقال البعض الآخر لا يستطيع . فجاء غالب وقال بيتا مؤداه ان الله سبحانه يخلق فى كل عالم من العوالم التى خلقها « محمدا » باعتباره رحمة للعالمين (٢) .

---

(١) يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ٨٤٧ — ٨٤٨

(٢) نقل اقبال هذا البيت من أقوال غالب على لسان غالب نفسه فى جاويد نامه ص ١٤٦ .

ويجعل اقبال من هذا البيت مدخلا لشرح وجهة نظر الحلاج فى مسألة « الحقيقة المحمدية » باعتبارها حقيقة كونية ، وابليس باعتباره موحدا لم يكفر بالله الواحد .

ولكننا سنلاحظ أن اقبالا لا يأخذ أفكار الحلاج على علاتها وانما يحاول أن يطورها لتصبح مقبولة لا اثر فيها للغلو والتطرف .

* * *

وبعد ، فانه اذا كان لى من كلمة فى نهاية هذا التمهيد ، فانى اقول : ان اقبـــالا ربما أراد أن ينبه أذهان المســلمين الى عدم نبذ أمثـــال تلك الشخصيات الهامة فى تاريخهم الفكرى ، ويدعوهم الى تفحصها والى أخذ الجوانب الطيبة فيها ، وتسليط الاضواء عليها ، وترك الجوانب السيئة ، وأن يضعوا فى اعتبارهم الظروف العامة والبيئة الخاصة التى عاشتها تلك الشخصيات وأن يحاولوا التخفيف من غلواء آرائها وربطها بالمسار التاريخى العـــام لثقافة الأمة ، عندئذ ستكون هـــذه الجوانب الطيبة ، — المستخرجةمن شخصيات اسلامية رميت بالزندقة والالحاد من جانب معاصريها — بمثابـــة لبنات صحيحة قوية توضـــع فى بناء عالم جديد ، كما يقول هو نفسه على لســـان قرة العين الطـــاهرة : « من ذنب العبد المجنون ، تتولد مخلوقات جديدة أبدا » .

* * *

١ — تقديم :

يبدو « زنده رود » وهو مقدم على الهبوط على المشترى وكأن عشقه قد اكتمل بالفعل ، وهو يختار كلمة « القلب المجنون » للتعبير عن هـــذا الاكتمال ، كما يعبر عن نضج ذاته بكلمة « الرجل الناضج » ، يقول :

— انا فداء هذا القلب المجنون ، كل حين يهب خرابة جديدة (١) .

— عندما أبلغ مرحلة يقول لى : هيا ، انهض . . ان الرجل الناضج يعتبر البحر قفيزا .

— اجل ، لا نهايـــة لآيـــات الله ... فـــأين نهاية الطريق أيها المســـافر .

فاكتمال العشق من شأنه أن يتيح للعاشق الحصول فى كل لحظة على مقامات جديدة ، انه لا يهمل العاشق ولا يدعه يستقر فى مقام واحد ، وانما يستحثه على الدوام ويحفزه ويشجعه ، فـــلا يكون البحر أمام العـــاشق الناضج سوى مجرد حفرة تجمعت فيها المياه ، ولا يكون الكون كله فى نظره سوى مرحلة قصيرة لا يجد فى نفسه ترددا من أن يجتازها بكل سهولةويسر . ان العاشق لا يكف أبدا عن الترقى فى مدارج الروح — والسبب فى ذلك يرجع الى أن آيات الله وتجلياته التى هى مطمح نظر العـــاشق وميدان بحثه لا نهاية لها .

وينتقل اقبال بعد ذلك الى الموازنة بين الحكمة (العلم بمعناه الواسع) والعشق (العرفان) يقول :

(١) يتخذ لفظ « خرابات » فى الأدب الفارسى معنى المراحل المتتالية التى يتوقف عندها السالك فى الطريق الى الله .

— شأن الحكمة هو الرؤية و النقصان ، أما الرؤية و الازدياد فهو شأن العرفان .

— بميزان الفن توزن الحكمة ، بميزان النظر يوزن العرفان .

— الحكمة تقتنص الماء والتراب ، والعرفان يقتنص الروح الطاهرة .

— ان بصر العلم معلق على التجليات ، بينما العرفان يستوعب التجليات بداخله .

فمن شأن العلم أن يدفع الانسان حقا الى المشاهدة والتجربة ولكن العبرة بالنتيجة . فالعلم لا ينتهي الى نتائج نهائية وانما النتائج التى يتوصل اليها تظل ناقصة على الدوام قابلة للتغير ، ولقد ثبت بطلان كثير من النظريات الفلسفية والعلمية المسلم بها بمرور الزمن .

أما العشق فله شأن آخر ، لأن العاشق كلما حصل على قدر من المعرفة كلما تعمق فى وجدانه الاطمئنان الى ان ما حصل عليه حقيقة لا تقبل التغير ، وانما عليه أن يجعلها منطلقا له الى الرقى فى مدارج من المعرفة اعلى .

فالعلم — المجرد من العشق — يعمق فى نفس الانسان الشعور بالارتياب والشك ، ولكن العشق يبعث فى النفس لا الطمأنينة والرضا فحسب ، بل يلهب فيها الحماس الى مزيد من الرقى .

ويتم تقويم النتائج التى توصل اليها العلم بواسطة « التكنولوجيا » ، فالتكنولوجيا هى أخيرا هدف العلم ، اما العشق فنتائجه لا يتم تقويمها بالمحسوسات ولا بالعقل ، وانما بالنظر وبالقلب ، فالقلب وحده هو القادر على أن يبرهن على نجاح التجربة الشعورية .

والعلم يمسك بين يديه بالماء والتراب ، لأن المادة والمحسوس هما وسيلته للوصول الى النتائج التى ينشدها ، اما وسيلة العشق فهى الروح الطاهرة .

والعلم يركز نظره على الظواهر والتجليات ، ويجهد نفسه فى فهم « صفات » الله بواسطة العقل ، الأمر الذى يؤدى به الى الفشل فى ادراك الحقيقة النهائية ، ولكن العارف العاشق يجذب هذه التجليات فيه ، فيعمل على اظهار صبغة الصفات فى نفسه . حقا ان العلم — كما يقول اقبال « يجعل الانسان عبدا للصفات » ، بينما يعطيه العشق الحرية الحقيقية .

مجمل القول ان اقبالا يريد أن يقول اذا كنت تنشد تحصيل المعرفة فاختر طريق العشق بدلا من الفلسفة والعلم .

٢ — هذا كله من فيض الرومى :

يقول اقبال : اننى ابحث عن تجليات متتابعة ، أطوى الأفلاك وأنوح كالقيثارة ، ان هذا كله من فيض رجل طيب الأرومة (يعنى الرومى) ذلك الذى هبطت حرقته فى روحى . ان قافلتنا التى لا تضم سوانا — الرومى وأنا — والتى لا هم لها الا التدقيق والسياحة فى الوجود قد حطت رحالها

على حافة المشترى ، انه عالم يبدو وكأنه لم يكتمل بعد . فهو زجاجة كرمها ما زال خاليا من الخمر ، ولم تنبت الرغبة والنزوع الى النمو والاكتمال بعد من ترابه . وثمة أقمار تطوف حوله بسرعة كبيرة وتحيل منتصف الليل فيه الى ما يشبه وسط النهار . والجو فيه معتدل فلا هو بارد ، ولا هو حار. وعندما نظرت صوب السماء رأيت كوكبا من كواكبه شديد القرب منى، فسرقنى المشـــهد الرهيب من وعيي وتغير القريب والبعيـــد ، والبطىء والسريع ... فلقد تغير ادراكى للأبعاد كما تغير تقديرى للزمن.

وشاهدت أمامى ثلاث أرواح نقية يمكن للنار التى تتأجج فى صدورهم أن تصهر العالم كله ، وقد ارتدوا حللا حمراء بلون الشقائق ، ولا غرو فهم شهداء العشق وجوههم مضيئة بفعل ما فيها من حرقة داخلية ، انهم فى حرقـــة وضياء منذ أن « أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى » ، وهم ثمالى بخمر الألحان التى يترنمون بها.

قال لى الرومى : لا تبتعد عن نفسك بهذا القدر ، ولتسر الحيوية فى كيانك بفضل أنفاس هذه الألحان التى هى فى الواقع نار (١) ، انك «يا زنده رود » لم تر بعد الشوق الجسور ، فأنظر ، انك لم تر بعد قوة هذه الخمر ، فانظر ، لغـــالب والحلاج وسيدة العجم ، انهم يبثون الحركـــة والاضطراب فى روح الحرم . استمع لهذه الأغانى التى يترنمون بها فهى ألحان تعطى الروح الثبات ، حرارتها انما تنبع من أعماق الكائنات » .

٣ ــ أنشودة الحلاج :

يورد اقبال ــ على لسان الحلاج ــ غزلا كان قد نشره فى ديوانه « بيام مشرق » (٢) ، مع بعض التقديم والتأخير فى أبياته ، وقد اختار اقبال هذا الغزل لأنه يعبر فى الواقع عن نفسية الحلاج الذى دعا الناس الى الاهتمام بهذا القبس الالهى الموجود فى روح كل منهم ، والعناية به وبتربيته ، والى التضحية بالنفس فى سبيل الحبيب ، والى القاء ما يصرف الانسان عن هدفه الأسمى جانبا وأخير الى نبذ الراحة والكسل والخمول والتحرك الدائب بحثا عن المعرفة الحقة .

يقول اقبال على لسان الحلاج :

« اطلب من رمادك نارا لم تبد بعد » ، فتحت رمادك تكمن نار خفية لا تظهر الا اذا طلبتها أنت من أعماق ذاتك ، وحين تظهر هذه النار فانها تجعلك كالشعلة التى لا تخبو أبدا ، وحذار من أن تطلب هذه النار من غيرك « فانه لا يليق بك ان تطلب (لنفسك) تجلى غيرك » ، أو أن تظهر فى نفسك نار أحد آخر .

ولشدة حرصى على احكام ذاتى « ظللت اعلق ناظرى على نفسى ، لأن

---

(١) وربما كان قول الرومى لا قبال : لا تبتعد عن نفسك بهذا القدر تحذيرا له من أن تذهب به الظنون كل مذهب فى شأن هذه الأرواح الجليلة ، تلك الأرواح التى لا يمكن فهم حقيقتها الا بوعى روحى كبير .

(٢) أنظر بيام مشرق ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

جمال تجلى الحبيب (الله) قد ملأ العالم ولم يعطنى الفرصة للمشاهدة » ، اننى خشيت أن أؤخذ بهذا الجمال فيصرفنى عما وراءه ، لذا فقد نظرت الى أعماقى وحدها باحثا عما خفى فيها من آثار ذات الحبيب .

ما أشد اعجابى بمصراع قاله الشاعر : « نظيرى »(١) ، ان نفسى لا تطاوعنى بأن أدع هذا المصراع ولو فى مقابل ملك « جم »(٢) يقول نظيرى فى هـذا المصراع « ان المرء الذى لا يقتل ليس من قبيلتنا » فمن لا يضحى بروحه فى سبيل الحبيب فانه ليس منا نحن العاشقين الصادقين .

« ورغم أن العقل ــ الذى يتجر بالسحر قد حشد جيشا ، فلا تدع للرعب سبيـلا الى قلبك ، لأن العشـق ليس وحـده » . فالعقـل يحاول بأدلته أن يصرف الانسان عن السير فى طريق العشق ، فيحشد من الجيوش والعتاد ما يقطع عليه السبيل ، ولكن العشق من شأنه أن يتغلب فى النهاية ، ويجعل العاشق يمضى فى سبيله متجاوزا مرحلة العقل منتقلا الى نشدان الحقيقة القصوى ، فليس هناك قوة تقدر على زحزحة العاشق الصادق عن طريق العشق .

« انك يا صاحبى لا تعرف الطريق ، ولا علم لك بمراحله فقل لى بربك أى لحن ذلك الذى ليس فى عود سليمى »(٣) ؟ انك اذا كنت غافلا عن قدر العشق فهل يمكنك بدونه الحصول على الجمال والحسن ؟ .

« قص علينا قصة عن قيد التماسيح وصيدهم ، ولا تقل : ان زورقنا لا يألف وجـه البحر » تحـدث عن قدرتك على التغلب على المشكلات ولا تحدثنا بما يبعث الفتور فى همتنا نحن العاشقين ، تلك الهمة التى ليس من فطرتها أن تفتر أبدا .

« اننى أبحث عن همة ذلك السالك الذى لم يضع قدميه أبدا فى الطرق التى تنساب بين الجبال والسهول والبحار » انها همة تجعله يحلق تحليقا ، وهو يعلق بصره بالمحبوب وحده ولا يكاد يلقى بالا الى ما يصادفه من عقبات فى الطريق أو الى ما يعرض له من جمال الطبيعة وبهائها .

« فكن شريكا فى حلقة الخلعاء ذوى الكؤوس الدائرة واحذر بيعة شيخ ليس من بين الغوغاء » لا تتبع ذلك الذى يزين لك الراحة والكسل والخمول، وانما كن متحركا جوابا كى تثمل بخمر المعرفة الالهية المتجددة ، وأعرض عن أهل الرسوم الذين أخلدوا الى الأشكال والمظاهر .

---

(١) شاعر مشهور فى الهند نظم كل أشعاره بالفارسية ، وقد ولد فى نيسابور وأمضى الجانب الأكبر من حياته فى الهند .

(٢) جم : هو جمشيد ، كان واحدا من الملوك العظام فى فارس القديمة .

(٣) وسليمى نموذج للمحبوب كقول الشاعر العربى :

سليمى منذ حلت بالعراق ... الاقى من نواها ما ألاقى

وهى سـلمى عند ابن عربى ، انظر ص ٢٥ من ديوانـه ترجمان الأشواق .

٤ — انشودة غالب :

ينقل اقبال هذا الغزل من أشعار غالب الفارسية(١) . وربما كان الدافع وراء اختيار اقبال لهذا الغزل بالذات هو أن معانيه وأخيلته تتفق مع سيرة هذا الشاعر الفنـــان ، فهو لم يكن مجاهدا ولا شهيدا كالحلاج والطاهرة ، وانما أثار بشعره الثورة فى القلوب ، وقد تأثر اقبال به من هذه الناحية بالذات .

يقول غالب : « تعال ، كى نبدل قاعدة السماء ، تعال كى نبدل القضاء بتمرير كـــأس ثقيل من الخمر » اننى أدعوك لتحـــدث انقلابا فى العالم ، وتقيم فى الدنيا نظاما جديدا بدلا من هذا النظام العتيق ، وسوف يتيسر لنا ذلك بالعشق وبخمر المعرفة الالهية .

« واذا ابتلينا بالحرب من قائد الشرطة فلن نبالى ، ولو وصلتنا هدية من الملك نفسه فسوف نردها » ، لن نعبأ اذا عقد أصحاب السلطة العزم على التصدى لنا ، فنحن فى غير حاجة الى هذا العالم ، ولن تصرفنا مغرياته عن المضى فى طريقنا .

« اذا حدثنا موسى الكليم فلن نتفوه بكلمة ، ولو نزل ابراهيم الخليل ضيفا علينا فسوف نتحول عنه » لن نقبل من أحد مهما عظم قدره أن يصرفنا عن هدفنا وهو احداث هذا الانقلاب .

« وفى الحرب ، سنحول جباة خراج البساتين عن باب البستان بسلة خاوية » فلن نعطى عمال الملك خراجا أبدا ، سنرفع راية العصيان على الملك .

« وفى الســـلم ، نعيد الطيور التى تبسط جناحيها عند الفجر ، من الخمائل الى أوكارها » فسوف يتمتع المزارعون بالأمن ، ويعودون — بعد عناء النهار — الى ديارهم وهم ينعمون بالسعادة والطمأنينة .

« اننا — أنا وأنت — من « حيدر » ، فلا غرو اذا أعدنا الشمس تجاه الشرق » ، فاذا كنا عاشقين مثل على — رضى الله عنه — فسوف نغير سنن الطبيعة بعشقنا مثله ، فقد انقضى وقت العصر دون أن يصلى على العصر ، فدعا الله أن يرجع وقت العصر فاستجاب الله دعاءه(٢) .

٥ — انشودة الطاهرة :

اختار اقبال من أشعار « قرة العين » هذا الغزل الرائع الذى يعكس الجذبات التى يخطرهم بها قلب العاشق الصادق . والواقع أن كل أشعار الطاهرة — التى وفقت الى العثور عليها — أشعار رائعة لا سيما تلك التى

---

(١) انظر كليات غالب ص ٥٩٢ .

(٢) وقد أشار اقبال الى معجزة رجوع الشمس هذه فى أسرار خودى (ص ٥٣) .

تنوجه فيها الى الحضر الالهية(١) .. لكن الغزل الذى اختاره اقبال يعد انعكاسا حقيقيا لمشاعر نفس تشعر بآلام الغربة وحرقة الفراق ، وتبحث حولها عن المحبوب فلا تجده ، فتعود أخيرا الى قلبها — كما فعل الحلاج — فلا تجد أحدا سواه .

تقول قرة العين الطاهرة ، وهى تخاطب الحضرة الالهية : « لو وقع عليك ناظرى وجها لوجه ، فسوف أصف لك حزنى بكل دقة ، نقطة بنقطة ، شعرة بشعرة » .. وسأفضى اليك بما أصابنى من غم وحزن من جراء فراقى عنك .

« لقد انسبت كريح الصبا لعلى أرى وجهك ، من منزل لمنزل ، من باب لباب ، من درب لدرب ، من طريق لطريق » .

« ان فراقك يجعل دماء قلبى تنصب من عينى نهرا وراء نهر ، بحرا وراء بحر ، نبعا وراء نبع غديرا وراء غدير » .

« ان قلبى الحزين ينسج حبك على قماش الروح ، خيطا بخيط ، وترا بوتر ، سدة بسدة ، لحمة بلحمة » ، فلو انفصلت محبتك عن روحى لفقدت اعتبارى كأنسان كما يفقد القماش قيمته اذا انفصلت اللحمة فيه عن السدة .

« لقد عادت الطاهرة الى داخل قلبها فلم تر أحدا سواك ، صفحة بصفحة ، فصلا بفصل ، ستارة بستارة ، طية بطية » .

* * *

واذا نحن القينا نظرة عامة على الغزليات الثلاثة فسوف نجد انها ترتبط جميعا لا بشىء واحد فحسب انما بعدة أشياء فالعشق هو موضوعها جميعا ، والنفس الانسانية مجالها وأداتها ، وروح الثورة والفداء تسرى فيها كلها ولا سيما فى الغزل الذى قاله اقبال على لسان الحلاج ، والغزل الذى اقتبسه من أشعار الطاهرة . ولاغرو فالحلاج هو القائل :

اقتلونى ياثقاتى   ان فى قتلى حياتى

ومماتى فى حياتى   وحياتى فى مماتى (٢)

ومن اقوال الطاهرة قول قريب مما قاله الحلاج :

— لو أقدم الحبيب — ظلما — على قتلى ، لقد استقام بسيفه ولقد رضيت بمارضى (٣) .

---

(١) أنظر مثلا الغزل الذى نشره براون فى كتابه « موادلدراسة العقيدة البابية » والذى مطلعه :

لمعات وجهك أشرقت وشعاع طلعتك اعتلى

زجه رو « ألست بريكم » نزنى بزن كه بلى بلى .

(٢) والعشق الحقيقى عند اقبال — هو جعل القلب وقفا على الله وحده . وقد عبر الحلاج عن هذا المعنى بقوله :

أقلب قلبى فى سواك فلا أرى سوى وحشتى منه وانت به أنسى

(اخبار الحلاج ص ٥٧) .

(٣) حسين بزمان ، بهترين أشعار ص ٣١١ .

ولقد أثارت هذه الأناشيد التى ترنمت بها الأرواح الجليلة فى روح « زنده رود » المزيد من الاضطراب والتوتر ، يقول « فأطلت مسائل قديمة برأسها ، ثم هاجمت أفكارى من جديد واضطرب محيط فكرى تماما وتهدم شاطئه من عنف الاعصار . وهنا قال لى الرومى : لا تضع الوقت يامن ترنو الى حل المشكلات والعقد ، لقد بقيت أسيرا لأفكارك وقتا طويلا فاخرج الآن من أسر تأملاتك ، وأخرج هذه القيامة (الاضطراب) والثورة الفكرية والروحية من الضمير » ، الى دنيا الناس .

« زنده رود » يعرض مشكلاته على الأرواح الجليلة

١ — جنة العاشق رؤية الذات الالهية :

يتوجه «زنده رود » الى الحلاج بهذا السؤال : « لماذا أنت بعيد عن مقام المؤمنين وبتعبير آخر لماذا تهجر الفردوس ؟ » فكل انسان يرنو ويتطلع الى دخول الجنة والى البقاء فيها ، فكيف طاوعتك نفسك على البعد عنهـــا ؟

وترى الدكتورة « آنا مارى شيميل » فى مقالها « منصور الحلاج فى رأى اقبال » أن اقبالا لا يتحدث فى هذا الموضع عن فكرة الحلاج وانما يقدم من خلال الحلاج : خلاصة للتصوف الاسلامى ، فالعاشق الصادق لا يطلب سوى الله . وهذا موضوع قد أكثر الصوفية من التحدث عنه ، وامتد هذا الحديث من عصر رابعة الى عصر اقبال فالصوفية يرون أن الجنة حجاب يفصل بين العاشق والمعشوق (١) ، فالذين يعبدون الله للوصول الى الجنة مثلهم كمثل العامل الذى يعمل من اجل الحصول على أجر فى النهاية . ولكن العاشق الحقيقى يعرض عن الجنة ويبغى رؤية الله ، ولا يقنع بالجنة وملذاتها (٢) .

وسوف يعرض اقبال هذه الفكرة — على لسان الحلاج عن طريق المقارنة بين نظرة « الملا » الى الجنة ونظرة العاشق اليها ثم ينتقل بعد ذلك الى الموازنة بين العلم والعشق وفى النهاية يتحدث عن الغربة الانسانية وفراقها عن أصلها الالهى .

يقول الحـــلاج : « ان الرجل الحر (العاشق) الذى يعرف الحسن والقبح ، لا يمكن للجنة أن تحتوى روحه » ، فثمة فرق كبير بين الهدف النهائى للعاشق والهدف النهائى للملا ، فجنة الملا خمر وحور وغلمان ، أما جنة الأحرار فهى سير متواصل دائب ، هى عروج روحى مستمر .

---

(١) انظر فيما سبق البيتين اللذين نقلناهما من شعر غالب ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) ميرى اين شيميل : منصور حلاج اقبال كى نظرمين ، ماه نو ، اقبال نمبر ابريل ١٩٧٠ ، ص ١٦٢ — ١٦٨ . على أننا نلاحظ أن الحلاج نفسه قال وهو يناجى ربه : « بحقك لو بعت منى الجنة بلمحة من وقتى ، أو بطرفة من أحر انفاسى لما اشتريتها » (أخبار الحلاج ص ٧٥) فهى فكرة تحدث عنها الحلاج أيضا .

« وجنة الملا طعام ونوم وغناء ، أمـا جنة العاشق فهى مشـاهدة الوجود » ، فالعاشق لا يتطلع الى الماديات والمحسوسات ولا يجعلها هدفه. وانما هدفه الأسمى هو رؤية الوجود الحق ، ورؤية الذات الالهية .

وثمة فرق كبير أيضا بين نظرة كل من الملا والعاشق الى يوم القيامة. فالملا يعتبر ان « الحشر هو شق القبر ، وصوت الصور ، ولكن العاشق يعرف أن العشـق المثير للاضطراب والتوتر هو ذاته يوم النشور » ، فالعاشق لا ينتظر نفخ الصور كى يصحو ويفيق اذ أنه متيقظ على الدوام قبل أن يموت ، واع بمكانته مبصر لهدفه ، وقد روى عن الرسول (ص) انه قال : « موتوا قبل ان تموتوا » .

يأخذ اقبال بعد ذلك فى الموازنة بين العلم والعشق على لسان الحلاج ، والواقع أنه لا يمكننا أن نعد هذه الموازنة — التى عالجها اقبال مرارا فى هذه المنظومة — تكرارا ودون مبرر وذلك أننى أعتقد أنه يعنى بالعلم هنا العلم الظاهرى الذى لا يتعمق فى الروح ويتأصل فيها ، وقد يعنى بالعلم العالم المحدود الأفق المتحرج دائما الذى عبر عنه من قبل بالملا ، فهو هنا يبين الفرق الشاسع بين عالم الدين الذى لا ينظر الا الى ظاهر الدين فيحوله الى رسوم تؤدى دون مضمون روحى ويجعله هدفا لا وسيلة الى بلوغ الهدف الأسمى ، وبين العاشق الذى يسرى الدين فى كيانه ووجدانه فيعمق فيه الشعور بغربته ووحدته ويتطلع به الى الوصول الى الحبيب ، لا يبغى الا وجه ذى الجلال والاكرام . ومما اثر عن الحلاج قوله « أما باطن الحق فظاهره الشريعة ، ومن يحقق ظاهر الشريعة ينكشف له باطنها ، وباطنها المعرفة بالله » (١) .

يقول الحـلاج : « ان العـلم مؤسس على الخوف والرجاء وليس للعاشقين (اضطراب) من أمل أو خوف » فالخوف من غضب الله وناره ، والتطلع الى رحمته وجنته هما أساس الدين عند العالم الظاهرى . أما العاشق فلا يرنو ويتطلع الا الى وجه الله وحده ، لا ينظر الى الجنة أو الى النار وانما يجعل هدفه الأسمى أمامه لا يغيب عن نظره ، انه لا يعبد الله كى ينال الجنة فى النهاية ويتقى النار ، وانما يعبده لأنه يحبه ، وغاية أمله أن يرى وجهه .

« العلم خائف من جلال الكون ، والعشق غارق فى جمال الكون » ، ان الجلال والجمال صفتان من صفات البارى تعالى ، والعالم الظاهرى يركز بصره على صفة الجلال وحدها فهو يعبد الله خوفا من غضبه وخشية من قهره ، أما العاشق فيستغرق فى الجمال استغراقا يجعله لا يكاد يحس بالخوف من صفة الجلال والقهر .

« والعلم يدقق النظر فى الماضى والحاضر ، والعشق يصيح قائلا : انظر ما سيأتى » ، فالعالم يحسب حساب الماضى والحاضر ، فهو يأخذ فى مساءلة نفسه : كم من الصلوات أقمت ؟ وكم من النوافل أديت ؟ وكم من الطيبات قدمت ؟ وماشاكل ذلك ، ولكن العاشق ينظر دائما الى المستقبل

---

(١) أخبار الحلاج ، ص ٢٩ .

ويتحرق شوقا الى أداء الطاعة تلو الطاعة ، فشأنه كله هو « انتظار الصلاة بعد الصلاة » كما قال الرسول (ص) .

« عقد العلم حلفا مع شرعة الجبر اذ ليس له منبع (حيلة) سوى الجبر والصبر ، أما العشق فهو حر وغيور وغير صبور ، وهو جسور فى مشاهدة الوجود (الله) » . فالعالم الظاهرى يؤمن بأن كل ما هو مقدر سيكون ، ويقف عند هذا الحد ولا يعمد الى دراسة معنى القدر وتفهم مغزاه . أما العاشق فهو حر من قيود الجبر لأنه يدرك المعنى الصحيح للقدر، وهو غيور على دينه لأنه لا يطيق أن يدخله الهراء والترهات ولا يقنع بالأغيار عن الحبيب . وهو غير صبور لا يقر لروحه قرار ، بل يشعر بالتوتر الدائم وبالرغبة المستمرة فى الترقى الروحى ، وهذا كله من شأنه أن يودع فيه قوة تدفعه دفعا الى الوصول الى مقام المشاهدة .

يقول الحلاج لزنده رود : بالرغم من أن العاشق يستبد به الوجد أحيانا ويتلظى بآلام الفراق الا أن « عشقنا بمنأى عن الشكوى رغم أنه يبكى بدموع السكر » فكل ما يلقاه من مشكلات فى سبيل هدفه وكل ما يعانيه من متاعب أمر محبب الى قلبه لأنه لاتصح الحياة ولا تستقيم الا بمكابدة العناء فى سبيل الوصول الى الحبيب .

« وقلبنا هذا المجبر ليس مجبرا حقا ، سهمنا لم نقذفه من نظرة الحور » فنحن العاشقين نؤمن بالجبر كما نؤمن بالاختيار ، اننا مجبرون ولكن باختيارنا نحن ، قد يبدو اختيارنا لمسلك العشق جبرا ، ولكننا نحن الذين اخترنا مسلك العشق اختيارا ، ونحن بسيرنا فى هذا الطريق لا نقصد التمتع بحور الجنة وانما نقصد الوصول الى الحق تعالى .

« ان الفراق يزيد من اشتعال نارنا ، الفراق يلائم أرواحنا » فمع اننا نسعى الى الوصال فاننا نحرص على الفراق ، وهذ هى حال التوتر التى يعيشها العاشق الصادق وهى التى تجعله يظفر بالخلود ، وهى ضد حال الارتخاء والفناء فبالرغم من جذوة الشوق التى تتأجج فى أرواحنا من الفراق الا اننا نفضله ونخشى الوصال الذى هو نهاية الشوق .

« الحياة دون وخز ليست بحياة حقيقية ، لذا كان ينبغى على المرء أن يعيش وجمرات النار تحت قدمه » ينبغى على المرء أن يحافظ على هذا التوتر الدائم الذى يتمثل فى حرقة الشوق من جانب وخشية الوصال من جانب آخر ، ولكنك قد تسألنى .. يازنده رود ـ لم كان الفراق ؟ لو لم يكن الفراق لما كان من الممكن تعمير الذات وتكميلها . والتوتر الروحى الذى يقوى الذات الانسانية ويدعمها ويحييها لاتقوم له قائمة الا بالفراق ولو لم يكن الفراق لما اضطرمت الروح بمشاعر الشوق الى الوصول الى الله ، هذه هى الحياة الحقة . « والحياة على هذا النحو هى قدر الذات ، ومن خلال هذا القدر بعينه تبتنى الذات وتعمر » .

وبالفراق تتجلى صفات عجيبة وطاقات فريدة فى الانسان يحسده الكون كله ويغبطه عليها ، فيصبح الانسان عندئذ وكأنه : « ذرة من الشوق

غير المحدود تثير حسد الشمس ، لأن صدر الشمس لا يمكن أن يحتوى الأفلاك التسعة » أما صدر العاشق فيحتوى الكون كله .

والفراق هو الذى يغير نوازع الشوق فى النفس الانسانية « وعندما يشن الشوق هجوما على عالم يحيل الفاني الى خالد » فتتحول هذه الحفنة من التراب (الانسان) الى حقيقة خالدة بفعل الشوق الذى يحفظ عليه حال التوتر (١) .

٢ — عزم المؤمن هو الخلاق للقدر :

وبعد أن ينتهى الحلاج من أقواله يسأله « زنده رود » : ان دورة القدر هى الموت والحياة ، ولكن لا أحد يدرى ما دورة القدر ؟ .

وكأن اقبالا مازال يأمل — رغم التوضيح الذى استمع اليه عن هذه القضية من الحكيم المريخى — فى أن يعرف المزيد عنها من رجل آمن بحقيقة النفس الانسانية ووقف فى وجه المتكلمين ومن ينادون بمادية النفس ويميلون الى الجبرية الكاملة . والواقع أن الحكيم المريخى بين لزنده رود جانبا من جوانب القضية وهو «اذا تغيرت أنت تغيرت الدنيا» .

أما هنا فهو يوضح على لسان الحلاج جانبا آخر من جوانبها ويرى انه لا شك فى أن الانسان مجبر فلا خيار له فى قدومه الى هذا العالم أو فى رحيله عنه ، ولا خيار له فى حياته أو موته ، على انه لو استقر فى قلب الانسان أن حياته ومصيره بيد الله وحده لالقى بنفسه فى معترك الحياة والجهاد لا يبالي بشىء . وهكذا يحيل اقبال بفكره الساحر وتعبيره الأخاذ شرعة الجبر التى سرت فى أرجاء العالم الاسلامى سريان السم واقعدت المسلمين عن العمل والجهاد الى شرعة أخرى هى شرعة الحركة والدأب والجد والجهد .

ويبدو اقبال هنا متأثرا بآراء جلال الدين الرومى فى رده على القائلين بالجبر فالرومى يقول : ان أعمال الانسان صادرة عنه باختياره على الرغم من أنها أثر من آثار فعل الله فليس له اذن أن يحمل الله تبعة هذه الأعمال . ان حرية الارادة التى هى احدى المنح الالهية قد عرضت على السماوات والأرض فلم يقبلنها وقبلها الانسان رغم ماتنطوى عليه من أخطار،وان الحرية بمعناها الكامل هى حرية العبد الذى أحب ربه ففنيت ارادته فى ربه ، وفى هذا الفناء — أو فى هذا الاتحاد — ينمحى الفرق بين الجبر والاختيار(٢) .

يقول الحلاج : « كل من لديه عدة من القدر ، يرتعد من قوته ابليس

---

(١) يقول اقبال فى مقدمته الانجليزية على « اسرار خودى » : وشخصية الانسان من الوجهة النفسية حال من التوتر ، ودوام الشخصية موقوف على هذه الحال (انظر عبد الوهاب عزام : محمد اقبال ص ٥٧) .

(٢) عرض نيكلسون لآراء جلال الدين الرومى فى هذه القضية بالتفصيل فى كتابه « الشخصية فى التصوف » ترجمه المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى ضمن كتابه « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » أنظر ص ١٥٦ وما بعدها .

والموت » ، فالجبر الارادى والرضا بما يجريه الله دون تذمر أو احساس بعجز « هو دين الرجل ذى الهمة،ان جبر الأبطال دليل على كمال القوة ».

هذا هو شأن الرجل المؤمن ، وهذا الايمان « ليس مجرد اعتقاد سلبى فى حكم أو أحكام من نوع معين ، وانما هو طمأنينة حية متولدة عن تجربة نادرة لا يسمو اليها والى ما تتضمنه من القدر الأسمى الا الشخصيات القوية » (١) .

« فالرجل الناضج يزداد نضجا بالجبر ، والجبر يزج بالرجل الساذج فى احضان القبر » ، فالمؤمن موقن بأن حياته ومماته بيد الله ، لذا فهو يعمل ويجاهد دون خوف لأنه سينال فى النهاية احدى الحسنيين ، اما النصر واما الشهادة ، أما الرجل الساذج الفج فهو من خوف الموت فى موت دائم .

« ان جبر خالد (بن الوليد) أحدث انقلابا فى العالم ، أما الجبر بالنسبة لنا فقد اقتلعنا من جذورنا » ، ولقد كان خالد يقتحم ميادين القتال وهو موقن بأن روحه بيد الله وأن لكل أجل كتابا ، ولو اجتمعت الجن والانس على أن يضروه بشىء لن يضروه الا بشىء قد كتبه الله عليه ، لذا فقد قلب العالم رأسا على عقب ، وعلى كثرة ما دخل من معارك ، وعلى كثرة ما أصيب فانه لم يمت فى ميدان القتال ، وانما مات فى فراشه .

أما نحن — فعلى العكس من ذلك — لم نطلب الموت كى توهب لنا الحياة ،و انما أصبحنا طلابا للحياة ، فمتنا فى كل لحظة ، تركنا الجهاد خوفا من الموت ، فأصبحنا مستذلين مستضعفين فى هذا العالم وكأنه لا وجود لنا ، فليس ثمة من يخشى بأسنا من أمم العالم ، أين نحن الآن من أولئك الرجال الأبطال . « ان شأنهم هو التسليم والرضا ، ولكن هذا الرداء لا يليق بالضعفاء » لقد فهموا هم المعنى الحقيقى للقدر ، وذاقوا لذة التسليم لقضاء الله والرضا بقدره ، فعاشوا سعداء وماتوا شهداء . ولكن لا قبل لضعاف الايمان بأن يسلكوا مسلكهم . انك يا « زنده رود » تعرف مقام « الرومى » الم تقرأ بعض ما قاله فى هذا الصدد ، لقد كان مما قال ؟!

« كان هناك مجوسى فى زمان أبى يزيد البسطامى ، قال له مسلم سعيد: يجدر بك أن تؤمن كى تحصل على النجاة والسيادة . قال المجوسى : أيها المريد ، ان كان هذا الايمان — الذى تدعوننى اليه — يشبه ايمان شيخ العالم أبى يزيد ، فلا قبل لى بحرارته المضيئة ، لأنه يفوق اجتهادات روحى » (٢) .

فالايمان الحق — يا زنده رود — ليس بالأمر السهل الميسور ، فلابد للمرء من القوة والشجاعة والبأس كى ينهض بتنفيذ أحكامه ، « ولكن اهتمامنا الأكبر (نحن المسلمين اليوم) ليس مركزا الا على الخوف والأمل،

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ص ١٢٦ .

(٢) اقتبس اقبال هذه الأبيات الأربعة من : المثنوى،دفتر بنجم،ص١٠٠٥

فليس لكـل امرىء همة التسليم والرضـا » انها همة لاينالهـا الا ذوو الشخصيات القوية والنفوس الطاهرة ، لا ينالها من يقول : كل ما هو مقدر سيكون ، ويقعد عن العمل والجهاد . انك أن فعلت ذلك برهنت على « أنك لا تدرك معنى القدر ، ولم تر ذاتك أو تر الله » فثمة علاقة خاصة تربط المؤمن والله « فالمؤمن يتوجه الى الله بالسؤال والدعاء قائلا : انا نتواءم معك فتواءم معنا » اننا نخضع لمشيئتك ونمتثل لأوامرك ونتجنب نواهيك ، فتقبل ـ بفضلك وجودك ـ دعاءنا وتضرعنا . عندئذ ، وبعد أن يستجيب الله دعاء المؤمن « يكون عزمه هو الخلاق لقدر الحق ، ويكون سهمه يوم الوغى هو سهم الحق » ، فيصبح عزم هذا المؤمن الذى أفضى به الى الله اثناء نجواه هو القدر واذا خرج سهم من قوسه يوم النزال يكون كأنما خرج من قوس الله تعالى كما قال للمصطفى (ص) « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »(١) .

٣ ـ الذات الانسانية حق لا باطل :

يسأل زنده رود الحلاج قائلا : قصار النظر أثاروا الفتن ، وعلقوا عبد الله فى المشنقة ، ان غوامض الكون واضحة بينه لك ، فقل لى اذن ماذا كانت جريرتك ؟

وسنلاحظ ان اقبالا يحاول هنا أن يطور أفكار الحلاج ، لاسيما نداءه الشهير : أنا الحق(٢) ، بما يتفق ونظريته هو عن الذاتية . وهو بهـذا يخرج بنظرية جديدة عن الحلاج ، ولا يعتبره مشركا نادى بالحلول والاتحاد كما رماه معاصروه ، وانما يعتبره مؤمنا حقا ، آمن بالله كما آمن فى نفس الوقت بقيمة الذات الانسانية .

يقول الحلاج : « كان فى صدرى صوت الصور ، لقد رأيت أمة تتجه مسرعة نحو القبر ، مؤمنون لهم اخـلاق الكفار ورائحتهم ينطقون بـ (لا اله الا الله) وينكرون ذواتهم » .

لقد كانوا بعيدين عن المفهوم الحقيقى للتوحيد الذى يجعل الانسان يحيا حياته مرفوع الرأس ثابت الجنان ، يعرف قدره وقيمته فى هذا الكون ، ولكن معاصرى كانوا بعيدين عن روح التوحيد ، « وقالوا أمر الحق (أى الروح الانسانية) صورة باطلة لانهـا مرتبطة بالماء والطين » ، فقـال المتكلمون منهم بمادية النفس الانسانية وبأنها ليست جوهرا روحيا مجردا ، وقال الصوفية بأن الهدف هو الفناء .

وعندما رأيت هذه الحال منهم تجلى مالدى من طاقات ذاتية « أشعلت فى نفسى نار الحياة ، وحدثت الميت عن أسرار الحياة وخباياها » .

---

(١) سورة الانفال : ١٧

(٢) قال الحلاج فى كتابه الطواسين (ص ٥) : « وقلت انا : ان لم تعرفوه فاعرفوا آثاره وأنا ذلك الأثر وأنا الحق لأنى مازلت أبدا بالحق أحق » .

يقول الحلاج : « لقد أسس العالم على الذاتية ، وعندئذ خلطت المحبة بالقهر » فقد خلق الله تعالى هذا الكون كى يكون ميدانا لصراع الذات الانسانية فلو لم يكن الكون فما الشيء الذى تسخره الذات وتسيطر عليه وتستخدم فيه قواها وتترقى من خلاله فى مدارج الرقى ؟؟ ولقد أودع الله فى ذات الانسان — بعد أن هيأ لها مجال صراعها وترقيها — شأنين هما الجمال والجلال ، ففى الجمال يكمن هذا الشوق للقاء المحبوب، والشفقة على خلق الله فيصبح وجودها رحمة للعالم بأسره . وفى الجلال تكمن الرغبة فى تسخير الكون كى تنفذ فيه أحكام الله .

« والذاتية مرئية هنا وهناك ، وغير مرئية ، ان بصرنا لا يقوى على النظر الى الذاتية » فأعمال الذات ظاهرة فى الكون وان كانت الذات نفسها خفية غير مرئية .

والذاتية نقطة من النور ، « فى نورها نيران كثيرة خفية » .

« تجليات الكائنات من طورها » فهذا التوقد الدائم المستمر ، وهذا الصراع المتواصل يتحول فى النهاية الى نور ، فتصبح جزءا من حقيقة خالدة ، وتنشر أشعتها على الكون كله .

وأصل الذات نور ، وخواصها نار ، فبنور الذات يصبح الانسان خليفة لله فى الأرض وبنار الذات يسيطر على الكون .

« فى كل حين يتحدث كل قلب فى هذا الدير العتيق (الدنيا) — خفية — عن الذات » فكل افعالنا تشهد على تفرد كل كائن عن غيره .

« وكل من لا يأخذ نصيبا من نارها ، هو فى الدنيا ميت فى غفلة عن ذاته » ، فاذا لم يستعمل الانسان امكاناته الخفية ، ويحكم شخصيته ، فلن يكون فى مقدوره التغلب على الحاح المادة ونوازعها ، وسيبقى فى الدنيا غريبا عن ذاته لا يكاد يعرف طاقاتها وقواها الكامنة ، فلا يصل الى مرتبة الخلافة ، ولا يتمكن من الهيمنة على الكون .

« الهند وايران عارفان بسر نورها ، ما أندر من يعرف نارها » .

ويبدو أن اقبالا يقصد بالهند « غالبا » ويقصد بايران « الطاهرة ». وهكذا يتضح لنا اذا رجعنا الى الأبيات السابقة أن اقبالا كان يوقن بأن فكرة الذاتية لم تكن متكاملة عند كل من غالب والطاهرة ، وانما أخذا منها جانبا واحدا فقط هو جانب النور او الشوق والتطلع الى الذات الالهية ، والحب ، والرحمة والسلام . أما جانب النار وهو الجهاد والعمل من أجل تسخير الكون وتنفيذ الشرائع والاحكام الالهية فيه فقد كانا بمنأى عنه .

ويبدأ الحلاج بعد ذلك فى الرد على سؤال « زنده رود » فيقول : لقد حدثت المسلمين عن جانبى الذات ، عن حقيقتها باعتبارها جزءا من النور الالهى ، وعن صفاتها باعتبارها نارا من شأنها أن تسخر الكون ،قد كان هذا ذنبى « يا زنده رود » ولكن « حذار ، فان ما فعلته أنا قد فعلته أنت ، لقد حاولت أنت أيضا أن تبعث الموتى ، فحذار » . لقد تحدثت أنت أيضا عن الذات بجانبيها وحاولت أن تحيى أمة ولت وجهها شطر القبور ، فاحذر أن يحيق بك مثل ما حل بى .

ويمكننا أن نستخلص من هذا كله أن اقبالا لا يعتبر قولة : « أنا الحق » التى قالها الحلاج ، كفرا وشركا بالله واعراضا عن تنزيهه ، وانما يعتبر أن معناها : « أنا الحق » أى أن الذات الانسانية حقيقة خالدة ، وهذا يشبه نظرية اقبال المعروفة بالذاتية ، كما سبق أن أشرنا .

٤ — الطاهرة : من ذنب العاشق تنشأ عصور جديدة :

تعقب « قرة العين » على اقوال الحلاج قائلة . « من ذنب العبد المجنون تتولد مخلوقات جديدة » ، فان العاشق لو أذنب فان ذنبه ينطوى على جانب خير خفى للبشرية ، وأن معاصرى هذا العاشق الذى بلغ حد اللامبالاة التامة بما سوى الله سوف يتهمونه بالزندقة ويعتبرون دعوته كفرا ومجافاة للفطرة الانسانية لكن الأيام لا تلبث أن تثبت صدق حدس هذا العاشق ، ولا تلبث أفكاره — اذا تحققت بعد فترة من الزمان — أن تحدث انقلابا فى الدنيا من شأنه أن يفيد الانسانية بأسرها .

وتشير الطاهرة الى الحكاية التى أوردها فريد الدين العطار فى كتابه « تذكرة الأولياء » عن الحلاج والتى تنبأ فيها بمقتله ، كما مر ، وتقول :

« ان الشوق غير المحدود يمزق الحجب ، ويزيل أمام الرؤية كل ما هو بال وقديم ، وفى النهاية يلتقى (العاشق) مع نصيبه من المشنقة والحبل ولا يعود حيا من درب الحبيب » .

ولكن عودته تعرف بآثاره التى بقيت بعد مضيه فى الطريق الى الله ، ان باستطاعتك يا زنده رود أن ترى آثاره هنا وهناك ، « فاشهد تجلياته فى المدن والحقول كى لا تظن أنه انتهى وانقضى من هذا العالم » ، لقد صاح صيحة جعلت الذات الانسانية تقف على قدرها وقيمتها ، فاخذت تتطلع الى تسخير العالم وتعمل من أجل تحقيق هذا الهدف ، لقد حدث هذا التحول بعد انتقاله الى ديار الحبيب ، ويمكنك أن تشهد آثار التحول الذى أحدثه فى العالم من حولك .

« فالعاشق المجنون يظل مختفيا فى ضمير عصره ، ولكن أنى لهذه الخلوة (أى عصره) أن تحتويه ؟ » اذ أن الآفاق لا تحتوى العاشق الجسور فهل يمكن لعصره وحده أن يحتويه ، ان آثارهذا العاشق تظل تعمل عملها وتؤدى دورها فى ايقاظ الانسانية كلما ران عليها السبات وغابت عن نفسها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٥ — الأنين ... والقلب المحترق :

وهنا يتوجه « زنده رود » بهذا السؤال الصعب المعقد الى غالب : يامن أوتيت عناء البحث (الخالد) اشرح لى معنى هذا البيت من شعرك :

« القمرى حفنة من تراب . والبلبل قفص من الألوان ... أيها الأنين ما علامة قلب محترق(١) ؟ » . وهذا البيت قاله غالب بالأردية ضمن قطعة أثارت الكثير من الجدل حولها فى الهند (٢) .

---

(١) انظر ديوان غالب (اردو) ص ٢١٢ طبع برلين ١٩٢٥ م

(٢) كليات غالب ص ٤٥١ لاهور ١٩٢٨ .

واذا نحن ألقينا نظرة على أشعار غالب نجده يتحدث فيها عن جانبين متضادين فى ذاته ، فقد قال فى احدى قصائده انه من الخارج ماء أما من الداخل فهو نار تتلظى :

از برون سو آبم   أما از درون سو آتشم

ويرى الأستاذ « دار » أن هذا المعنى هو الذى دعا غالبا الى التعبير عن حالة العاشق بلفظ « القلب المحترق »(١) .

ويحمل البيت الذى نقله اقبال من شعر غالب معنى هذا التضاد ايضا ، فهو يبين أن النواح الصادر من قلب محترق يتفاوت تأثيره من عاشق لآخر أو يختلف هذا التأثير فى نفس العاشق من حين لآخر ، فالقمرى يموت ويتحول الى حفنة من تراب بتأثير نواحه ، والبلبل يكتسب الوانه الزاهية بفضل هذا النواح والأنين الذى يصدح به حينا بعد حين ، وهذا المعنى أورده اقبال على لسان غالب فى قوله :

— الأنين الذى ينبع من حرقة الكبد ، تبدى لى تأثيره فى كل مكان
— فالقمرى قد تلف بتأثيره ، وبه اكتسب البلبل الوانه

ثم يستطرد غالب قائلا " ان أنين العاشق ينطوى على جوانب متضادة متعارضة فيما بينها ففيه الموت فى أحضان الحياة ، وفى لحظة واحدة تكون هنا حياة وهناك ممات ، ومنه تتبدى امثال هذه الألوان البديعة الشبيهة بتلك التى زين بها « مانى » كتابه ومنه أيضا يتولد مثل هذا اللون الباهت » (٢) .

ثم يلخص غالب أقواله السابقة كلها فى بيت واحد يقول فيه « أنت لا تدرى ، فهذا هو مقام اللون والرائحة ، ونصيب كل قلب بقدر الآهات» ، ربما كنت لاتعرف — يازنده رود — أنعالم اللون والرائحة ينال من العناية الالهية قدرا يوازى ما يصدره من أنين ونواح ، فانك اذا أدركت حقيقة الأنين ومدى تأثيره فانك ستتقبل عن طيب خاطر — ما ينطوى عليه من جوانب متضادة .

فالعبرة بالأنين ومدى صدقه وصفائه واخلاصه بصرف النظر عن عن النتائج التى يتمخض عنها فى الظاهر .

٦ — زنده رود يلاحق غالبا بالاسئلة :

ثم يسأل « زنده رود » غالبا : ان مئات العوالم ظاهرة فى هذا الفضاء اللازوردى ، فهل هناك أولياء وأنبياء فى كل عالم ؟

وفى هذا السؤال تلميح للمناظرة التى جرت فى سنة ١٨٢٠ م بالهند بين « فضل حق الخير آبادى » المنطقى الكبير الذى لعب دورا كبيرا فى تخليص الدين من الخرافات « واسماعيل شهيد الدهلوى » الملقب بمحيى

(١) أنظر مقالا بالانجليزية للأستاذ « دار » ، بعنوان « غالب واقبال » ، أكتوبر ١٩٦٩ ، ص ٢٥ — ٤٤ .
(٢) مانى هو مؤسس المانوية ، وكان له كتاب مملوء بالصور الملونة البديعة ، فقد كان مانى رساما بارعا .

السنة والذى قاد حركة اصلاحية بين مسلمى الهند . وقد دار الحوار بين العالمين الكبيرين فى المناظرة حول هذا السؤال : هل يستطيع الله تعالى خلق نظير لخاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وسلم) أم لا يستطيع ؟ وكان « فضل حق » يدافع عن الرأى القائل بأن نظير الرسول ممتنع الوجود وليس تحت القدرة الالهية . وبمعنى آخر أن الله لا يستطيع خلق محمد آخر . أما اسماعيل شهيد فكان يرى أن الله تعالى لا يخلق نظيراً لخاتم النبيين (لأن النبوة قد ختمت) الا أنه قادر على خلقه .

والواقع أن « غالبا » نفسه كان طرفا فى هذه القضية ، فقد طلب اليه صديقه « فضل حق » أن يكتب قصيدة يؤيد فيها وجهة نظره ويدافع عنها ؛ فكتب غالب مثنويا بعنوان : « بيان ظهور شأن النبوة والولاية التى هى فى الحقيقة شعاع نور الأنوار الالهى » أنتهى فيه لا الى تأييد رأى صديقه « فضل حق » وانما الى الدفاع عن وجهة النظر الأخرى حيث قال : « أنظر وجه زينة العالم ، قمر واحد شمس واحدة ، خاتم واحد » (١) .

لكنه ما لبث أن أضاف قوله ان الله برحمته غير المتناهية يستطيع أن يخلق عوالم عدة ، وان كل عالم يمكن أن يكون له خاتم لانبيائه(٢) .

ويجىء اقبال هنا فيسأل « غالبا » عن معنى قوله : أن لكل عالم أولياءه وأنبياءه ، فيجيب غالب قائلا :

« دقق النظر فيما كان ولم يكن ، تأتى العوالم الى الوجود باستمرار » انك يا « زنده رود » اذا أنعمت النظر فستجد أن عملية الخلق مستمرة ومتجددة على الدوام ، وفى كل حين يظهر عالم جديد ، ولذا فانه « حيثما ارتفعت ضجة عالم يكون هناك أيضا ((رحمه للعالمين)) ، أى أنه لابد لكل عالم من هذه العوالم التى خلقها الله فى الكون من وجود رحمة للعالمين فيه .

وهنا يقول له زنده رود ، معترفا بعجزه عن فهم المعنى الذى يقصده غالب .. « زدنى ايضاحا فادراكى فج » .

فيرد عليه غالب : من الخطأ التحدث عن هذه الأشياء بوضوح ، فيجيبه « زنده رود » قائلا : اذن فهل أقوال أهل القلب هباء وعبث ؟ فيقول له غالب : من الصعب التفوه بمثل هذه الدقائق .

وهنا يلح « زنده رود » عليه ويضغط حتى يستطيع أن يستخلص منه مايعنيه ، فيقول له : انك كلك نار من حرقة الطلب والبحث ما أشد عجبى ألا يمكنك السيطرة على قياد الكلام .

ويبدو غالب وكأنه يريد أن يلفت نظر زنده رود الى ناحية أخرى ، فهو مازال يفضل عدم الاجابة على السؤال الأول الذى هو فى الحقيقة : هل يستطيع الله أن يخلق نظيرا لمحمد أم لا ؟ ان زنده رود يبغى أن يحصل منه على اجابة شافية حاسمة . ولكن غالبا يعمد الى المراوغة ويحاول صرف نظر اقبال عن السؤال الأول ، ويقول : « الخلق والتقدير والهداية ، هذه كلها بداية ، ورحمة للعالمين هى النهاية » .

---

(١) كليات غالب ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) انظر مقال الأستاذ « دار » المشار اليه ، وانظر أيضا شرح جاويد نامه ص ٨٩٠ — ٨٩٣

فهو اذن يشرح هنا معنى **رحمة للعالمين** التى وصف بها الرسول (ص).
والبيت مشتق من الآيات الكريمة « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » (١) ، فالله تعالى يخلق ويسوى ثم يودع فى كل مخلوق أهدافه ثم يقدم له هاديا من خلال نفسه . ولكن الصوفية العارفين يرون أن هناك هدفا وغاية لعملية الخلق هذه ، ألا وهو الوصول الى مرحلة من الكمال ، وهى التى وصفت بأنها رحمة للعالمين ، أو سميت بالانسان الكامل ، وهو الهدف النهائى من الخلق(٢) لقد وصل الخلق الى غايته فى « محمد » — صلى الله عليه وسلم — ومن هنا جاءت نظرية « **الحقيقة المحمدية** » .

ويرى نيكلسون « أن الاعتقاد بأزلية الوجود المحمدى ظهر فى عصر مبكر جدا عند الشيعة ثم أخذ به أهل السنة من بعدهم ، فمحمد أو بالأحرى الحقيقة المحمدية لا الصورة المحمدية الجسدية هو مبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، فهو بهذا المعنى روح كل شىء وحياته وهو من جهة أخرى الواسطة بين الله وعباده ، والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه ، وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية » (٣) .

ويرى الأستاذ « دار » أن هذه الفكرة ظهرت أولا عند الحلاج ، ثم ابن عربى ثم الجيلى ، واصبحت بعد ذلك : « سلعة رائجة فى التصوف والشعر الاسلاميين » .

والواقع أن القائلين بالحقيقة المحمدية يرون أن محمدا (ص) هو غاية الخلق وذروة كماله اذ هو أعرف مخلوق بربه وأخشاه له كما وصف نفسه، ولذا كان مهبط الوحى الأتم والرسالة العامة ومصدر الفيوضات الروحية والكمالات المعنوية على كل المستعدين لها من خلق الله ، كما يلاحظ نيكلسون .

ولكن هناك جانبا آخر من فكرة الحقيقة المحمدية تجلى بصفة خاصة فى أقوال الحلاج فى كتاب الطواسين ، وفى بعض كتاباته وأشعاره الأخرى وهو اعتبار محمد (ص) مصدرا أو معبرا تمر منه الفيوضات الالهية لتكمل الكائنات كلها ، لا لتكمل الانسان وحده فحسب .

وهذا الجانب هو الذى يحاول اقبال أن يشرحه هنا على لسان الحلاج بقوله :

— ان رأيت فى أى مكان عالما ذا لون ورائحة ، عالما تنبت الارادة من ترابه .

---

(١) سورة الأعلى : ١
(٢) دار : غالب واقبال .
(٣) نيكلسون : الشخصية فى التصوف ، ثلاث مقالات ترجمها المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى ضمن كتابه فى التصوف الاسلامى وتاريخه.. الخ أنظر ص ١٥٩ .

— فاما أن يكون مزدانا بنور المصطفى ، واما أنه مازال ينشد المصطفى .

فمحمد رحمة للعالمين لا لعالم الانسان وحده ، ولا لأهل الأرض وحدهم ومن ثم فالعوالم كلها تنشده ، أى أنها تتحرك شوقا اليه ورغبة فى الوصول الى درجته من الكمال والقرب من الذات الالهية ، فكأنه اذن هو السبب فى تحرك الكائنات لأن الأشياء كلها تجتاز مستوى من الوجود الى مستوى أعلى شوقا الى هذا الكمال الذى تمثل فى المصطفى ، كى تحصل على رونقه ، وتتحلى بنوره . فهى دائما تنشده ، ومن ثم كان هو قوة كونية فاعلة بهذا المعنى ، كان هو الذى أثار حافز التحرك والتكمل فى كل شىء .

فمحمد اذن عند الحلاج — وربما عند اقبال — هو غاية الحركة الكونية كلها نحو الكمال لاغاية الانسان وحده ، وهو محرك الكائنات كلها نحو كمالها المنشود .

وفى ضوء هذا المعنى — الذى حاولنا استخلاصه من السياق العام للمنظومة — يمكننا أن نفهم ما يأتى على لسان الحلاج فى وصفه التالى لـ « عبده » ونسبته بعض الصفات الالهية اليه .

نعود الآن الى الحوار الدائر بين « زنده رود » وغالب الذى حاول الهرب من الاجابة على السؤال الأول ، فنجد زنده رود مازال يلاحقه ويقول «لم اشهد الى الآن وجه المعنى ، الا ان كانت لديك نار فأحرقنا » .
فاضطر غالب أخيرا الى الاعتراف بعجزه عن الافصاح عن المعنى قائلا : « يا زنده رود ، يا من تكتشف مثلى اسرار الشعر أن هذا الكلام أزيد من أن تحتمله أوتار الشعر ، اننى معك فى أن الشعراء قد زانوا محفل الكلام ، انهم كالكليم ولكن دون يد بيضاء (انهم ملهمون دون اعجاز) ان ما تطلبه منى اساءة ادب بل هو كفر ، وهو يسمو على الشعر ويعلو عليه » . فربما جاز لنا نحن معشر الشعراء — أن نسىء الأدب على أعتاب الله ، فرحمته وسعت كل شىء ، ولكن اتخاذ الحيطة هنا واجب ونحن على أعتاب النبوه فى أكمل مدارجها ، كما قال القائل :

باخدا ديوانه باش ، وبا محمد هوشيار(١)

ومعناه : كن مجنونا مع الله ، يقظا واعيا مع محمد .

كان الحلاج يرقب هذا الحوار عن كثب ، فلما رأى من « زنده رود » اصرارا ومن غالب تحرجا ، قال لزنده رود :

« اذا رأيت فى أى مكان عالما ذا لون ورائحة ، عالما تنبت الارادة من ترابه ، فاما أن يكون هذا العالم أو ذاك قد حصل على رونقه بنور المصطفى واما أنه ما يزال ينشد المصطفى » فكل الأشياء فى أى عالم تراه لا قيمة لها ولا رونق فيها ان لم تكن قد استنارت بعد بنور

---

(١) هذا التخريج مأخوذ من الأستاذ يوسف بسليم جشتى ، شرح جاويد نامه ، ص ٨٩٤

المصطفى (ص) لأنها تظل ناقصــة ما لم تكتمل بهذا النور ، ولذا فهى تظل تبحث وتتطلع الى ظهور نور المصطفى . وقد عبر اقبــال عن تأثير ظهور النور المحمدى فى هذا الكون قائلا فى قصيدته « شــكوى » التى نظمها فى وقت مبكر من حياته ، وقد ترجمها الشيخ الصــاوى شعلان الى العربيــة :

قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضا وأزهــارا بغير شميم
والوردفى الأكمام مجهول الشذى ... لا يرتجى ورد بغير نســيم
بل كانت الأيــام قبل وجــودنا ... ليــلا لظالمهــا وللمظــلوم
لمــا اطــل محمــد زكت الربى ... واخضر فىالبستان كل هشيم
واذاعتالفردوس مكنون الشذى ... فاذاالورى فى نضرةونعيم (١)

وهكذا أجاب الحلاج على سؤال « زنده رود » قائلا : ان المصطفى هو غاية الخلق وذروة الكمال فى كل عالم ، فكيف يتسنى لنا أن ننشد كمالا بعده ؟ أى أن الحلاج من القائلين بامتناع نظير خاتم النبيين (ص) .

مجمل القول أن اقبالا جعل من حواره مع غالب مدخلا الى التعرف على آراء الحلاج فى « الحقيقة المحمدية » وهى جانب هــام من جوانب فلسفة الحلاج . وثمة جانب هام آخر لهذه الفلسفة سيتعرض له اقبال بعد قليل ، وهو نظرية الحلاج فى « ابليس » .

٧ ـــ ما حقيقة ((عبــده)) ؟

يحاول اقبالهنا ـــ على لسان الحلاج ـــ ان يعرف بالحقيقة المحمدية فى أبيات يرى الأستاذ جشتى انها أصعب وأعمق وأدق نقطة فى رسالة الخلود ٢)ولعل السبب فى نظرته اليها على هذا النحو يرجع الى أنه حاول شرحها فى ضوء فلسفة وحدة الوجود وعلى هدى من آراء « ابن عربى » بينما لم يكن اقبال ـــ شأنه فى ذلك شأن الحلاج ـــ من المؤمنين بفلسفة وحــدة الوجــود .

ويخيل الى أن اقبالا عمد الى بيــان عجز « غالب » عن الافصــاح عن معنى الحقيقة المحمدية ، لأن « غالبــا » لم يكن فحسب من المؤمنين بوحدة الوجود بل كان أكبر منافح ومدافع عنها بعد ابن عربى ـــ كمــا يقول الأستاذ « دار » فى مقــاله المذكور آنفــا ، وكأن اقبالا لا يسيغ رأى القــائلين بوحــدة الوجود فى هذه القضية .

لذا فقد أخرج القول الفصل فى قضية « الحقيقة المحمدية » من نطاق وحدة الوجود وجعله على لسان الحلاج الذى تحدث عن الحقيقة المحمدية قبــل احــد عشر قرنا تقريبــا من تأليف رســالة الخلود ، فلقد أشــار الحلاج فى طاسين الفهم الى المعراج النبوى وعرض لسورة النجم بطريقة حافلة بالأسرار (٣) ، وفى طاسين السراج تحــدث الحلاج عن أوصافه

---

(١) انظر .. فلسفة اقبال ص ٨٥

(٢) انظر شرح جاويد نامه ص ٨٦٨ وما بعدها .

(٣) انظر كتاب الطواسين صفحة ١٩ ـــ ٢١

ونوره الذى خلق قبل كافة الموجودات فقال : « همته سبقت الهمم ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لانه كان قبل الأمم ، ما كان فى الآفاق ووراء الآفاق ، أظرف وأشرف وأعرف وأنصف وأرأف وأخوف وأعطف من صاحب هذه القضية وهو سيد البرية الذى اسمه أحمد ، ونعته أوحد ... الخ » (١)

حين رأى « زنده رود » استعداد الحلاج لكشف الحقائق ، توجه اليه بسؤال آخر قائلا :

أسألك برغم أن فى السؤال خطأ وتبجحا ، ما سر هذاالجوهر المسمى المصطفى أهو انسان أم جوهر فى الوجود ذلك الذى نادرا ما يأتى الى الوجـــود ؟

ويرد عليه الحلاج قائلا : « ان الدنيا لتحنى الجبين أمامه ، لقد سماه الله نفسه **عبده** (٢) .

«عبده تجل على فهمك — يازنده رود — لانه انسان كما هو جوهر» فهو انسان وجوهر فى نفس الوقت ، أى أنه — كما عبر الحلاج نفسه — يتمتع بصفتى الناسوتيه ، واللاهوتيه . قال الحلاج مرة وهو يناجى ربه : « وكما أن ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتيك غير ممازجة اياها . فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتى غير مماسة لها » (٣) .

« أن جوهره ليس عربيا ولا عجميا ، هو انسان وما زال أقدم من الانســان » فوجوده متقدم على وجود آدم وثمة حديث يرويه الصوفية فى هذا الصـدد هو قوله صلى الله عليه وسلم . « أول ما خلق الله نورى » .

وسنلاحظ أن الحلاج يخلع هنا بعض صفات الذات الالهية على«عبده» فهو يقـــول :

« عبده مشكل ومصـور للأقدار ، فيه الصحارى والخرائب ، وفيه الأماكن المزدهرة العـامرة ، وعبده يحيى الروح ويأخذها ، عبده زجاج وهو حجر ثقيل » ، فهو اذن صـانع أقـدار الكون ، وفيه طاقة التدمير والتخريب ، كما أن فيه قوة الاحياء والتعمير . وهو يحيى الروح ويأخذها ، فهو المحيي والمميت ، وهو مظهر للرحمة الالهية (زجاج) كما أنه مظهر للغضب الالهى (حجر ثقيل) .

«العبد شىء وعبده شىء آخر ، كلنا فى انتظار ، وهو المنتظر » فنحن — معشر عباد الله — ننتظر ونترقب الوصول الى الله كى نرى وجهه ،

---

(١) أيضا ، ص ١١

(٢) اشارة الى قوله تعـالى « سبحان الذى أسرى بعبـده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ... » (الاسراء : ١) « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » (الكهف : ١) « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده .. » (الفرقان : ١) «فأوحى الى عبده ما أوحى» (النجم : ١٠) « هو الذى ينزل على عبـده آيات بينـات .. » (الحديد : ٩) .

(٣) أخبـار الحلاج ، ص ٨

أما **عبده** فقد كان الله ذاته — تعالى شأنه — ينتظره عندما دعاه ليلة الاسراء والمعراج لرؤيته .

ويستطرد الحلاج فى نسبته بعض الصفات الالهية الى عبده قائلا : « عبده هو الدهر والدهر من عبده ، اننا كلنا لون وهو بلا لون ورائحة » والشطر الأول اشارة الى ما ورد فى حديث قدسى من قوله تعالى « لا تسبوا الدهر فأنا الدهر » واللون والرائحة تعبير عن المادة والمحسوس ، فهو غير محسوس كالذات الالهيه نفسها ، فقد قال الرسول (ص) عندما سئل هل رأى ربه : « نور ... أنى أراه ؟ »

«وعبده ذو بداية ولا نهاية له ، كيف يليق صباحنا ومساؤنا بعبده ؟» ، فهو ذو بداية لأنه مخلوق ، ولا نهاية له لأنه متحرر من قيود الزمان والمكان ، انه ليس مثلنا مكبلا بأغلال الزمان والمكان .

« ما من أحد عارف بسر « عبده » « عبده » ليس سوى سر الا الله »، ان سره هو لا اله الا الله ، انه سر الهى ، ومعرفته معرفة لله ذاته .

ثم يصل هنا الى مرحلة التصريح فيقول « لا اله الا الله » سيف وحده عبده » **اذا أردت المزيد من الايضاح فقل : هو عبده** » ، أى أن الله تعالى هو نفسه عبده ، فمحمد تلخيص للارادة الالهية من الوجود .«عبده كم وكيف المخلوقات ، عبده السر الدفين فى المخلوقات ، لن يتضح لك المعنى الحقيقى لهذه الأبيات ، طالما لم تدرك شيئا من مقام : **ما رميت** » وما لم تتعمق قليلا فى الآية الكريمة التى قال الله فيها : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ... » (١) .

على أنه يمكننا أن نقول ان اقبالا حاول أن يجرى بعض التعديل على مذهب الحلاج فى هذا الصدد ، فقد نسب الحلاج الى نفسه جميع الصفات الالهية عدا صفة الألوهية والربوبية ، حيث قال وهو يناجى ربه « لا فرق بينى وبينك الا الالهية والربوبية » (٢) .

ولكن اقبالا يعمد — فى رأيى — الى اجراء نوع من التوفيق بين مذهب غالب فى **رحمة للعالمين** باعتباره غاية التخليق وخاتم النبيين ، وبين **انا الحق** عند الحلاج باعتباره تجليا للذات الالهية نفسها بأغلب صفاتها فى نفس انسانية ، ويخرج منها بنظرية **عبده** هذه التى شرحها على لسان الحلاج .

فهو لم يشأ أن يكون كالحلاج التاريخى فينسب للذات الانسانية بصفة عامة صفات هى بعيدة عنها كل البعد ، وانما أراد أن ينسب الصفات التى نسبها الحلاج الى نفسه « أنيته » — لا الى الذات الانسانية بصفة عامة ولكن الى الانسان الكامل ، أى الى محمد (ص) ، الذى يجمع بين الانسان والجوهر الالهى ، والذى هو غاية التخليق فى الكون عند غالب .

---

(١) سورة الأنفال : ١٧

(٢) أخبار الحلاج ، ص ٢٤

بيد ان هذه المحاولة لم تخرج فى مجملها — وان تغيرت بعض تفاصيلها — عن فكرة « الحقيقة المحمدية » عند الحلاج الذى يقول — كما ورد فى كتاب أخبـار الحلاج :

أأنت أم أنـا هـذا فى الهين
حاشـاك حاشـاك من اثبـات اثنين
فأين وجهك عنى حيث كنت أرى
فقـد تبـين ذاتى حيث لا أينى
واين وجهك مقصود بنـاظرتى
فى بـاطن القلب أم فى ناظر العين
بيـنى وبينـك أنى يزاحمنى
فـارفع بأنيك انيى من البـين

فقلتله (أى للحلاج) : هل لك ان تشرح هذه الأبيات قال لا يسلم لأحد معناها الا لرسول الله (صلى الله عليـه وسلم) استحقـاقا ، ولى تبعـا »(١) .

ويختتم الحلاج رده على سؤال زنده رود بهذا البيت : « دعك من القيل والقـال يا زنده رود ، تعمق فى (محيط) الوجود يا زنده رود » ، فاذا أردت أن تعرف حقيقة « عبده » فاعمل على تحصيل المعرفـة الالهيـة وسوف تعرف عندئذ حقيقة « عبده » .

يبدأ « زنده رود » بعد ذلك فى توجيه عدد من الأسئلة الأخرى للحلاج :

٨ — ما معنى المشـاهدة ؟ :

« اننى قليل المعرفة بالعشق ، فما شـأن العشـق ؟ أهو النشوف للمشاهدة ، اذن فما المشاهدة ؟ » .

يجيب الحلاج قائلا : « ان معنى مشاهدة خاتم الرسل (ص) هو تنفيذ أحكامه على نفسك » ، والعمل بمقتضى سنته ، واتباعه فى كل حركاته وسكناته ، وفى عبادته ورياضته الروحيـة ، وفى حربه وسلمه،عندئذ تتجلى فيك خصـائص الكمال التى تجلت فيه ، وتشاهده فى نفسك ، هـذا هو ما يعنيه بقوله : « فعش فى الدنيا كرسول الانس والجان ، كى تكون مثله موضع قبول الانس والجـان . وعندئذ شـاهد ذاتك فهى بمثـابة مشاهدته ، ان سنته سر من أسراره » ، فصفات الرسول تنعكس فيك باتبـاع سنته .

وبوسعى أن أقول : ان هذا الاستنتاج يعد بمثابة التاج الذى توج به اقبال نظريته عن « الذاتية » فالانسان يحكم ذاتهبالعشق الالهى ، ويدعمها ويرقيها بالتصدى للعقبات والتغلب عليها ، واذا ما استطاع اخيرا أن يتغلب على الزمان والمكان — وهما أخطر هذه العقبات فى سبيل الرقى الروحى — تتجلى فيه صفات الرسول (ص) فيستطيع فى النهاية أن يصل الى الحضرة الالهية ويطلب الشهادة على ذاته من الله نفسه .

---

(١) أخبار الحلاج ، ص ٧٥ — ٧٦ .

فالرسول (ص) عند اقبال ، هو الانسان الكامل ، وهو مصدر الالهام في طريق الرقي والتكمل ؛ فيجب على السالك في كافة مراحل تجربته الروحية أن يعلق بصره بالرسول ، ويقتدى به ويعمل بسنته ، ويهتدى به في معراجه الذى لم ينشد في نهايته الفناء في الذات الالهية ، وانما عاد الى العباد كي يواصل نشر شريعة الحق بينهم .

ويمكننا أن نعتبر أن هذه هي احدى الاضافات الرئيسية التى أضافتها « رسالة انخلود » الى فكر اقبال .

ثم يحاول « زنده رود » أن يرقى درجة أعلى في مقام « المشاهدة » وهى مشاهدة الذات الالهية نفسها ، فيسأل الحلاج : « ما مشاهدة اله الأفلاك التسعة ، الذى لايدور قمر ولا شمس دون أمره » .

وفي اعتقادى أن في السؤال تورية ، وهو « ماذا عنيت حقا بقولك «أنا الحق » هل شاهدت الحق في ذاتك فتلفظت بهذه الكلمة الخطيرة ؟ » .

يجيبه الحلاج بأن بالامكان مشاهدة الله نفسه في هذا العالم ، وذلك « بايداع أو باحتواء صورة الحق في روح المرء باديء ذى بدء ، ثم بسطها بعد ذلك في العالم » اذ بالامكان التخلق بأخلاق الله ، والاتصاف بأوصافه ، ثم خدمة عباد الله من خلال هذه الأوصاف ، أو بمعنى آخر احكام الذات لتعرج الى مقام « مازاغ البصر وما طغى » ثم تعود لاشعال نار العشق في كل شيء .

« فاذا اكتملت صورة الروح في العالم ، كانت مشاهدة الله مشاهدة عامة » ففى الروح الانسانية قدر من الروح الالهية ، قال تعالى يخاطب الملائكة : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (١) واذا حاول الانسان أن ينمى في روحه هذا الجانب الالهى ويكمله ، وعمل على التخلق بأخلاق الله ظهرت فيه صبغة الله في هذا العالم ، وتمتع أهل العالم جميعا بمشاهدة الله من خلاله .

« طوبى لرجل يجعل الأفلاك التسعة تطوف حول دياره بآهة واحدة من آهاته » ، ان هذا الرجل حينما يقول «هو الله» يلفت أنظار الكون اليه ، فيكون كالمرآة التى تنعكس عليها صورة الذات الالهية ، يقول جلال الدين الرومي في المثنوى : « ان المسجد الذى بنى في قلوب أولياء الله معبد للجميع لأن الله فيه » (٢) .

يقول اقبال على لسان الحلاج منتقدا المفهوم الخاطيء للتصوف :

« واأسفاه على درويش تلفظ بآهة ، ثم زم شفتيه وسحب نفسه الى داخله ، ان مثل هذا الرجل لم يجعل حكم الله يجرى في العالم ، أكل خبز

---

(١) سورة الحجر : ٢٩ .

(٢) نقلا عن نيكلسون « الشخصية في التصوف » ص ١٥٧ من الترجمة العربية ، وأنظر أيضا ، محمد اقبال ، « سير فلسفه در ايران » ، ص ٨٠ وما بعدها .

الشعير ولم يحارب كعلى ، تلهف على « خانقاه » وفر من خيبر ، مارس الرهبانية ولم ير أبدا سطوة السلطان » ، فلقد حبس هؤلاء الصوفيــة انفسهم فى الجحور ولم يرفعوا راية الجهاد بنوعيه الأكبر والأصغر على حد سواء ، أو عكفوا على أحدهما فلم يستقم لهم بدونه الشق الآخر .

يقول الحلاج : ولكن دعنى اسألك يا « زنده رود » : « الديك صورة الله ؟ (ان كانت لديك حقا) فالعالم كله فريسـه لله ، والقدر يشترك مــع تدبيرك فى نفس العنان » اذا أظهرت الصفات الالهية فى ذاتك فانك تجعل كل الكون مطيعا لك ، وتجعل قدر الله مطابقا لتدبيرك لأنك ستفنى رضاك فى رضا الله ، ويكون ما يرضى الله يرضيك أيضا .

سوف ازودك يا زنده رود بنصيحة لن تنفعك وحدك وانما تنفع العالم اجمع : « ان العصر الحاضر يتأهب للحرب معك ، فصب صورة الحق على لوح هذا الكافر » فلقد اصبح العصر الحديث عبدا للمادة ، وسيطرت المادية على حياة الناس جميعا ، ومازال أغلب الناس يكفرون بالله . ونظرا لأن المزاج النزاع للمادية عند هؤلاء الناس لا يصبر على الدلائل العقلية كى تبرهن له أخيرا على وجود الله ، فاجعلهم انت اذن يشهدون المثل الحى لتجلى صفات الحق تعالى فيك ، حتى يذعن هؤلاء الكفار ويؤمنون بالله .

٩ — ما الطريقة الصحيحة للدعوة الى الاسلام ؟ :

وهنا يسأل « زنده رود » الحلاج قائلا : لقد غرست صورة الحق فى العالم ، ولست أدرى كيف غرست » ... وهو يعنى بهذا السؤال كيف يمكن تنفيذ القانون الالهى فى الدنيا ؟

يجيب الحلاج قائلا : غرست اما بقوة المحبة واما بقوة القهر ، ولأن الله اكثر ظهورا فى المحبة ، فان المحبة أولى من القهر . ان للدعوة الى الله طريقين : طريق التصوف المستنير الذى من شأنه ان يجذب الكفار جميعا الى الدخول فى زمرة الاسلام ، وان يجعل المسلمين انفسهم على وعى كامل بأهداف الدين . وطريق آخر وهو نشر الدعوة بقوة السيف — مثلما فعل بعض سلاطين الهند مثل « السلطان تيبو الشهيد » .

« ولكن طريق المحبة فى الدعوة أفضل من طريق القهر » ، فلقد اثبتت التجربة ان الدعوة الاسلامية التى كانت تنتشر بين الناس بالحسنى ، كانت أشد ثباتا واكثر رسوخا من استعمال القوة فى الدعوة (١) . وصدق الله العظيم اذ قال « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضــل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين ».

١٠ — ما الفرق بين الزاهد والعاشق ؟ :

يقول « زنده رود » للحلاج : قل لى ياسيد اسرار الشرق ، ما الفرق بين الزاهد والعاشق ؟ .

---

(١) أنظر توماس ارنولد ، « الدعوة الى الاسلام » ، الترجمة العربية ص ٢٢٣ ، وما بعدها .

يرد عليه الحلاج قائلا : « الزاهد غريب فى هذا العالم عالم الدنيا ، أما العاشق فهو غريب فى عالم العقبى » ، فالزاهد يصرف النظر عن زخارف الدنيا ولا يتعلق بها ، أما العاشق فيصرف النظر عن الجنة والحور والنعيم فى الآخرة ، ولا يعلق قلبه الا بالله تعالى .

١١ — هل الفناء هو هدف الحياة ؟

يسأل زنده رود الحلاج قائلا : « اليس للمعرفة نهاية ؟ وبتعبير آخر هل نهاية الحياة فناء »؟ .

يشير اقبال فى هذا السؤال من طرف خفى الى الخطأ الذى تردى فيه القائلون بمذهب وحدة الوجود ، وهو قولهم بأن الهدف الأسمى انما هو فناء الذات الانسانية فى الذات الالهية كما تفنى القطرة فى البحر .

يرد عليه الحلاج قائلا : « سكر الأحبة من فراغ الكؤوس ، انما العدم جهل بالمعرفة ، يامن تبغى فى الفناء هدفك ، ان العدم لا يمكن ان يكتشف الوجود (الله) » فنشدان الفناء جهل ابدى ، الا يدرى من يهدف الى الفناء أن المعدوم لا يمكنه أن يكتشف الله — وهو الوجود المطلق — ويعرفه ... كيف يمكن للسالك أن يصل الى الوجود اذا كان قد فنى على أعتابه ؟ .

١٢ — الحلاج : تعلم من ابليس التوحيد :

وهنا يطرق اقبال جانبا هاما من جوانب فلسفة الحلاج ، وهو نظريته عن « ابليس » ، فيسأل الحلاج : « ذلك الذى اعتبر نفسه أفضل من من الانسان ، لم تبق فى كأسه خمر ولا ثمالة ... ان حفنة ترابنا عارفة بالفلك ، فأين نار ذلك المعدم ؟ »(١)،ان الانسان وهو حفنة من تراب قد حلق فى الفضاء وعرف الأفلاك فأين ذلك الذى يدل بناره على ترابنا نحن بنى الانسان .

وقد كان الحلاج يرى أن « ابليس » فضل العذاب والفراق على السجود لغير الله ، لذا فهو يرى أن التوحيد الحقيقى وقف على محمد (ص) وابليس. يقول الحلاج فى « الطواسين » : «ما صحت الدعوى لأحد الا لابليس وأحمد (صلعم) ، غير أن ابليس سقط عن العين ، وأحمد (صلعم) كشف له عن عين العين ... قيل لابليس « اسجد » ولأحمد « انظر » هذا ما سجد ، وأحمد ما « نظر » ، ما التفت يمينا ولا شمالا : مازاغ البصر وما طغى » (٢). ويقول الحلاج أيضا : « وما كان فى أهل السماء موحد مثل ابليس ... الخ » (٣) .

يرد الحلاج على زنده رود قائلا : « قل من كلامك عن سيد أهل الفراق، ظامىء الحلق دموى الكأس منذ الأزل » ، لقد قال الله له : « ... فاهبط

---

(١) وفيه اشارة الى الآية الكريمة : « ... قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » (سورة الاعراف : ١٢) .

(٢) الطواسين ٤١ .

(٣) أيضا ص ٤٢ .

منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » (١) « ... اخرج منها مذءوما مدحورا .. » (٢) . لقد طرده الله طردا أبديا ، وجعل فراقه بدون وصال أبدا .

« نحن جهلاء وهو عارف بما كان ولم يكن ، كفره كشف لنا ما يلى من أسرار » :

ا — لذة القيام تتأتى من العثرة ،
ب — لذة الازدياد تنبع من ألم النقص والقصور .
جـ — العشق هو التلظى فى نار المحبة .
د — والاحتراق بغير نارها ليس احتراقا .

وترى الدكتورة « آنا مارى شيميل »(٣) أن فى الأبيات السابقة اشارة الى رأى الحلاج بأن ابليس يستعذب العذاب الذى قدره الله عليه ، وقد أورد ماسنيون قول الحلاج بهذا الصدد فى مقدمته لكتاب الطواسين (٤) :

« قال الحسين بن منصور : لما قيل لا بليس : اسجد لآدم ، خاطب الحق ، « ارفع شرف السجود عن سرى الاك حتى أسجد له ؟ ان كنت أمرتنى فقد نهيتنى» .. قال «فانى اعذبك عذاب الأبد» فقال «أولست ترانى فى عذابك لى ؟ » ، قال « بلى » ، فقال « فرؤيتك لى تحملنى على رؤية العذاب ، افعل ما شئت » .

ويستطرد اقبال قائلا على لسان الحلاج : « لأنه فى العشق والخدمة أقدم ، والانسان بمناى عن أسراره » وهذا شبيه بما جاء فى كتاب الطواسين على لسان ابليس يناجي ربه:« وأنا الذى عرفتك فى الأزل ، أنا خير منه،لأن لى قدمة فى الخدمة ، وليس فى الكونين أعرف منى بك » (٥) .

وربما كان اقبال يضرب المثل فى النشاط والسعى بابليس الذى يسعى بجد ونشاط منذ أن حصل من الله تعالى على مهلة لاضلال بنى آدم « قال أنظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ... » والاضلال وان كان فى حد ذاته أمرا مذموما ، الا أن السعى والدأب والحرص على عدم تضييع الوقت من أجل تحقيق الهدف ... هذا كله هو الذى ينبغى الالتفات اليه من صفات ابليس — فى رأى اقبال .

يقول الحلاج لزنده رود : « فمزق اذن قميص التقليد ، حتى تتعلم من ابليس التوحيد » ، اذا أردت — يازنده رود — ان تكون موحدا حقا فاختر طريق التحقيق وابتعد عن طريق التقليد وانظر الى ابليس ، انه لم يقلد الملائكة ، بل عمد الى التحقيق والتحرى ، ولذا « ماكان فى أهل السماء موحد مثل ابليس ... » (٦) .

(١) سورة الاعراف : ١٢ .
(٢) سورة الاعراف : ١٨ .
(٣) فى مقالها : (منصور حلاج اقبال كى نظرمين) ... الخ .
(٤) ص ١١ — ١٢ .
(٥) الطواسين ص ٤٤
(٦) الطواسين ، ص ٤٢

١٣ — الحلاج : اننا لا نطيق البقاء فى مقام واحد :

ويبدو أن « زنده رود » أعجب الى حـد كبير بالحلاج ، فقـال له « يا من اقليم الروح تحت خاتمك ، ابق فى صحبتنا لحظة أخرى » .

ولكن الحلاج يعرب عن اعتذاره لعدم تمكنه من البقاء مدة طويلة فى مكان واحد ، اذ يقول : « اننا لا نطيق البقاء فى مقام واحـد ، اننـا كلنا شوق الى التحليق . وشغلنا الشاغل فى كل لحظة هو مشاهدة التجليات ، والتوتر بفضل العشق . وعملنا هو التحليق دون أجنحة (التدرج فى مدارج الرقى الروحى) » .

« ظهور سيد أهل الفراق ابليس »

ترى الدكتورة « آنا مارى شميل » أن اقبالا « استمد أفكار الحلاج عن ابليس وعرضها بطريقته الخاصة فى أسلوب رائع فى نواح ابليس »(١) .

ولكننا سنلاحظ فيما يلى محاولة من جانب اقبال للخروج من اطار أفكار الحلاج عن شخصية ابليس ، وهذه المحاولة فى رأيى ناجحة تماما .

فاقبال لا ينساق كلية وراء نظرية الحلاج عن ابليس وانما يعمد أولا الى التعرف على مشكلاته وعلى ثباته استجابة لنصح الرومى : « أنظر قليلا فى وارداته »أنظر مشكلاته وثباته » .

فهو — مثله فى ذلك مثل الحلاج — يتعاطف مع هذه الآهة المكبوتة التى تخرج من بين شفتى ابليس .

انها آهة تعبر عن فداحة المحنة التى زج ابليس نفسه فيها باباته واستكباره ، انها محنـة الفراق عن الذات الالهية ، الفراق الذى ليس نهايته الوصـال — كما هو الحـال للانسان — وانما هو فراق خالد لا وصال له أبدا ولا رجعة فيه .

والحقيقة أن الصوفى وحده — من حيث أن حياته كلها وقف على محاولة الوصـال — هو الذى يحس بمدى جسامة هذه المحنة وثقل وطأتها وعمق أبعـادها ... ويمكننا أن نشتم رائحة هذا التعاطف من النصيحة التى يوجهها « زنده رود » لابليس : « فلتترك شرعة الفراق » .

فشاعرنا لا يكاد يتصور نفسا تعيش بلا أمل فى الوصال ، كيف يتأتى لهذه النفس أن تحيا حقا . وكيف تكون حياتها لو عاشت ، انها حياة بدون أمل حقيقى ، بل هى عين الجحيم .

على أن اقبالا لم يعمل بنصيحة الحلاج له فيتعلم من ابليس التوحيد ، فما كان اقبـال لينساق وراء الحلاج فى هذا الجانب ، وانما ما أعجبه فى ابليس هو ذلك الدأب والسعى المستمر وعدم اضاعة الوقت ، ووحدة الفكر والهدف ، والسعى الذى يتميز به ابليس فى انجازه وعـده للحق تعالى : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبـادك منهم المخلصين » .

---

١) منصور حلاج اقبـال كى نظرمين ، ماه نو اقبـال نمبر ، أبريل ١٩٧٠ ص ١٦٢ — ١٧٦

ويوجه اقبال نقدا مريرا على لسان ابليس لذوى الشخصيات الضعيفة الواهنة التى هى كالهشيم أمام نار الشيطان ، والتى ازدراها الشيطان نفسه وزهد فيها لعدم قدرتها على الاباء والاستكبار .

مجمل القول عندى أن اقبالا قد خرج على فكرة الحلاج عن ابليس . حقا لقد احتفظ ببعض ملامحها ، ولكنه عمد الى تخفيف آثار الغلو فيها والتركيز على الجوانب الايجابية التى يمكن أن تفيد الانسان فى التصدى لأضاليل « سيد أهل الفراق » . فهو يقدمه على أنه غير منكر لوجود الله ، وانه عرض نفسه للقهر الالهى من أجل ان يسهم فى عناء الانسان فى الدنيا — هذا العناء الذى بدونه لا يمكن للانسان ان يترقى روحيا ويصل فى النهاية الى الله . ولكن اقبالا لا ينسى فى عرضه للجوانب الايجابية لشخصية ابليس أن يغمزه فيصور طبيعة الكبرياء والاباء عنده بأجلى معانيها فى احتقاره الشديد للتراب وتعظيمه من شأن النار اعتدادا بنفسه وأ صله . ولا يفوت شاعرنا . فى النهاية أن يجعل ابليس يقول للانسان « احزن من أجلى ، وابتعد عنى » .

١ — ابليس يظهر للرومى وزنده رود :

يقول اقبال : « ان صحبة العارفين لحظة أو اثنتان فحسب (فهى تنتهى فى لمح البصر) ، ولكن هذه اللحظة هى رأس مال الوجود والعدم ، لقد زادت هذه اللحظة من هياج عشقى ومضت ، لقد جعلت القلب صاحب نظر ومضت » .

« واغلقت عينى لأعرف ما اذا كانت آثار اللحظة مازالت باقية فى خاطرى ، ولكى أنقل آثارها من عينى الى قلبى .

« وفجأة رأيت الدنيا أظلمت ، أظلمت من المكان الى اللامكان ، وفى ذلك الليل البهيم تبدت شعلة ، قفز من داخلها شيخ مسن(١) يرتدى عباءة فى لون الكحل ، جسده غارق فى دخان متصاعد .

« قال الرومى : « سيد أهل الفراق ! ما كل تلك النار ، وما كأس الدم تلك ؟ »

٢ — الرومى : تعرف على مشكلات ابليس :

يأخذ الرومى فى الحديث عن خصائص ابليس فيقول : « هو مسن قليل الضحك نادر الكلام عينه تبصر الروح فى البدن (فهو عارف بأحوال القلوب) سكير وملا ، حكيم وفيلسوف ومتصوف وهو فى العمل كالزاهد شديد الاجتهاد (عارف بأسرار الدين) ، فطرته ترفض الشوق الى الوصال ، زهده هجر للجمال الخالد . ونظرا لأنه ليس من السهل الانقطاع عن الجمال الخالد فقد بدأ أولا برفض السجود ، فتمعن — يا زنده

---

(١) تحدثت بعض كتب السيرة عن حضور ابليس فى دار الندوة قبيل الهجرة فصورته فى شكل شيخ نجدى مسن ، فلعل اقبالا متأثر بذلك خصوصا أنه يلبسه عباءة سوداء ، ونجد هذا التصوير أيضا بصورة أدبية رائعة فى كتاب « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل .

رود — فى وارداته القلبية وهواجسه الذاتية قليلا ، وتعرف على مشكلاته وشاهد ثباته ، انه مازال الى الآن مستغرقا فى معركة الخير والشر ، لقد رأى مئات الرسل ومازال الى الآن كافرا » .

٣ — ابليس : احزن من أجلى ، وعش غريبا عنى :

ويقول « زنده رود » وبعد أن سمعت كلام الرومى : « اضطربت روحى فى جسدى من محنة ابليس وبلواه ، وخرجت من شفته آهة ممزوجة بالحزن ، فنظر بطرف عينه الى وقال لى : « من سواى تمتع بالعمل والدأب ، لقد انهمكت فى العمل وقليلا ما استرحت حتى فى أيام الجمعة (العطلات) » فلقد عاهدت الله أن أضل بنى آدم حتى القيامة ، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أتوانى عن العمل والاجتهاد .

والواقع انه لا يجدر بى أن أتوانى عن العمل أو أتخاذل عن القيام بدورى ، « فليس لى ملائكة ولا خدم (يقومون عنى بأداء المهمة) ووحيى بدون منة الرسالة ، ولم آت بكتاب ولا حديث ، ومع ذلك فقد استطعت أن أختطف روح التبسط من فقهاء الدين أنفسهم » ، فظهرت فيهم روح التكبر وسيطرت عليهم الروح العدائية مما أدى الى ظهور الفرق وانتهى بهم الأمر الى « تحويل الكعبة الى كومة من الأحجار ، لا تبعث فهم روح الالهام التى بعثتها فى أسلافهم ، ان دينى لم يؤسس على هذا النحو فليس فى مذهب ابليس فرق أو مذاهب » .

« لقد امتنعت عن السجود — أيها الغافل — فأعددت أرغن الخير والشر » فلو لم أمتنع عن السجود — لما كان فى الدنيا شر ، ولكن : « لا تعتبرنى منكرا لوجود الله فافتح عينك على الباطن ولا تعبأ بالظاهر ، فلو قلت « غير موجود » لكان هذا سفها فليس بمقدور من يرى أن يقول « ليس بموجود » لقد قلت « نعم » فى غلاف « لا » ما قلته أفضل مما لم أقله » ، لقد قلت لا رفضا لأمره والرفض أفضل من الاقرار « بنعم » لأنه ما كان لى أن أسجد لغير الله(١) .

لقد عرضت نفسى للقهر الالهى من أجل «أن يكون لى نصيب فى عناء الانسان وألمه ، ان المشاعل تنبت من مزرعتى أنا ، ولكنه هو قد انتقل من الجبر الى الاختيار » فلقد كان الانسان مجبرا — شأنه شأن الملائكة — ولكن الله أودع فيه القدرة على الاختيار بين الخير والشر بفضلى أنا .

« اننى أظهرت لك مساوئى وخبثى أيها الانسان ، وأتحت لك أنت فى النهاية ذوق الترك والاختيار ، فنجنى — أيها الانسان — من نارى ، وحل عقدة كدحى وأرحنى » .

« وأنت يا من وقعت فى شباكى وأعطيت للشيطان رخصة العصيان ، الا أنصحك بكلمة تنفعك وتنفعنى : عش فى الدنيا بهمة الرجال ، واحزن من أجلى ، وعش فى نفس الوقت غريبا عنى ، وامض متغاضيا عن سمى وعسلى ، حتى لا يصبح كتابى أكثر سوادا ، وحتى تخفف من ظلم سيرتى ، ان الصياد فى الدنيا يعيش على الصيد .... طالما أنت صيد فاننا نسحب سهامنا » .

---

(١) انظر فيما سبق النص الذى نقلناه عن الحلاج فى هذا الصدد ، ص ٢٣٧ .

« ليس لمن له قدرة على التحليق وقوع ، وإذا كانت الفريسة ماهرة فسوف يفشل الصياد حتما » .

٤ ـ ابليس : أنا لا أبغى الوصال :

وبعد أن وجه ابليس هذه النصائح القيمة للانسان ، قال له زنده رود : « مادمت تتألم من الفراق فلتترك شرعة الفراق وأسلك سبيل الطاعة . واترك سبيل العصيان ، لقد قال تعالى على لسان نبيه الكريم (ص) : « أبغض الأشياء عندى الطلاق (١) » ان هذا الانفصال الأبدى شىء بغيض حقا فلماذا اذن لا تترك دواعيه ؟ .

يرد ابليس قائلا : « ان نار الفراق هى متاع الحياة ، ما أعذب سكر يوم الفراق ، لا يجدر بى أن أنطق بكلمة « الوصال » فاذا أردت الوصال لا يبقى هو (الانسان) ولا أبقى أنا » اننى أتعذب حقا من الفراق ، ولكنى مازلت أذكر ذلك اليوم الذى طردنى الله فيه من رحمته فلولا عصيانى لما بقيت ، فحياتى متوقفة على العصيان ، ولو طلبت الوصال لما بقيت أنا ، ولما بقى الانسان ولاختل نظام العالم .

يقول اقبال : « لقد جعلته كلمة الوصال يغيب عن نفسه فتجددت فى قلبه الحرقة والألم ، وما لبث أن انساب داخل دخانه واختفى فيه من جديد ، وارتفع من ذلك الدخان المتصاعد أنين موجع ... طوبى للروح التى يمكنها الاحساس بالألم » .

« نواح ابليس »

يعمد اقبال من خلال هذا النواح الى توجيه النقد للضعف والخور الذى يصيب الذاتيات الضعيفة ويجعلها ألعوبة فى أيدى الشيطان الذى يحتقرها ويزدريها . ولا يغيب عن البال أن ابليس لا سلطان له الا على الغاوين كما قال الله تعالى « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » (٢) .

يتوجه ابليس بالحديث الى الله قائلا : « يا اله الصواب والخطأ ، لقد حطمتنى صحبة الانسان . انه لم يتمرد أبدا على حكمى ، أغمض عينه عن نفسه ولم يدرك ذاته . ترابه غريب عن تذوق « الاباء » (٣) ، غريب عن شرار الكبرياء ، هوفريسة تقول للصياد خذنى .. أنقذنى يا الهى من عبد يغالى فى الطاعة وحررنى من مثل هذه الفريسة . ولتكن طاعتى البارحة شفاعة لى عندك كى تتقبل دعائى .

(١) اشارة الى الحديث الشريف : « الطلاق ابغض الحلال عند الله » .
(٢) سورة الحجر ٤٢ وانظر مقال الاستاذ يونس سعيد،نظرية الشيطان عند اقبال ، مجلة اقبال ريفيو ، أبريل ١٩٦٢ ، ص ٤٨ ــ ٥٧
(٣) والاباء « اشارة الى قوله تعالى عن ابليس : «أبى واستكبر» وقد جمع اقبال بين التراب والشرر تأوما الى استكبار ابليس وامتناعه عن السجود لآدم قائلا لله تعالى « خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

« لقد صارت همتى العاليــة خسيسة بسببه ، واه لى ثم واه لى ، ثم واه لى . فطرته فجــة وارادته واهنــة ضعيفة لا قبــل لهذا الخصم بضربة منى فلمــاذا قضيت على يا رب بأن أعــادى هذا الخصم الضعيف » .

« اننى بحاجة الى عبد صاحب نظر ، يجب أن يتــاح لى خصم اكثر نضجا ، الا فلتسترد منى — يا الهى — دميــة المــاء والطين ، ان لعب الأطفال لا تلائم شيخا مسنا » .

وهنا — ومن خلال اعرابه عن مشــاعر الازدراء بانســان العصر الحاضر — تبدو الخصومة القديمة لابليس ضد طينة آدم : « خلقتنى من نــار ، وخلقته من طين » فابليس يقول :

« ما ابن آدم ، حفنة من الهشيم ، شرارة واحدة منى تكفى حفنة من الهشيم . فان لم يكن فى هذا العــالم سوى الهشيم ، فما الفــائدة اذن من تزويدى بهذا القــدر (الكبير) من النار ؟ . من العــار صهر قطعة من الزجاج ، أما صهر الصخر فتلك مهمة مناسبة » .

ولعلنــا نلمس فى الأبيات السابقة روح الاستكبار والاستعلاء ما تزال عــالقة بابليس حتى وهو ينوح ويشكو . فهو يتباهى بالنــار والشرر على الهشيم الضعيف . كذلك تبدو من خلال أقواله الروح الابليسية فى التمرد ، حتى على التمرد نفسه .

يقول ابليس شاكيا الى الله : « لقد ضقت بالفتوحات والانتصارات ، وها أنذا قــد جئت اليك الآن طالبــا المكافأة والثواب . وكل ما أريده منك رجلا يجرؤ على انكارى ، فامنحه لى أرشدنى الى رجل الله هذا ... اننى فى حاجة الى عبد يلوى عنقى ، وتبعث نظرته زلزالا فى كيانى ، عبد يقول : اذهب من حضرتى (عبد تتجلى فيه الصفات الالهيــة) ذلك الذى لا أساوى أمامه شيئا » .

« امنحنى يا رب رجلا حيــا عابدا لله ، فقد يلذ لى أخيرا أن تصيبنى الهزيمة » .

الفصل السادس

فلك زحل

يصل اقبال فى صحبة الرومى الى فلك اخر ، هو آخر الأفلاك فى هذا العالم الذى يسميه الصوفية والفلاسفة عالم الكون والفساد ، وهو بهذا يقتفى أثر عبد الكريم الجيلى فى معراجه ، حيث عرج من المشترى الى زحل ، ولكن اقبالا يختلف فى تحديد طبيعة هذا الكوكب . فالجيلى يعتبر أن الله خلق سماء زحل : « من نور العقل ، وجعلها المنزل الأفضل فتلونت بالسواد اشارة الى سؤددها والبعاد » (١) .

أما اقبال فيجعل زحل مستقرا للأرواح الرذلة التى خانت أوطانها ، فرفضتها جهنم نفسها .

ما ان يصل الرومى واقبال الى سماء هذا الكوكب حتى يشرع الرومى فى وصفه لاقبال ويقول له : اننا لن نهبط فيه وانما سنلقى عليه نظرة خاطفة من عل ، لأن من الصعب وضع القدم فوق أرضه ، فهو كالمنبوذ من الأفلاك ، وصبحه كالليل لضنة الشمس عليه بضوئها ، وهو مستقر للأرواح التى لن تعرف أبدا يوم النشور ، انها أرواح أنفت جهنم نفسها من حرقهم .

ويوضح الرومى أن « زحل » يضم « طاغوتين » قديمين من طواغيت الهند ، هما : **جعفر البنغالى ، وصادق الدكنى** . ويأخذ اقبال فى وصف ما يتعرض له هذان الخائنان من صنوف العذاب وضروب الويل بما تقشعر له الأبدان ، وتجزع له النفوس حقا ، فمن هما هذان الطاغوتان اللذان يتحدث عنهما اقبال ؟ .

* * *

اننا اذا رجعنا الى تاريخ الهند فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، نجد بريطانيا ممثلة فى شركة الهند الشرقية قد أحكمت قبضتها على جزء كبير من شبه القارة الهندية ، وأن كل معاقل المقاومة ضد الاستعمار قد تهاوت الواحد تلو الآخر ولم يبق سوى معقلين اثنين ، احدهما فى « البنغال » فى الشمال الشرقى لشبه القاره ، والآخر فى «ميسور» فى الجنوب الغربى .

ففى الشمال الشرقى نجد حاكم البنغال « الأمير سراج الدولة » يتصدى بكل عنف وقوة للتدخل البريطانى فى شئون الحكم ، ولا يلبث بعد معارك عدة مع البريطانيين أن يستولى على أحد حصونهم المنيعة فى كلكتا .

---

(١) الانسان الكامل : ج ٢ ، ص ٦٨

ويعمد الانجليز الى أسلوب الغــدر فى التعامل مع هذا الرجل الشديد المراس ، فيعقدون صلحا ، ويتنسمون رائحه الغدر والخيانة فى أحد قواد جيشه وهو « مير جعفر » فيتصلون سرا بهذا الخائن ، حتى اذا وثقوا من مساعدته لهم نقضــوا شروط الصلح ، وهاجموا « سراج الدولة » فخرج بجيشه للقائهم عند « بلاسى » فى ٢٣ يونيو ١٧٥٧ ، وأدار عليهم الدائرة لولا أن « مير جعفر » نفذ خطته وتراخى هو وجنوده فى القتال ، فكانت الهزيمة النكراء لجيش سراج الدولة الذى ما لبث أن قبض عليــه بعد فترة وجيزة وأعــدم . أما « مير جعفر » فقد كان جزاء خيانته أن ولاه الانجليز حكم البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية (١) .

ويعقب الأستاذ عبد المنعم النمر فى كتابه « تاريخ الاسلام فى الهند » على هذه المعركة بقوله : وقد كانت هذه الوقعة مفتــاح تحول فى تاريخ الهند ، فبدأ النفوذ الانجليزى يسيطر على البنغــال . فلم يكن الخائن جعفر سوى ظل أسود ودميــة قبيحة يلعب بها أسياده الانجليز ، ومنذ ذلك الوقت دخلت بنغال فى حكم الانجليز ، وأخذ شبحهم ونفوذهم يزحف على ولايات الهند المتفرقة المتخاذلة » (٢) .

* * *

أما فى الجنوب الغربى من شبه القــارة ، فقد كان « فتح على تيبو » الذى يطلقون عليــه فى الهند السلطان المجاهد الشهيد ، يوشك أن يضرب أروع الأمثلة فى البطولة والاستشهاد فى الاسلام .

لقد ولد هذا المجاهد فى سنة ١٧٤٩ ، ومات فى سنة ١٧٩٩ ، وقضى حياته كلها مجاهدا معرف بالشجاعة والبسالة فى الحروب التى خاضها ضــد الانجليز و « المراهتا » فى أيــام أبيه « حيــدر على » ســلطان « ميسور » . فلم تلن قنــاته حــين تولى الملك بل تزايد خــطره على الانجليز ، وأخذ يعمل بنشاط لا يعرف الكلل فى تقوية جيشه وتزويده بالأسلحة الحديثة من فرنسا التى كانت تنافس النفوذ البريطانى فى الهند . ولكنه أصبح وحده فى الميدان ضــد الانجليز بعد معــاهدة الصلح التى عقدت بين بريطانيــا وفرنســا فى سنة ١٧٨٣ ، ورغم ذلك فقد استطاع أن يوقع بالانجليز العــديد من الهزائم حتى تمكن من اجتيــاح المنطقــة الانجــليزية المجــاورة له بأسرها ، ووصــل الى حــدود « مدراس » سنة ١٧٩٠ ، ولكن الانجليز ما لبثوا أن هجموا عليه بجيش جرار ، فتراجع « تيبــو » الى الوراء ، وطلب الصلح فأجيب الى طلبــه على شرط أن يتخــلى عن جزء من بلاده ، وأن يؤدى غرامــة ضخمة ، وتم ذلك فى سنة ١٨٩٢ . الا أن « تيبــو » بقى حاقــدا على الانجليز ، متحفزا للأخذ

---

(١) أنظر الدكتور أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ص ٤٣٣ ، عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ص ٣٤٨ — ٣٤٩ ، ويرى « ول ديورانت » أن جعفر « دفع للورد كلايف (مدير الشركة الشرقية) مبلغا يعــادل ستة ملايين ريال نظير توليه الامارة » ، (قصةالحضــارة المجلد الأول — الجزء الثالث ترجمة الدكتور نجيب محمود ص ٤٠٢) .

(٢) ص ٣٥٠

بالثأر ، ولبث يراسل الفرنسيين ، وأخذ يدعم جيشه ويقويه حتى خشى الانجليز بأسه ، فارسلوا اليه انذارا أن يتخلى عن محالفة الفرنسيين ، ولكنه لم يعبأ ، فهاجمه الانجليز بجيش كبير يقوده أعظم قوادهم ، وحاصروا « تيبو » فى العاصمة « سرنجابتم » لكنه استبسل فى الدفاع وحاربهم بكل شجاعة ومضاء (١) .

« وفى الوقت الذى كان مستبسلا فى الدفاع تقدم أحد قواده الذين كان يعتمد عليهم ، وهو « مير صادق » ففتح القلعة للانجليز فتمكنوا من السيطرة عليها ، وخر « تيبو » المجاهد شهيدا فى ساحة المعركة ، ودفن فى « سرنجابتم » ولا زال قبره هناك » (٢) .

وهكذا قضى البريطانيون بالخيانة والغدر على آخر أمير مسلم قوى وقف فى وجههم بالهند فى اصرار وايمان وعناد ، وتمكنوا بعد ذلك بالتدريج من بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب(٣) .

وقد أثرت هاتان الحادثتان ايما تأثير فى نفس اقبال،فقد كانت نتائجهما وخيمة حقا على المسلمين فى الهند ، فما لبث البريطانيون أن اضطهدوا المسلمين ، وعملوا بكل الوسائل على اخضاع هذه الروح الثائرة المتمردة فيهم ، وحاولوا ازاحتهم من مسرح الحياة العامة حتى يتقوقعوا على أنفسهم ، فيسهل فى النهاية سحقهم أمام ثقل الهندوس وضغطهم العددى الهائل .

ولعلنا نلاحظ هنا مدى تأثر اقبال بغدر هذين القائدين المسلمين وخيانتهما ، فهو يقول فيهما بيتا أصبح مضرب الأمثال فى الهند(٤): « جعفر من البنغال ، وصادق من الدكن ، هما عار للانسانية ، عار للدين ، عار للوطن » .

ويضعهما فى زورق وسط بحر عاصف من الدماء تطير فى جوه أفاع كأنها التماسيح ، وتزأر أمواجه بشراسة النمور ، وهما باقيان فى هذا الزورق وقد اصفر وجهاهما وتعرى بدناهما وتشعث شعرهما .

ثم لا تلبث روح الهند أن تظهر كأنها ملاك طاهر — ولكنها مكبلة بالقيود والأغلال — وتأخذ تنوح وتولول على حالة الهند فى العصر الحاضر ، وعلى الفرقة والضياع التى يعانى منها الهنود ، وتقول : « متى يتحول

---

(١) الدكتور أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة ... ص ٤٤١ — ٤٤٢ ، عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ص ٣٥٤ — ٣٥٦ ، الأمير شكيب أرسلان : تعليقاته على كتاب : حاضر العالم الاسلامى ج ٤ ص ٤١٩ . وقد عرضنا ببعض التفصيل لسيرة السلطان الشهيد لأننا سنلتقى به كثيرا فى الباب التالى بالفردوس الأعلى وسيكون لزنده رود معه حديث طويل .

(٢) عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند : ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٣) الدكتور أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة ص ٤٤٢

(٤) أنظر يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ص ٩٤٣ ، وعبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ص ٣٥٠

ليل الهنـــد الى نهار ، لقـــد مات جعفر ولكن روحـــه مازالت باقيـــة ، فهذه الروح ما أن تخرج من جسد حتى تعشش فى جسد آخر ، .... انها تتظاهر بالألم والحزن على الاسلام ، ولكنها فى البـــاطن ترتدى الزنار مثل عبدة الأصنام من البراهمة ، ان جعفر — فى أى جسم كان — هو قاتل أمـــة .... انه يبتسم دائما ولا يصـــادق أحدا ، ولكن اذا ضحكت الأفعى فليست بعد سوى أفعى .... أعوذ بالله من جعفر ، أعوذ بالله من جعافرة هـــذا الزمـــان » .

ويأخذ أحد راكبى زورق البحر الدموى بعد ذلك فى النواح والأنين ، ثم يشرح محنتهما بعـــد موتهما ، فلقـــد ذهبـــا الى باب جهنم — طمعـــا فى دخولها من شدة ما هما فيه من الكرب — ولكنها أوصدت أبوابها فى وجهيهما فمضيا الى ملك الموت وطلبا منـــه أن يفنى روحهما كى يستريحا من العذاب ، فقال لهما : اننى لا اهدم الأرواح وانما أهـــدم الأجســـاد فقط ، « انه لا يمكن للموت القيام بمثل هذا العمل ، وان روح الغـــدر لا تستريح بالموت » . وتشرع روح الخائن فى الاستنجاد بالجو ، والبحر ، والأرض ، والسماء ، والنجوم ، والقمر ، والشمس ، وبسادة الغرب وتقول : « أما من مولى للعبد الخائن ؟ » .

وهنا يسمع « زنده رود » وهو يطل من عل ، صوتا رهيبا انفطر له صدر الصحراء والبحر وأخذت الانهيارات الجبلية تتوالى والصخور تسقط فى بحر الدم حتى طمت أمواجه ، فأغرقت الجبال والوديان فى الدم . وكانت النجوم ترقب هذا المشهد المروع ولكنها مضت فى طريقها بلا مبالاة أو اكتراث .

* * *

لقـــد وفق اقبال فى تصويره لهذا الفلك الذى ينزل عليه سخط الله وغضبه فى كل لحظة ، فجعل القارىء يشعر — من الأعماق — بالخوف والجزع ، ويحس الرهبـــة والفزع من سوء المصير الذى لقيـــه هذان الخائنان ومن على شاكلتهما .

ولا يتخلى الشاعر هنا أيضا عن طريقته المعهودة فى استخدام الكنايات والرموز التى تضفى على المعنى أبعادا نفسية جديدة ، وتعمق فى النفس ذلك المفهوم الذى يريد اقبال أن يصوغه فى كلمات قلائل وتجعله يلح على أعماق القارىء ، فلا يكون مجرد فكرة وردت — حين القراءة — ثم مضت ، أوخاطر سنح ثم غاب ، وانما يصبح معنى ملازما لنفس القارىء لا يغادرها ويظل لصيقا بها الى أن تتشربه تماما فيتحول فى النهاية الى جزء منها لا يتجزأ ، والى خبرة جديدة تضاف الى خبراتها .

لقد جعل بحر الدم رمزا للخيانة والغدر ، وجعل الخائنين يقعان وسطه فى زورق لا يكاد يثبت فى غدير هادىء — فما بالك به وهو وسط هـــذه الأمواج الهادرة التى تزأر زئير النمور ، وجعل الأفاعى الهائلة التى تعج بها سماء هذا البحر رمزا للمؤامرات والدســـائس التى يحوكها الخونة فتسرى سمومها فى كيان الأمة وتأخذ فى تقويض بنيانها .

أجل ، لقد نجح اقبال فى هذه الأبيات القلائل فى أن يثير فى نفوسنا الفزع والرهبة وأن يجعلنا نتبين النتائج التى تتمخض عن خيانة الوطن ، والغدر

بالقادة الغيورين على الدين ... انها نتائج مشئومة على الأمة وعلى الخائن سواء بسواء ».

على أن مشاعر الجزع كلها لا تلبث أن تتركز وتتبلور فى نفس القارىء خلال المشهد قبل الأخير الذى ينوح فيه أحد الخونة ، ويشكو فيه النبذ والرفض الذى يتعرض له لا من الوجود فحسب ، بل من العدم أيضا .

ولننتقل الآن الى القاء نظرة على التفاصيل الدقيقة لهذه المشــاهد الرهيبة الموحشة .

الأرواح الرذلة التى خانت أوطانها فرفضتها جهنم

١ — تمهيد :

يقول اقبال وهو يحلق فى فضاءات الكون تاركا « المشترى » متجها نحو « زحل » : « قال لى الشيخ الرومى — وهو امام الصــديقين ، والعارف بكل مقامات الصديقين : يا من تطوى الأفلاك فى دأب ، أترى ذلك العالم الذى يرتدى الزنار، ذلك الذى سرق من ذنب أحد النجوم ما لف به وسطه (١)، وهو يتباطأ فى سيره بحيث تبدو حركته وكأنها سكون ، هو عالم مشئوم يتحول فيه كل طيب الى قبيح ، دنىء ، ولا عجب لأنه يتعرض لسخط الله وغضبه فى كل حين ، فهناك مئات الألوف من الملائكة فيه يمسكون الرعد يوزعون سخط الله وقهره منذ يوم « الست » (٢) .

« ورغم أن كيانه مكون من الماء والطين، الا أن من الصعب وضع القدم فوق أرضه ، وهو يزجر الكواكب السيارة دائما ، ويعمل على طردها من مداره ، انه عالم مطرود ومرفوض من الفلك ، صبحه كالليل ، فالشمس تضن عليه بضوئها » .

« وهو مستقر للأرواح التى لن تعرف يوم النشور ، فقد أنفت جهنم نفسها من حرقهم ، فهذا العـــالم يضم طاغوتين قديمين قتلا روح شعب من أجل نفسيهما » :

« جعفر من البنغال ، وصادق من الدكن ، هما عار للانسانية ، عار للدين ، عار للوطن » هما نماذج للجحود واليأس والنبذ . ولا غرو فقد انهارت أمة من جراء عملها . ويالها من أمة أمة حطمت قيد كل أمة ، ولكن قد هوى ملكها ودينها من عليائه . أولست تعرف — يازنده رود —

---

(١) هو زحل فى الخريطة الفلكية التى نشرتها مجلة « العربى » كملحق لعددها الصادر فى يناير ١٩٧٠ محاطا بدائرة من الشهب تشبه النطاق المتخلف من احتراق أحد النجوم وهى فى لون « قوس قزح » فلعله هو الزنار .

(٢) « الست » اشارة الى قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى » .

أرض الهند ، تلك العزيزة على خواطر أصحاب القلوب . هى أرض من تجلياتها تضىء الدنيا كلها ولكنها مازالت الى الآن تتمرغ فى التراب والدم .

ويستطرد الرومى قائلا : من ذا الذى زرع فى تربتها بذرة العبودية ؟.. لا ريب فى ان هـــذا كله من عمل هـــذين الروحين الشريرين .(١) فتوقف — يازنده رود — لحظة فى الفضاء اللازوردى ، كى ترى ما جزاء عملهما .

٢ — البحر الدموى:

يقول اقبال فى وصف هذا البحر :

« ان ما شاهدته لا يمكن وصفه ، تكاد الروح من فزعها تهجر البدن .. ماذا رأيت ؟ رأيت بحرا من الدماء ! ، يفور اعصار على سطحه ويمور اعصار فى أعماقـــه .

« الجو يعج بأفاع كأنها التماسيح فى البحر ، اتحفتها سوداء كالليل البهيم ، وأجنحتها زئبقية اللون » .

« والأمواج تزأر بشراسة كأنها النمور ، يموت التمساح على الشاطىء فرقا منها » .

« لم يعط البحر للساحل لحظة راحة واحده ، ففى كل لحظة تتهاوى أجزاء من الجبل فتاتا فى الدم » .

« وتصارع أمواج الدم أمواج الدم ، بينما اشهد فى وسطها زورقا يهبط ويعلو » .

« وكان فى ذلك الزورق رجلان مصفرى الوجه ، مصفرى الوجه ، عاريين ، مشعثى الشعر » .

٣ — روح الهند تظهر :

« فانشقت السماء عن حورية طاهرة ، رفعت الخمار عن محياها ، فى جبينها نار ونور خالدين ، وعيناها تنطقان بالسرور السرمدى . ترتدى رداء أرق من السحاب ، سداه ولحمته من عروق ورق الورد . ولكن برغم كل هذا الجمال فقد قدر عليها ان تكبل بالقيود والأغـــلال ويخرج من بين شفتيها أنين مؤلم » .

« قال الرومى : أنظر ، هذه هى روح الهند ، ان القلب يتلظى من انينها » .

---

(١) قال اقبـــال فى خطبته التى القاهـــا فى حفل الرابطة الاسلاميـــة بمدينة الله آباد سنة ١٩٣٠ « ... وعليكم أن تحرروا أنفسكم والهند معكم من كل عبودية سياسية تسبب مصائب وويلات غير متناهية.. هذه العبودية هى التى داست روح الشرق تحت أقدامها وحرمته نعمة الاغتباط باشراق ذاتيته التى قامت بفضلها المدنيات الشرقية الخالدة » . (فلسفة اقبال ص ٣١) .

روح الهند تنوح وتولول

تشــكو روح الهند وتتــألم من خبو جذوة الروح فى الحياة الهندية ، لاعراض الهنود عن التعرف على قيمتهم وامكاناتهم الذاتيــة ، ولتعلقهم بالرسوم القديمة والعادات الذميمة التى لم تعد تلائم روح العصر ، الأمر الذى أدى الى تطويقها بقيود الاستعمار وأغلاله ، ورغم ذلك ظل الهنود غرباء عن أنفسهم وتمادوا فى ذلك فهووا بسمعة الهند العالمية الى الحضيض.

وينتقد اقبال على لسان روح الهند هذه الحياة السلبية التى يحياها الهندوس ، ويقول ان الجبر والصبر الذميم كالسم يسرى فى بدن الأمــة ويلحق بها الدمار لأنه يؤدى بالمرء الى استعذاب الظلم .

وتتجه روح الهند بعد ذلك للمسلمين من بنيها ، فهم أملها فى النهوض من كبوتها ، وتقول لهم : متى يتحول ليل الهند الى نهار ، وتحذرهم من روح الخيانة والغدر بين صفوفهم ، تلك الروح التى لاهم لها الا المنفعة الخاصة والتى تتلون كالحرباء بألوان مختلفة .

والواقع أن هذا التحذير لا يختلف فى مضمونه عن التحذير الذى وجهه اقبال نفسه قبل عامين فى سنة ١٩٣٠ فى خطابه الافتتاحى للمؤتمر السنوى للرابطة الاســلامية فى الهند حيث قال : « فانى أحذركم ثم أحذركم أن تستبيحوا وجود خلاف سياسى بين مجتمعكم الاسلامى فان هذا الخلاف ليس له سوى معنى واحد وهو فناء المسلمين عن بكرة أبيهم واستئصال عنصرهم من تاريخ الوجود ، ومعاذ الله أن يقع ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها » (١) ■

١ — انطفأ شمع الروح فى فانوس الهند :

تقول روح الهند: « لقد انطفأ شمع الروح فى فانوس الهند، وهاهم الهنود غرباء عن قدر الهند الرفيع » واسمها الذى يجاوز عنان السماء ، ولكن لماذا ؟ لأن « أقزامها لا يعرفون أسرار ذواتهم ، الا ما أقل ما يعزف لحنهم على وترهم » ، لقد ابتعدوا عن أنفسهم وعلقوا أبصــارهم بتقليد الغير والانصــياع له وثمة سبب آخر « انهم يعلقون النظر على زمن مضى ، ويجعلون قلوبهم تتلظى بنار خامدة » . لقد أرادوا احياء الجاهلية القديمة ، وعبدوا أسلافهم من دون الله ولكن هيهات ، وهل ينفع الفرد أو الأمة التعلق بالرسوم الدارسة ؟ ! !

غير أن نتيجة هذا كله كانت وخيمة بالنسبه لى : « فلقد قيدت يداى وقدماى بسببهم ، انهم هم السبب فى نواحى الذى لا غناء فيه ولا طائل وراءه ولا غرو فقد أفرغوا أنفسهم من الذات وشادوا لأنفسهم سجنا من رسوم وعادات بالية » . لقد أماتوا ذاتهم لأنهم مازالوا أسارى لهذه التقاليد الباليــة التى تحرم على الهندوس مثلا ذبح الأبقار ولكنها تحل لهم ذبح الانسان (المسلم) !!!

---

(١) فلسفة اقبال ، ص ٣٨ .

وهنا يصل اقبال الى بيت القصيد فى نقده للهنادك فيقول :

« ان الانسانية متألمة من وجودهم ، والعصر الحاضر يزدرى طهرهم ونجاستهم » .

يقول الأستاذ جشتى فى شرح هذا البيت :

« يشير (اقبال) فى هذا البيت الى التقاليد الهندوسية العجيبة المعروفة بـ « جهوت جهات » أى « لا مساس » وهى التقاليد التى جعلت من سكان الهند الأصليين الذين قد يصل عددهم الى أكثر من مائة مليون — منبوذين ، ليس لهم الحق فى الاختلاط مع الطبقات الهندوسية العليا ، واخرجتهم من حظيرة الانسانية وسلبتهم حقوقهم المدنية المبدئية لدرجة أنهم قد أغلقوا دونهم أبواب المعابد لا يدخلونها ، لانهم نجس » (١) .

كذلك صرح اقبال فى موضع آخر بأن « الهنادك ، يعتبرون المسلمين نجسا ماديا ، فلا يعاملونهم ولا يختلطون بهم ولا يتحببون اليهم من قريب أو بعيد » (٢) .

هذه المواقف كلها تتنافى — فى نظر اقبال — مع الانسانية الحقة ولا تتلاءم مع روح العصر .

٢ — طوبى لفقر يخلف القوة الحقة :

ينقد اقبال هنا الأسلوب الأمثل لحياة الهندوس الا وهو الرهبنة ، بطريقة بديعة رقيقة فيقول على لسان روح الهند : أيها الهندى « دعك من الفقر الذى يمنح العرى ، طوبى لفقر يمنح القوة الحقة » ، عليك بترك الرهبنة فليس لها من نتيجة سوى عرى البدن (٣) ، واسلك سبيل الفقر الاسلامى الذى يجلب الرفعة والقوة والاقتدار .

« فحذار من الجبر وأيضا من التطبع بالصبر فالجبر سم لكل من الجابر والمجبور » .

والصبرهنا ليس معناه الصبر المحمود الذى ورد فضله فى القرآن الحكيم ، بل يعنى القعود عن بذل الجهد والنشاط لتغيير القضاء فالصبر لا يعنى السكوت على الظلم ، واذا كان الصبر سكوتا على الظلم فهو يعد فى هذه الحالة اذن بمثابةسم يتجرعه الصابر وهو لا يكاد يدرى ما سيحيق به من دمار لأن : « هذا يعتاد على الصبر المتواصل ، وذاك يعتاد على الجبر المتواصل » ، فلا يملك الصابر والمجبور حيال الظلم سوى السكوت ، وبمرور الوقت « يزداد لدى كل منهما استعذاب الظلم » .

ثم تتأوه روح الهند آهة تخرج من أعماق القلب وتقول : « ان وردى هو : « ياليت قومى يعلمون » (٤) ليت قومى يعرفون حقيقة ما أنا فيه من الم وعناء ، اننى لا اكف ابدا عن ترديد هذه الآية الكريمة .

(١) شرح جاويد نامه ص ٩٥٥

(٢) فلسفة اقبال ص ٣٧ .

(٣) يرى الأستاذ يوسف سليم جشتى فى شرح جاويد نامه ص ٩٥٦ ان الاشارة هنا الى سدنة الجينيين العرايا تماما .

(٤) والاشارة الى الآية ٢٦ من سورة يس .

٣ — متى يتحول ليل الهند الى نهار :

تخاطب روح الهند المسلمين قائلة :

« متى يتحول ليل الهند الى نهار » . ومـا كان لروح الهند فى رأى اقبال — أن تأمل فى أحد آخر من بين بنيها غير المسلمين ، فقد قال اقبال فى خطبته الافتتاحية لمؤتمر الرابطة الاسلاميه بالهند سنة ١٩٣٠ موجها حديثه الى المسلمين : «... وعليكم أن تؤمنوا بأن وجودكم كأمة اسلامية هو عين فائدة الهند أيضا » (١) .

غير أن روح الهند لا تلبث أن تستدرك قائلة :

ولكن ... « مات جعفر ومازالت روحه باقية ، ان هذه الروح ما ان تتحرر من قيد أحد الأجساد ، حتى تبادر فتعشش فى جسد آخر ، وهى أحيانا تتواءم مع الكنيسـة وأحيانـا أخرى تستعطف عبدة الأصنام من البراهمة » . يقول شارح « جاويد نامه » فى شرح هـذا البيت : « فمن أسف أن بعض الخونـة من بين مسلمى الهند كان فى ذلك الوقت يحوك الدسائس والمؤمرات مع المستعمرين والطوائف الأخرى ضد المسلمين »(٢).

وربما كان المعنى أن الخيانة ليست وقفا على المسلمين وحدهم بل هى تكون فى كل الطوائف الهندية من مسلمين أو مسيحيين أو هنادك .

ان روح جعفر هذه التى بدت وكأنها تتناسخ فى الأجساد جيلا بعد جيل « دينها وشرعتها ليست سوى التجارة فهى عنتر لبس مسوح حيدر ». انها لا تبحث الا عن منفعتها ، تبدو للأعين مسلمة كاملة الاسلام ، تجاهد من أجله ، ولكنها فى الباطن قوة جاهلية غاشمه مليئة بالحقد والبغضاء . وهى كالحرباء تتلون وفق مظاهر البيئة المحيطة بها : « فاذا ما تغيرت دنيا اللون والرائحة ، تغيرت تقاليدها وتغير عرفها » .

« ففى الأيام الخوالى سجدت أمـام أشياء وأصنام أخر ، وفى أيامنا هذه فان معبودها وصنمها هو الوطن . ظاهرها متألم حزنا على الدين (الاسلام) ، وهى فى باطنها ترتدى الزنار مثل عبدة الأصنام » .

وكان اقبال قد قال فى مؤتمر الرابطة الاسلامية :

« اننا (نحن مسـلمى الهند) لن نحـاول أن نستتر خلف نقاب من القومية لننسى ما بذلنا من تضحيات وما حصلنا عليه من حقوق فنحن نسمع التشدق بنغمة حب الوطن يرددها الجميع بينما البواطن تنطوى فى داخليتها على الاستثارة واثارة عوامل الفرقة »(٣) .

تقول روح الهند :

« ان « جعفر » — فى أى جسم كان — هو قاتل أمة ، ... هذا الذى كان مسلما يوما ما قاتل أمة !! » فهو مثال للغدر والنفاق ، وهو مثال مازال

---

(١) فلسفة اقبال ص ٣٨ .

(٢) انظر سعيد سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ص ٩٦٠ .

(٣) فلسفة اقبال ص ٣١ .

حيا بيننا يتظاهر بحب الناس ولكنه لا يحب أحدا ، « فهو يبتسم دائما ولا يصادق أحدا ... اذا ضحكت الأفعى فليست بعد سوى أفعى » .

« ان نفاقه قسم وحدة الشعب ، أمته مهينة بوجوده ، وحيثما خربت أمة،كان أصل ذلك اما صادق أو جعفر » ما أشنع الخيانة ، وما أفدح نتائج الغدر ، انه دمار لأية أمة . وتختتم روح الهند أقوالها بهذا الدعاء :

« أعوذ بالله من روح جعفر ، أعوذ بالله من جعافرة هذا الزمان » .

نواح أحد راكبى زورق البحر الدموى

وما ان انتهت روح الهند من نواحهـــا الذى تتقطع له نياط القلوب ، والذى من شأنه ــ فى نفس الوقت ــ أن يثير فى نفوس الهنود جميعا هذا الحذر وتلك اليقظة التى تكشف عن بوادر الخيانة وتحاول القضاء على أسباب البغضاء قبل أن تتفاقم ... يسمع الرومى واقبال ــ وهما يطلان من عل على هذا المشهد الرهيب ــ واحدا من هذين الخائنين ينوح ويشكو فيقول :

١ ــ جهنم نفسها رفضتنا :

« لا العدم ولا الوجود يقبلنا ، واحسرتاه على جحود العدم والوجود »، ووأسفاه على نبذ الأحياء والأموات جميعا لكلينا .

« ما ان فاضت روحنا وغادرنا عالم الشرق والغرب حتى وقفنا على باب جهنم من العناء والكرب » .

« ولكن جهنم لم تطلق شرارة واحدة على صادق أو جعفر ، ولم ترم رؤوسنا حتى ولا بحفنة من رماد ، لقد ضنت علينا حتى بهشيمها (وقالت) ان الهشـــيم والقش افضـــل لجهنم ، ويحسن بشـــعلتى الا تلطخ بهذين الكافرين » .

٢ ــ ولم يقبل ملك الموت توسلنا :

« فارتحلنا الى ما وراء السماوات التسع ، وذهبنـــا الى الموت ، ذلك الذى يأتى فجأة ، وطلبنا اليه أن يعدم روحينا » ،

« فقال : الروح سر من بين أسرارى ، ان مهمتى حفظ الروح وهدم الجسد،ورغم ان الروح الخبيثة لا تساوى شروى نقير (فان هدمها ليس من شأنى) ... أغرب عنى يا من تطلب هدم الروح ان مثل هذا العمل لا يمكن للموت القيام به ، وروح الغدر لن تستريح بالموت » .

٣ ــ اما من مولى للعبد الخائن ؟ :

« أيها الجو العاصف ، يا بحر الدمـــاء ، ايتها الأرض ، أيتها السماء اللازوردية ايتها النجوم أيها القمر المنير ، أيتها الشمس ، أيها القلم ، أيها اللوح المحفوظ ، أيها الكتاب ، ايتها الأصنام البيض ، يالوردات الغرب، يا من أمسكتم فى قبضتكم عالما دون حرب وعنف (من جراء خيانتنا) ، أيها العالم الرحب الذى لا بداية له ولا نهاية ... أما من مولى للعبد الخائن ؟ ».

يقول اقبال : « وفجأة سمعنا صوتا رهيبا ، أنفطر له صدر الصحراء والبحر ، وتداعى تماسك اقليم الجسد ، وما لبثت الانهيارات الجبلية أن توالت ... وتمر الجبال مر السحاب ، لقد انهدم عالم دون نفخ الصور (١) ، وبحث البرق والرعد — خوفا من الحمى التى تستعر بداخلهما — عن عش يلتجآن اليه فى بحر الدماء . واشتد هياج الأمواج واشتد هروبها من نفسها ، وغرقت الجبال والوديان فى الدم » .

« كل ذلك قد مر أمام الظاهر والخفى وشاهدته أيضا كوكبة النجوم ومضت غير مكترثة » .

---

(١) مأخوذ من الآية : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » (النمل : ٨٨) .

الباب الثالث

ما وراء الأفلاك

مـــا وراء الأفـــلاك

عرض عـــــام

ينطلق اقبـــال — فى صحبة الرومى — متجاوزا عالم الأفلاك منتقلا الى ما وراء الأفلاك . ولكنه وسط المسافة بينهما يشاهد رجلا حزينا على شفتيه بيت أخذ يتلوه مئات المرات . فيسأل اقبال الرومى عنـــه فيجيبه بأنه العبقرى الألمـــانى « نيتشه » ، ويأخذ الرومى فى الحديث عنــــه من وجهة نظر اسلامية .

ثم ينطلقان — بعد أن توقفا عند نيتشه — للدخول فى جنة الفردوس ، فيشاهدان قصر الزاهدة الهندية « شرف النساء » التى كانت تحرص فى حياتها الدنيا على وضع السيف بجانب المصحف ، ولم يكن لها من شغل فى حياتها على الأرض سوى تلاوة القرآن . وهو قصر من اللؤلؤ النقى يتألق بضوء تحســـده عليه الشمس ويلتقيان بعد ذلك بالداعى الاسلامى الفـــذ « سيد على الهمدانى » والشاعر الكبير « ملا محمد طاهر غنى الكشميرى » ، ويجيب الهمدانى على بضعة أســئلة رئيسية عن الخير والشر ، وقيمة التضحيـــة بالنفس ، ومشروعية السلطة وأســاسها فى الاســـلام . ثم يأخـــذ « غنى » فى الحـــديث عن محنـــة المســلمين فى كشمير فيتأجج نـــار الثورة فى نفس اقبـــال ، وينشـــد غزلا يدعو فيـــه الى الثورة على البـــاطل ، وتخرج حور الجنة من خدورها لكى ترين من أنشـــد الغزل ، ويأتى الشــــاعر الهندوسى « بهرترى هرى » ليدخـــل « زنده رود » معـــه فى حوار حول فن الشـــعر ، ويختتم بهرترى حديثه مع اقبال بقصيدة كان قد نظمها بالسنسكريتية وترجمها اقبال الى الفارسية، تحدث فيها عن رأيه فى اصلاح الهند .

وينتقـــلان بعـــد ذلك الى قصر ســـلاطين المشرق وهم نادرشـــاه الأفشارى ، واحمد شاه الأبدالى ، والسلطان تيبو الشهيد . ويجرى حوار بالغ الروعة بين كل واحـــد من هؤلاء السلاطين وزنده رود الذى يتحدث مع نادر عن ايران ، ومع الأبدالى عن أفغانستان ، ومع تيبو عن الهند . وتظهر روح الشاعر الفارسى والداعية الاسماعيلى الكبير « ناصر خسرو » بعد أن يختتم زنده رود حواره مع نادر . ويختتم السلطان تيبو الحوار برســـالة يطلب من زنده رود أن ينقلها عنـــه الى نهر « كافيرى » ، وهو النهر الذى يمر على عاصمة ملكه فى « ميسور » بجنوب الهند . يتحدث فيها عن حقيقة الحياة والموت والشهادة .

وعندما ينتهى « تيبـــو » من رســـالته يهتف الرومى فى أذن زنده رود « قـــم » ، فانطلق وحـــده من فوره للمثول فى الحضرة الالهية ولم يعبأ

ضرع الحور اللاتى طلبن منـــه البقاء لحظة أو اثنتين ، وانما مضى فى
طريقه حتى وصل الى مقام « الحضور » واخـــذ يصف مشـــاعره فيه
بدقة بالغة . ثم يوجه زنده رود بضعة أسئلة حيوية يستمع الى رد عليها
من جانب « الجمال » . وينتهى الحضور بتجلى الجلال فيخر زنده رود
صعقا كما خر موسى عليه السلام عندما تجلى ربه للجبل ، وعندما يفيق
زنده رود يتناهى الى سمعه صوت ملتهب صـــادر من أعماق عالم اللاكم
اللاكيف : « دع الشرق ولا تؤخذ بسحر الفرنج ، فكل هذا القديم والجديد
يساوى حبة شعير » . وهنا ينتهى معراج اقبال .

الفصل الأول

مقـام الفيلسوف الألمـانى نيتشـه

أفاض الباحثون فى الدراسات الاقبالية فى الشرق والغرب على السواء فى محاولة فهم العلاقة الخاصة التى ربطت اقبـالا بنيتشه (١) ، واكتناه الأثر الذى تركه هذا الفيلسوف الألمـانى المفترى عليه فى أعماق اقبـال وكتاباته ، ورأى البعض انه متأثر الى حد كبير بنيتشـه فى نظريته عن الانسان الأعلى « السوبرمان » . بينما رأى آخرون انه لم يتـأثر به أدنى تأثير (٢) . وامتد الحديث فى هذه القضية منذ أن نشر اقبال منظومته الأولى « أسرار خودى » سنة ١٩١٥ مما اضطر اقبالا نفسه الى الرد على القائلين بتأثره كليـة بنيتشه فى مقدمته التى كتبها على الترجمة الانجليزية لتلك المنظومة مبينا أن نظرية « الذاتية » نظرية اسلامية خالصة وأنها ليست مقتبسة عن نيتشه .

ولكننا على أية حـال لسنا هنـا بصـدد الحديث عن « الذاتيـة » وانما عن شخصية نيتشه وعبقريته وكيف فهمها اقبـال ، ومدى صلة ذلك كله بمنظومتنـا هذه .

---

(١) فريدريخ نيتشـه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) ، أديب وفيلسوف متـأثر بشـوبنهور ، كان متمسكا بالدين فى شـبابه ثم خرج على الدين والأخلاق بمنتهى الشـدة وصار علمـا من أعـلام الكفر . عمل بالتدريس فى جامعة « بـال » بسويسرا ، ثم أقعده المرض فاعتزل منصبه فى سنة ١٨٧٩ . وبعـد عشر سنين انتهى به المرض الى الشـلل الكلى والجنون ، فظل على هذه الحـال عشر سنين حتى وافته منيته . وقد نادى بـ « قلب المجتمع القديم وبنـاء مجتمع جديد كالهرم مستقرا على قاعـدة من الطبقات الوسطى والدنيـا المستسلمة الراضية ، وينتهى عند قمته بالرأس الحاكم الذى يجب أن يكون الأنـا الكلى المقـدس أو الأثـرة المبـاركة الى أسمى الدرجات » . وتقوم فلسفته على «قوانين التطور التى لا رحمة فيها» والحياة الانسانية عنده تقوم على تنازع البقاء . أما انسان نيتشه الأعلى فما هو الا مخلوق غليظ القلب عـديم الضمير (انظر يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٩٠ وما بعدها . وهنرى توماس أعلام الفلاسفة ص ٣٩٧ وما بعدها) .

(٢) انظر مثلا ، عبد الرحمن طارق : جهان اقبـال ص ١٣ وما بعدها . محمد شمس الدين صـديقى : اقبـال اورنيطشه ، خيابان اقبـال ص ٢٦٧ — ٢٧٢ ، راشد الحيدرى : محمد اقبال والثقافة الألمانية ، مجلة فكر وفن ، العـدد الثانى العام الأول سنة ١٩٦٣ ص ٢٤ — ٣٤ ، وانظر أيضا مقالا بالانجليزية للدكتور خليفة عبد الحكيم بعنوان « الرومى ، نيتشه واقبـال » ، والمقال منشور ضمن كتاب « اقبـال كمفكر » ، ص ١٣٠ — ٢٠٦ .

والواقع أن اقبالا حـاول أن يقترب من نيتشه ، فاستطاع أن يفهمه « فهما أفضل من فهم انكثيرين من النقاد الأوربيين له »(١) .

ويبدى اقبال تعـاطفا واعجابا ملموسا تجـاه نيتشـه فى قصيدته « شوبنهاور ونيتشه » التى نشرهـا فى « بيام مشرق » (٢) والتى أشـاد فيها بقوة الارادة عند نيتشه وبطولتها التى تتقبل الحيـاة كما هى وتحاول السيطرة عليها ، كما أعرب فيها عن اتفاقه مع نيتشه فى أن للآلام قيمتها الايجـابية .

ويمكننا بالاستعانة بالتحليل الذى أورده اقبـال عن شخصية هـذا الفيلسوف الألمـانى فى محاضرته الأخيرة التى ألقاهـا فى لندن بعد نشر جـاويد نامه ، وضمنها الطبعة الثانية لكتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » ، يمكننا أن نتفهم الأبيـات التى خصصها اقبال هنا للحديث عن نيتشـه .

فهو يعرض أثناء حديثه عن تطوير علم النفس — حتى يكون نافعـا للانسانية — لقيمة التهوس الصوفى بشرط أن يكون مصحوبا بذكاء وافر ويقول : « ففى أوربـا الحديثـة كان نيتشه — الذى كان فى حيـاته ونشاطه لنـا نحن الشرقيين على الأقـل موضوعا بالغ الأهميـة من موضوعات علم النفس الدينى — موهوبا بنوع من الاسـتعداد الطبيعى لعمل من هذا القبيل ، وتاريخ حياته العقلية ليس من غير شبيه فى تاريخ التصوف الشرقى ، ولا نستطيع أن ننكر ان الناحيـة الالهيـة فى الانسان قد تجلت عليه فى صورة رؤيـا « آمرة » ، أقـول ان رؤياه « آمرة » لانه سيبدو أنها أمدته بنوع من التفكير النبوى يهدف — عن طريق منهج خاص — الى تحويل رؤاها الى قوى حيوية خـالدة . ولكن نيتشه بـاء بالفشل ، ويرجع فشله فى الأصـل الى تأثره بآراء أسلافه من المفكرين أمثـال « شوبنهور » و « داروين » و « لانج » تأثرا أعماه عن فهم المعنى الحقيقى لرؤيـاه فانسـاق الى محـاولة تحقيقها فى نظم مثـل التطرف الأرستقراطى بدلا من البحث عن قاعـدة روحية تكتمل بها الناحية الالهية التى فى نفوس الدهمـاء والعوام فتتفتح له أبواب مستقبل لا حـد له ولا نهاية ... وهكذا كان الفشل نصيب عبقرى رسمت قواه الداخليـة وحدها حدود رؤياه ، وظل عقيم الانتاج لأن حياته الروحية كان يعوزها هداية خارجية خبيرة » (٣) .

ونحن اذا تأملنـا النص السـابق ثم ألقينا نظرة على الأبيات التى تحدث فيها اقبـال عن مقـام نيتشه والتى سنعرض لها بعد قليل فاننا نلاحظ ما يلى :

---

(١) راشد الحيدرى ، فى مقاله المذكور آنفا .

(٢) انظر بيام مشرق ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ومن الملاحظ أنه تحدث مرتين أيضا عن نيتشه فى الديوان نفسه انظر ص ٢٣٨ ، ٢٤١

(٣) « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » ص ٢٢٢ — ٢٢٣ من الترجمة العربية ، وقد أجريت بعض التعديلات اللفظية من الترجمة الفارسية لنفس الكتاب ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

١ — وضع اقبال نيتشه فى مكان وسط بين الأفلاك وما وراء الأفلاك. وهو بذلك يرمز الى نجاح نيتشه فى ادراك الجانب الالهى فى النفس الانسانية مما جعله — فى خيال اقبال — يندفع خارجا عن اسار عالم الأفلاك متجها نحو العالم الروحانى ، لكنه ما لبث أن تردد فى الطريق وفشل فى قطع مراحله العالية ، فبقيت روحه معلقة على هذا النحو ، وسنرى اقبالا يعبر عن حالته هذه بعد قليل بقوله : لقد ظل فى « لا » ولم يمض نحو « الا » .

أى أنه بقى ثابتا فى مقام « لا » ولم يبلغ مقام «الا» ، فلقد كان بعيدا عن الروح الابداعية الاسلامية التى لا تنكر الا لتثبت ، ولا تقول «لا اله» الا لكى تقول « الا الله » فتنتقل من الرفض الى اليقين ، ومن النفى الى الاثبات ، ومن العالم الى الله حيث يكتمل معراج الروح فى رحلتها الكونية الباسقة .

٢ — يجعل اقبال « نيتشه » يطير فى مقامه هذا بين الأفلاك وما وراء الأفلاك ، فى دوائر ابدية يكرر فيها مرة بعد الأخرى تلاوة بيت واحد فقط هو :

لا جبريل ولا الفردوس ولا الحور ، ولا الله ، ان حفنة التراب وحدها هى التى تحترق بفعل الروح المشوقة .

وهذا كما يقول راشد الحيدرى فى مقاله « محمد اقبال والثقافة الألمانية » (١) هو : « تعبير بسيط ولكنه مصيب عن التكرار الأبدى ، فليست الحياة تكرار الحوادث نفسها مدى الزمان بل هى حديثة ومدهشة فى كل لحظة ، مبدعة وغير مرتبطة بأى تكرار » .

والواقع أن اقبالا انتقد مذهب التكرار الأبدى عند نيتشه فى كتابه تجديد التفكير الدينى واعتبره : « يتجه الى القضاء على ميله (أى الانسان) الى العمل ويؤدى الى تراخى ما فى الروح من تحفز » (٢) .

٣ — يرى اقبال أن السبب فى فشل نيتشه يرجع الى افتقاره الى هداية روحية خبيرة ، وهو هنا يقول : « ليته عاش فى عصر المجدد الكبير مولانا احمد السر هندى (٣) ، لكان اذن قد وقف على قمة السرور السرمدى »

---

(١) نشر هذا المقال فى مجلة « فكر وفن » التى تصدر بالعربية والألمانية فى سويسرا . انظر العدد الثانى من العام الأول ١٩٦٣ ، ص ٢٤—٣٤

(٢) انظر تجديد الفكر الدينى ص ١٣٢ — ١٣٣

(٣) وهو الشيخ احمد بن عبد الأحد السر هندى المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) الذى لقبته الهند بحق « مجدد الألف الثانى » وقد ظهر منه تجديد صلة الشعب الهندى بالاسلام فى هذه البلاد والانتصار للشريعة وحفظها من تحريف الغافلين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، (راجع أبو الحسن الندوى : المسلمون فى الهند ص ٥٣ — ٥٤ . سيد سعيد أحسن العابدى : حميد الدين الفراهى حياته ومنهجه فى التفسير ، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين بجامعة الأزهر) .

فلو قيض له مرشد مثل الشيخ أحمد السر هندى لكان قد مضى في عروجه الروحى حتى يصل الى السعادة القصوى والايمان الكامل .

٤ — لا ينظر اقبال الى نيتشه على أنه « مجنون » كما يراه النقاد الأوربيون — وانما يعتبره مجذوبا أو متهوسا صوفيا ، ولا ريب فى أن هناك فرقا بين المجذوب والمجنون ولكن الأوربيين لايدركون بالطبع هذاالفرق، ولذلك فقد جنوا على نيتشه . أما علم النفس الاسلامى ، أو التصوف الحقيقى فهو أقدر على تصور المعنى الحقيقى لمفهوم « الجنون » أو « الجذب الروحى » . ان نيتشه ظاهرة نفسية اذا نظرنا اليها فى ضوئه .

ا — تمهيد :

يبدأ اقبال — وهو يحلق فى صحبة الرومى متجاوزا تخوم عالم الأفلاك مقبلا على ما وراء الأفلاك — فى الحديث عن تنازع البقاء ، وهو مذهب افاض « نيتشه » نفسه فى الحديث عنه وانتهى منه الى نظريته الخاصة بالانسان الأعلى (سوبرمان) . ولكن اقبالا يعمد الى تناول اساس الفكرة ومعالجتها برأيه هو وبفكره الاسلامى ، ويضيف نظرته الخاصة الى تطور حياة الانسان وارتقائها ، هكذا يعمد اقبال الى مناقشة المبدأ الأساسى فى فكر نيتشه هنا من فوق سبع سموات الماحا الى ما يتطلع اليه من قمم عالية وما يحدوه من روح بطولية لم تبلغ هدفها لفقدان الهداية النبوية ، اذ لم تحظ بمجدد محمدى كأحمد السرهندى أو كجلال الدين الرومى .

يقول اقبال : « ان نزاع الوجود والعدم فى كل مكان ، لا أحد يدرى سرهذا الفلك الأزرق . ففى كل مكان يأتى الموت برسالة الحياة ، طوبى لمن يعرف ما الموت . والحياة فى كل مكان زهيدة كالريح ، هى بلا ثبات وتتوق الى الثبات » ، فالانسان — وهو فى غمرة الحياة — غافل عن أن ثمة صراعا بين الحياة والموت هذا الصراع نفسه هو سر الحياة هو الدافع الخفى الذى يدفع الكائنات الى الحركة والتطور ، والموت نفسه — بالنسبة للانسان — هو انتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى أسمى من هذه الحياة فهو ليس نهاية لها ، وانما هو انتقال الى مرحلة أكمل وأسمى ، فالحياة تترقى فى كل مرحلة من حالة أدنى الى حالة أعلى ، ورغم أن حياة الانسان تبدو بلا ثبات فالموت ختام لهذه المرحلة من مراحل تطورها ، الا أنها تتوق من أعماقها الى الخلود والى البقاء الأبدى الذى لا يعتريه الموت .

يقول اننى فى رحلتى المعراجية هذه : « رأيت بعينى المئات من عوالم الأيام الستة ، الى أن ظهرت أخيرا حدود هذا الكون » ، فمن هنا يبدأ عالم اللامكان .

لقد رأيت « لكل عالم قمره وثرياه ، ولكل عالم طريقة واسلوبا يختلف عن غيره والزمان فى كل هذه العوالم جار كالنهر يسير الهوينا هنا ويسرع الخطو هناك » .فالزمان كالتيار المتدفق ، ولكن له مستويات

تختلف من عالم لآخر (١) ؛ « سنتنا هنـا شهر وهنـاك لحظة ، كثرة هذا العـالم قلة بالنسبة لذلك العـالم . عقلنا فى عـالم ما ذو فنون ، وفى عالم آخر ذليل ضعيف » ، فالعقل الانسانى الذى يتفاخر فى العـالم المـادى وفى دنيا المحسوسات بقدراته وامكاناته الهائلة ، يتعطل عن العمل تماما فى عالم اللامكان ويصبح عاجزا ضعيفا لا قبـل له بالاستنتاج او الاستدلال .

٢ — انقذ روحه من ((الملا)) ففتك به الطبيب :

يقول اقبال : « على حدود دنيا الكم والكيف هذه ، أقام رجل ذو صوت ملىء بالغم والحزن ، بصره أحد من بصر العقاب (فهو ذو ذكاء فطرى) ، محياه يشهد على النار المضطرمة فى قلبه (فهو عاشق) وفى كل لحظة يتزايد اشتعاله الداخلى . على شفتيه بيت تلاه مئـات المرات فهو يردد دائمـا قوله : لا جبريل ، ولا الفردوس ، ولا الحور ، ولا الله ، ان حفنة التراب وحدها هى التى تحترق بفعل الروح المشوقة » . لا يشعل جذوة الانسان أحد ، فلا جبريل بوحيه ولا الجنـة بحورها ، بل ولا الله نفسـه بقادرين على اشعال هذه الجذوة ، انما القادر على اشعالها تلك الروح المتطلعة الى الرقى التى بين جنبى الانسان .

يقول اقبال : سألت الرومى : من هذا المجنون ؟ فرد على قائلا : انه العبقرى الألمـانى — ومكانه وسط هذين العالمين ، ان قيثارته تحتوى على نغمة قديمـة ، انه حلاج بلا مشنقة أو حبل اعـاد ترديد الكلمات القديمة نفسها ولكن بأسلوب جديد » .

ويبدو أن اقبالا يشير هنا الى ان كلمة « أنا الحق » التى قالها الحلاج قبل أكثر من تسعة قرون ، قد أعاد نيتشه نفسـه قولها ولكن بأسلوب جديد ، وتمثلت فى نظريته عن الانسان الأعلى (سوبرمان) .

يقول اقبال على لسـان الرومى : « قوله جسور وأفكاره عظيمة ، أهل الغرب أشلاء بسيف قوله » فلقد كان جريئا فى نقده لمسيحية القرن التاسع عشر ، وفى انتقاده اللاذع للفلسفة والحضارة والأخلاق والأدب فى الغرب ، بحيث لم يترك للغربيين شيئا يمكنهم ان يفخروا به .

« لم يدرك زملاؤه جذبته ، واعتبروا العبد المجذوب مجنونا ، انهم عقلاء — لامراء فى هذا — ولكن لا نصيب لهم من العشق والسكر ، ومن ثم فقد أسلموا نبضه ليد الطبيب ، ولكن هيهات ، اذ لا شأن للأطباء الا التحايل على الدواء وخداعه . . . واأسفاه على مجذوب ولد فى أوربا ، فابن سينا (والأطباء عامة) يعتمدون فى العلاج على المراجع الطبية ، فيفصدون أو يقدمون الحب المنوم (٢) ، كان نيتشه حلاجا غريبا فى دياره ، لقد

---

(١) سبق لنا الكلام فى البـاب الأول عن تيار الزمن ، وعن مستوياته المختلفة ، وعن الزمن الالهى .

(٢) وقد كان ابن سينا نفسه طبيبا ، أما فيما يتعلق بالحبوب المنومة فقد قالت أخت نيتشه بعد وفاته : « ان السبب الرئيسى فى مرضه الأخير ، ادمان الكلورال استجلابا للنوم » (يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٩١) .

انقذ روحــه من الملا ، ففتك به الطبيب » لقــد كان صوفيا مجذوما ولكن وا أسفاه فليس فى أوربا من يتفهم هذه الجذبات الطاهرة التى تنتاب قلب الانســان ، لقد فر بجلده من علماء الدين المسيحى (ملا) ولكن الأطباء فتكوا به اذ لم يتعرفوا على دائــه الحقيقى .

٣ — لقد مضى بعيداً عن مقام « عبده » :

يستطرد الرومى قائلا وهو يصف شخصية نيتشه لزنده رود : « لم يكن بين الفرنج رجل عارف بالطريق ، فتجاوزت نغمة نيتشه طاقة الرباب »، فلم يكن هناك من يأخذ بيده ويهديه السبيل القويم ، فبدد طاقاته واضاع امكاناته وحطم نفسه فى النهاية ، قد كان « سالكا ولكن ما من احد أرى السالك الطريق ، فدب الخلل والاضطراب فى وارداته القلبية » .

والسفاه « لقد كان عملة حقيقية ، ولكن لم يكن هناك من يقومها ، كان خبرة نظرية ، ولكن لم يقدم أحد على اعطائها فرصة العمل .

« هو عاشق تاه فى آهته ، هو سالك تاه فى نفس طريقه . سكره حطم كل زجاجةفانقطع عن الله كما انفصل عن نفسه » ، لقد كان مصيره الضياع ، لأن سكره تجاوز حدوده وانتهى به الأمر الى تحطيم كل زجاجة فى عالم الوجود ، لقد حطم المبادىء الأخلاقية والدينية .

ويلخص اقبال بعد ذلك نقده لفلسفة نيتشه فى قوله على لسان الرومى: « أراد أن يرى بالعين الظاهرية ، اختلاط القهر بالمحبة » .

فقد أخفق نيتشه — فى رأى اقبال — فى ادراك كيفية اختلاط المحبة بالقهر فى الذات الانسانية ولم يقر بوجود هذا الكمال والعدل الذى يجب أن يتمثل فى وجود صفات متضادة تكمل بعضها بعضا ولا تطغى احداها على الأخرى تشبها بالذات الالهية ، ولاغرو فقد كان ينظر الى هذه الحقائق الجوهرية بعينيه المحدودتين لا بعين قلبه :

« أراد لعنقود — لاينبت الا فى زرع القلب — أن ينبت فى الماء والطين، فالنبت الذى لاينمو الا فى دوحة القلب ليس ينمو فى مجرد حفنة من تراب » .

« ان ما يبحث عنــه هو مقــام الكبرياء ، وهو مقام أعلى من العقل والفلسفة » ، لقد أراد أن تتجلى فى الانســان الصفات الالهية ، وهو مطلب مشروع ، لكن طريقه ليس العقل ولا الفلسفة .

« الحياة تفسير لاشارات الذات « لا » و « الا » من مقامات الذات » ، ان الانكار ثم الاثبات مقامان لابد منهما فى تربية الذات الانسانية لكن نيتشه « بقى ثابتا فى « لا » ولم يبلغ « الا » ، ومضى بعيدا عن مقام **عبده** » أى انه لم يدرك الكمال فى الذات الانسانية المثلة فى الحقيقة المحمدية التى نطلق عليها اختصــارا لفظ « عبده » ولو أنه وقف حقــا على الحقيقة المحمدية لجعل « عبده » هو الهدف الأسمى للكمال الانسانى ، ولاتفق فى ذلك مع مفكرى المسلمين .

« لقد احتضن التجلى وهو غافل ، هو كالثمر اكثر بعدا عن جذور الشجر » ، كان يبحث عن الله ، ولكن الله كان متجليا فى قلبه ، الا انه لم يكن مدركا لهذه الحقيقة .

« لم تطلب عينه سوى رؤية الانسان ، لقد صاح فى جســارة : أين الانسان ، كان قد ضاق بأهل الأرض ، فكان مثل موسى طالبا للرؤية » فلقد أراد نيتشه أن يرى صفات الله فى الانسان ، كان كموسى الكليم يريد أن يرى الله بعينى رأسه . ولعل السبب فى هذا يرجع الى افتقاره الى مرشد يعصمه من الضلال فى الطريق .

« فياليته قد عاش فى العصر الأحمدى ، حتى يقف على قمة السرور السرمدى » ليته كان حيا فى عصر مولانا أحمد السرهندى ، فلا شك أنه كان سيصل بفضل ارشاد هذا الصوفى القدير الى السعادة الخالدة والى معرفة الحق سبحانه ويكمل الرحلة الى آخرها .

وربما خطر لنا هذا السؤال : لماذا اختار اقبال الشيخ أحمد السرهندى بالذات ليكون هو المرشد الذى يقود نيتشه فى الطريق الى الحق ؟

وأرى أنه يمكننا أن نعثر على اجابة لهذا السؤال فى « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » حيث يقول اقبال أن حركة الاصلاح التى قام بها هذا الولى الهندى العظيم ــ الشيخ أحمد السرهندى ــ كانت تقوم على التنبيه والتحذير من : « الخطر الوحيد الذى قد تتعرض له الذات فى بحثها عن الله » ، وذلك الخطر يتمثل فى الفتور الذى يمكن ان يعرو نشاط الذات « نتيجــة لاستمتاعها واستغراقهــا فى التجــارب التى سبق التجربة الأخيرة » (١) . اذن فقد كان فى مقدور هذا الولى الهندى أن يأخذ بيد نيتشه من الهاوية التى تردى فيها فى منتصف الطريق باستغراقه فى التجارب قبل النهائية ، والتى حالت بينه وبين النزوع الى المشاهدة الالهية ، عندئذ كان نيتشه سيكمل قولته ((لا اله)) بـــ ((الا الله)) .

يقول الرومى لزنده رود : هيا بنا ولنغادر هذا المقام ، فعقل نيتشه يجرى حوارا مع نفسه ، ولقد وقف نيتشه بتجاربه عند هذا الحد ، « فامض أنت فى طريقك يازنده رود فطريقك أفضل ، وهيا تقدم خطوة فقد اقترب ذلك المقام الذى ينبت فيه الكلام دون نطق كلمات » ، انها جنة الفردوس التى لا يدرك طبيعتها انسان ، لأنها تستعصى على العقل ، وأن كان العقل يمكنه فقط أن يتوهم وجودهــا توهما ، ولكن بالتجربة الحية أو المعراج الروحى ، وبقبس من النبوة المتمثلة فى مرشد بصير يمكننا ليس فقط أن نتوهم وجودها أو نؤمن به ايمانا بل أن ندركه فعلا ، أى أن نتذوق معنى قوله تعالى « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » (٢) . لقد مضى اقبال اليها فى معراجه مسارعا ولم يتردد فى أن يصفها لنا كحقيقة واقعة وباهرة اعدت للمتقين .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ٢٢٦ .
(٢) آل عمران ــ الآية ١٣٣ .

الفصل الثانى

التحرك نحو جنة الفردوس

يحاول اقبال فى الأبيات التالية وصف عالم اللامكان ، وهى بالطبع محاولة جريئة من شاعر ، فلقد عجز معظم الصوفية فى شتى العصور عن وصف مـا يعتريهم من أحوال روحانيـة فى عالم المعنى هذا ، لانه شىء لا يوصف ولا يمكن قياسه بالحواس المحدودة للانسان ، واللغة المتاحة له .

ولكن اقبالا أقدم فى جرأة بالغة على وصف هذه المراحل الرفيعة من تجربته المعراجيـة ، ووفق الى حد بعيد فى جعلنا نتصور هذا العـالم الروحانى كما رآه هو من خلال تجربته الحية هذه .

على أن اقبالا يحرص ــ وهو يحلق متجها نحو جنة الفردوس ــ على أن ينبهنا الى أن تفهم هذا العالم وادراك حقائقه لا يتيسر الا بالنظر فى أعماق القلب ، فعالم القلب يشبه هذا العالم الروحانى فى كثير من الوجوه .

يقول اقبـال :

١ ـــ هل يمكن الحديث عن الروح بلسان الحس :

« فتركت حـدود هـذا الكون ، ووضعت قدمى فى عالم اللاجهـات (اللامكان) ويمكننى أن أصفه لأول وهلة على النحو التالى » :

« هو عالم بلا يمين ولا يسار ، هو عالم خلو من الليل والنهار » ثم مـاذا ؟ ... أننى لا أستطيع وصفه بأكثر من هذا « فلقد خبت مشـكاة ادراكى أمامه ، ماتت كلماتى من هيبة المعنى ، (وهل يتيسر) الحديث عن الروح بلغة الماء والطين ، وبلسان الحس ، انه شىء صعب حقا صعوبة التحليق فى قفص » .

٢ ــ بعالم القلب تعرف عالم الروح :

ولكن عليك بالقلب ، « انظر برهة فى عالمه ، كى تصبح وضاء البصر بنور ذاتك » ، لقد أخفى الله تعالى حقيقة عالم الروح هذا فى قلب الانسان، فلينظر المرء فى أعماق قلبه عندئذ سيجد صفته متطابقة تماما مع صفة هذا العالم .

« فما القلب اذن ؟ ، هو عالم بدون لون ورائحة ، عالم بدون لون ورائحة ، وبدون أبعاد مكانية . القلب ساكن وفى كل لحظة سيار ، القلب عالم الأحوال الروحية والأفكار » ، فعالم القلب ذو خصائص تحتار فيها العقول ، فهو ساكن متحرك فى نفس الوقت ، واجتماع الضدين مستحيل فى عالم المادة والحس ومتجاف مع المنطق لكنه قلنون مسلم به فى عالم

القلب الذى يصفه اقبال نفسه فى ديوانه « زبور عجم » بأنه نور متحرر من الزمان والمكان (١)

والقلب ليس محتاجا الى الحواس كالعقل الذى « يمضى من حقيقة الى حقيقة وينتقل من برهان الى برهان ويتحرك من منزل الى منزل فى طريق الاستدلال ... لكن سير القلب لا يحتاج الى طريق ولا مسار ولاتنقل من مقام الى مقام » وبتعبير آخر ، فان القلب أعلى من قيد الزمان والمكان .

« وسواء كانت عينك يقظى أم نائمة فان القلب يرى بدون شعاع الشمس » مجمل القول انه اذا أردت ادراك عالم الروح ادراكا حقيقيا « فاعرف هذا العالم بواسطة عالم القلب ، هذا هو كل ما استطيع قوله عن شىء لا يحتويه القياس » .

٣ — الرومى : الحياة هنا مشاهدة الجمال :

وعالم اللامكان عالم ايضا ، ولكنه ذو طبيعة مختلفة تماما عن عالم الحس « ففى ذلك العالم دنيا أخرى ، أصلها من **كن فيكون أخرى** » فقد خلق بطريقة مغايرة تماما لعالم الحس ، ويمكننى أن أقول انه :

أ — « خالد ، ومع ذلك فهو يتغير فى كل لحظة » ، فهو كالقلب ثابت وسيار فى نفس الوقت .

ب — « ولا يمكن تخيله ، ومع ذلك فهو مشهود يمكن رؤيته » .

جـ — «فى كل لحظة يكتسى بكمال جديد،وفى كل لحظة يرتدى جمالا جديدا» .

د — « زمانه لاحاجة به الى شمس وقمر ، وهو يضم فى ساحته الأفلاك التسعة » انه أعلى من الزمان والمكان .

هـ — « وكل مافى الغيب تراه فيه وجها لوجه ، حتى قبل أن تنبت الرغبة فى ذلك من القلب » ، فالمعانى غير المحسوسة هنا تكون مشهودة حاضرة هناك .

و — « ولكن كيف يمكننى أن اقول بلسانى ماهذا العالم ؟ كل ما يمكننى قوله عنه : هو نور وحضور وحياة » .

اننى انظر حولى فأرى : « شقائق تتكىء على مناكب الجبال ، وانهارا تتعرج وسط الرياض . وبراعم حمراء وبيضاء وزرقاء ، انها براعم تتفتح فتصبح زهورا بأنفاس الأولياء ومياها فضية ونسائم عنبرية وقصورا ذات قباب من زمرد ، وخياما بلون الياقوت حبالها من ذهب ، وحسناوات ذات وجوه متألقة كالمرايا » .

---

(١) محمد اقبال : زبور عجم ص ٣٠٨ .

(٢) وفيه اشارة الى قوله تعالى « انما أمره اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (يس : ٨٢) .

وحين راى الرومى حيرتى قال لى : « يااسير القياس لاتعبأ باعتبارات الحواس» فالحواس الخمس الى جانب العقل كلها معطلة هنا . . . «والأعمال الصالحة والسيئة تنجم عن التجلى ، السيئة تتحول الى جحيم والطيبة تتحول الى جنة ، فهذه القصور الملونة التى تراها أمامك قد بنيت من الأعمال وليس من الحجارة والطوب . ان ما تسميه الكوثر والغلمان والحور هو كله تجل وانعكاس لعالم الجذبة والسرور الذى نحن فيه الآن »» والحياة هنا — يا زنده رود — ليست تردد انفاس ، « انما الحياة هنا مشاهدة الجمال ليس الا ، وهى متعة المشاهدة والتحدث مع الحبيب ليس الا » (٥)

الدرس الثالث

قصر شرف النساء

يتحدث اقبال هنا عن امرأة هندية مسلمة عشقت القرآن فقضت معظم أوقاتها فى تلاوته ، وأيقنت أن القرآن لا يمكن حفظه وفقهه الا بقوة السيف وروح الجهاد ، فكانت تتقلد السيف وهى تقرأ القرآن ، ولما أشرفت على الموت أوصت بأن يوضع السيف الى جانب المصحف فى قبرها .

انها « شرف النساء » حفيدة « عبد الصمد خان » حاكم اقليم البنجاب فى الفترة ما بين ١٧١٣ — ١٧١٦ م وقد كان هذا الرجل قائدا عسكريا مغوارا فى عهد السلطان المغولي « بهادر شاه » وتمكن بعد محاولات عديدة فى سنة ١٧١٤ من احباط ثورة « السك » الجامحة فى شمال الهند والتى راح ضحيتها الآلاف من المسلمين والهندوس على السواء (١) .

والواقع أن تاريخ ولادة المذكورة ووفاتها غير معروف ولكن ما أثر عنها هو أنها كانت تحب تلاوة القرآن حبا ملك عليها حياتها مما دعاها الى انشاء صومعة عالية فى ركن من منزلها كانت تصعد اليها لتخلو الى قراءة القرآن وكانت تضع الى جانبها عند التلاوة سيفا مرصعا بالأحجار الكريمة. وعندما حضرتها الوفاة طلبت من أمها أن تبنى لها قبرا بمكان صومعتها وأن تضع مصحفها وسيفها الى جوارها فى القبر . ونفذت أمها وصيتها . وظل المصحف والسيف فى قبرها الى أن كانت ثورة « السك » فى سنة ١٨٤٠ م ، فهاجم بعضهم المقبرة ونبشوا القبر ظنا منهم أنهم سوف يجدون كنزا بداخلــه ، ولكنهم لم يجدوا ســوى المصــحف والسيف ، فذهبوا بهما (٢) .

يشاهد اقبال قصر هذه المرأة المؤمنة فى جنة الفردوس فيسأل الرومى: « هذا القصر الذى بنى من اللؤلؤ النقى،والذى يجبى الخراج من الشمس.. هذا المقام ، هذا المنزل ، هــذا القصر الشــامخ ، انظر ... ان الحور عاقدات الاحرام على اعتابه ، فأجبنى يامن الهمت الســالكين البحث : من صاحبه ؟ »

فيرد عليه الرومى قائلا : « هذا قصر شرف النساء ، ان الطير على سطحه يغرد نفس اللحن الذى تشدو به الملائكة . ان بحرنا لم ينجب مثل

---

(١) يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ١٠٢١ — ١٠٢٣ ، الدكتور أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة .. ص ٤٢٣ عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ص ٣٠١ . آربرى: ترجمته الانجليزية لجاويد نامــه ، ص ١٤٩ .

(٢) يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ، ص ١٠٢٠ — ١٠٢٢ .

هذه الجوهرة ، لم تنجب أم مثل هذه البنية . ان أرض « لاهور » سماء بفضل مزارها ، لاأحد فى هذا العالم يعرف سرها . فلقد كانت كلها نوقا وشوقا ، وحسرة ، وتوهجا ، هى عين ومصباح لحاكم البنجاب . انهـــا ضياء لأسرة « عبد الصمد » نقرها صورة باقية على الأبد » فلقد تخلت عن متاع الدنيا رغم ثرائها وأقبلت على الله ولم تبغ الا وجهه .

« ولكى تطهر كيانها كله بالقرآن ، فانها لم تنقطع لحظة واحدة عن تلاوته . كان فى خصرها سيف ذو حدين ، والمصحف فى يدها ، الجسد والبدن والعقل والحواس منها سكرى بالله » .

لم يكن فى حياتها كلهـــا سوى أربعة أشياء هى « الخلوة والسيف والقرآن والصلاة ، الا ما أطيب العمر الذى انقضى فى الابتهال » .

فالخلوة لابد منها للتفكير فى الحبيب ، والسيف رمز الجهاد ، وتلاوة القرآن تزكية للنفس ، والصلاة عماد الدين .. انها جمعت هذه الخصال الأربع الحميدة كلها . لم تجاهد لأن الجهاد ليس فريضة على النساء ، ولكنها كانت تتقلد السيف مؤكدة للرجال أن : هاتين القوتين تحفظان بعضها البعض .

« وعندما وصلت أنفاسها الأخيرة الى شفتيها نظرت الى أمها وعيناها تنطقان بالشوق (الى لقاء الحبيب) وقالت » :

« اذا كان لديك علم بسرى ، فانظرى صوب هذا السيف والقرآن . . فهما قوتان تحفظان كل منهما الأخرى انهما المحور لمخلوقات الحياة » لأنه لو لم يوجد القرآن ووجد السيف لكان السيف نقمة وانتحارا لبنى الانسان، واذا وجد القرآن ولم يوجد السيف الى جواره لما أمكن التصدى لأعداء الحق ولما علت كلمة الله ، ان القرآن والسيف اذن هما محور حياة المسلمين.

« انك تعرفين ـــ يا أماه ـــ انه لم يكن لى من أنيس ـــ فى هذا العالم الذى يموت كل لحظة ـــ سوى القرآن والسيف ، واننى أقول لك وقته الرحيل : لا تفصلى عنى القرآن والسيف ، ضعى ـــ يا أماه ـــ فى قلبك تلك الكلمات التى سأقولها لك : من الأفضل لقبرى أن يكون بلا قبة وقنديل ، اذ يكفى المؤمنين السيف مع القرآن .. فليكن هذان اذن هما أثاث قبرى وكفى » .

* * *

يقول اقبال على لسان الرومى : « وظل الكتاب والسيف على قبرها وتحت هذه القباب الذهبية سنوات طويلة . حقا ان مرقدها ـــ فى عالم اللاثبات هذا ـــ قد تحدث برسالة الحياة الى أهل الحق . فلقد كان نداء مقبرتها ان يتنبه المسلمون الى ضرورة الجمع ، بين القرآن والسيف ، فكانوا كالأسود الى أن فعل المسلمون بأنفسهم ما فعلوا ، فطوت دورة الزمن بساطهم » ، ولكن لماذا طوى بساطهم ولا سيما فى البنجاب ؟ لأن

« رجل الحق (المسلم) كان يخشى غير الحق (السك) فلقد احترف أسد الله شرعة الثعلب » ، فتواروا عن مسرح الحياة العامة ، وسهل بذلك ازاحتهم عنه ، فاستضعفوا واستذلوا « لقد مضى من قلبه (المسلم) الزئبق والنار والتحرق » اذ تخلى عن الجهاد الذى يجعل النفس بغير قرار كالزئبق ولا يمكن اخمادها كالنار الهائلة المستعرة « انك — يا زنده رود — تعرف مـا جرى على البنجاب » فأنت نفسـك ولدت فى البنجاب وترعرعت فيها .. وأنت تعرف أن الخالصـة (السـك) سرقوا السيف والمصحف ، بينما مات المسلم فى تلك البلاد ، فلم يعد فى البنجاب مسلم حق يؤمن بالجهاد ، فيتلوه آيات وينفذه سلوكا .

الفصل الرابع

زيارة سمو الأمير الكبير سيد على الهمداني ، والملا طاهر غنى الكشميرى

تحرك الأسى فى قلب « زنده رود » بعد أن استمع الى أقوال الرومى هذه ، ودب دبيب الحزن فى قلبه — حتى وهو فى الجنة — مما جرى على البنجاب .

لكنه لا يلبث بعد هنيهة أن يستمع الى صوت حزين يترنم بأغنية عذبة بجوار حوض « الكوثر » ، ولا يكون هذا الصوت سوى صوت الشاعر الكشميرى البارز « طاهر غنى » (1) .

ويبين الرومى لزنده رود أن طاهر غنى انما يشدو بهذه الأغنية فى حضرة مولانا « سيد على الهمدانى » الملقب بشاه همدان(2) . والواقع ان هذه الشخصية قد اثرت ايما تأثير فى تاريخ « كشمير » وحياة شعبها ، فأكثر المسلمين فى كشمير اليوم قد أسلم أجدادهم على يد هذا الرجل (3) يقول عنه « توماس أرنولد » فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » :

« وحول نهاية هـذا القرن نفسـه (١٣٨٨ م) لقى تقدم الاسـلام (فى الهند) أعظم رواج بقدوم سيد على الهمدانى أحد الفارين من مدينة همدان مسقط رأسه فى فارس ، حيث كان قد أثار سخط تيمور ، وقـد صحبه سبعمائة سيد ، وأسسوا أماكن للتنسك فى جميع أرجاء البلاد ،

---

(1) كان ملا محمد طاهر غنى من أشهر الشعراء فى بلاط (شاهجهان) وقد نظم كل أشعاره بالفارسية ، وكان صوفيا كبيرا . واقبال يقدر أشعاره الفارسية تقديرا خاصا كما كان معجبا بوجه خاص بأسلوبه فى الحياة ، وهو الأسلوب القائم على «الفقر» أى على الفكر والذكر سويا ، وقد وضح هذا الاعجاب فى القطعة التى كتبها فى « بيام مشرق » (ص ١٦٠) بعنوان : غنى كشميرى . وقد توفى طاهر غنى فى سنة ١٠٧٩ هـ (١٦٦٩م) . (أنظر : دكتور محمد ظفر خان ، غنى كشميرى ، مقال بالفارسية فى مجلة « هلال » يونيه ١٩٦٣ م ، كراتشى . ص ٤٣ — ٥١) .

(2) ولد فى سنة ٧١٤ هـ — ١٣١٤ م فى همدان (ايران) وحفظ القرآن منذ صغره وتعلم العلوم الظاهرية فى عصره ثم سلك طريق التصوف وكان مرشده الشيخ الصالح علاء الدين السمنانى ، ولم يلبث أن ساح فى بلاد العالم الاسلامى ثم وصل كشمير فى سنة ٧٧٤ ومعـه عدد كبير من الصوفية للدعوة الى الاسلام ، وتوفى سنة ٧٨٦ وهو فى طريقه الى تركستان .

(3) أنظر يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ١٠٢٨ .

ويظهر أنه كان من تأثيرهم أن تحقق قبول الناس لهذا الدين الجديد ... الخ »(١) .

ويبدو اقبال معجبا الى حد بعيد بهذا الداعية العبقرى الذى استطاع هو ومن جاء معه من الصوفية فى فترة قليلة من الوقت ان يحيلوا كشمير الى منطقة زاخرة بالصناعات البديعة والحرف الرفيعة التى ماتزال تشتهر بها الى اليوم بحيث أصبح فى الامكان تسميتها « ايران الصغيرة » نظرا لعلو شأنها فى الفنون ولتفوقها فى المهارات الحرفية المنقولة عن الايرانيين فضلا عما نشروه فيها من دعوة الحق .

١ — بين اليأس والأمل :

يقول « زنده رود » معقبا على أقوال الرومى فى شأن ما حل بمسلمى البنجاب « أشعلت كلمات الرومى فى قلبى نارا ، آه للبنجاب ، آه لتلك البلاد الغالية ، لقد اضطربت حتى فى الجنة بسبب حمى الأحبة ، وعرفت مرة أخرى أحزانى القديمة فى الجنة » فمع أن الجنة دار السعادة الخالصة التى لاتعرف الحزن ، الا أننى لم أتمالك نفسى من الشعور بالحزن والأسى على ما حل بالمسلمين فى البنجاب .

« الى أن ارتفع فى تلك الروضة صوت متوجع من شواطىء حوض الكوثر » ينشد بيتا أعرفه لغنى الكشميرى ، هو :

— جمعت قبضة من القش لكى أحرق بها نفسى ، بينما تظن الوردة أننى سأبنى عشا فى الروضة » .

٢ — من هو شاه همدان :

يقول اقبال : « قال لى الرومى : أنظر ما الذى يأتى الآن ، ولا تعلق قلبك يابنى بما مضى » لا تدع اليأس يتسرب الى قلبك من ذكريات الماضى ، وعليك أن تتمعن قليلا فيما يقوله « طاهر غنى » ، انه شاعر قدير حقا ، انه يبسط أمامك بشعره عالما زاخرا بالتشبيهات الرائعة ، وكأن « صوته متعدد الألوان ، أما فقره فغنى فى باطنه غنى فى ظاهره » انه فقر ولكن لا عن حاجة أو عوز وانما عن استغناء واستعلاء على ملذات الحياة المتاحة أمامه ، قاصدا وجه الله تعالى .

ان هذا الصوت الذى سمعته — يازنده رود — هو صوت غنى الكشميرى نفسه ، فهو « يغنى لحنا وهو ثمل بخمر الخلود ، فى حضرة سيد عالى المقام ... انه سيد السادات قائد العجم (ايران) ، يمينه معمار لأقدار الأمم » . حقا لقد بدل قدر شعب كشمير وحدد مصيرهم حين جعلهم ينبذون الشرك ويعتنقون الاسلام .

« هو مرشد ذلك البلد الشبيه بالزمرد ، وهو مستشار للأمراء والدراويش والسلاطين » فلقد كان مرشدا روحيا لهؤلاء جميعا ، فضلا عن « أنه ملك جواد كالمحيط ، أعطى الخطة (كشمير) العلم والصناعة

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٢١٠ .

والحضارة والدين » ، فلقد أقام الهمدانى المدارس لنشر اللغة العربية والعلوم الدينية فى مختلف مدن كشمير ، وجلب عددا كبيرا من أرباب الحرف فى ايران ، فعلموا أهل كشمير النحت والتصوير والخط ، والنسيج ولا سيما نسـج السجاد ، ونشروا الثقافـة الاسـلامية والحضـارة الايرانية فى البلاد(١) فتحولت كما يقول اقبال الى « ايران صغيرة » .

يقول الرومى لزنده رود وهو يصف له هذه الشخصية العبقرية : « انه بنظرة واحدة يحل مئات العقد » ، فاغتنم اذن الفرصة واعرض عليه مشكلاتك واطلب رأيه فيما يراودك حتى من وساوس وهواجس « واجعل لسهمه طريقا الى قلبك » فهو حجة فى هذا المضمار .

فى حضرة شـاه همدان

١ — زنده رود : ما سر الله ؟ :

يتوجه زنده رود الى سيد على الهمدانى قائلا : « أريد منك مفتاح سر الله ، لقد أراد منا الطاعة وخلق الشيطان ، ومن ثم فقد ازدان الخبث والسوء ، ولكنه يريد منا الصالح من الأعمال » .

« انني أسألك ما هذه اللعبة السحرية ، وما هذه المقامرة مع خصم ردىء » ؟

« أحفنة تراب أمام (كل) هذا الفلك الدوار ؟ ! أجبنى ، أهذا الذى يفعله (الله) يليق به ؟

« عملنـا ، وأفكارنا ، وعنـاؤنا ... اننا نعمل ونحن نعض على النواجذ » ؟

انها جراة عجيبة تلك التى تنطق من بين سطور هذا التساؤل الطويل ، ولو كان غير اقبال قالها لقلنا عنه انه زنديق ، ولكن الملاحظ أنه لايراعى فيه الجانب الالهى بقدر ما يحاول من خلاله احداث صدمة فى نفس القارىء تجعله يتنبه لهذا القول الخطير الذى سوف يرد بعد ذلك ردا على هـذا السؤال .

وسوف نلاحظ ان الرد على هذا التساؤل رد مجمل ، هادىء رزين ، لكنه قوى وعميق فى نفس الوقت ، فلقد وضع فيه اقبال خلاصة نظرته عن مسألة الخير والشر التى حيرت الانسانية منذ زمن بعيد .

والواقـع أن اقبالا كان قد عرض لهذه المسألة فى مقدمته للترجمة الانجليزية لمنظومته « أسرار خودى » (١٩٢٠) فقال :

« فان يكن فى حالة التوتر هذه كمال الانسـان فأول فرض عليه أن يعمل لدوام هذه الحال والحيلولة دون حال الاسترخاء . وكل ما يمكننا من ادامة حال التوتر يمكننا من الخلود ... وهذا التصور للشخصية يقوم معيارا لقيم الأشياء يعنى أن فى ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تحل مسألة الخير والشر ، فما يقوى الذات خير وما يضعفها شر »(٢) .

---

(١) يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ١٠٢٩ — ١٠٣٠ .
(٢) انظر عبد الوهاب عزام : محمد اقبال ص ٥٧ .

يرد « شاه همدان » على هذا التساؤل فى تؤدةوثقة قائلا : « ان العبد الذى يعرف نفسه جيدا ، يخلق المنفعة من الضرر . أما أن يقيم المرء حفلا (للصداقة) مع الشيطان فهذا هو عين الوبال على الانســان ، ان حرب الشيطان جمال ومجد للانسان » ، فهذا الصراع بين الانســان والشيطان هو الذى يجعل للذات الانسانية قيمة وللحياة معنى ، لذلك « ينبغى على المرء ضرب نفسه على أهرمن (الشيطان) ، فأنت السيف وهو المشحذ » ، فالصــدام مع الشيطان هو الذى يشحذ همــة المرء ويدعم شخصيته كما يشحذ الحجر حد السيف .

ألا أسدى اليك نصيحة ، يا زنده رود « كن أكثر مضاء يشتد وقع ضربك ، فان لم تكن كذلك فأنت سىء الحظ فى الدارين » ، فطالما لم يصطدم الانسان بالشيطان ويعمل على التغلب عليه ، فلن تقوى ذاته ولن تتدعم شخصيته ، ويكون كمن خسر الدنيــا والآخرة .

٢ ــ زنده رود : الانسان يلتهم أخاه الانسان :

يحاول اقبال هنا أن يصف مشاعره عن الحياة السياسية والمعنوية لشعب كشمير المســلم الذى تبدلت أحواله وأصبحت الأقلية فيــه من « السك » تسومه سوء العذاب ، فيقول لشاه همدان :

« تحت الفلك يلتهم الانسان الانسان ، وترعى أمة أمة أخرى،كماترعى الابل الحشائش والأعشاب ، ان روحى تحترق ــ كما يحترق الفلفل فى النار ــ على أهل الخطة (كشمير) ، وتتصاعد من قلبى آنات الألم » .

ما بال شعب كشمير ، « انه شعب فطن ذكى طيب العنصر ، وعلو كعبه فى العالم آية بينة » ، فشهرتهم فى الصناعة والفن لا تنكر ، ولكن « كأســهم مازال يتخبط فى دمهم الى الآن ، أو لست تعلم أن النواح فى قيثارتى انما هو على مسلكهم » .

« انهم منذ أن منوا بانكار الذات ، وقد أصبحوا غرباء فى ديارهم ... فأجورهم فى أيدى الآخرين ، وأسماك أنهارهم فى شباك الآخرين » .

هم يتخبطون على غير هدى « فكل القوافل تتجه صوب الهدف خطوة فى اثر خطوة ، ولكن عملهم مازال سقيم الأداء لانسق فيه ولا نضج » .

لقد أصبحوا عبيدا لغيرهم « ومن خلال هذه العبودية ماتت جذباتهم ونزعاتهم الطموحة ، لقد خمدت النار فى عروق كرمهم » .

« ولكن لا تظن أن هذا كان دأبهم ، وأن جباههم كانت مطأطأة على هذا النحو » .

فماضيهم مجيد « لقــد كانوا يوما اناســا مولعين بالحرب ، كانوا شجاعا جسورين غيورين » .

٣ ــ زنده رود : ... ولكن أين الرجال ؟

يرسم الشاعر هنا صورة بديعة للطبيعة فى كشمير ، ولكن هذا الجمال كله لا يلبث أن يثير فى نفسه ــ على لسان طائر يغرد ــ هذا التساؤل : حقا ان الزهور بمختلف أنواعها وبكل جمالها ورقتها تنبت من كشمير ، ولكن هل أنجبت كشمير مسلما مجاهدا فى الحقبة الأخيرة ؟

يقول اقبال : « انظر جبالهـا ذات القمم البيضاء ، وانظر سواعد أشجار الرمان ذات اللون النارى ، فى أوقات الربيع يتساقط اللؤلؤ من الصخور ، وينبت من أرضها طوفان من الالوان . وتغطى قطع السحاب الجبال والوهاد ، وكأنها ندف من القطن طائرة من قوس ضاربه » .

« الجبل ، والبحر وغروب الشمس ، لقد رأيت الله هناك بلا حجاب » .

« ولقد ثملت بالنسيم فى حديقـة « نشاط » ، وغنيت استمع الى الناى فى نشاط (١) . ووقف طائر وسط الاغصان يغرد ويقول : « هذا الربيع لا يسـاوى شيئا ، لقد نبتت الشقائق وتفتح النرجس ذو العيون السوداء ، فمزقت نسائم « النوروز » (٢) أطرافه ، ولسنوات عديدة نما — من هذا الجبل والوادى — النسرين أنقى من ضوء القمر ... ولسنوات عديدة حزم الورد متاعه ثم تفتح ... ولكن أرضنا لم تلد شهاب الدين آخر » (٣) .

ويرمز اقبـال بهـذا الى روح الملا طاهر غنى الكشميرى ، وهى روح لا تؤخذ بسحر الربيع فى كشمير ، ولا بجمال الطبيعة فيها ، وانما يهمها على وجه الخصوص أن يكون فى كشمير رجال ذوو بأس شديد على غرار السلطان شهاب الدين .

٤ — زنده رود : ((باعوا كشمير بأبخس الأثمان)) :

يقول اقبال — لشاه همدان — مستأنفا وصف جولته فى حديقـة « نشاط » بكشمير : « لقد امتلأ قلبى لوعة من نواح طائر السحر هذا ، فأخذت الحرقة من روحى كل مأخذ ، وفى التو رأيت رجلا مجنونا يصيح صيحة سلبت منى متاع الصبر والعقل » ، لقد كان هذا المجنون يقول :

---

(١) « نشاط » حديقة مشهورة بكشمير ، أما « استمع الى الناى » فهو عنوان أول مقطوعة فى مثنوى جلال الدين الرومى : تتحدث فيها عن الغربة الانسانية وهبوط الانسان من الجنة الى الأرض . فكأن « نشاط » ذكرت شاعرنا بالجنة نفسها .

(٢) اول ايام الربيع عند الفرس .

(٣) « أحد مشاهير سلاطين كشمير » هكذا علق اقبال فى الحاشية ص ١٨٨ ، ويرى جشتى فى « شرح جاويد نامه » ص ١٣٣ — ١٣٤ انه : « شهاب الدين ، الابن الثالث للسلطان شمس الدين ، تولى الملك فى سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٤ م) بعد وفاة أخيه السلطان علاء الدين ، امتـاز بالشجاعة وقوة البـأس وبسـط سلطانه على المنـاطق المحيطة بكشمير ، ووقف حياته على الغزو ، وقبل وفاته بسنة واحدة قدم « السيد على الهمدانى » الى كشمير ، وكان السلطان متدينا محبا لأهل التصوف ، فأضفى حدبه على الهمدانى . وقد كان السلطان ماهرا فى علوم الظاهر والباطن على السواء ، وصنف كتبا كثيرة فى التصوف والأدب ، وتوفى سنة ٧٧٥ هـ » ، أما آربرى فيرى خطأ أن الاشارة هنا « لشهاب الدين الغورى ، أعظم ملوك الدولة الغورية فى الهنـد ، مات سنة ١٢٠٦ م » . (ترجمته الانجليزية لجاويد نامه ، ص ١٤٩) ولكن الغورى لم يولد فى كشمير .

« لا تعبأ بنا ، ولا تبحث عن نواح ملتهب ، لا تعبأ بأغصان الزهر فهى طلسم للألوان والروائح » ، لاتعلق قلبكَ بالدنيا ، فهى كغصن الزهرة واهنة مصيرها الفناء .

— « لقد قلت ان الندى كان يقطر من ورق الشقائق ، لا — أيها الغافل — انه قلب يبكى على شط الجدول » من غربته وفراقه عن الأحبة .

— انى يتأتى لهذه القبضة من الريش مثل هذا الغناء ، انها — ياصاحبى — روح غنى ترثى موت الارادة » وتذرف الدموع على فقدان مسلمى كشمير لحافز الرقى ووازع التكمل .

— « الا يا ريح الصبا ، اذا مررت بجنيف فأبلغى عنا عصبة الأمم هذه الرسالة » .

« لقد باعوا المزارع والزرع والجدول والحديقة ، لقد باعوا شعبا.. ، وبأبخس الأثمان » ، لقد باع الانجليز كشمير للسك فى سنة ١٨٤٦ م وعقدوا بذلك معاهدة ببيعها مع « جلاب سنج » سميت معاهدة « أمريتسر » تقاضوا فى مقابلها ٧٥٠٠٠٠٠ روبيه ، باعوها بكل ما عليها بأبخس الأثمان ، ومنذ ذلك الحين والمسلمون يعانون من الاضطهاد والاستعباد من « جلاب سنج » وخلفائه .

٥ — شاه همدان : الجسد تراب ، والروح جوهر ثمين :

يشرع « شاه همدان » — بعد أن انتهى « زنده رود » من الاعراب عن الأحزان والهموم التى تضطرم بها نفسه من أحوال كشمير — يشرع فى الحديث عن فلسفة الحياة والموت بنظرة اسلامية حقة فيقول :

« سأحدثك — يا بنى — بسر دقيق : الجسد كله تراب ، والروح جوهر رفيع القدر » ، فالجسد من طين ولا قيمة للطين ولا شأن له بجانب الروح ، هذا القبس النورانى الخالد ، الذى لا يقدر بثمن .

« وينبغى صهر الجسد من أجل الروح ، ينبغى تمييز الجوهر النقى من التراب » ، فالانسان العاقل هو الذى يعملُ على تربية روحه وترقيتها ويحفظ عليها هذا التطلع الدائم الى السمو والخلود .

« اذا قطعت جزءا من الجسد عن الجسد ، فسوف تفتقد هذا الجزء من الجسد ، أما الروح التى تصبح ثملة بالجلوة فسوف تعود اليك لو ضحيت بها » .

« وجوهر الروح لا يشبه شيئا قط ، هى فى القيد وليست فى القيد » ، انها تختلف عن كل المحسوسات والأشياء المادية التى تراها أمامك ، لا شىء فى الدنيا يشبه الروح .

« لو حفظتها تموت فى البدن ، ولو نثرتها فهى ضياء المحفل » ، فانكَ لو ضننت بها ماتت فى قيدها ، أما لو نثرتها فانها ستظل حية خالدة بل وربما أدى ذلك بها الى احياء أمة بأسرها .

والآن دعنى أسألك : « أيها الرجل الكريم ، ما الروح الثملة بالجلوة ؟ وما معنى التضحية بالروح ؟ » .

« ما التضحية بالروح ؟ تسليمها لله ، وهذا يعنى صهر الجبل بشعلة الروح » ، فالمرء اذا أسلم نفسه لله وأيقن أن روحه بيد الله وحده لن تقف فى سبيله المشكلات حتى ولو كانت بحجم الجبال .

ثم « ما سكر الجلوة ؟ هو ادراك الذات ، هو التألق كأحد النجوم فى ليل بهيم » ، فالانسان اذا أدرك ذاته ، وعاينها وتعرف على ما فيها من قبس الهى ، وأيقن أن عليه أن يقوم بمقتضيات الخلافة الالهية ، وأحس بغربته عن أصله الالهى ، فان الجانب النورانى فيه يتألق كما تتألق النجوم فى السماء .

« أن عدم ادراك المرء لذاته يعد بمثابة الفناء ، أما ادراكه لها فهو بمثابة أن تهب نفسك لنفسك » ، فلو لم يتعرف الانسان على ذاته وعلى طاقاته الروحية الكامنة فيها ، فلا يكون ثمة فرق بين وجوده وعدمه . غير أنه حين يتعرف على ذاته فانه يغدو وقد أيقن أنه موجود حقا وأن عليه أن يعمل لدعم وجوده وتحقيق خلوده .

« وكل من رأى نفسه ولم ير غير نفسه ، فقد أخرج المتاع من سجن النفس » ، فاذا ما حصل المرء على معرفته لذاته نال الحرية من قيد الجسد ، وتمكن من السيطرة على الزمان والمكان .

« ان النمل بالجلوة الذى يرى نفسه ، يعتبر اللدغة أحلى من العسل » وحين يتعرف الانسان — الذى لا يعلق قلبه الا بالله تعالى — على ذاته يوقن أن المشكلات والمحن أفضل بكثير من الراحة والدعة .

« فالروح فى عينيه رخيصة كالريح ، و (جدران) سجنه يتملكها الزلزال أمامه . ومعوله يفتت الحجر الصلد كى يحصل على نصيبه من الكون » بل ان الروح نفسها — رغم أنها لا تقدر بثمن — تصبح فى نظره لا قيمة لها ، فهو لا يخشى الموت لأنه يعرف أن الموت ليس فناء له ، ولذا تتجلى فيه قوة لا يقف فى وجهها عائق .

يصل « شاه همدان » بعد ذلك الى بيت يودع فيه خلاصة هذا البحث ، فيقول : « فاذا ما ضحى المرء بالروح ، تكون الروح ملكا له حقا ، والا فان روحه تكون ضيفا عليه لحظة أو اثنتين » . فالمؤمن يدرك أنه اذا طلب الموت وهبت له الحياة ، واذا فر من الموت فانه لا شك ملاقيه فى موعده المحدد لا يتقدم عنه لحظة ولا يتأخر .

٦ — زنده رود : ما أساس الملك :

وهنا يوجه اقبال سؤالا اليه وهو موقن أنه سيجيب عليه أفضل اجابة ، فهو الذى كتب « كتاب الملوك » وأودع فيه خلاصة مفهوم السلطة فى الاسلام وتحدث فيه عن الأحكام التى ينبغى على الحاكم اتباعها من أجل سعادة رعاياه ، يقول زنده رود :

« أيها الشيخ العالم ، لقد تحدثت عن فلسفة الشر والخير ، فحدثنى عن نقطة دقيقة أخرى ، فلقد كنت مرشدا لأولئك الذين يرون المعنى

الخفى ، لقد كنت موضع أسرار الملوك (١) .نحن فقراء والحـاكم يريد الخراج (٢) ، فما أصل اعتبار العرش والتـاج ؟ » إننا مفلسون ولكن الحاكم يطلب منا الخراج اليثنى هذا ظلما ؟ وما أساس الملك فى هـذا العـالم ؟ »

٧ ـ شاه همدان : الطاعة واجبة لحاكمين فقط :

يرد عليه شاه همدان مبينا مشروعية السلطة وأساسها فى الاسلام ، قـائلا :

« ما أسـاس الملك فى الشرق والغرب : اما رضـاء الشعوب ، واما الحزب والعنف » ، فاما أن الشعب يختار شخصا حاكما له ، واما أن يستولى شخص ما على الملك بقوة السيف .

ولكننى « سأتحدث معك بوضوح ــ يا صاحب المقام العالى ، ان تقديم الخراج حرام الا لشخصين اثنين : لواحد من أولى الأمر وشأنه منكم ، وحجة هذا الشخص وبرهانه الآية الكريمة : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(٣) ، واما لبطل سريع النهوض مثل الصرصر العاتية ، يفتح المدن ويخاطر بنفسه فى القتـال ، وفى يوم الطعان يفتح البلاد بقوة الجيوش ، وفى يوم السـلام يفتحها بأساليب المحبـة » ، اذ يحرم على المسلم فى رأيى أن يطيع الا حاكمين : الحاكم الذى يتبع كتاب الله وسنة رسوله ويتميز بالعلم والتقوى والوعى والصلاح ، أو البطل الذى يبادر

---

(١) اشارة الى « كتاب الملوك » وهو من تواليف سيد على الهمدانى . وتوجد نسخة خطيـة قديمة من هذا الكتـاب فى مكتبة جامعـة القـاهرة وعنوانها « ذخيرة ملوك مشتمل بر لوازم قواعد سلطنت صـدرى ومعنوى ، مبنى بر ذكر أحكام حكومت وولايت وتحصيل سعادت دنيوى وأخروى وممهد برده باب » وهى ضمن مجموعـة برقم « ٨٩٤ فا » وتشتمل المجموعة نفسها على عـدد كبير من الرسائل للهمدانى وهى : رسالة فى أنواع الطاعات ، رسـالة فى سيرته ، رسالة فى الطرق ، رسالة فى النصائح ، رسالة درويشية ، رسـاله ذكريه ــ رساله فتوتيه ــ رسـاله فقرية ، رسـاله واردات ، سير الطالبين ، مرءات التائبين . ونجد فى المكتبة نفسها مخطوطتين أخريين للهمدانى احداهما بعنوان « أوراد » وهى برقم « ٨٩١ فا » والثـانية بعنوان « ده قاعـدة » ضمن مجموعـة رقم (١٠٠٠٩ فا) .

(٢) الخراج هنـا معناه الطاعة أو العقد الإجتماعى بالمعنى الاسلامى وهو الإتفـاق الذى يتم بين المحكومين والحاكم حول تفويض السلطة وتطبيق الشريعة . وفى « مسألة الطاعة » أنظر ، الدكتور محمد ضياء الدين الريس : النـظريات السياسية الاسلاميـة ص ٣١٣ وما بعدهـا .

(٣) سورة النساء : ٥٩ ، وانظر الدكتور ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية، ص ٣١٧ وما بعدهـا .

الى الجهاد دون توان أو تباطؤ والذى يفتح البلاد بالقهر فى وقت الحرب ويفتح القلوب بالمحبـــة .

« قد تستطيع — يا زنده رود — أن تشترى ايران وبلاد الهنــد ، ولكن الملك لا يمكن شراؤه من أحــد ، فالملك شىء نــادر الوجود شأنه شأن كأس جم ، وهو كأس لا يمكن لأحد — أيها الشاب الفاضل — أن يجلبها من دكان الزجاج ، ولو أن أمروا جلبها فلن يكون ما يملكه سوى زجاج ، وليس للزجاج من خاصية سوى الكسر » .

ولعل اقبـــالا يريد بهذا أن يقول انه لا حق للانجـــليز فى أن يبيعوا كشمير لـــ « جلاب سنج » أو لغيره ، وليس لجلاب سنج او لخلفـــائه الحق فى أن يحكموا شعب كشمير ضد ارادة هذا الشعب .... ولذا لزم على شعب كشمير أن يرفع راية الجهاد ضد هذا الحاكم الظالم (١) .

٨ — غنى : من الذى أعطى الهند محبة الحرية ؟ :

يلتقط غنى طرف الحديث ، فيقول : « من الذى أعطى الهند هذا التوق للحرية ؟ من الذى أعطى الفريسة التطلع لأن تكون هى نفسها الصياد ؟ انهم سلالة البراهمة ذوى القلوب الحية (٢) ، توقــد وجوههم يجعــل الشقائق الحمراء تخجل من حمرة وجوههم ، انهم جــديدو البصر (فهم أذكيـــاء بالفطرة) ناضــجو العقــل ، عظيمو الإجتــهاد ، نظرتهم تبث الاضطراب فى كيان الأوربيين ، ان أصلهم من ترابنا هذا المعترض ... ولا غرو فمطلع هذه الكواكب من كشميرنا » .

وكأن اقبـــالا يفضل هنا براهمة كشمير على السك المتعصبين الذين تولوا حكمها بعد أن اشتروها من الانجليز ، ويعمد وهو يحاول التقريب بين مسلمى كشمير والبراهمة فيها الى بيـــان أنهم ينتمون الى أصـــل واحـــد (٣) ، والى تربة واحـــدة فيقول على لسان غنى الكشميرى :

« اذا اعتبرت أن رمادنا بلا شرر ، فألق نظرة للحظة واحــدة خلال قلبك » ، واسأل نفسك : « مم يأتى كل هـــذا الحماس الذى تمتلك ؟ ممن يأتى هذا التنفس لنســـائم الربيع ؟ » ، وعندئذ ستجد أن ذاك كله يأتى « من نفس تأثير الرياح التى تستمد جبالنا منها لونها ورائحتها » .

---

(١) « واضح أن العلامة اقبال نظم هذه المنظومة فى الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٢ حين كان مسلمو كشمير يســعون بجد للحصول على الحرية » (يوسف سليم جشتى : شرح جاويد نامه ص ١٠٤٢)

(٢) ويرى الأستاذ جشتى انه يعنى بـ « براهمة كشمير » كلا من : « موتى لعل نهرو وجواهر لال نهرو » وانظر فى مدى محبة المسلمين « لجواهر لال نهرو » فى ذلك الوقت كتاب « اقبـــال اورسياست ملى » ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) ولقد كان جد اقبال الأعلى نفسه من براهمة كشمير .

٩ـ غني : طوبى لموجة تجاوزت الساحل :

ينتقل اقبال هنا الى الرمزية الخالصة ، فيصف حـوارا يجرى بين موجتين فى احدى بحيرات كشمير ، تدعو فيه احداهما الأخرى الى مهاجمة الساحل وتجاوزه ، وتبين لها أن التوافق مع الساحل والركون اليـه موت دائم ، وان الحيـاة انما تكمن فى الحركة والتنقل والقفز بين الجبال والوديـان .

ويرمز اقبال بالبحيرة هنا الى الشعب ، وبهذه الأمواج الى حركتـه نحو التحرر من القيود ، وبالساحل الى الحاكم ، ويرى أن طاعة الحاكم طاعة عميـاء دون تبصر ووعى (التوافق مع الساحل) هى الموت بعينه .

يقول اقبال على لسـان غنى : « الا تعرف أن موجة قالت لموجـة أخرى يوما فى « ولر » (١) الى متى سنظل نرتطم سويا فى هذا البحر ، انهضى كى نرطم سويا هذا الساحل .

ان طفلنا — أى ذلك النهر العتيق الذى يملأ بصريره الوديان والجبال والوهـاد — يرطم نفسه فى كل حين على حجر الطريق ، لكى يستأصل كيان الجبـال ، ذلك الشـاب الذى احتوى المدن والصحارى والوديان ، قد تربى بلبن مئـات الأمهات ، سطوته تقذف الرعب فى قلوب الأنس ، هذا كله بفعلنـا وليس بفعل أحـد آخر . فالعيش فى قيود الساحل خطأ ، ساحلنا ليس سوى حجر فى طريقنا . ان التوافق مع الساحل موت دائم ، حتى ولو كنت تنحسرين بعد فى البحر صباح مساء . وما الحياة الا قفز بين الجبال والوديان ، طوبى للموجة التى تجاوزت الساحل » .

١٠ ـ غنى : لا تيـأس اذن :

يتوجه غنى الى « زنده رود » قائلا : « يا من قرات الخـطوط على جبين الحياة ، يا من أعطيت الشرق هدير الحيـاة » ودعوت أمم الشرق الى اليقظة « يا من لك آهة تحرق القلوب ، أنت منها ضجر ونحن أكثر ضجرا ، يا من تعلم طائر المروج منك الآهات ، يا من يتوضأ العشب من دمعك » فنشيجك يحيى أبنـاء الأمة . « يا من تفتحت حقول الأزهـار بفضل طبعك ، يا من بأملك امتلأت الأرواح بالأمل ، ان صيحتك جرس يحث القوافل على السير فلمـاذا يئست اذن من أهل الخطة (كشمير)؟ » .

ما الذى يدعوك الى اليأس من مسلمى كشمير « ان قلوبهم ليست ميتـة فى صدورهم ، وجمارهم ليست خامدة تحت الثلوج » انهم مازالوا احيـاء رغم الاضطهاد والقهر والعسف الذى استهدفهم على مدى عـدة أجيـال .

« فاصبر ، حتى ترى أمة تنهض من تراب القبور دون صوت الصور »» سترى فى القريب شعبا يتخلص من قيود العبودية وينفض عن نفسه أغلال القهر والاضطهاد .

« لا تحزن اذن أيها الرجل صاحب النظر ، وأخرج — من صدرك — تلك الآهـة التى تحرق الأخضر واليـابس على السواء ، فثمـة مدن

---

(١) اسم بحيرة فى كشمير .

خودى » معرفا بفنــه الشعرى ، وفى سنة ١٩٥٦ نشر ترجمة منظومة لديوانى الأسرار والرموز .

ولكن هــذا العمل الضخم والجدير بالاعجــاب الذى قام به المرحوم الدكتور عزام لم يكن من شأنه أن يعرف بمذهب اقبال ولابدعوته تعريفا كاملا، أو أن يعطى صورة واضحة لفكر اقبال ورسالته . مما دعا الأديب العربى الكبير الأستاذ على الطنطاوى فى مقال له نشر بعدد من مجلة « المسلمون » التى تصدر فى دمشق الى توجيه نداء لأحد العلماء الهنود الأفاضل وهو الشيخ ابو الحسن على الحسنى الندوى قائلا : « هل لك ان تختار من شعر اقبال ما يجعلنا نتذوق طعم ادبه ونلم بطريقته ونتجلى أسباب عظمته فان كل ما قرأنا من كلامه مترجما الى العربية لم يعرفنا به ولم يدلنا عليه» .

وجاء ابو الحسن الندوى فنظر فى دواوين اقبال واشعاره التى ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام ونشر بدمشق كتاب « روائــع اقبال » سنة ١٩٦٠ ، فلاحظ أن حرص عزام على ترجمة شعر اقبال الى شعر عربى هو الذى ادى الى هذا الغموض الذى احاط بأفكار الشاعر بعد ترجمتها الى العربية شعرا ، وخلص فى مقدمته الى القول بأن ترجمة عزام « برهان ساطع على مقدرته الغريبة على النظم العربى ، واقتداره على القوافى الصعبة ، ولكنه لم يكن محسنا الى نفسه ومواهبه ، يوم قرر أن يترجم الشعر بالشعر ، وذلك الذى افقد شعر اقبال قوته وانسجامه ، وافقد الترجمة بهاءها ورواءها وتأثيرها وأضفى على هذا العمل الأدبى العظيم شيئا من الغموض ، قد يحول بين القارىء وبين التذوق والتمتع بالشعر الجميل ، والمعانى الرقيقة . وكان الأمثل للأستاذ عزام .. أن يتشرب فكرة اقبــال ثم يصبها فى القالب العربى كما فعل ذلك فى بعض مقــالاته التى ظهرت فى « الرسالة » و « الثقافة » وكانت بارعة ومؤثرة(١) » .

والواقع ان كتاب « روائع اقبــال » للأستاذ ابى الحسن الندوى ، كان — على ضآلة حجمه — اضافة جديدة للمكتبة العربية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فقــد استطاع كاتبه فى براعة وبصيرة أن يخــتار من دواوين اقبال مقتطفات توضح طريقته وافكاره الى حد كبير وأن يقــدمها فى لغة سهلة دلت على تمكنه من اللغتين العربيــة والفارسية وامتلاكه لناصيتهما حقا .

---

(١) ابو الحسن الندوى ، روائع اقبال ، ص ٩ — ١٠

وكان لفضيلة الشيخ الصاوى شعلان فضل كبير فى مجال التعريف بقريحة اقبال وملكته الشعرية ، فقد استطاع هذا الرجل بشاعريته المتدفقة وروحه الاسلامية الحقة أن يفصح عن المعانى التى أرادها اقبال كأنه الهمها هو فى شعر يهتز له الوجدان ؛ ولعل أوضح مثل على ما اقول ترجمتيه لقصيدتى اقبال « شكوى وجواب شكوى » و « انشودة المسلم » وقد نظمهما اقبال جميعا باللغة الأردية وضمنهما الشيخ الصاوى شعلان كتاب « فلسفة اقبال » الذى اشترك فى تأليفه مع الأستاذ محمد حسن الأعظمى ، وقد نشر الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ م .

وكثيرا ما احتفلت وتحتفل الهيئات العلمية والدينية فى مصر والعالم العربى بذكرى اقبال ، نذكر على سبيل المثال احتفال جامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٦ بذكرى وفاته وهو الاحتفال الذى القى فيه صفوة من كبار الشخصيات كلمات عن اقبال منهم الدكتور طه حسين ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ أحمد حسن الزيات ، وقد نشرت باكستان بالقاهرة فى السنة نفسها كتابا تضمن كلماتهم فى هذا الاحتفال ، كما احتفلت جامعة الأزهر بالمناسبة نفسها سنة ١٩٦٧ ونشرت كتيبا ضم الكلمات التى القيت فى الحفل . وجاء احتفال المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بهذه المناسبة سنة ١٩٦٩ فى صورة اصدار كتاب بعنوان « نظرات جديدة فى شعر اقبال » لمؤلفه الدكتور محمد اسماعيل الندوى . وما تزال تنشر بمصر بين الحين والحين المقالات وتجرى الدراسات وتلقى المحاضرات عن اقبال .

* * *

ولكن الشيء الذى الاحظه هو أن معظم من تصدى من العرب للتعريف بفكر اقبال وفنه قد اتجه الى مصدرين رئيسيين ، وهما كتاب « محمد اقبال » للدكتور عبد الوهاب عزام ، والترجمة العربية التى نشرت بمصر فى سنة ١٩٥٥ لكتاب الفه اقبال باللغة الانجليزية بعنوان « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » فقنع جل من تناول اقبالا بالدراسة والتحليل بالرجوع الى الكتابين باعتبارهما جامعين شاملين فى هذا الصدد ، والواقع أن هذا خطأ كبير .

لأن نظرية الذاتية هى الجانب الوحيد الذى عرضه عزام فى كتابه المذكور من فلسفة اقبال ، فى حين أن هذه الفلسفة تنطوى على جوانب أخرى كثيرة ومتعددة غير الذاتية ، وما نظرية الذاتية — كما سنتبين

فيما بعد — الا أساس طوره تطويرا شاملا بعد ذلك وأقام عليه نظاما فلسفيا شامخا .

كذلك بين اقبال بنفسه أن ما عرضه من آراء وأفكار فى كتابه تجديد التفكير الدينى انما عرضه بأسلوب عقلى محض قد لا يخلو من تعقيد(١). وهذا هو ما نلاحظه من أول وهلة عند مطالعتنا للترجمة العربية لهذا الكتاب الهـام .

لقد كانت منظومة « جاويد نامه » — التى نحن بصددها — هى المنظومة التى شرح اقبال فيها بأسلوب شعرى وجدانى كثيرا من آرائه التى وردت فى « تجـديد التفكير الدينى فى الاسلام » ، بل نلاحظ أيضا أنه عدل عن بعض هذه اراء وصححها فى « جاويد نامه » وهى الآراء التى أخذها عليه بعض العلماء العرب من امثال الشيخ عبد العزيز المراغى(٢) ، والدكتور محمد البهى(٣) ، والدكتور عبد الحليم محمود(٤) .

فلقد كان اقبال يتمتع بشجاعة أدبية نادرة ، وكان لا يتحرج من العدول عن فكرة ولا يتردد فى تصحيح رأى مادامت التجربة قـد أثبتت خطأه . من ذلك مثلا أنه أشاد بتركيا الحديثة ونهضتها فى كتاب « تجديد التفكير الدينى .. » ولكنه ما لبث بعد سنتين تقريبا أن عدل عن هذا الرأى بعد أن تكشفت له حقيقة الحركة الكمالية ونزوعها الى تقليد الغرب فى نبـذ الدين ، فشن عليها هجوما شديدا ونقدها نقدا لاذعا فى « رسالة الخلود » على لسان السياسى التركى الكبير « سعيد حليم باشا » ولكن الدكتور

---

(١) انظر جاويد نامه ، ص ٢٣٧

(٢) فى تعليقاته على اجتهادات اقبـال فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم ، وذلك فى الحـواشى التى كتبـها للصفحات الأولى من الترجمة العربية لتجديد التفكير الدينى فى الاسلام .

(٣) فى كتابه الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

(٤) فى كتاب الاسلام والعقل .

محمد البهى افاض — دون ان يقرا رســالة الخلود — فى نقــد اقبــال على حسن ظنه بالحركة الكمالية(١) .

وفضلا عن ان فكر اقبال يتسم بالتطور والتجدد والمرونة ، فان من سماته ايضا انه يوضح نفسه بنفسه ففكرته الخاصــة بتطور الانسانية التى بدت غامضة فى كتاباته السابقة على « رسالة الخلود » والتى انتقدها الدكتور عبد الحليم محمود(٢) ، قد وضحت أبعادها تماما فى هذه المنظومة من خلال عرض اقبال لتطور العقيدة الانسانيــة فى وادى « الطواسين » بفلك القمر(٣) ، ومن خلال فكرته الشاملة عن الحياة والموت والخلود التى عرضها على لسان السلطان الهندى الشهير « تيبو » (٤) .

ونكتفى بهذين المثلين لنخلص منهما الى أن الدراسات العربية لفكر اقبال قد توقفت عند مرحلة مبكرة نسبيا من مراحل تطور فلسفته وآرائه .

* * *

والواقع أننى أعتبر أن « رسالة الخلود » كفيلة بسد هذه الثغرة فى الدراسات العربية ، فهى واسطة العقد فى اعمال اقبال ، اذ نظمها بعد أن نضجت آراؤه ، وجمع فيها شتات أفكاره فى كافة منظوماته السابقة ويلورها فى سياق واحد حتى بدت وحدة واحدة واضــاف عليها من فكره المتجدد المتطور ما جعلها بحق اعظم مؤلفات اقبال كما يقول النقاد .

ويبدو لى أن الدكتور عبد الوهاب عزام نفسه قد أدرك هذه الحقيقة ، فقد أوضح فى أكثر من موضع من مؤلفاته الخاصة باقبال أن « رســالة الخلود » كانت أول ديوان عزم على ترجمته من دواوين اقبال الى اللغة

---

(١) الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار الغربى، ص ٤٤٢ وما بعدها والغريب أن المستشرق الشهير «جرونباوم» أشار الى ثقة اقبال بالحركة الكمالية ولم يتنبه الى انه غير رأيه فى هذا الصدد ، انظر

C.E. Von Gaunebaum, Islam :Essays in the Nature of Growth of Cultural Tradition, London 1964. p. 194.

(٢) فى كتابه الاسلام والعقل ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) جاويد نامه ص ٤٨ — ٦٠

(٤) أيضا ، ص ٢١٧ — ٢١٨

كثيرة تحت الفلك اللازوردى قد احترقت من حرقة قلب درويش » ولكن الملك القائم على غير رضا الشعب لا يحتمل كل هذه الحرقة « فالسلطة هشة مثل الفقاقيع ، وبالامكان تدميرها بنفس واحد » .

فهيا — يا زنده رود — أنك تعرف قدر الشعراء الحقيقيين ومكانتهم ومدى تأثيرهم ، وتعرف « أن أقدار الأمم تتشكل بأغنية ، وبأغنية تخرب الأمم وتعمر » فالشاعر فى مقدوره أن يحيى أمة ميتة .

« ورغم أن مبضعك يعمل فى القلوب ، الا أن احدا لم يرك على حقيقتك » ، ان أقوالك — يا زنده رود — لها فعل السحر فى القلوب ، ولكن القوم لم يعرفوا بعد ما ترنو اليه وتتطلع . وربما كان للقوم بعض العذر فى ذلك ، « فمع أن نغمتك تنبع من أغنية شاعر الا أن ما تقوله يسمو على الشعر » ، ويعلو عليه .

« فأثر — يا زنده رود — فى الجنة ثورة جديدة ، وانشد لحنا ثملا فى الجنة » .

١١ — زنده رود : ضع ياقوته فى خاتمك :

يستجيب اقبال لدعوة « غنى الكشميرى » فيشرع فى انشاد هذا الغزل المتلىء بروح الحماس والثورة ، يقول :

— روض نفسك على خمر الدرويش ، وعب منها باستمرار ، فاذا ما نضجت ، فارطم نفسك بسلطنة جم » عليك بالفقر (الذكر والفكر) ، عليك بتربية هذا الجزء العزيز الغالى عن نفسك ودعمه ، فاذا ما ايقنت بالنضج شن حربا على الباطل (الملك) .

— « لقد قالوا هذه دنيانا ، هل تتوافق معك ، قلت انها لا تتوافق ، قالوا : اجعلها حطاما اذن » .

لقد قال شيوخنا : هل تستطيع ان تحيا الحياة الاسلامية ذات الطابع الانسانى فى هذا النظام ؟ قلت لهم : لا ، قالوا : عليك بتحطيمه وتقويض اركانه واقامة نظام اسلامى فوق أنقاضه .

— لم أر فى الحانات خصما جديرا (بالمنازلة) ، تصارع مع « رستم دستان » ولا تعبأ بصراع مع أبناء المجوس » (١) ، لقد خلت الخانقاهات نفسها — رغم ماضيها فى الدعوة الى الجهاد — ممن يطلق صيحة الجهاد بين المسلمين ، فابحث عن رفقة رجل مثل رستم بدلا من هؤلاء المخنثين .

— « أيتها الشقيقة التى نبتت فى الصحراء ، لا يمكنك الاحتراق وحدك، فادمغى اذن صدر الانسان بهذه الحرقة التى تشعل القلب نارا » ، أيها الزاهد ، لا تضع كل عمرك فى الخلوة ، فهذا مجاف لدين الفطرة (الاسلام) — ومن ثم فعليك بقلوب المسلمين انقل اليها حرقة قلبك ،

---

(١) ورستم دستان ، هو رستم بن زال احد أبطال الفرس القدماء . و « أبناء المجوس » كانوا يحملون الخمر فى حانات المجوس ، وهم هنا نماذج للتخنث . انظر ، آربرى ، جاويد نامه ، ص ١٤٩

عليك بالانضمام الى المجـاهدين فان انضمامك اليهم سيذكي روح الجهاد في قلوبهم .

ـ « أنت حرقته الداخلية ، أنت حرارة دمه ، الا تصدقنى ؟ أحـدث شـقا فى صرح الكون » ، أيها المسـلم أنت رونق هذا الكون وبهاؤه ، فأنت أشرف خلق الله ، وان كنت لا تسلم معى بذلك فقـارن بين نفسك وبين المخلوقات الأخرى التى جعلها الله خادمة لرقيك الروحى .

ـ « هل العقل مصـاحبك ؟ ضعه فى معبر ، أو العشـق قدحك ؟ تجرعـه اذن مع خل وفى حميم » . لقـد أودع الله فيك قوتين : قـوة العقـل ، وهو بمثـابة المصباح ، فسخر اذن عنـاصر الكون بضيائه . وقوة العشق . فالتزم صحبة رجـال الله كى تكمل لديك هذه القوة .

ـ « اننى أصب من عينى قطعا من دمـاء قلبى ، فخـذ ياقوتة من ياقوتى البدخشى وضعها فى خاتمك » (١) اننى أبصرك بالحقائق والمعارف القرآنية ، وعليك أنت أن تصون دعوتى وتحفظها ، ففى ذلك صـالحك وصالح الملة البيضاء جميعا .

---

(١) الياقوت البدخشى هو المنسوب الى « بدخشان » وهو أجود أنواع الياقوت وأشـدها حمرة .

الفصل الخامس

لقاء مع الشاعر الهندى برترى هرى

كان « برترى هرى » من أحب شعراء الهندوس الى قلب اقبال ، يتضح هذا من لقائه معه فى الفردوس فى « رسالة الخلود » ، ومن مقطوعته التى خصصها له فى ديوانه « بال جبريل » .

ولقد كان اقبال معجبا بشخصية هذا الشاعر الهندى الكبير الذى انغمس خلال فترة شبابه فى ملذات الحياة ولكنه ما لبث ان تخلى بكل شجاعة وقوة ارادة عن الترف والحكم ، وسلك سبيل الزهد والتقشف بحثا عن الله .

كان « برترى هرى » شاعرا وملكا وفيلسوفا ، ومن المؤمنين بالرياضة الروحية المعروفة باليوجا (١) .

١ ـ اقبال : نهضنا تعظيما للفن :

يقول اقبال ان الغزل الذى أنشدته ـ فى الفردوس ـ تلبية لدعوة الشاعر الصوفى « غنى الكشميرى » أثار ضجة فى الجنة وأحزنت الجميع على مسلمى كشمير . فها هى ذى « الحور فى القصور وفى الخيام » قد دعاها أنينى للوصول الى ذروة الاحتراق والحماس ، فتلك واحدة أخرجت رأسها من خيمة ، وتلك اطلت بوجهها من غرفة وأخذت تتطلع . فلقد أثرت فى كل قلب ـ فى جنة الخلد ـ الألم والحزن على الكرة الأرضية » .

« وداعبت بسمة شفة ذلك الشيخ طيب الأرومة (الرومى) وقال : أيها الساحر الهندى الأصل انظر ذلك المنشد الهندى ... ان الندى يتحول ـ بفيض نظرته ـ الى جوهر ثمين ، انه بليغ فى أداء الدقائق أسمه « برترى » فطرته (عبقرية) مثل السحاب النارى ، لم يقتطف من الخميلة سوى برعمة حديثة النضج (فمعانيه وأخيلته جديدة تماما) ، ولقد جذبته نغمتك نحونا » .

« هو ملك ، ذو شدو غال ثمين ، حتى فى الفقر فهو ذو مقام شامخ » .

« انه يصور صورا من الجمال بفكر عميق ، (ويضع) دنيا خافية المعانى فى كلمتين » .

« وهو صديق حميم لعمل الحياة ، هو جم وشعره كأس جم » . فهو مطلع على حقائق الحياة ، انه ملك حقا وأشعاره مرآة للحقائق ككأس جم .

---

(١) انظر يوسف سليم جشتى ، شرح جاويد نامه ص ١٤٩ .

وبعد أن انتهى الرومى من تقديم « برترى هرى » لاقبال اشتد اعجاب اقبال بهذا الشاعر الهندوسى ، ونهض تعظيما لفنه ، واستعد لاجراء حوار هام معه .

٢ — من أين تاتى حرقة الشعر :

يتوجه « زنده رود » الى « برترى هرى » بهذا السؤال : « يا من تحدثت بدقائق تجذب الألباب ، ان المشرق عارف بالسر من نولك .... فقل لى اذن من أين تأتى الحرقة للشعر ، أتاتى من الذات أم من الله ؟ » .

يجيب « برترى هرى » قائلا : « لا أحد يدرى اين يكون الشاعر فى هذا العالم ، فنغمته تنبع من فوق وتحت اللحن » ، فمن يدرك معانيه يكون هو وحده الذى يعرف مكانته .

« وذلك القلب الحار الذى بين جوانحه لا يقر له قرار حتى أمام الله ذاته » ولعل السبب فى ذلك يرجع الى « أن لذة أرواحنا انما تكون فى الطلب والبحث ، فحرقة الشعر هى من مقام الارادة » ان الشاعر العاشق متوتر النفس دائما يبحث عن الرقى الروحانى الدائم ، أما اذا اطمأن وسكن ذهبت منه حرقة الشعر . فالشاعر العاشق ينوح من الفراق ولكنه يخشى الوصال ، لأن فيه نهاية لبحثه ونهاية لتحرق وجدانه ولعبقرية ابداعه .

يتوجه « برترى هرى » الى اقبال قائلا : « يا من أنت ثمل بالخمر المستخلصة من كرم الكلام ، ان فى مقدورك — اذا تيسر لك هذا المقام — أن تسلب قلوب حور الجنة ببيتين اثنين فى عالم الحجر والآجر هذا (الأرض) » ، اذا انطوى شعرك على هذا التوتر الدائم من الحنين الى الوصال ومخافة ترك الفراق فانك سوف تستطيع — بشعرك اذا قلته فى الأرض ان تحصل على محبة الحور فى الجنة نفسها .

٣ — هذا العالم من صنع الانسان :

لم يكن برترى شاعرا فحسب ، وانما كان فيلسوفا أيضا ، كما كانت له آراء فى الاصلاح الاجتماعى ، وقد أراد اقبال أن يستفيد بهذا الجانب فى شخصيته فعرض عليه السؤال التالى : « رأيت الهنود فى ورطة من أمرهم ، لقد حان الوقت الآن لتقول لى سر الله بلا حجاب » ، لقد آن الأوان أن تحدثنى عن الحكمة من وراء ما حل بالهنود .

وهنا يأتى اقبال بقصيدة كان « برترى هرى » قد كتبها باللغة السنسكريتية ، وقد ترجمها اقبال الى الفارسية وجعلها بمثابة اجابة على سؤاله . وبين ثناياها دعوة الى العمل والجهاد تتفق تماما مع آراء اقبال نفسه فى هذا الصدد ، وسنجد أن البيت الأول منها يشير الى ايمان « برترى هرى » بالله وبوحدانيته وتفرده وتعاليه على الماديات .

يقول « برترى هرى » :

أيها الهنود « هؤلاء الآلهة ذوو الطابع الهش هم من الحجار والآجر ، وهنــاك واحد أكثر سموا ، وهو بعيد عن الدير والكنيسة » . ان الآلهة التى تعبدونها هى من الحجــارة والطوب ، ولكن الله أعلى من المــادة وأسمى من الدير والكنيسة .

« سجدة بلا متعة العمل ، هى يبس لا نفع فيها ، فالحياة كلها أفعال اما طيبــة واما نكدة » فالعبــادة المجردة من العمل والتى لا تدفع الى الجهاد لا طائل من ورائها ، فالحياة عمل كلها .

« سأفضى اليك بكلمة لا يعرفها كل انسان ،طوبى لعبد كتبها على لوح قلبــه : هذا العالم الذى تراه ليس من صنع الله ، فالعجلة منك ، ومنك ايضــا الخيط الذى نسجت على مغزلك » فأنت الذى تعمل وأنت الذى تنــال جزاء عملك فى النهاية .

« أسجد أمام قانون جزاء العمل فالعمل ينجم عنه جهنم والأعراف والجنة » فعلينا ـــ نحن معشر الهنود ـــ أن نحترم هذا القــانون الفطرى الذى يجعل الجزاء من جنس العمل ، فهو قانون عــادل حقا . يجب علينا أن نحنى هاماتنــا أمامه وان نعمل بمقتضاه .

الفصل السادس

الاتجاه نحو قصر سلاطين الشرق
نادر ، الأبدالى ، السلطان تيبو الشهيد

يترك الرومى واقبال الشاعر الهندى « برترى هرى » قاصدين قصر السلاطين الثلاثة : « نادر شاه الأفشارى » (١) « وأحمد شاه الأبدالى » (٢) و « السلطان تيبو الشهيد » (٣) .

ولعل القاسم المشترك بين هؤلاء السلاطين الثلاثة جميعا هو الجهاد من أجل نصرة الاسلام واعلاء كلمة الله . واذا استعرضنا بالتفصيل حياة كل واحد من هؤلاء السلاطين الثلاثة فسوف لا نجد واحدا منهم قد أخلد الى الراحة لحظة واحدة ، ولا الى الاستمتاع بحياة الترف والنعيم التى اعتاد الملوك أن يعيشوها ، وانما كانت حياتهم كلها حركة وعملا دائبا وجهادا متواصلا ودعما وتجميعا لقوى المسلمين بهدف التغلب على أعداء الاسلام ونشر كلمة الله بين بنى الانسان .

١ — وصف لسلاطين الشرق :

يقول زنده رود : لقد بلغ التأثر منى مبلغه من سماعى لاقوال « برترى هرى » فقد تغلغل صوته فى أعماق روحى ، ولقد ثملت من لحن برترى ، فقال لى الرومى : يحسن بك أن توقظ عين القلب ، وأن تخطو خارجا من حلقة الأفكار . لقد مررت على مأدبة الدراويش (٤) ، فألق نظرة أيضا

---

(١) هو نادر قلى بيك ، كان من أسرة تركمانية رقيقة الحال فى خراسان ، ولد فى سنة ١١٠٠ هـ — ١٦٨٨ م ، وتوصل بجده وطموحه الى الجلوس على عرش الصفويين فى ايران سنة ١٧٣٦ ، وتمكن من بسط سيطرته على المناطق المحيطة به فدانت له المنطقة الواقعة ما بين بحر قزوين وقندهار ، ثم ما لبث أن استولى على كابل وشن حملة على الهند استولى فيها على البنجاب بأسرها ودخل لاهور فى سنة ١٧٣٩ . وقتل غيلة سنة ١٧٤٧ .

(٢) هو أحمد الأبدالى الدرانى ، ينتمى الى قبيلة أفغانية كانت تقيم فى هراة ، ولكنها هاجرت الى الملتان حيث ولد هو ، كان أبوه حاكما على هذه القبيلة . وقد انضم « أحمد خان » الى جيوش نادر شاه وسرعان ما وصل الى قيادة فرقة الأبداليين بالجيش الفارسى ، وكانت تضم بضعة آلاف من المحاربين الأشداء . حتى اذا قتل نادر شاه نجح الأبدالى فى توحيد قبائل الأفغان وتنصيب نفسه ملكا عليها فأسس بذلك دولة سميت بأفغانستان ، وقام بعدة حملات على الهند أحرز فى معظمها انتصارات هائلة ولاسيما انتصاره الشهير على المراهتا فى موقعة « بانى بت » سنة ١٧٦٠ التى أعادت مجد الاسلام الى الهند ، وتوفى سنة ١٧٧٣ م .

(٣) عن السلطان تيبو أنظر فيما سبق مقدماتنا لفلك زحل .

(٤) معنى الدراويش : شرف النساء ، سيد على الهمدانى ، طاهر غنى ، برترى هرى .

على قصر السلاطين ، فملوك المشرق (الثلاثة) مجتمعون هاهنا ، انهم سطوة ايران وأفغانستان والدكن ، فهــا هو ذا « نــادر » العارف بسر الاتحاد ... انه نشر بين المسلمين رسالة الوداد ، (١)وها هو ذا البطل « الأبدالى » وجوده كله آية ، لقد منح الأفغان أساس الأمة . وذاك أمام شهداء المحبة ، هو فخر الهند والصين والروم والشــام ، وهو غنى عن التعريف فاسمه أكثر تألقا من الشمس والقمر ، تراب قبره أكثر حياة منى ومنك . كان العشق سرا خفيا فوضعه أمام الملأ ، أما تدرى بأى ذوق وشوق ضحى بروحه فى سبيل الله ؟ . لقد أصبح فقر السلطان (تيبو) وارثا لجذب الحسين بفضل نظرة منه الى سيد « بدر » و « حنين » (ص) . لقــد رحل السلطان من هذه الدار ذات الأيام السبعة ، ولكن طبوله مازالت تدق الى اليوم فى الدكن » ، فمازالت أصداء سيرته العطرة تتردد فى جنبات المنطقة الجنوبية من الهند .

٣ ـــ نادر : حدثنــا عن أحوال ايران :

يصف اقبال قصر السلاطين الثلاثة وهو مأخوذ بروعته وبهائه ، فيقول:

« أقوالى وصوتى لا نضج فيهما وفكرى غير كامل ، فكيف يمكننى وصف ذاك المقام » .

« مخلوقات النور من جلواته مبصرة ، وحية ، وعليمة ، ومحدثة ، ذات وعى وخبرة » .

« انه قصر كل جدرانه وأبوابه من الفيروز ، وهو يضم الى صدره كل السماء اللازوردية . يتعالى على قيود الكم والكيف ، وأمامه يقف التفكير ذليلا عاجزا » .

« ذلك الزهر والسرو والياسمين والأغصــان المزهرة بهيجة كأنها صورة قد رسمت بيد الربيع » .

« وتتخذ أوراق الزهور وأوراق الشجر فى كل لحظة ألوانا أخرى بفعل الشوق الى النمو » .

« ما أشد سحر هذا القدر من ريح الصبا ، انه يقلب ـــ فى طرفة عين ـــ الأصفر الى أحمر » .

« وينابيع المــاء تنثر الجوهر فى كل جانب ، وطيور الجنة تصدح بأغان عذبة » .

« وثمة قاعة فى ذلك القصر الشامخ ، ذراتها تمسك بالشمس فى وهقها ، سقفها وجدرانها وأعمدتها من العقيق الأحمر ، أرضها من الأحجار الكريمة (اليشب) وثناياها من العقيق » .

« وعلى يمين تلك القاعة ويسارها تصطف الحور وهن يلبسن الأحزمة الذهبية » .

---

(١) فيه اشارة الى دعوة نادر شاه الى الوحدة بين الشعوب الاسلامية .

« وفى وسط القاعة جلس على عروش من الذهب السلاطين بجلال (جم) وعظمة (بهرام) » (١) .

وهنا وعندما توقفنا — الرومى وأنا — أمام السلاطين الثلاثة « تحدث الرومى ، وهو مرآة لحسن الأدب ، هامسا فى محبة وقال : هنا شاعر من الشرق .. هو اما شاعر واما ساحر من الشرق . فكره جار وروحه تتألم ، أشعاره أشعلت نارا فى الشرق كله » .

فالتفت الى « نادر » وقال : « مرحبا أيها الشـــاعر الشرقى ، يامن يزينك الكلام الفارسى ، نحن أصدقاء حميمون ، فبح لنا بالسر ، وحدثنا عما تعرفه من ايران » .

٣ — زنده رود : لقد ارتبطت ايران بالوطن :

يجيب اقبـــال على هذا الســـؤال اجابة لا يقدرهـــا حق قـــدرها الا الحريصون على الوحدة والتضامن الاسلامى ، ولا يدرك كنهها الا من عرف أبعاد النزعة القومية والعنصرية الايرانية التى من شأنها أن تبتعد فى النهاية بهذا العنصر الاسلامى العريق عن أشقائه من أبناء الأمة الاسلامية.

لقد سيطرت النزعات القومية على ايران فى عصور مختلفة منذ أن بدأت تبتعد عن اطار الخلافة العباسية ، لكن هذه النزعات كانت أبدا تتسم بطابع سطحى محض ، ولم تتغلغل الى الأعماق وتتخذ بعدا ثقافيا وحضاريا الا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمن الواضح تماما لدارسى الأدب الفارسى الحديث ذلك التحول الشامل نحو تمجيد الوطن والاشادة بأبطال ايران فى فترة ما قبل الاسلام .

حدث هذا التحول فى وقت كانت فيه المطامع الاستعمارية البريطانية والروسية تتكالب على ايران ، بينما ظلت الأسرة القاجارية الحاكمة غارقة فى ملذات الحياة لا يعنيها من أمر البلاد شىء . وعندما تولى « رضا شاه » الحكم سنة ١٩٢٥ تنفس الكثيرون الصعداء وعلقوا عليه الآمال الكبار .

وكان اقبال من بين هؤلاء ، فقد كان يتوقع من فكر « رضا شـــاه » الثورى خيرا كثيرا ، ويرى أن فى مقدوره اعادة ايران بفكرها وحضارتها ورهافة حسها الى الأمة الاسلامية. ولكنه مالبث أن لاحظ أن « رضا شاه » قد أخذ يغذى فى شعبه مشاعر القومية كما شرع يقلد الغرب على نحو ما ، وجعل تركيـــا الحديثـــة نموذجـــا يحتذيـــه فى اصـــلاحاته الاجتماعيـــة والاقتصادية(٢) .

---

(١) بهرام هو « بهرام كور » أحد الملوك الأبطال فى الدولة الساسانية.

(٢) انظر : رئيس أحمد جعفرى : اقبال أورسياست ملى ، ص ٤٧٦ وما بعدها ، وانظر تفصيل هذه الاصـــلاحات فى « ايران ماضيها وحاضرها » لدونالد ولبر ، ترجمه الى العربية الدكتور عبد النعيم حسنين ، ص ١١٨ وما بعدها ، وقد لاحظ « ولبر » أن رضا شاه « كان وطنيا مفرطا » انظر ص ١١٩ .

واذا كنا سنرى أن اقبالا يوجه نقدا لاذعا الى النزعة القومية الايرانية فانـــه لا يلبث بعد قليل أن يشيد ـــ على لسان الأبدالى ـ برضـــا شـــاه وبالنهضة التى استطاع بها أن ينفض عن ايران غبار التخلف الذى لصق بها لبضعة قرون .

يقول اقبال فى الرد على تساؤل « نادر » عن أحوال ايران :

« بعد مدة طويلة ، فتحت عينيها على نفسها ، لكنها ما لبثت أن وقعت داخل الفخ » ، لقد استيقظت ايران أخيرا وعرفت قدرها ولكنها وقعت فريسة لفخ القومية .

هي « صريعة لسحر الأصنام ذات الجرأة والروعة ، انها خالقـــة حضارة .. ولكنها مولعة بتقليد أوربا » .

« انها ضائعة فى « الملك » و « العنصر » شغلها الشاغل هو ذكر شابور (١) ، وتحقير العرب » .

« أيامها خالية من الواردات القلبية ، تبحث عن الحيـــاة فى القبور القديمة » ، فهى تصرف أيامها فيما لا طائل وراءه وتنقب فى الماضى العقيم بحثا عن مستقبل زاهر .

« لقد ارتبطت ايران « بالوطن » وهجرت نفسها ، أعطت قلبها لرستم ونسيت حيدر » لقد جعلت الوطن صنما يعبد ونسيت دعوتها الحضارية الى الوحدة الانسانية ، انها حقا آمنت فى نهضتها الحديثة بالجهاد ، ولكن جهاد من ؟ ! جهاد رستم الايرانى لاحيدر المسلم .

« انها تقبل صورة مزيفة من أوربـــا ، نأخذ سيرتها وتاريخهـــا من أوربا » .

٤ ـــ زنده رود : ايران أنكرت احسان العرب :

يقول اقبال : ان ايران التى تتحدثون عنها الآن أيها الايرانيون : « قد شاخت بالفعل أيام يزدجرد ، كان وجهها عندئذ يفتقد البريق بسبب برودة دمها » (٢) .

« كان دينها وشرعتها ونظامها قد أصيب بالهرم والشيخوخة ، كان ضياء صبحها وظلام مسائها قد تقادم . لم يكن فى زجاجة كرمها خمر تموج ، لم يكن فى كومة رمادها شرارة واحدة تبرق » .

« الى أن جاءها البعث من الصحراء (الجزيرة العربية) ، ذلك البعث الذى وهبها حياة جديدة » .

« ان مثل هذا البعث من عناية الله ... أفارس (القديمة) باقية أين اذن روما الكبرى ؟ ! » .

---

(١) شابور اسم ثلاثة من ملوك ايران القدماء .

(٢) هو يزد جرد الثالث آخر ملوك الساسانيين الذى اطاحت الجيوش الاسلامية بملكه .

« ان من غادرت جسده الروح الطاهرة ، لاتبل له بالنهوض من التراب دون قيامة وبعث » (*)

« لقد نفث رجل الصحراء (العربى) فى ايران الروح ، ثم ما لبث أن سارع بالعودة الى صحرائه الرملية » .

« لقد محا كل قديم عن لوحنا ... ومضى ، لقد أسلمنا عدة العصر الحديث ... ومضى » (*)

« والسفاه ، ان الايرانيين أنكروا احسان العرب ، ولقد انصهروا فى نار أوربا » .

٥ — روح ناصر خسرو العلوى (١) تظهر وتنشد غزلا ثملا ثم تختفى :

وعلى ذكر ايران ، وبينما الرومى واقبال ماثلان فى حضرة السلاطين الثلاثة بقصرهم فى الفردوس ، تظهر روح الشاعر والمفكر الايرانى الكبير والداعية الاسماعيلى ناصر خسرو وتنشد جزءاً من غزل (٢) يبين فيه « ناصر خسرو » وجوب التلازم بين العلم والجهاد فى رعاية الدين وفى ضوء هداه (*)

ويبدو اقبال معجبا — من خلال هذا الغزل — بجانب الكفاح فى حياة ناصر خسرو وبدعوته الى عدم الوقوف عند ظاهر الشرع .

يقول ناصر خسرو :

« اذا كنت قد جعلت اليد مركبا للسيف والقلم ، فلا تحزن اذا ما أصاب الجسد عرج أو عرن » (٣) فليس لشعب أن يحزن — مهما كان هناك من نقص فى موارده المادية — ان كان قد جمع قوة العلم الى جانب قوة السيف والجهاد .

« واعلم — يا اخى — أن الفضل يولد من حد السيف وسن القلم مثلما يولد النور من النار ، والنار من شجر النارون الأخضر » . فمن شأن الطمأنينة الى القوة أن توفر الجو الملائم للبحث والنظر وتفحص الكون وتسخيره من أجل خدمة الانسان ، وهذا هو الفضل .

« واعلم أن القلم والسيف عند الكافر كلاهما بلا فضل ، فعندما

---

(١) ناصر خسرو : شاعر فارس وداعية اسماعيلى ، تولى منصب الحجة فى خراسان ، وأخذ يدعو هناك للخلفاء الفاطميين فى مصر ، وذلك فى عصر السلاجقة .

(٢) وهذا الغزل بدوره جزء من قصيدة لناصر خسرو وردت فى ديوانه، وقد نقل اقبال منها أبياتا متفرقة ، أنظر « ديوان ناصر خسرو » ص ٣٣٩ — ٣٤١ .

(٣) « والعرن : داء يأخذ فى رجل الدابة ، او تشقق فى أيديها أو أرجلها » (القاموس المحيط) وفى حواشى ديوان ناصر خسرو (ص ٣٣٩) : « عرن محركة : كفتكى دست وپاى ستور » أى تهتك فى يد الدابة ورجلها .

لا يوجد الدين لا يكون للقلم والحديد ثمن أوقيمة » ، فهناك شيء أساسي لابد من وجوده أولا ليكون لهذين القطبين قيمة فى حياة الأمـــة ، ألا وهو الدين ، فاذا لم يكن ثمة دين فان السيف والقلم يستعملان فى غير موضعهما استعمالا خاطئا ، فهو المعيار الذى به يقاس نشاطهما .

« لقد عز الدين عند العالم وذل عند الجاهل ، فالدين أمام الجاهل كالياسمين أمام البقرة » ، فاذا ازدان شعب — يعرف قيمة الدين — بزينة العلم فان الدين يكون عزة وخيرا وبركة لهذا الشعب ، أما اذا كان الشعب جاهلا فالدين — رغم قيمته ورونقه — يصبح لاقيمة له فى نظره .

« فالدين مثل ثوب من الكتان الرائع ، من نصفه يصنع قميص لالياس النبى ، ومن النصف الثانى يصنع كفن ليهودى » . فالدين يستمد قيمته من المعتنقين له ، فهو ذو رونق وبهاء اذا اعتنقه رجل مؤمن حق الايمان ، وهو مثير للاشمئزاز اذا اعتنقه عبيد الدنيا وزخارفها .

ولسنا نجد داعيا الى التنويه بأهمية هذا القول وقيمته فى حياة ايران ، بل والبلاد الاسلامية المعاصرة عامة .

٦ — الأبدالى : ما الذى جناه الشعب الأفغانى من ثورته ؟؟

وبعد أن تنتهى روح « نـــاصر خسرو » من انشـــاد غزلهـــا وتختفى ، يأتى الدور على أحمد شاه الأبدالى فيتوجه الى «زنده رود » قائلا : « ذلك الشاب الفتى (يعنى الأمة الأفغانية) الذى خلق الممالك(١)ما لبث أن سارع الى جبالـــه وصحاريه » ، حقا لقـــد أقام الأفغان الممالك من قبل ، لكنهم أصبحوا الآن مولعين بالبقاء فى مناطقهم الجبلية .

« لقد أشعل نارا فى جباله ، فهل خرج معدنه صافيا بلا خبث أم انه قد احترق عن آخره ؟ » لقد اشتعلت الثورة فى افغانستان (سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩) (٢) فما الذى جناه الشعب الأفغانى منها ؟ هل أفادته حقا أم انها قوضت كيانه ؟

٧ — زنده رود : الأخ فى حرب مع أخيه :

يجيب «زنده رود » على سؤال الأبدالى قائلا :

« تنشط الأمم الأخرى سعيا الى الأخوة ، أما بالنسبة له فالأخ فى حرب مع أخيه » ، لقد حدثت فتنة كبرى عقب عزل « أمان الله خان » وعمدت بعض القبـــائل الى الاستقلال عن الدولـــة ، ونشب القتال فى الشوارع والمنازل ، الى أن تمكن « نادر خان » فى النهاية من الاستيلاء على السلطة ونصب نفسه ملكا على البلاد ، فاستتب فيها الأمن .

---

(١) ربما كان اقبال يشير بهذا الى المحاولات التى بذلتها بعض القبائل الأفغانية خلال حكم الصفويين للانفصال عن ايران ونيل الاستقلال وذلك قبل أن يتمكن أحمد الأبدالى نفسه من انشاء افغانستان .

(٢) وهى الثورة التى قامت ضد نزوع « أمان الله خان » ملك الأفغان الى تقليد تركيا الحديثة فى نبذ كثير من التقاليد الاسلامية ، فقد ثار على « أمان الله خـــان » فريق من قومـــه ومعهم طائفة من العلماء ثورة عارمة انتهت بطرده من بلاده .(انظر الدكتور أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة ... ص ٤٩١ — ٤٩٢) .

« من حياته تبزغ حياة الشرق بأسره ، طفله ذو العشر سنوات من العمر قائد للجيوش » فهو شعب مجـاهد استطاع أن يدحر الاستعمار البريطانى غير مرة ويجعله يثوب الى أن الخير مـازال باقيـا فى الأمـة الاسلامية .

ولكنه رغم ذلك « مازال الى الآن يبتعد عن نفسه ، انه مازال غير عليم بقدراته الذاتية ، هو ذو قلب ، وغافل عن ذاك القلب ، الجسد فى فراق عن الجسد ، والقلب فى فراق عن القلب » انه يفتقر الى الوحدة والى التركيز على الهدف ، « فهو سالك ، فقد الطريق الى الهدف ، روحه غير واعية بمقاصدها واهدافها الحقيقية » .

« الا ما أبدع ما أنشده ذلك الشاعر العارف بالأفغان انه «خوشحال خان خطك »(١) الذى صرح بما رآه فى شجاعة ودون خوف ، انه حكيم أمة الأفغانيين بلا منازع ، انه بحق طبيب علة الأفغانيين . لقد رأى سر شعب وتحدث بلا وجل ، فقال كلمة الحق فى جرأة نبيلة ، قال :

— لو أن افغانيا حرا وجد بعيرا ، ذا عدة ثمينة وينوء بحمل من الدرر واللآلىء .

— فان همته الوضيعة تجعله يصرف النظر عن حمل الدرر ويطيب نفسا بجرس البعير فحسب .

٨ — الأبدالى : حينما تكون وحدة ، تكون الأمة :

يتحدث اقبال على لسان الأبدالى هنا حديثا مستفيضا عن الاتجاه الخاطىء الذى تنتهجه الشعوب الاسلامية فى تقليدها للغرب ، وينتقد ميلها الى الأخذ بقشور الحضارة الأوربية دون اللباب . وسوف يبدأ اقبـال بالتنويه بدور أفغانستان فى نهضة آسيا كلها ، وفى تحديد ملامحها الخاصة بها بعيداً عن التأثيرات الغربية الزائفة ، والواقع أن الشعب الأفغانى حارب بكل بسالة وشجاعة محاولات الغزو الاستعمارية وتمكن فى النهاية من الاحتفاظ باستقلاله السياسى . وسنجد ان كل ما يحرص اقبال على توافره فى الشعب الأفغـانى شيئان اثنان : التمسـك بالدين ، والاحتفاظ بالحرية ، فهو ان تمكن — رغم الصعاب — من النجاح فى التمسك بدينه وبحريته فسيتحول بلا شك الى مثل تحتذيه شعوب الشرق بأسرها — اسلامية كانت أم غير اسلامية — فى نضالها ضد المستعمر واحتفاظهـا بالملامح المميزة لها فى موكب الانسانية الشامل .

يقول اقبال على لسان الأبدالى :

---

(١) ولد بالقرب من بيشاور سنة ١٦١٣ م ، وفى صـغره نظم الشعر واشترك فى الحروب بين قبيلته وغيرها من القبائل وكان هو بحق باعث النهضة فى الأدب البشتونى ، فعمد الى توسيع دائرة هـذا الأدب واثرائه بجميع أقسام النظم العربى والفارسى . وترك عددا كبيرا من المؤلفات فى مختلف فروع العلم ، وتوفى بعد حياة حافلة بالابداع والنشاط فى سنة ١٦٩١ .

« فى طبعنا ، تنبع الحمى والاحتراق من أعماق القلب ، فيقظة التراب (الجسد) ونومه انما يكون من القلب » ففى الجسد مضغة ، ان صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله انها القلب ، عليها تتوقف حياة المرء وموته ... وحركته وخموله .

« فعندما يموت القلب يتغير الجسد ، (وعندما ينشط الجسد للمجد) يتحول العرق فى مسامه الى دماء » تنبض بالحياة .

« البدن لاشىء ، لاشىء عندما يفسـد القلب ، فعلق البصر بالقلب ولا تلو الا على القلب » .

فاذا كانت « آسيا كيانا من الماء والطين ، فان أمة الأفغان هى القلب من ذاك الكيان . ففى فسادها فساد آسيا بأسرها ، وفى فتحها فتح آسيا بأسرها » .

« طالما كان القلب حرا كان البدن حرا ، حتى ولو كان البدن قشة فى مهب الرياح » .

« والقلب — شأنه شأن الجسد — مكبل أيضا بأغلال القوانين ، القلب ميت بالحقد حىّ بالدين » .

فالدين هو حياة القلب ، ولكن من أين تأتى قوة الدين ؟ « قوة الدين تنبع من مقام الوحدة ، اذا صارت الوحدة مشهودة ، هاهنا تكون الأمة » ، انها وحدة الفكر والهدف هى التى تخلق أمة .

٩ — الأبدالى : قوة الغرب تنبع من العلم والتكنولوجيا :

« ان تقليد الغرب قد أغوى الشرق عن نفسه ، بينما يجب على هذه الشعوب أن تنتقد الغرب » لا أن تقلده تقليدا أعمى ، فالأمة الاسلامية — بما حباها الله من نعمة الكتاب والسنة ومن قدرة على تمييز الخبيث من الطيب — تستطيع أن تأخذ ما ينفعها وان تترك ما يضيرها من الحضارة الأوربية ، ليس هذا فحسب ، بل يجب عليها أن تدعو الشعوب الغربية الى الطريق القويم .

ولكن الشرق مع ذلك قلد الغرب ، ومع أن التقليد فى حد ذاته معيب ، الا أن الطين قد زاد بلة بالتقليد الخاطىء للغرب ، لقد أخطأ الشرق فى فهم الأساس الذى تقوم عليه قوة الغرب .

« فقوته لا تنبع من القيثارة والربـاب (الموسيقى) ، ولا من رقص الفتيات الحاسرات الحجاب ،

« ولا من سـحر السـحرة حمر الوجوه ، ولا من تعرية السيقان ، ولا من قص الشعر » .

« صلابة الغرب لاتنبع من اللادينية ، ولا ينبع ضياؤه من الكتابـة بالحروف اللاتينية » .

مم تأتى قوة الغرب اذن ؟ ؟

« قوة الغرب تأتى من العلم والتكنولوجيا ... من هذه النار ذاتها يضىء مصباحه » .

« ان الحكمة لا تنجم عن تقطيع الثياب وتمزيقها ، وان العمامة لا تحول دون العلم والتكنولوجيا » .

« وان العقل — أيها الشاب الجسور الشجاع ، هو الشىء الضرورى للعلم والتكنولوجيا ، لا الملابس الأوروبية » .

« ففى هذا السبيل ليس هناك من شىء مطلوب سوى **النظر** ، ان المطلوب ليس هو هذه القلنسوة أو تلك » (١) .

« ان كنت تتمتع بفكر فطن ، فهذا يكفى ، ان كنت تتمتع بطبع دراك ، فهذا يكفى » .

ولسنا بحاجة الى القول بأن اقبالا يوجه هذا النقد اللاذع لنزعة التقليد الأعمى التى تفشت فى مختلف الدول الاسلامية — ولاسيما بعد أن اخذت تركيا الحديثة بمبدأ العلمانية أو « لادينية الدولة » واستعارت الحروف الهجائية اللاتينية ، وأرغمت الحكومة الشعب على ارتداء الملابس الافرنجية ، وانساقت وراء الدعوة الأوربية الخاصة بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل .

وربما أجرى اقبال هذه الأقوال على لسان الأبدالى — مؤسس أفغانستان — خاصة لمناداة « أمان الله خان » ملك أفغانستان بالأخذ بالتقاليد الأوربية أسوة بتركيا ، وقد تصدى العلماء الأفغان لهذه الحركة وتمكنوا من قمعها فى سنة ١٩٢٨ ، كما مر .

١٠ — محنة الأتراك :

يستطرد اقبال قائلا على لسان الأفغانى :

« لو أن امرءا طعم دخان المصباح الليالى الطويلة ، فسوف يجد الطريق الى العلم والتكنولوجيا » .

« أن أحدا لم يغلق حدود ملك المعنى ، ذلك الملك الذى لا يتأتى دون الجهاد المتواصل » ، فالعلم ذو صبغة انسانية عالمية لكنه لاينال الا بالجهد الدائب المستمر .

« لقد ذهب الاتراك عن انفسهم وثملوا بأوربا ، تجرعوا العسل المسموم من يد أوربا » .

« ماذا أقول لأولئك الذين فقدوا ترياق العراق (٢) ، ليس لدى من قول الا : فليكن الله عونا لهم » .

---

(١) من الملاحظ أن ثمة اتفاقا كاملا بين رأى اقبال هذا وبين الفتوى الشهيرة التى أصدرها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده والتى عرفت : « بفتوى القبعة » (أنظر : عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ص ٢٢٦) .

(٢) شراب مشهور لمعالجة السموم بكافة أنواعها ، ويرمز به اقبال الى روح الاسلام التى هى طبيب لكل العلل .

« ان عبد أوربا ، وهو مشتاق الى الظهور والاعلان عن نفســه ، يستعير من الغربيين الرقص والموسيقى ، هو يخسر روحه الثمينة من أجل اللهو ... العلم صعب ، ولذا فهو يستمرىء اللهو » .

« من حبــه للكسل ، يسلك السبيل السهل ، فطرته تقبل بطبعها كل ما هو سهل » .

« ان البحث عن السهل فى هذا الدير العتيق (الدنيــا) ، دليل على أن الروح قد غــادرت البدن » .

فلقد ارتكب الأتراك حماقة كبرى عندما تخيروا كل ما هو ســهل فى الحضارة الأوربية وقلدوه دون بصيرة أو وعى ، وما ذلك الا لأنهم أدمنوا الكسل وانصرفوا عن الجد ، والمعــاناة فى العلم التى استطاع بها الغرب أن يرقى ويضرب بسهم وافر فى ميدان التقدم . على أن من المسلم به أن الشعب الذى يركب المركب السهل ويستسيغ الكسل يموت ويفقد كل ما لديه من امكانات الرقى وصلاحياته .

١١ — ما حقيقة الحضارة الأوربية :

تدفع أقوال الأبدالى زنده رود الى الادلاء بآرائه فى الحضارة الأوربية ومعطياتها ، فيقول :

« هل تعرف ما حقيقة الحضارة الأوربية ؟ .... فى دنياها مائتــا فردوس من الألوان » فهى كلها مكر وخداع ، وألوان من الحيل .

« ظواهرها الباهرة أحرقت الديار ، واحتوت بنــارها الأغصــان والأوراق والأوكار » (١) .

« ظاهرها متألق أخــاذ ، ولكن قلبها ضعيف ، وهو عبــد للنظر » ، فلا شأن لها بالقلب ، انما كل همها منصب على المــادة والحس .

« فالعين ترى والقلب يترنح فى الداخل ، ثم يخر ساقطا أمــام هذا الموثن » فالقلب من ضعفه وخبو ايمــانه يتهاوى أمــام أصنام المــادة فيعبدها من دون الله .

ثم يوجه « زنده رود » هذا السؤال الى « الأبدالى » فيقول :

« لا أحد يدرى ما قدر الشرق ، ما التدبير لقلب تعلق بالظاهر ؟ » .

١٢ — دور البهلوى ونــادر :

يجيب الأبدالى هنا على سؤال زنده رود فيشيد « برضا شاه بهلوى » شــاه ايران و « نادر شــاه الدرانى » شــاه افغانســتان لــدى نظم « رسالة الخلود » وسوف نلمس من خلال أقوال الأبدالى تأكيده الشديد على الحاجة الى وجود قيادة مناضلة مشبعة بروح الجهاد .

يقول اقبال على لسان الأبدالى :

« ان من هو قادر على قدر المشرق ، عزم وحزم البهلوى ونادر » .

---

(١) ربمــا كان ما جرى فى فيتنــام من استعمال القنــابل التى تعرى الأشــجار من أوراقها وأغصــانها ، مصــداقا لهذا البيت الرائع ذى المغزى العميق .

« فالبهلوى — وارث عرش قباد (١) — هو الذى حل بظفره عقدة ايران » فلقد استطاع بما اجراه من اصلاحات مستنيرة أن ينفض عن كاهل ايران غبار سنوات طويلة من التخلف وأن يجعلها تقف على أعتاب عصر جديد من الرقى والتقدم .

« ونادر هو رأس مال الدرانيين(٢) ، هو الذى أعطى الأمر بأمـــة الأفغان » فأعاد اليها وحدتها الفكرية بعد أن تفتتت .

« خرجت جيوشه من الجبال حزنا على الدين والوطن الذليل الضعيف» .

« كان جنديا ، وضابطا ، ثم أميرا ، هو فولاذ مع الأعداء ، حرير مع الأصدقاء » (٣) ، لقد كان نادر قائدا للجيش الأفغانى فى عهد « أمان الله خان » قبل أن يصبح ملكا . وهو مسلم غيور على الدين .

« أنا فداء من رأى ذاته ، ومن وزن العصر الحاضر وزنا صحيحا » لقد تمكن هذا الرجل البصير من ادراك كنه العصر الحديث ، وهو يعرف أن « للغربيين حيلهم وألاعيبهم السحرية ، وأن الاعتماد على غير النفس كفر » ولذا فهو لا يبغى الاعتماد الا على نفسه .

١٣ — تيبو : حدثنى عن الهند :

يكن اقبال للسـلطان تيبو تقديرا خاصـا (٤) ، باعتباره مجـاهدا اسلاميا فذا وقف فى الميدان وحده ضد القوى التى تكالبت على المسلمين فى الهند ، وحارب الى آخر قطرة من دمه .

وفى بداية حوار اقبال معه يثير السلطان الشهيد ذكريات الزيارة التى قام بها اقبال سنة ١٩٢٩ للمنطقة التى كان يحكمها تيبو فى جنوب الهند .

يقول السلطان الشهيد لزنده رود :

« تحدث من جديد عن الهندى وعن الهند ، تلك التى عودها اليابس بستان زاهر . تلك التى ماتت الضجة فى مساجدها ، تلك التى خمدت النار فى معابدها وأديرتها » ، فقد مل أهلها جميعا ، مسلمين وغير مسلمين ، بالعبودية وماتت فيهم روح الجهاد .

« تلك التى من أجلهـا ضحيت بدمى ، تلك التى تعهـدت ذكراهـا فى روحى ، فقص حزنها على نفسها بحزنى أنا عليها (تجدنى أشد حزنـا واشفاقا عليها من نفسها) ، والسفاه للمعشوق الذى لا يعرف شيئا عن

---

(١) أحد الملوك العظام فى فارس القديمة .
(٢) الأسرة الحاكمة فى أفغانستان .
(٣) والشطر الثانى من البيت مأخوذ روحه من الآية الكريمة : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونـه ، أذلـة على المؤمنين أعزة على الكافرين . . . » (سورة المائدة — ٥٤) .
(٤) أنظر يوسف سليم جشتى ، علامه اقبال أور تيبو سلطان شهيد ، اقبال ريفيو ، يناير ١٩٦٣ ص ٣٣ — ٥٠ .

العاشق » ، فلم يقدر أحد من أبناء الهند جهودنا من أجل استخلاص الوطن ولم يساعدنا أحد فى هذا السبيل .

١٤ — زنده رود : رفعت الهند راية العصيان :

يجيب عليه زنده رود قائلا : « الهنود يرفضون قوانين أوربا ، انهم ذوو مناعة من سحر أوربا وخرافتها » ، فلقد رفع الهنود الآن — فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن — راية العصيان ضد المستعمرين البريطانيين .. والهنود على حق فى ذلك « فقوانيين الغير عبء ثقيل على الروح ، حتى ولو أتت قوانين الغير من السماء نفسها » ، ومن الواجب التصدى لكافة أنواع الغزو الفكرى والحضارى والقضاء عليها .

١٥ — تيبو يوضح طريق الخلاص :

يدلى السلطان الشهيد هنا برأيه فى كيفية خلاص الهند من محنتها ، ويتلخص هذا الرأى فى دعم اعتماد الهند على نفسها وتقوية ذاتيات الهنود .

يقول : « كيف ينبت الإنسان من حفنة تراب ؟ ... بالقلب ، بارادة فى القلب » .

« ان شأنه هو تذوق لذة العصيان ، هو عدم رؤية شىء سوى ذاته » فان لم يكن هناك رفض وعصيان لا يكون فى الامكان تربية الذات .

« لأن الذات لا تكتسب بدون العصيان ، طالما لا تكتسب الذات تكون الهزيمة أمرا محتوما » .

يا زنده رود « لقد زرت مدينتى وديارى ، وسرجت بصرك على مزارى (سنة ١٩٢٩) » .

فقل لى « يا من أنت عارف بحدود الكون كله ، ما الذى شاهدته فى « الدكن » من آثار الحياة ؟ » .

١٦ — زنده رود : ذرفت دمعة بالدكن :

يرد « زنده رود » قائلا : لقد ذرفت بذرة من الدمع فى الدكن ، فربما نمت الشقائق من تربة تلك الروضة ، ولربما أنجبت تلك الهضبة الغناء مجاهدا آخر . ونهر كافيرى (١) فى سفر دائم ، لقد رأيت فى روحه ثورة جديدة » .

ويرى الأستاذ يوسف سليم جشتى فى « شرح جاويد نامه » (٢) أن « بذرة الدمع كناية عن الثورة التى حدثت اثر زيارة اقبال للدكن فى سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ حيث ألقى هناك بعض المحاضرات ، والشقائق كناية عن

---

(١) هو النهر الرئيسى فى ميسور ، يخترق العاصمة القديمة لتيبو سلطان « سرنجابتم » .

(٢) أنظر ص ١٠٩٢ .

شباب المسلمين فى الدكن الذين ربطوا الأكفان على رؤسهم واندفعوا الى ميدان القتال ، ونهر كافيرى كناية عن أهل الدكن » .

١٧ ــ تيبو : كنت فى حضرة الرسول (ص) :

يقول السلطان الشهيد لاقبال :

« يا من منحت كلمات تنبع من قلب وضاء ، اننى مازلت الى الآن أحترق من حمى دموعك » لقد أثارت أشعارك الملهمة العشق فى أعماقى ،

ولاغرو « فالحفر المتواصل لأظافر رجال السر ، قد فتح نهر دم من عروق العود » ان أشعارك ذات الوقع العميق على النفس ، هى أنغام موسيقية رائعة حقا لكنها تدفع الانسان الى الجهاد والاستشهاد .

« فتلك النغمة التى تنطلق خارجة من روحك ، تعطى كل صدر نارا داخلية » ، وتدمغه بخاتم العشق .

« لقد كنت فى حضرة مولى الكل (ص) ، ذلك الذى لا تطوى بغيره السبل ، ورغم أنه لاجراة (لأحد) على الكلام هناك ، وليس للروح من شغل سوى المشاهدة ، الا أننى كنت مشتعلا بحرارة أشعارك ، وجاءت على لســـانى بعض أفكارك ، فقال المصطفى (ص) : « لمن هذا البيت الذى انشدت ؟ ان فيه نبض أصوات الحياة » .

« فبنفس الحرقة التى تتوافق مع الروح ، انقل عنى كلمة أو اثنتين الى « كافيرى » ذلك النهر المحبوب » .

« فانت فى العالم « زنده رود » وهو أيضا « زنده رود » (نهر حى) ... وأفضل الألحان أن تتداخل نغمة مع نغمة » .

رسالة السلطان الشهيد
الى نهر كـــافيرى
(حقيقة الحياة والموت والشهادة)

يبدأ السلطان تيبو بالاعراب عن محبته لمسلمى الدكن الذين يرمز اليهم بنهر كافيرى ، ويعرفهم بنفسه باعتباره مجاهدا حارب من أجل اعلاء كلمة الحق ومن أجل الحفاظ على الاسلام فى هذه المنطقة .

وينطلق بعد ذلك لتوضيح حقيقة الحياة ، فيقول ، ان الكون يتغير فى كل لحظة ، وكل ما تراه أمامك يتبدل ويتحول كل حين .

ثم يبين قانون الحياة الخالدة فى كلمتين : كن كالأسد لحظة أفضل من عيشك مائة نعجة .

وينتقل بعد ذلك الى الموت فيبين انه ليس بحقيقة مقابلة للحياة انه مجرد مجاز فى طريق النفوس القوية الى حياة أفضل ، ولذا فالمؤمن يقع على الموت كما يقع الأسد على الظبى ، او كما يقع الصقر على الحمامة

فيحتويه بين براثنه وينطلق محلقا من جديد مواصلا حياة الخلود التى عمل من أجلها فى حياته الدنيا . فالموت ليس نهاية المطاف بل هو مجرد لحظة خاطفة ، يجتازها الانسان الى حياة أفضل .

ولذا كان الموت حلوا عذب المذاق بالنسبة للمؤمنين ، ولكن ما أفضل أن يموت المؤمن موتة الحسين بن على ، موتة الشهيد فى ميدان القتال ضد الباطل ولاعلاء كلمة الله . ان من يموت على هذا النحو هو وحده الذى يمكنه تفهم المعنى الدقيق للحديث النبوى الشريف : « الجهـاد رهبانية الاسلام » .

١ — تيبو يتحدث عن نفسه :

يقول تيبو موجها حديثه الى نهر « كافيرى » :

« يا نهر كافيرى تمهل لحظة ، فلربما تعبت من السير المتواصل » ، تمهل لحظة واستمع الى .

« لقد نحت اعواما طوالا فى الجبال ، ولقد شققت طريقك بأهدابك » .

« يامن انت أحب الى من جيحون والفرات ، ان ماءك هو « ماء الحياة » للدكن » (١) .

« واأسفاه على مدينة كنت تحتضنها ، ان حسنها العذب يعد انعكاسا لحسنك أنت » ، انها مدينة « سرنجابتم » عاصمة ملكى ... لقد تغيرت وتبدلت ولم يعد العهد بها كما كانت .

يانهر كافيرى « لقد أصبحت قديما ، ولكنك أبدا شاب انه نفس موجك، ونفس حماسك ، ونفس بريقك ».

« وموجك لم يلد سوى حبات الجوهر ، وربما ظلت طرتك الى الأبد مضطربة بفعل الريح » .

«يامن لك نغمة هى نار الحياة ، الا تعرف ممن تاتى هذه الرسالة ؟ » .

« هو من طفت حينا حول سطوته ، وكنت تعكس على مرآتك وجه دولته » .

« هو من جعل الصحراء جنة غنـاء بتدبيره ، هو من رسم صورتـه بدمه ، هومن ترابه هدف لمائة ارادة » ، فقد حصل المسلمون فى الهند بموته على المجد والسؤدد والحياة ، « وبدمه مازال موجك فى اضطراب ، هو من كانت كل اقواله افعالا ، كان هو الرجل الوحيد المتيقظ ، بينما الشرق يغط فى النوم العميق » .

---

(١) « ماء الحياة » نهر أسطورى يقال ان الاسكندر كان يبحث عنه .

٢ ـ الكون يتغير فى كل لحظة (١) :

يانهر كافيرى : « يامن انت وانا موج من نهر الحياة ، ان هذا الكون يتغير كل لحظة » .

« فالحياة انقلاب فى كل لحظة ، لأنها دوما فى بحث عن عالم جديد » .

« ان هذا التدفق (فى نهر الحياة) هو سدى الحياة ولحمتها ، هذا التدفق هو مصدر الشوق الى الظهور » .

« الطرق فى سفر مثل السالكين ، انها فى الظاهر مستقرة وفى الباطن تجد فى كل مكان حركة » .

« القافلة والناقة والصحراء والنخيل ... كل شىء تراه انما يوح من ألم الرحيل » .

« والوردة فى الروضة ضيف للحظة واحدة ، لونها وبريقها تجربة للحظة واحـــدة » .

« اتقول فصل الزهور ؟ هو مأتم وعيد فى آن واحد ، فالبرعمة فى الصدر ، ونعش الزهرة على الأكتاف » .

ذات مرة « قلت للشقائق احترقى مرة أخرى ، قالت : انت مازلت لا تعرف سرى ، فالوجود مشيد بالهشيم والقش ، فما جزاء الظهور ... الا الحسرة » . فاذا قدر لشىء أن يوجد فسوف يموت فى النهاية ، وسوف يمضى من الدنيا وملؤه الحسرة .

٣ ـ قانون الحياة :

يوجه السلطان الشهيد الى الانسانية عامة والى المسلمين خاصة هذا النداء :

« هل تدخل قصر الوجود ؟ لا تدخلن . هل تاتى من العدم الى الوجود؟ لا تأتين . ولكن اذا فعلت فلا تذهب عن نفسك مثل الشرر ، وانما كن حيران (متفكرا) فى البحث عن بيدر » تضىء من خلاله .

« واذا كانت لديك حمى وحرارة مثل الشمس ، فاخط نحو اتساع معمور الفلك ، واحرق الجبال والطير والروض والصحارى ، احرق حتى الأسماك فى أعماق البحار » . اذا كنت ممتلئا قوة وحيوية فاصطدم بما يعترض طريقك ، فانك بذلك تثبت وجودك وتقوى ذاتك .

« اذا كان لك صدر جدير بالسهم ، فعش فى الدنيا صقرا ومت صقرا »، وبعد أن تدعم ذاتك عش فى الدنيا غالبا متمكنا كالصقر ، وتقدم الى الأهوال مثله دون خوف أو وجل .

---

(١) أنظر رأى اقبال الذى استمده من القرآن فى عدم جمود الكون ، وفى اتجاهه الدائم نحو التغير والتبدل فى « تجديد التفكير الدينى ص ١٧ » .

« ونظرا لأن الثبات والخلود أتي فى عرض الحياة ، فانني لم أطلب من الله **طول الحياة** » **فمهما** طالت حياة المرء فى العبودية والذلة والخنوع ، فانها لا تساوى شيئا على الأطلاق ، أما الحياة الحقة فانها تفضى بالانسان، مهما قصرت — الى اثمن شىء فى الوجود الا وهو الخلود .

« ما قانون الحياة ودينها ومذهبها ؟ كن كالأسد لحظة افضل من عيشك مائة عام نعجة ». (٥)

٤ — الموت مقام من مقامات الحياة :

« الحياة تتدعم وتقوى بفضل التسليم والرضا ، والموت سحر وطلسم وخرافة » فخلود الإنسان يكون ميسرا اذا عمد الى افناء رضاه فى رضا الله تعالى بحيث لا يبقى له من الرضا الا ما يرضى الله ويطابق مشيئته ، فاذا وطن المؤمن نفسه على الوصول الى هذا الهدف أقدم على الجهاد بلا خوف وهو مسلم أمره لله ، لأنه سوف يقتل ان كان الله قد كتب عليه القتل . **والبعض يظن خطأ أن الموت حقيقة مقابلة للحياة** ، أو أن الموت ختام للحياة الانسانية ، أو أن فيه فناء الروح ، ولكن الموت مجرد وهم لا اساس له من الحقيقة ، فما هو الا مرحلة انتقال الى مرتبة افضل من الحياة الدنيا بالنسبة للنفوس التى أحكمت ذاتها ، انه لحظة تتبعها حياة أكثر تحررا .

« رجل الحق ضيغم ، والموت ظبى ، الموت بالنسبة له مقام واحد من مائة مقام » فعبد الله المؤمن المجاهد يقدم على الموت اقدام الأسد على الظبى ، لأنه موقن انه ان مات فى سبيل الله فسوف ينال الحياة الأبدية كما قال تعالى فى كتابه العزيز : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء . . . » واذا استقر هذا اليقين فى قلب المؤمن اعتبر أن الموت منزلة من منازل الحياة الخالدة .

يقول اقبال فى تجديد التفكير الدينى : « واذا كان العمل قد أمد الروح **من القوة بما يكفل لها مواجهة الصدمة** التى يحدثها فناء البدن فان الموت يكون مجازا لا غير الى البرزخ الذى وصفه القرآن »(١) .

ويواصل تيبو رسالته الى نهر كافيرى قائلا :

« ذلك الرجل الكامل يقع على الموت مثل ما يقع الصقر على الحمامة» فهو يحتوى الموت بيان براثنه ويمضى من فوره محلقا مواصلا حياة الخلود التى عمل من أجلها فى حياته الدنيا . يقول اقبال فى مقدمته لـ « أسرار خودى » : « وان قصدنا بأفكارنا وأعمالنا الى حفظ حالة التوتر فى ذواتنا ، فأغلب الظن أن صدمة الموت لا تستطيع أن تؤثر فيها » (٢) ، ويضيف تيبو قوله :

« والعبد يموت فى كل لحظة من خوف الموت ، فخوف الموت يجعل

---

(١) تجديد التفكير الدينى ص ١٣٧ .

(٢) أنظر عبد الوهاب عزام : محمد اقبال ص ٥٨ .

الحياة حراما عليه » ، ويجعله جبانا غريبا عن امكاناته وقدراته الذاتية ، فتضعف ذاته ويتخلف فى النهاية عن السير فى ركب الخلود .

« وللعبد الحر شأو آخر ، فالموت يمنحه روحا (حياة) أخرى » ، فحياة الروح الانسانية : « واحدة ومتصلة ، والانسان يسير قدما فيتلقى على الدوام نورا جديدا من الحق غير المتناهى الذى كل يوم هو فى شأن » (١) .

ان المؤمن الحر « قلق بشأن ذاته وليس قلقا بشأن الموت ، لأن الموت عند الأحرار ليس أكثر من لحظة » ، فعقب الموت تعرض « على النفس حال من الاسترخاء يسميها القرآن الحكيم « البرزخ » وتدوم هذه الحال حتى الحشر »(٢) وهى حال « تلمح فيها النفس أوجها من الحقيقة جديدة وتتهيأ للتكيف مع هذه الأوجه ، ولابد أن تكون حالة تحرر روحانى عظيم وبخاصة عند النفس الكاملة الرشيدة ... وقد يكون معنى البرزخ انحلال النفوس التى جانبها التوفيق » (٣) . يواصل تيبو حديثه قائلا :

« تجنب الموت الذى يقتنع باللحد (القبر) ، لأن هذا الموت هو موت البهائم والأنعام » تجنب الحياة التى تبعدك عن نيل الخلود ، والا أصبحت مثل البهائم والنعم .

« فالرجل المؤمن يطلب من الله سبحانه ، ذلك الموت الآخر الذى ينطلق من التراب .

« ذلك الموت الآخر ، هو هدف طريق العشق ، هو آخر تكبيرة فى حلبة العشق » انه موت المجاهد الذى يضحى بحياته الدنيا فى سبيل المحبوب ويسقط فى ميدان الجهاد وعلى لسانه كلمة : « الله أكبر » ، انها تكبيرة تفضى به الى القرب من الذات الالهية الخالدة .

« ومع أن كل موت بالنسبة للمؤمن حلو عذب المذاق ، الا أن موت ابن المرتضى (رض) شىء آخر »(٤) فكل مؤمن يوقن أن الموت مجاز الى حياة أفضل ، ولكن ما أفضل أن يموت المؤمن ميتة الحسين الذى وقف وحده فى وجه الباطل وضحى بروحه سعيا لنيل رضاء الله ، وهذا هو المفهوم الحقيقى للشهادة .

« ان حرب الملوك فى العالم هى من أجل السلب والنهب ، أما حرب المؤمن فهى سنة الرسول (ص) » فالملوك يهدفون من وراء الحرب الى الحصول على المغانم والأسلاب واخضاع عباد الله لسيطرتهم ، أما المؤمن فهو انما يحارب لتخليص عباد الله من عبوديتهم للانسان ، وتوجيههم الى عبادة الله وحده ، وهذه سنة استنها الرسول (ص) .

---

(١) تجديد التفكير الدينى ص ١٤١ .
(٢) عزام ، محمد اقبال ص ٥٨ .
(٣) تجديد التفكير الدينى ص ١٣٨ .
(٤) ابن المرتضى هو الحسين بن على رضى الله عنهما ، والمرتضى لقب من القاب على .

«ما حرب المؤمن ؟ هجرة تجاه الحبيب ، ترك العـــالم . . اختيار درب الحبيب » فالملوك يحاربون للسيطرة على العالم ، لكن حرب المؤمن هجرة الى الله ؛ فالمؤمن لا يهدف الى التملك أو السلب والنهب ؛ وانما يهدف الى ترك العالم لله وذلك بالسيطرة عليه ثم تنفيذ أحكامه فيه ، وان قتل ففى سبيل الله ، فقد قال الرسول (ص) : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

« ان من قال كلمة العشق للأنام (يعنى الرسول ص) قال : « الجهاد رهبانية الاسلام » .

« لا احد يعرف هذه الحقيقـــة سوى الشهيد ، فلقد اشترى هـــذه الحقيقة بدمه » (١) فالشهيد وهو يضحى بروحه فى سبيل الله يصل الى المفهوم الحقيقى لهذا الحديث الشريف ، فالرهبنة تعنى عند الكافر صرف النظر عن الدنيا باعتبارها بخسا ، على عكس المؤمن الذى يجاهد لوجه الله مبتغيا رضاه وحده ، يجاهد لتسخير هذا العالم وتركه فى النهاية عزوفا واعراضا من أجل هدف أسمى هو الوصول الى مقام القرب من الذات الالهية الخالدة .

---

(١) وفى البيت روح الآيـــة الكريمـــة : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... » (سورة التوبة : ١١١) .

الفصل السابع

« زنده رود » يرحل عن الفردوس الأعلى وطلب حور الجنة

والآن ، يوشك اقبال أن يغادر الجنة بما فيها من نعيم مقيم وحور حسان(١) ، وأنهار وفواكه وزهور وقصور من لؤلؤ وزمرد وما الى ذلك من ظواهر وتجليات تشغل بال السالك عن هدفه الأسمى الا وهو مشاهدة وجه الحبيب .

واقبال يعرف سلفا خطورة هذه المرحلة من التجربة فقد سبق له أن نبه — فى غير موضع — الى أن أى شىء مهما عظمت قيمته لا ينبغى أن يشغل الانسان عن هدفه المنشود ، ولذا نجده — بعد أن خرج من قصر السلاطين الثلاثة فى الفردوس الأعلى — يرفض تلبية الدعوة التى وجهتها اليه الحور للبقاء معهن ولو للحظة أخرى وينطلق فى طريقه نحو هدفه لا يلوى على شىء .

وسوف نلاحظ أن هذه هى النقطة التى يفارق فيها اقبال مرشده الرومى ، فسوف يواصل اقبال السير نحو المرحلة الأخيرة وحده لكى يبرهن على أنه موجود عن طريق اثبات ذاته وطلب الشهادة عليها من الله ذاته .

١ — الحور : ابق معنا يا زنده رود :

يقول اقبال :

« تفتت زجاج صبرى وسكونى الى شظايا صغيرة » فلم أعد أطيق صبرا على الفراق وأنا موشك على الوصال . « وهتف الشيخ الرومى فى أذنى أن : قم » وامض فى سبيلك الى نهايته وحدك .

---

(١) جاء فى وصف الحور فى الأثر « والحور العين خلقهن الله فى الجنة مع شجرها ثم حبسهن فى خيام الدر على أزواجهن فى الجنة على الواحدة سبعون حلة من حرير لا تشبه واحدة صاحبتها لكل حلة سبعون لونا لو نشر رداء من أرديتهن لوجدريح الرداء من مسيرة مائة سنة ، لو اطلعت احداهن من سقف الدنيا لسطع نورها من المشرق والمغرب ولافتن بها كل نبى وبر وفاجر ولاسود ضوء الشمس والقمر منها ولو مجت بريقها فى البحر لعذب البحر » (القشيرى : كتاب المعراج ص ٥٢) .

« آه لكلمات العشق تلك ، ولذلك الجذب واليقين ، آه لذلك الايوان وذلك القصر الرفيع » لقد كان لكلمات السلطان تيبو وقع شـديد على روحى ، فلقد جعلت الدمـاء تفور من قلبى حتى اننى « وصلت الى باب القصر بقلب ملىء بالدم ، فرأيت حشداً من الحور على بابه على شفتهن : « يا زنده رود ، يـا زنده رود ، يا سيد النـار والنغم . . . الصخب والضجيج يحيطان بى من يمين وشمال : « ابق معنـا لحظة أو لحظتين ، ابق معنـا » .

٢ — زنده رود : لا طاقـة لى على المقـام :

فأجبتهم قائلا :

« السالك الذى يعرف أسرار السفر ، يخاف المنزل أكثر من قاطع الطريق » فالسالك البصير يخشى القعود فى مقـام واحد أكثر من خشيته المشكلات التى تصـادفه أثنـاء اجتيازه السبيل نحو هدفه ، لأن هذه المشكلات تأتيه من خارج وهو يستطيع التغلب عليها ، ولكن كيف يمكنه التغلب على رغبـة القعود التى تنبع من داخل نفسه هو ؟

« فالعشق لا يريح فى الهجر ولا فى الوصال ، لا راحة بدون الجمال الخالد » لأن العاشق لا يطمئن نفسا الا ببلوغ مقام المشاهدة .

« البداية هى الوقوع أمام الأصنام (العشيقات من النساء والأشياء الجميلة) والنهاية هى التحرر من كل المعشوقين » فالانسان فى العشق المجازى يعلق قلبه بالنسـاء ، ولكن حين ينضج عشقه يختـار العشق الحقيقى ، ويتحرر من النساء والحور جميعا .

« العشق جسور وهو فى رحيل دائب ، هو ابن سبيل فى المكان وفى اللامكان » فالعاشق لا يهدأ أبدا اذ يواصل سيره وعروجه حتى يحظى فى النهاية بالمشاهدة .

« مذهبنا هو اختيـار الطريق ، وترك المقام .. مثلنـا مثل الموج السريع الخطو » .

٣ — زنده رود ينشد غزلا :

وعندما تيأس الحور من اقناع « زنده رود » بعدم الرحيل تطلب منه ان يشدو بلحن جميل ، فتقول : « ان لك أساليب مثل الزمـان (١) ، فلا تبخل علينا بلحن عذب » .

وهنا يصدح زنده رود بهذا الغزل الذى يؤكد فيـه على الذاتيـة باعتبارها الشراب السحرى للهيمنة على الكون والخلود ، يقول :

« انك لم تصل بعد الى الانسانية ، ففيم بعدك عن الله؟ لقد هربت

---

(١) سبق لاقبال أن وصف الزمـان بتعدد الألوان مثل جنـاح جبريل ، انظر فيما سبق ص ٨٥ .

من ذاتك ، ففيم بحثك عن صديق ؟ » انك لم تعرف ذاتك بعد ، فكيف يمكنك التعرف على الله الواحد ، وقد ابتعدت عن ذاتك فكيف يمكن لمرشد أن يفيدك .

« تعلق من جديد بغصن الزهر وامتص الماء والندى ، ازهرة ذاوية ضعيفة ؟ ففيم بحثك عن ريح الصبا ؟ » أحكم ذاتك وارتبط بالمرشد الكامل وخذ منه عصارة الحياة كما تأخذ الزهرة عصارة حياتها من الغصن . ولكن لن ينفعك شيء — برغم ذلك كله — اذا فقدت الأمل فى الخلود واذا أيقنت أنك لن تصل الى هدفك .

« ان ما يسمونه المسك انما هو قطرتان من دم القلب ، فيا غزال الحرم فيم بحثك عن الخطا (الصين) » ، فالعشق (المسك) الذى من شأنه أن يثبت ذاتيتك ويبث اريجك فى الآفاق ينبع من قلبك أنت ، من بين جوانحك فلا تذهب بعيدا فى البحث عنه .

« ان معيار الفقر هو تملك السلطان وتملك العالم ، فاطلب عرش جم ... لماذا تبحث عن حصير ؟ » فمعيار صدق « الفقر » الاسلامى هو أن يكون الفقير صاحب عرش ، كعمر بن الخطاب على سبيل المثال ، فاذا أردت الفقر الحقيقى فسيطر على العالم أجمع كالامبراطور « جمشيد » ، ولا تنهمك فى التظاهر الأجوف بجلوسك على حصير .

« ان الرجال يتعقبونه فى حديقة الشقائق ، فلماذا تطلب منى لحنا مشبعا بالدماء ؟ » ولكنك وقد علمت منى الطريق اليه لا يجدر بك أن تظل بقية حياتك فى الاستماع الى فيفوتك الأوان ، امض فى هذا الطريق الذى تعرف أنه مخضب بالدماء ولا تتردد .

« ان النظر يزداد حدة بصحبة ذوى القلب المضىء ، فلماذا تبحث عن « التوتيا » لدى كليل البصر » ، فاذا كنت تبحث عن النظر والمعرفة الحقة فسر مع العاشقين ، فعيون القلب لا تضىء بالكحل أو « بالتوتيا » .

« اننا — معشر القلندريين — ذوو كرامات ومعجزتنا هى رؤية الدنيا ابحث عن النظر منا ، لماذا تبحث عن الكيمياء والسحر ؟ » فنحن مطلعون على حقيقة هذا العالم ، فعليك بالتمعن فى أقوالنا والتعمق فيها ولا تقف عند الاعجاب بظواهرها أو تؤخذ بسحرها .

الفصل الثامن

المثول فى الحضرة الالهية

هنا يقترب اقبال — وحده دون الرومى — من هدفه ، الا وهو المثول فى الحضرة الالهية ، وعليه أن يثبت وجوده ويحكم ذاته أمام الله سبحانه ، عليه أن يركز كل ذرة فى كيان ذاته حتى لا تضيع فى هذا النور اللانهائى الذى يشهده وهو مقدم على مشاهدة الذات .

لقد ترك اقبال عالم التجليات — ومنها الجنة نفسها — الى حضرة الذات الالهية ، وبين — وهو موشك على التمتع بالحضور — دور العلم والعشق فى وصوله الى هذه المنزلة واخذ يصف مشاعره فى مقام الحضرة ، متحدث عن حقيقة الجمال ، وعن الجمال والجلال ، وعن الرؤية وعن الشوق المتبادل بين العبد والمولى .

لقد جعله العشق يتجرأ على التساؤل — وهو فى مقام الحضور — عن السبب فى هذا الفساد المستشرى فى الأرض وأول مظاهره الاستعمار الذى يأخذ بخناق الأمة الاسلامية . فيأتيه الجواب من الذات الالهية ان مهمتك انت أيها المسلم أن تحطم كل مالا يصح أن يكون موجودا فى عالمى : « كن قاطعا كالسيف ، كن انت نفسك قدر عالمك » .

ثم يعود زنده رود فيتساءل : ان الحياة لا تألف التكرار فالأمة التى هوت نادرا ما تقوم ، فهل هناك أمل فى احياء الأمة الاسلامية ؟ ويأتيه الجواب من الذات الالهية محددا آثار التوحيد فى العالم وأن الأمة هى وحدة فى النظر ، « نظرة واحدة بآلاف العيون » وأن الوحدة دعوى لأهل الحق وهم برهانها « خيامنا منفصلة وقلوبنا واحدة » وان ذات الفرد تحيا وتقوى بوحدة النظر : « أيها المسلم أنت ميت ؟ صر حيا من خلال وحدة النظر ، تجنب التشتت ، صر ثابتا محكما ، اخلق وحدة الفكر والعمل ، كى تصبح صاحب سطوة فى العالم » .

وأخيرا يسأل « زنده رود » الله عن الذات الالهية والذات الانسانية وعن سر الموت والقدر . ويأتيه الجواب : ان من يخلد الى العالم يحتبس فيه ويفنى ، فتخلص من قيود الزمان والمكان واغرق عالم الأبعاد فى ذاتك ، وعندئذ سترى الاجابة على كل تساؤلاتك .

ثم يحدث التجلى الالهى فيخر « زنده رود » صعقا مثل موسى الكليم ، ثم يفيق ويصف ما رآه بصعوبة بالغة ، ويتناهى الى سمعه صوت ملتهب صادر من أعماق عالم اللاكم واللاكيف معبرا فى غزل رائع عن الحل الناجع لمشكلة الانسان المعاصر .

وهنا ينتهى معراج اقبال .

١ ــ مرحلة السير بلا رفيق :

يقول اقبال « رغم أن الجنة من تجليات الله ، الا أن الروح لا ترتاح الا برؤية الحبيب » (١) .

« اننا محجوبون عن اصلنا ، نحن كطيور فقدنا عشنا » لقد تركت الجنة ورائى ظهريا وانطلقت عائدا الى سكنى وموئلى .

واقبال يتحدث هنا عن « الغربة الانسانية » بمثل ما تحدث الرومى فى انشودة الناى التى صدر بها « المثنوى » يقول الرومى فى أول هذه الأنشودة :

ــ استمع للناى عندما يقص حكاية ، ويشكو من آلام الفراق

ــ منذ أن قطعونى من منبت الغاب،والناس ــ رجالا ونساء ــ يبكون من أنينى

فالناى ومنبت الغاب عند الرومى متلازمان ، والطائر والعش عند اقبال متلازمان ، ولكن كلاهما يعنى أن كل شىء ينوح من الم الفراق ، كذلك الانسان يحن للرجوع الى أصله الالهى ، انها تلك النفوس القوية التى تستطيع أن تنطق فى أحرج اللحظات قائلة:« انا لله وانا اليه راجعون » انها النفوس المؤمنة التى يدعوها الله تعالى قائلا « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية .. » .

ينتقل اقبال بعد ذلك الى تحديد دور كل من العلم والعشق ، او العقل والقلب ، فى الوصول الى هذا المقام ــ مقام الحضور ، وفى دفع الانسان الى المثول أمام الحضرة الالهية ، فيقول :

« اذا كان العلم معوج الفطرة ردىء الجوهر ، فهو بمثابة **الحجاب الأكبر** أمام أعيننا » فالعقل اذا انشغل بالتفاصيل المادية ولم ينطلق منها الى تصور شامل لأهدافه فانه يتحول الى ستار سميك يحجب عن الانسان رؤية الحق تعالى .

« ولكن اذا كان هدف العلم هو النظر ، فانه يصبح الطريق والمرشد فى آن واحد » فاذا كان العقل واعيا بصيرا بأهدافه باعتباره مصباحا ينير للانسان طريق المعرفة الحقة فانه يدفع بالانسان نحو الطريق الصحيح.

« فالعلم يضع أمامك قشر الوجود ، فربما تتساءل : ما سر هذا المظهر » والعقل ــ اذا كان هدفه النظر ــ يجعلك تتمعن فى الكون الذى هو فى الواقع مظهر للصفات الالهية فتتساءل عن السر الخفى الكامن وراء المظهر .

« ان مثل هذا يمهد السبيل ، ان مثل هذا يوقظ الشوق » فمن شأن هذا التساؤل أن ييسر على السالك الوصول الى الله ، فيسطع فى قلبه الدافع الى العودة لديار الحبيب .

---

(١) والرؤية أى « المشاهدة » مأخوذة عند الصوفية من الآية الكريمة « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا .. » (الكهف : ١١٠) .

(٢) جلال الدين الرومى : مثنوى ، ج ١ ص ٣ .

وحين يسطع هذا الدافع فى قلب الانسان يكون العلم عندئذ بمثابة الزيت الملقى على النار فهو « يمنحك الالم والحزن والنار والحمى ، يمنحك نوبات البكاء فى منتصف الليـل ، فيتغذى البصر والقلب بالعلم — وهو تفسير عالم اللون والرائحة — الذى لايلبث أن يرفعك الى مقام الجذب والشوق ، ثم يتركك مثل جبريل » هنا اذن ينتهى دور العلم ويأتى دور العشق ، اذن فالعلم اذا كان سليما فانه يترقى بالانسان الى حيث لا يكون له دور ، الى حيث لا مادة ولا حس ، الى حيث لا مكان ، ثم يتركه من بعد ذلك لكي يواصل رقيه بدافع ذاتى وجدانى كما ترك جبريل الرسول (ص) فى رحلة المعراج .

وعندئذ يأتى الدور الخالص للعشـق فى الرقى بالانسـان الى مقام الحضور انه دور خاص به وحده ليس للعلم نصيب فيه ، ولكن « كيف يحمل العشق امرءا الى الخلوة ، لأنه يغار حتى من عينه » فالعشق غيور والعاشق لا يقبل وجود غيره فى الخلوة .

« أوله الرفيق والطريق معا ، وآخره سلوك الطريق بلا رفيق » فلا بد للسالك فى البداية من رفيق ، لكنه يتعين عليه فى النهاية أن يواصـل السير فى طريقه وحده دون رفيق ... ولذا فقد مضيت وحدى فى المرحلة الأخيرة من غير أن يكون الرومى معى .

٢ — سبحات النور :

ما ان قال الرومى لى قم حتى انطلقت فى طريقى وحـدى « فتحولت عن كل هؤلاء الحور والقصور ، وخاطرت بزورق روحى فى بحر النور ، واستغرقت فى تأمل الجمال ... هو كل لحظة فى انقلاب ، وهو خالد » .

« لقد ضعت فى ضمير الكون ، حتى ظهرت الحيـاة فى ناظرى كأنها رباب ، كل وتر من أوتاره رباب آخر ، كل نغمة أكثر جاذبية من الأخرى .. فنحن جميعا أسرة واحدة من النار (الجلال) والنور (الجمال) : الانسان والشمس والقمر وجبريل والحور » ، لقد تكشفت لى — فى مقام الحضور — حقيقة الكون ، انه يشبه الرباب من حيث نغماته اللانهائية التى تخرج من أوتاره كذلك الحياة تختلف صورها وتتعدد الى ما لا نهاية ، فكل ما فى الكون ينتمى الى صفتين من صفات البارى تعالى : صفة « الجلال » بما تنطوى عليه من عزة وقهر وقوة ، وصفة « الجمال » بما تنطوى عليه من محبة ورحمة وجاذبية .

« لقد علقوا أمام الروح مرآة ، فامتزجت الحيرة (الذهول) باليقين » لقد شاهدت روحى أيضا على حقيقتها — شاهدتها ماثلة أمامى كأننى فى مرآة ، فأخذت وأنا موقن سلفا بما سوف أشاهده .

« ما هذا ؟ ان فجر اليوم ذى النور المبين ، فى حضرته الأمس والغد حاضر ابدا » لقد شاهدت نفسى تعيش هذا « الزمان الالهى » الذى كنت فى أول عروجى اتطلع الى أن أعيشه،فهو زمان حاضر لاماضى فيه ولامستقبل بل هو حال مجرد .

ثم مـــا هذا « الله ظـــاهر بكل أسراره ، بنظرتى أنا يجعل رؤيتـــه » فرغم انه ما تزال هناك حجب كثيرة تحول دون مشاهدتى للذات الالهية الا اننى شاهدت فى هذه المرآة المعلقة أمامى صفاته جل شـــأنه وكأنها صفاتى أنا ... ولكن ما أسعدنى ، انه يجعلنى أتمتع بمشاهدته ورؤيته .

« فرؤيته زيادة بلا نقصان ، رؤيته هى النهوض من قبر الجسد » ان مشاهدة الذات هى بداية طريق المعرفة الحقة ، المعرفة المتجددة التى لا نهاية لها . انها بعث للروح من تراب الجسد ومنحها صفة الخلود.

« العبد والمولى ينتظر كل منهما الآخر ، وكل منهما يشتاق للنظر الى الآخر بفارغ الصبر » ، فالله سبحانه والمؤمن كلاهما يعمل على لقاء الآخر وكلاهما مشتاق الى الآخر ، فالله يبين لعبده المؤمن سبيل الوصول اليه ويسبغ عليه من عنايته ورعايته ما يجعله يمثل أخيرا فى حضرته والعبد المؤمن يعمل من ناحيـــة أخرى لهذه الغاية ، ويجعل حياته وقفا على الوصول الى الله .

يوضح اقبال هذه النقطة ، فيقول :

« الحياة ـــ حيثما كانت ـــ هى بحث دائم ، ان هذه النقطة لم تحل : هل أنا الصيد (المطلوب) أم هو ؟ » فحياة الله والعبد تنطوى على بحث وسعى متواصل ، فالله يسعى نحو العبد والعبد يسعى نحو الله كما قال تعالى فى حديث قدسى : « من تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا »(١) .

٣ ـــ يا الهى عالمك خرب :

« العشق أعطى روحى لذة المشاهدة ، وأعطى لسانى جرأة القول » فجعلنى أتجـــاسر على القول فى الحضرة الالهية « أنت يـــا من أعطيت العالمين النور والنظر » لقد منحت الكون قدرا من النور ، ومنحت الانسان قدرا من المعرفة « انظر قليلا لتلك الأرض .. انها لا تلائم العبد الحر ، اذ تنبت من سنابلها سنان الشوك » .

ثم يتحدث « زنده رود » بعد ذلك عن المتاعب التى تأخـــذ بخنـــاق الانســـانية فيقول : « الغـــالبون غرقى فى الســـعادة والطرب ، ولا هم للمغلوبين الا عـــد الأيام » فأصحاب الثروة والســـلطة غرقى فى الرقص والغناء ، والكادحون متعبون أبدا مكدودون .

« عالمك خرب بفعل الاستعمار ، الليل المظلم ، يحل فى كم الشمس » حقا ان الخير هو الغالب ولكن الاستعمار أخذ يعيث فى الأرض فسادا .

« علم الغربيين سلب ونهب .. تحولت الأديرة الى « خيبر » بدون حيدر » ، لقد استعمل الغرب علمه فى السلب والنهب وفى السيطرة على الشعوب ويسر له ضعف الشرق الوصول الى هـــذا الهدف ، فقد ران الخمول على المسلمين فلم يعد فيهم مثل « حيدر » ليوقف مد الكفر « خيبر » .

---

(١) وقد عبر اقبال عن هذا المعنى أيضا فى ديوانه « زبور عجم » ، ص ١٣٢ .

« ان من يقول « لا اله الا الله » مسكين ، فكره شارد من عدم وجود مركز » ، اننى أرثى لحال المسلمين ، وهذا أمر عجيب ، فان من يؤمن بالتوحيد لا يمكن أن يذل ... ولكن اذا الايمان ضاع فلا أمان ، واذا الوحدة بينهم تفتت فلا حياة لهم ، انى أرى أن عقائدهم وأفكارهم لم يعد يربطها رابط .

مجمل القول أن هناك « أربع موتات تتعقب هذا الذى يموت فى بطء : المرابى ، والوالى (الحاكم) ، والملا (العالم المولع بالجمود) ، والشيخ (الصوفى الجاهل) » .

اذن يا الهى « كيف يليق بك مثل هذا العالم ؟ ان المـــاء والطين خبث على أطرافك » .

٤ ــ نداء الجمال : حطم مالا يليق بنا :

يقول اقبال : « كتب قلم الحق (الله) من الصور الطيبة والرديئة كل ما لاق بنا تماما » .

كتب يقول : « اتعرف ما الوجود أيها الرجل النجيب ؟ هو حمل نصيب من جمال ذات الحق » واظهار صفة الجمال الالهية فى نفسك .

« ما الخلق ؟ هو بحث عن الحبيب ، اظهار ذات المرء بالنسبة لوجود آخر » فاظهر صفة الجمال التى اكتسبتها للآخرين ، فلا بد لك أولا من اكتساب صفة الجمال ثم اظهارها لغيرك او خلعها على وجود آخر لكى تكون خلاقا مبدعا .

« ان كل هذه الضجة النابعة من الوجود لايمكن ان تأتى الى الوجود دون جمالنا ، والحياة فانية كما هى باقية ، انها كلها تخليق وشوق متقد » فاذا لم تكتسب صفة الجمال فلن تنال الخلود .

« أانت حى ؟ كن مشتاقا كن خلاقا . كن مثلنا مستحوذا على الآفاق » كن عاشقا ، كن مبدعا ، عندئذ تتجلى فيك قدرة تستطيع بها أن تسيطر على العالم بأسره .

وعندما تتجلى فيك هذه القدرة « حطم كل ما لايتلاءم ، واخرج من ضميرك عالمـــا جديدا » حطم هذا النظام الاستعمارى وأقم عالما جديدا يتفق مع الحلم الذى تضمه بين جوانحك فى حيـــاة خالية من العبوديـــة والاستغلال .

اذ « يثقل على العبد الحر العيش فى عالم يخص الآخرين » فالمسلم ليس من شأنه أن يرضى الا بالحياة فى عالم تسود فيه روح الاسلام وتنفذ فيه قوانينه .

« فكل من ليست لديه قوة التخليق ، هو فى نظرنا ليس سوى كافر وزنديق ، مثله لم يحمل نصيبا من جمالنا ، لم يتذوق ثمرة من نخيل الحياة » فكل من ليست له قدرة على خلق عالم جديد هو عند الله كافر وزنديق ــ حتى لو ظن نفسه مسلما ــ فالمسلم الحق هو الذى تتجلى فيه قوة

التخليق ، فاذا ما حرم انسان هذه القوة ولم ينل من صفة الجمال الالهى اى نصيب فهو بمنأى عن هدف الحياة .

« أنت رجل حق ! كن قاطعا كالسيف ، كن انت نفسك قدر عالمك » .

٥ ــ زنده رود : هل هناك أمل ؟

يقول زنده رود موجها سؤاله الى الله : « ما القانون الذى يحكم عالم اللون والرائحة (الطبيعة)،سوى أن الماء الذى يذهب مرة لايعود الى الغدير. فالحياة ترغب عن التكرار ، فطرتها لا تألف التكرار . لقد حرمت على الحياة الرجعة تحت الفلك ، فاذا ما تهاوى شعب لم ينهض ثانية ، وعندما تموت أمة فنادرا ما تنهض من القبر ، وهل لهـــا من حيلـــة سوى القبر والصبر » .

أى كيف يمكن للأمة الاسلامية اذن أن تحيا من جديد ؟

نداء الجمـــال

يخط القلم الالهى فى قلب زنده رود هذا الرد المشتمل على نقاط ثلاث :

١ ــ آثار التوحيد :

« ليست الحيـــاة مجرد تكرار أنفاس ، ان اصلها من (الله) الحى القيوموكفى » .

ونلاحظ هنا أن اقبالا يعود بأصـــل الحيـــاة فى الطبيعة والكون الى أخص صفة من صفات الله عنده : وهى القدرة على التخليق ، أو بعبارة أخرى يعود بها الى « اسم الله الاعظم » الذى روى أنه متضمن فى أوائل سورة آل عمران :« الم الله لا اله الا هو الحى القيوم »(١)فالحياة والقيومية، التجدد والدوام ، الصيرورة والثبات كما يتمثلان فى الذات الالهية الخالقة هما أصل الحياة فى مختلف مستوياتها ــ عند اقبال ــ واذا ما ادرك امرؤ هذه الحقيقة تمكن من السيطرة على الزمان والمكان .

« فالروح قريبة ممن قال **انى قريب** وذلك لحمل نصيب من الحياة الخالدة » فبوسع الانسان أن يحصل على الخلود اذا أدرك سر الحياة على هذا النحو ونال مقام القرب من الله سبحانه .

« الفرد يصبح لاهوتا (الاهيا أو ربانيا) بالتوحيد ، والأمة تصبح جبروتا بالتوحيد » فاذا آمن الانسان بوحدانية الله ولم يسلم قلبه لغيره تجلت فيه الصفات الالهية ، واذا تجلت الصفات الالهيـــة فى افراد أمـــة تفوقت على أمم العالم جميعا ونالت العزة والهيبة .

« اخرج التوحيد ابايزيد والشبلى(٢) وأبـــاذر الغفارى(٣) ، أخرج

---

(١) أنظر فى ذلك تفسير ابن كثير .
(٢) هو شبلى البغدادى الصوفى الشهير .
(٣) أبو ذر الغفارى : من صحابة رسول الله (ص) .

التوحيد للأمم طغرل(١) وسنجر(٢) » لقد كان أبو يزيد البسطامي والشبلي وابو ذر الغفاري نماذج حية للفرد للموحد ، وكانت الدولة السلجوقية نموذجا للأمة الموحدة التي تمكنت من بعث الأمة الاسلامية بعد موتها وتحللها.

« فلا ثبات للانسان بلا تجل (الهي) ان تجلينا حياة للفرد والأمة على السواء » فبغير الايمان بالتوحيد لا يكون للفرد ولا الأمة ثبات ، « فكلاهما يحصل على كماله من خلال التوحيد ، والحياة للأمة جلال (وسطوة) وللفرد جمال (وخلق ومحبة) .

« هذه سليمانية وتلك سلمانية ، تلك فقر كامل ، وهذه كلها قوة واقتدار » ان الأمة الموحدة تحظى بالسيطرة على عناصر الكون مثل أمة سليمان النبي الملك كما أن الفرد الموحد يكون شأنه الفقر الكامل (الذكر والفكر) مثل سلمان الفارسي .

« فذاك يرى واحدا وهذه تصبح واحدة كن جليسا لذلك ، وعش مع هذا في الدنيا » ، فالفرد يفوز بأعلى مقام وهو مشاهدة الله ذاته ، أما الأمة فتتجلى فيها صفة الوحدة وهي وحدة الفكر والعمل ، لذا لزم على الفرد أن يكون رفيقا للمؤمن وأن يرتبط بالحياة مع الأمة الموحدة .

٢ — الأمة وحدة نظر :

« ما الأمة يا من يقول لا اله الا الله ؟ أن تكون هناك نظرة واحدة بآلاف العيون » ، فحيثما توجد وحدة الفكر توجد الأمة .

ان حجة ودعوى أهل الحق (المسلمين) شيء واحد : « خيامنا منفصلة وقلوبنا واحدة (٣) » .

« وحدة النظر تحيل الذرات الى شمس ، فكن موحد النظر وعندئذ قد ترى الله بغير حجاب » فالأشعة اذا تجمعت وتركزت أصبحت شمسا واذا كان المسلمون نظرة واحدة فان بامكانهم اقامة نظام الهي في الأرض كنموذج يحتذى به العالم جميعا .

« لا تنظر الى وحدة النظر بعين قاصرة ، انها من التجليات الحقيقية للتوحيد » فاذا ما كان المسلمون يوحدون الله حقا فان الوحدة تتجلى فيهم كأنصع ما تكون .

« اذا ما ثملت أمة بالتوحيد فان القوة والجبروت تصبحان طوع يديها » .

٣ — روح الأمة :

« ان روح الأمة توجد من خلال المحفل (الوحدة) ، روح الأمة ليست في حاجة الى البدن » فالأمة ليست عبارة عن مجموعة من أبدان الأفراد بل هي وحدة تسري بين فكرهم جميعا .

---

(١) طغرل : هو من انشأ الدولة السلجوقية .
(٢) سنجر : كان آخر السلاجقة العظام .
(٣) اشارة الى مثل عربي .

« طالما أن وجودها يبرز من الصحبة (الحياة الاجتماعية) فانها تموت حينما تتحطم أربطة الصحبة » فالأمة تفنى اذا لم تربط الوحدة فى الفكر والهدف وفى الحياة الاجتماعية السليمة بين افرادها .

أيها المسلم « أنت ميت ؟ صر حيا من خلال وحدة النظر ، تجنب التشتت ، صر ثابتا محكما ، اخلق وحدة الفكر والعمل كى تصبح صاحب سطوة فى العالم » .

زنده رود

١ — من أنت ؟ من أنا ؟

يتوجه زنده رود بهذه الأسئلة الى الذات الالهية « من أنا ؟ من أنت ؟ أين العالم ؟ لم البعد بيننا وبينك ؟ .. قل لى لماذا أنا فى قيد القدر (الزمان) ، أنت لا تموت لم أموت أنا ؟

٢ — نداء الجمال : اغرق العالم فى ذاتك :

يأتينى هذا الجواب من الحضرة الالهية :

« لقد كنت فى العالم ذى الأبعاد ، كل من يختزن فيه يموت فيه ، فاذا أردت الحياة (الأبدية) فتقدم بذاتيتك (وارق بها) ، أغرق عالم الأبعاد فى ذاتك » فقلبك لا تحده حدود . وحينما تسيطر على الزمان والمكان « سترى عندئذ من أنا ومن أنت ، كيف مت فى الدنيا ، وكيف عشت » .

٣ — زنده رود : ما أقدار الشرق والغرب :

قلت طالبا المغفرة : « اقبل أعذارى فأنا جاهل ، وارفع الحجب عن وجه القدر » ، أطلعنى يا الهى على مشيئتك « لقد رأيت ثورة الروس والألمان ، لقد رأيت ثورة تضطرم فى روح المسلم » لقد رأيت المسلمين ينشطون الى تغيير واقعهم المرير .

« رأيت تدابير الغرب والشرق » رأيت الغرب يستعبد الشرق ، والشرق يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يخرج من دائرة الاستعباد ، « فأظهر (لى) أقدار الغرب والشرق » حدثنى يا الهى عن أقدار العالم شرقه وغربه .

وقوع تجلى الجلال

لايرد الله تعالى على مطلب « زنده رود » الخاص باطلاعه على أقدار الشرق والغرب لأن الله هو « عالم الغيب » فلا يظهر على غيبه أحدا . . . » وانما تحدث المشاهدة الالهية ، ويتجلى الجلال بذاته لزنده رود الذى يحاول بصعوبة بالغة وصف هذا المشهد العجيب .

« وفجأة رأيت عالمى ، رأيت أرضى وسمائى ، رأيت هذا العالم غارقا فى نور بلون الشفق ، رأيته قرمزيا بلون أشجار العناب ، ومن التجليات التى تكسرت فى روحى ، خررت ثملا بالجلوة ككليم الله ... لقد أظهر نوره كل حجاب ، وسلب من لسانى قدرة القول ، وأنطلق من أعماق عالم اللاكم واللاكيف هذا الصوت الملتهب :

ــ « دع الشرق ولا تؤخذ بسحر الفرنج ، .. فكل هذا القديم والجديد لا يساوى حبة شعير » لا تكن فجا فتتأثر بالحضارات الشرقية القديمة ، أو تنبهر بالمدنية الأوربية المعاصرة ، فالحضارات القديمة والمدنية المعاصرة لا تساوى شروى نقير .

ــ « ذلك الخاتم (القلب) الذى خسرته مع الشياطين لا يمكن رهنه حتى عند جبريل الأمين » لقد سيطر الشيطان على قلبك وأمسك بزمامه فى حين أن القلب وقف على الله وحده ، ولا يجدر بك أن تسلمه حتى لجبريل الأمين .

ــ الحياة هى تزيين المحفل وحفظ النفس ، انت يامن فى القافلة سافر وحدك وانت ماتزال مع الركب » فللحياة الانسانية صفتان : الفردية والجماعية ، فعش فى المجتمع ولكن احتفظ بذاتيتك ، خذ رزقك من عرقك انت ولا تمدن يدك الى غيرك(1) .

« لقد اتيت أشد ضياء من الشمس المضيئة ، فعش بحيث تبعث الأشعة الى كل ذرة » أيها الانسان . انك ــ بما لديك من امكانات خفية ــ أقوى نورا من الشمس فعش الحياة التى تفيد بها البشر أجمعين .

« لقد ذهب الاسكندر ودارا وقباد وخسرو ، كجناح القشة التى وقعت فى مهب الريح » فالملك برغم بهائه لا يمكن به الحصول على الحياة الخالدة مادام منقطع الصلة عن هدف الوجود .

« لقد افتضحت الحانة من رقة كأسك ، خذ الزجاجة واشرب برفق ثم اذهب » فضيق أفق الانسان أحال الحياة الانسانية (الحانة) الى بؤرة من الفساد ، ولكن اذا أردت اصلاح الحياة الانسانية حقا فعليك بالمعرفة الالهية التى تضمنتها روح الاسلام ، عليك باقامة مجتمع اسلامى حق تتمتع فيه ذاتيتك وذاتية غيرك من الأفراد بالقدر الضرورى من القوة .. فعش اذن لتعمل على هذا وتدعو اليه .

ومن الواضح ان اقبالا يرى أن الوصول الى هذا المقام الرفيع ــ مقام المشاهدة ــ ليس مجرد متعة شخصية وانما هو عبارة عن رسالة لابد

---

(1) تناول اقبال هذه المسألة بالتفصيل فى منظومته « أسرار خودى » التى تحدث فيها عن ابعاد الذاتية أو الفردية و « رموز بى خودى » التى تعرض فيها للحياة الاجتماعية لذات الانسان . ويقول فى « ضرب كليم » فى قطعة عنوانها « الرجل العظيم » :

هو فى الجمع خال	ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل فى	الحفل وحيد ورفيق

له من ان يعود لكى يصفها للخلق ، كما عاد الرسول (ص) من معراجه ووصف مقام المشاهدة . وقد شرح اقبال هذه الفكرة فى كتابه « تجديد التفكير الدينى » عند شرحه للفرق السيكولوجى بين الوعى النبوى والوعى الصوفى وأورد كلمة لولى هندى بين فيها هذا الفرق حين قال هذا الولى : « صعد محمد النبى العربى الى السماوات العلى ثم رجع الى الأرض ، قسما بربى ، لو انى بلغت هذا المقام لما عدت ابدا »(١) .

ولكن اقبالا عاد مثلما عاد النبى الكريم (ص) ليحدثنا حديث الحضور ويروى مشاعره امام الحضرة العلوية ابتغاء تغيير هذا العالم .

---

(١) تجديد التفكير الدينى ، ص ١٤٢ .

الباب الرّابع

ختام المعراج

خطـــاب الى « جاويـــد »

او

حديث الى الجيـل الجـديد

الفصل الأول

نظرة عامـــة

بعد أن ينتهى اقبال من رحلته السماوية يعود الى الارض لكى ينظم حديثا الى شباب الأمة الاسلامية ممثلا فى ابنه « جاويد »(١) .

لقد أعلن اقبال فى بدء رسالته أنه قد يئس من الصحب القديم ، وأن آماله معلقة الآن على الشباب ، لذا فقد كتب هذه الرسالة من أجلهم ... وربما رأى اقبال أنه قد جاز مع الشباب آفاقا رحبة من التفكير وعوالم غريبة من المعانى قد تحول صعوبتها دون استيعاب بعضهم للأهداف التى يرمى اليها ، فعمد الى تذييل الرسالة بهذا الفصل الممتع ، الجامع .

ويتميز هـذا الجزء عن باقى الرســالة بأن أسلوبه سهل ميسور ، ومعانيه قريبة نسبيا ، ولكنهـا لا تخرج عن موضوع الرســالة فى كثير أو قليل ، بل ربما اعتبرنا هذا الفصل فى جملته شرحا وتفسيرا لبعض جوانبها ولا سيما جانبى التوحيد وطبيعة المكانة التى يحتلها الرومى فى الثقافة الاسلامية .

كما يتميز هذا الجزء أيضا بأن اقبالا كتبه بأسلوب توجيه النصح على غرار الشيخ فريد الدين العطار فى « بند نامـــه »(٢) والامـام ابى حامد الغزالى فى «كيمياى سعادت »(٣) وغيرهما .

---

(١) عندما نشرت جاويد نامه كان « جاويد » يبلغ من العمر ثمانى سنوات ، فقد ولد فى سنة ١٩٢٤ ، انظر مولانا عبد السلام ندوى ، اقبـــال كامل ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) أنظر « بند نامـــه عطار »ترجمها الى العربية الشيخ أحمد راشد المصرى ، طبع مصر سنة ١٣٢٩ هـ .

(٣) كيمياى سعادت ، وهو كتاب نثرى ، طبع حجر لكهنو سنة ١٣٣٣ هـ ، وقد كتب الغزالى فى نصح أحد مريديه كتابا باللغة العربية اتبع فيه نفس الأسلوب وأسماه « أيها الولد » طبعته « اليونسكو » ضمن مجموعة الروائع الانسانية بيروت ١٩٥٩ م .

وقد حاول اقبال فى هذا الحديث أن يوضح لشباب الأمة الاسلامية — من خلال تجربته الطويلة فى تعمق فهم الاسلام — الطريق الصحيح الذى ينبغي لهم السير فيه لنيل العزة والكرامة فى الدنيا ، والخلود والسعادة فى الآخرة .

وقسم اقبال هذا الجزء الى اثنتى عشرة نقطة تناول فى كل منها غرضا من الأغراض ثم اختتمه بنقطة أخيرة تعد روح الجزء بأسره ، اذ ركز فيها كل الأغراض التى تحدث عنها فى النقاط السابقة .

وقد عرض اقبال لبيان مفهوم التوحيد وبين أن ادراك حقيقته الشاملة لا تتيسر الا من خلال الجمع بين المعرفتين العقلية والوجدانية ، وعن طريق قدوة صالحة تتمثل فى المرشد الكامل الذى يجنب الانسان التردى فى مزالق التفكير .

وتحدث بعد ذلك عن افلاس المسلمين المعاصرين لبعدهم عن العمل بمقتضى التوحيد ، فاستذلتهم الدنيا وكرهوا لقاء ربهم ، وأخذ يقارن حال الأمة الاسلامية اليوم بحالتها فيما مضى وبالأمم الأخرى المعاصرة فيقول:«كل شخص يمضى مهرولا فى طريقه ، أما ناقتنا (الأمة الاسلامية) فلا زمام لها وتمضى على غير هدى » . وهو يركز على ركنى الحج والجهاد من أركان الاسلام لدورهما فى استمرار الأمة .

ثم يدعو الشباب الى القاء نظرة على العصر الحديث الذى سادته المادية والذى سيطر فيه الغرب على الشرق ، ووقوع الشرق فريسة لجمود بعض علماء الدين ولطغيان الملوك .

وينتقل اقبال بعد ذلك الى الحديث عن مؤلفاته التى جمع فيهما الفكر والعقل الى جانب الذكر والعشق .

ويصف اقبال فى أسى حال الشباب المسلم وبعده عن حقيقة الدين ، ويرجع ذلك الى النظام التعليمى الحديث الذى باعد بين الشباب وبين التطلع الى الرقى الروحى . ثم حدد أهداف العلم ، والشروط التى ينبغى توافرها للاستفادة منه .

ويوجه عددا من النصائح للشباب ترتكز حول الذاتية وعدم ربط القلب بغير الله ، والحفاظ على طاقات الروح والبدن ، وضرورة التمسك بشرع التقوى والبعد عن الترخص والتأويل فى الشرع .

ثم يقول ان الدين بدايته أدب ونهايته عشق ، ومن الأدب التأسى برسول الله (ص) والبعد عن رفيق السوء ، وتجنب سب الكافر ولعنه ، وفهم المعنى الحقيقى للانسانية .

ويدعو الى سلوك سبيل الاستغناء وعدم ربط القلب بغير الله ، ويحذر من أن كثرة النعمة تضر أكثر مما تنفع « فقلما رأيت الندى فى عين المتنعمين » فأغلبهم لا يشعر بالتعاطف مع بنى الانسان .

وينتقل اقبال بعد ذلك الى توجيه نقد عنيف الى الحالة النفسية لمعظم المسلمين المعاصرين الذين فقدوا ما تميز به سلفهم الصالح من ايمان

وعمل ، فترك علماؤهم روح القرآن واصبح صوفيتهم ذئابا كاسرة لا رحمة فى قلوبهم ، أما المقلدون منهم لأوربا فيعيشون فى أوهام ، وغفل الجميع عن سر الدين وامتلأت نفوسهم بالحقد لبعضهم البعض ... ولكنك مع ذلك تجد الصدق والصفاء فى العوام . ويطلب من الشباب المسلم أن يفرز أهل الدين من أهل الحقد وأن يصاحب العارفين بالله .

واخيرا يتحدث اقبال عن صفة **رجل الحق** وأنه موجود فى العالم لكن النـــاس لا يهتدون اليه عندما تتغلب المادة عليهم ، ويدعو الشباب للبحث عنه ، والا فعليهم بجلال الدين الرومى ، فهو — فى رأى اقبال — مرشد كامل يستطيع المرء أن يعتمد عليه فى سلوك الطريق الى الله ، ويحذر من الهم والطمع فهما من أعظم العقبات فى سبيل تصفية النفس وتنقيتها وافرادها لله وحده .

على أن اقبالا لم يشأ فى هذا الفصل أيضـــا أن يحيد عن الرمزية فى التعبير بل عمد اليها فى غالب الأحوال ، فجاءت متفقة مع سليقته الشعرية الرائعة ، وجاءت أشعاره كلهاتنطق بأخلاصه وتفانيه فى دعوته للشباب وحرصه على أن يكون التوفيق حليفهم .

ولننتقل الآن لتحليل النقاط التى وردت فى هذا الحديث .

الفصل الثانى

خطاب الى جاويد او حديث الى الجيل الجديد

١ ـ خذها من آهة اصباحى :

تبدو هذه النقطة وكأنها تمهيد للفصل كله ، فهو يقول : « لا فائدة من نظم هذه الكلمات ، حيث أن الكلمات غير قادرة على التعبير عما فى أعماق القلب ، فرغم أنى قلت مائة فكرة بصراحة ودون مواربة ، فمازالت عندى فكرة لا تأتى فى كتاب ، لو حاولت التعبير عنها لازدادت تعقدا ، فالكلمة والصوت يزيدانهـا خفاء ، فخـذ اذن نارهـا من نظرتى ، أو من آهـة اصباحى » .

ان الكلمة التى يعنيها اقبـال هى كلمة « لا اله الا الله » هى حقيقة التوحيد ، والتوحيد ــ فى رأى اقبال ــ لا يمكن وصفه أو التعبير عنه فى كتاب . انه **حال** من أحوال الموحد لا سبيل الى معرفة نوعيته الا بمشاهدته فى نظرة الموحد الحق وفى تلك الآهة المكبوتة التى تصدر عن قلب عاشق وقت السحر والناس نيام .

٢ ـ أمك لقنتك درس التوحيد :

« لقنتك أمك الدرس الأول (درس التوحيد) ، لقد تفتحت برعمتك بفعل نسيمها . فبنسيمها كان لك هذا اللون وتلك الرائحة ، يامن أنت متاع لكلينا ان قيمتك منها هى . لقد ادخرت بسببها ملكا خالدا ، فلقد تعلمت « لا اله الا لله » من شفتيها .

« يابنى ! خذ منى شوق النظر ، خذ منى الاحتراق فى « لا اله الا الله » خذ منى هذا الحنين الى العودة الى الحبيب ، وخذ منى وقف القلب عليه وحده دون سواه » .

« فان قلت لا اله الا الله ، فقلها اذن بالروح ، كى تهب روائح الحبيب من كيانك » ، فانك ان وحدت الله حق التوحيد عمدت الى التخلق بأخلاقه واكتساب صفاته ، فتشتم الخلائق نسائمه منك أنت .

« تدور الشمس والقمر من حرارة لا اله الا الله ، لقد رأيت هـذه الحرقة فى الجبل والقشة » ، فالكون مسلم(١) بل قل هو عاشق فاذا لم

---

(١) أنظر ابن تيمية : « جامع الرسائل » تحقيق د . محمد رشاد سالم ، ط القاهرة سنة ١٩٧٠ ، الرسالة الأولى بعنوان « سجود الأشياء لله » .

تكن جذبة العشق لفنى الكون كلـه ، فهذه الحركـة التى تسود الكون كله منبعها التسليم ودافعها العشق . « ان كلمة التوحيد ليست مجرد قول ، انها ليست سوى سيف لا يرحم » فلا يكفى الأقرار بالتوحيد باللسان وحده وانما بالفعل ، فكلمة التوحيد سيف للمؤمن يحطم به الباطل ويدمره .

« الحياة بحرقة التوحيد قهر ، لا اله الا الله ضرب ، وضرب فعال » ، فحياة الموحد كلها تحطيم للباطل كتحطيم ابراهيم عليه السلام للأصنام .

هذه هى الطاقات الكامنة فى الموحد الحق ، وواضح أن اقبالا يرى — كما تبين فى النقطة السابقة — أن التوحيد لا يستفاد الا بالتلقى الحى المباشر عن موحد حقيقى ، أو **مرشد كامل** كما يسميه أهل التصوف ، فلابد اذن من مرشد لكى يتحول به الانسان الى مسلم حق . ويعرف اقبال تماما أن « المرشد » لم يعد له مكان فى التربية الاسلامية المعاصرة ، وربما كـان يعتبر هذا هو أحد أسباب اختلال هذه التربية وعدم وصولها الى أهدافها ، وعدم ادراك المسلم لحقيقة دينه .

٣ — افلاس المسلم المعاصر :

لقـد ابتعد المسـلمون عن العمل بمقتضى التوحيد ، لذلك تجد الآن « مؤمنا يعقد النطـاق أمام الناس ، هو مؤمن ... لكنـه غادر مفلس منافق ، فى نفس الوقت » . لقد جمع المسلم بين الضدين فى وقت واحد : بين الاسلام — بما ينطوى عليه من عدم التسليم لغير الله ، وبين اسلام القياد للغرب . كما جمع بين الايمان والنفاق .

ومن ذلك أنه « باع الدين والأمة بأبخس الأثمان ، فأحرق متاع البيت كما أحرق البيت نفسه » انه لم يدمر البيت (الأمة الاسلامية) فحسب بل دمر ما فى البيت من متاع (التراث الاسلامى) .

« كانت لا اله الا الله فى صلاته ولم تكن ، كان الحب فى دعائه ولم يكن » فرغم أن صلاته انعكاس للتوحيد الا أنهـا أصبحت بلا مضمون وتحولت الى مجرد رسوم تؤدى .

« لم يبق نور فى صومه وصلواته ، لم تبق جلوة (بهاء وجمال) فى عالمه » فلقد أفلس تماما .

« ان من كان الله قد أعطاه العدة ، أصبح الأن تحت رحمة حب المال وخشية الموت »(١) .

---

(١) وفى البيت اشارة ضمنية الى الحديث النبوى الشريف : « توشـك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها ، قالوا أو من قلة نحن حينئذ يا رسول الله قال لا بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليلقين فى قلوبكم الوهن ، قالوا : ما الوهن يارسول الله قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

لم يعد يقتدى بالرسول الكريم « فذهبت منه تلك النشوة وذلك الشوق والسرور ، ولذا صدق عليه قول القائل : دينه فى كتاب وهو فى القبر » .

ومما زاد الطين بلة أن المسلم « اندمج فى رفقة العصر الحاضر ، واخذ كلمة الدين من نبيين »(١) لقد استمرأ الحضارة الحديثة . واستساغها واخلد اليها ، فى حين أن مهمته هى خلق العصور الجديدة لا التواؤم مع هذا العالم المنهك الذى يوشك أن ينهار ، فضلا عن أن المسلم استقى دينه من اثنين ممن ادعوا النبوة .

« ذلك من ايران وهذا هندى الأصل ، ذلك غريب عن الحج ، وهـذا عن الجهاد » ، لقد نقض « البهاء » الحج كعنوان للتحرر من الدنيا وكمظهر لوحدة المسلمين وارتباط بالنبى العربى ورسالته العالمية الخاتمة ، كما نقض « القاديانى » الجهاد الذى هو تضحية بالحياة وتحرر من خوف الموت وسعى حثيث نحو لقاء الله .

« فطالما افتقرت الفرائض الى الجهاد والحج ، ذهبت الروح من قوام الصوم والصلاة » . فلو ذهبت الروح من الصلاة ومن الصيام ، لانحرف الفرد ولاعوج نظام الأمة .

مجمل القول أن « صدور المسلمين أصبحت خاوية من حرارة القرآن ... فأى أمل حسن من أمثال هؤلاء الرجال ؟ » .

« فيا خضر(٢) ، لقد تغاضى المسلم عن الذات ، فكن عونا له لأن المياه تغمره حتى غطت رأسه » ، لقد ابتعد المسلمون عن انفسهم ولم يتعرفوا على امكاناتهم الذاتية ، فلعل مرشدا كاملا كالخضر يظهر فى هذا الزمان لكى يأخذ بيدهم مما ترددوا فيه .

٤ — نائتنا تمضى على غير هدى :

اننى أرثى لحال المسلمين اليوم ، انظرمعى كى ترى مـا حل بتلك « السجدة التى رجت الأرض يوما مـا ، والتى كانت قادرة على ادارة

---

(١) المراد بالنبيين هنا : ميرزا حسين على بهاء الله الملقب بالبهاء ، وكان قد ولد فى ايران سنة ١٨١٧ واعتنق تعاليم « الباب » وفى سنة ١٨٥٢ نفته الحكومة الايرانية الى بغداد فأقام بنواحى السليمانية وادعى النبوة ، وقامت دعوته على أساس السلام العام بين البشر ، وقد توفى سنة ١٨٩٢ (أنظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامى ص ٣٥٦ — ٣٥٧) .
أما الثانى فهو ميرزا غلام احمد القاديانى ولد فى « قاديان » بالبنجاب سنة ١٨٣٨ ، وادعى النبوة بدافـع من المستعمرين البريطانيين ، ودعا الى طرح الجهاد ووجوب طاعة الانجليز ، وتوفى سنة ١٩٠٨ ، (أنظر الدكتور محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ... ص ١٧ وما بعدها) .

(٢) الخضر كناية عن المرشد الكامل الباحث دائما عن الحقيقة وطلابها .

الشمس والقمر وفق مراد المسلم » انك تعرف تأثير المعرفة الحقيقية بالله في هذا الكون « فلو انطبقت علامة السجود على حجر صلد ، لتناثر غبارا في الجو كالدخان » فالمؤمن يكون أقرب ما يكون الى الله وهو ساجد ، ومن شأن هذا القرب الالهى أن يجعل الحجر الصلد نفسه يتناثر في الهواء كالعهن المنفوش .

انظر معى ما حل بتلك السجدة ، لقد تحولت الى انحناءة لآلهة جدد هم المستعمرون والملوك « فلم يعد المسلم يعرف في هذا الزمان سوى طاطأة الرأس ، ليس فيه شيء سوى وهن الشيخوخة » .

قل لى بربك يا بنى « أين عظمة ربى الأعلى » . أين ذهب مضمون تلك التسبيحة التى يقولها المسلم في سجوده : سبحان ربى الأعلى ، لقد تحولت الى كلمة خاوية المضمون ، فابتلى المسلمون بالمذلة والاستعباد والتخلف ولكن « أهذا ذنبه هو أم تقصيرنا نحن ؟ » .

انظر معى تجد « كل شخص يمضى مهرولا في طريقه ، أما ناقتنا (الأمة الاسلامية) فلا زمام لها وتمضى على غير هدى » .

ولكننى أسائل نفسى بين الحين والحين : صاحب قرآن وخال من شوق الطلب؟ما أشد عجبى،ما أشد عجبى،ما أشد عجبى» . هل يمكن حقا أن ينعدم الدافع الى الرقى من قلب المسلم ؟ ! مع أن هذا الدافع نفسه هو الذى دعا اليه القرآن الكريم وحض عليه واعتبره من أوجب واجبات المسلم .

٥ — دوامة المادة :

أيها الشاب المسلم « لو جعلك الله صاحب نظر ، فألق نظرة اذن على العصر الذى يمر من أمامك » تجد فيه :

« عقولا بلا خوف ، وقلوبا خاوية من الحماس ، عيونا بلا خجل وغرقا في المجاز » لم يعد هناك حياء ، والقوم مستغرقون تماما في شئون المادة والحس . .

« العلم والفن ، الدين والسياسة ، العقل والقلب ، زوجا زوجا في دوامة الماء والطين » فهى تدور حول موضوعات مادية صرف ولا تسمو فوقها .

« ان آسيا وهى بلاد الشمس ، ترى غيرها ، وهى عن نفسها في حجاب » فها هى ذى الشعوب الآسيوية التى من بلادها أشرقت الأديان السماوية ، والتى من ناحيتها تشرق الشمس كل صباح على الأرض ، أسيرة لطلسم الاستعمار والجمود ، جاهلة بامكاناتها الذاتية .

لذلك أصبح « قلبها بلا واردات متجددة ، ولم يعد هناك أحد يعطيها مقابل ما تنتجه ولو ثمن حبتى شعير » .

« هى فريسة للملا (الجمود) وفريسة للملوك (الطغيان) ، غزال فكرها قد أصابه العرج » .

« العقل والدين والعلم والشرف والعار ، كلها معلقة بزمام لوردات أوربا » فلقد سيطر الاستعمار الأوربى على حياتهم وفكرهم تماما .

لقد نظرت الى العالم الاسلامى « وهاجمت عالم أفكاره ، مزقت حجب أسراره .» ودعوت المسلم الى الثورة « فحولت القلب (منه) الى دم وسط الصدر ، حتى صبغت دنياه بصبغة أخرى » .

٦ — خذ عنى الذكر والفكر :

« فلقد قلت كلمتين لمزاج عصرى ، فجمعت البحرين فى اناءين : كلمة تتسم بالتعقيد ، وكلمة لها وخز الابر كى أتصيد عقول الرجال وقلوبهم » .

يرمز اقبال بالاناءين الى مؤلفاته ، وهو بهذا يعتبر كتابيه « تطور الفلسفة فى ايران » و « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » احد هذين الاناءين . وقد كتبهما نثرا باللغة الانجليزية بأسلوب فلسفى خالص لأولئك الذين ترضيهم النزعة العقلية فى كشف الحقائق ، وبين فى الكتاب الثانى على الخصوص روح التعاليم الاسلامية فى ضوء العقل .

أما الاناء الآخر فهو اناء الشعر ويضم سائر دواوينه ومنظوماته الشعرية باللغتين الفارسية والأردية . وهو يوضح خصائص كل اناء منهما بقوله :

« كلمة ذات عمق بأسلوب الفرنج ، ونواح ثمل من وتر الرباب » فالاناء الأول ينطوى على عمق فلسفى ، وقد كتبته باللغة الانجليزية وعلى النهج الأوربى فى البحث والاستقصاء . والثانى عبارة عن كلمة وجدانية استعملت فيه أسلوب الرمز والكناية كى تكون أكثر تأثيرا .

« الأول أصله من الذكر ، والثانى أصله من الفكر ، ألا فلتكن أنت وارث هذا الفكر والذكر » فكلاهما رافد لا ينضب ، فالفكر والذكر اذن هما البحران ، والنثر والشعر هما الاناءان .

« أنا نهر أصلى من بحرين ، فصلى فصل ، ووصلى وصل » ، لقد فصلت الذكر (العشق) من الفكر (العقل) فى كتاباتى ، ولكن لابد من الجمع بينهما حتى يمكن للذات الانسانية أن تستغل كل الامكانات التى أودعها الله فيها . فالتربية الصحيحة للشخصية الانسانية لا تتسم الا بالمزج بين هذين البحرين .

« ومنذ أن تغير مزاج عصرى ، جاد طبعى بثورة جديدة » فلقد اختلف مزاج معاصرى عن مزاج السابقين مما دفعنى الى احداث انقلاب فى أسلوب التعبير عن حقائق الاسلام وتقريب مفاهيمه الى العقول والقلوب على حد سواء .

٧ — الشباب فارغ الأكواب :

ومما يشق على النفس حقا أن تجد « الشباب ظمآن الشفتين ، فارغ الأكواب مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل » فهم بمنآى عن حقائق دينهم ، فالنظم التعليمية القائمة لم تعن بتربيتهم روحيا ، فركزوا كل اهتمامهم على زينتهم الجسمانية وراحتهم الجسدية .

كما تجد الشباب « كليل البصر ، عديم اليقين ، قد أصابه اليأس والقنوط ، لم تر عينه فى هذا العالم ، حقير متصاغر منكر لذاته مؤمن بغيره، إن بناة الأديرة يضربون طوبها من ترابه » لقد أنكروا طاقاتهم الذاتية وأخذوا يتسولون على موائد غيرهم فيقلدون الغرب(١) الذى جعل منهم جزءا من النظام المادى الاستعمارى ، وأدوات للسياسة المضادة لهم ولاخوانهم فى الدين .

وينتقل اقبال الى نقد النظام التعليمى فيقول :

« أما المدرسة فليست عارفة بهدفها منذ أن فقدت الطريق الى الجذب الداخلى » لقد نسيت تربية روح العشق فى نفوس الأبناء « لقد محت نور الفطرة من القلوب ، لم تنبت من غصنها وردة جميلة ، بناؤها (المعلم) يضع الآجر معوجا،انه يجعل فراخ الصقر تتشرب طبع البط » ، ويربى فراخ الصقور تربية بغاث الطيور .

فاقبال يعتبر أن نظام التعليم الغربى هو السبب فى هذا التردد واضعف والجبن الذى اصاب معظم الشباب — ويرى — كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه « روائع اقبال » أن هذا النظام : « قد اضعف الروح المعنوية فى الشباب المسلم ، وجنى على رجولته جناية عظيمة ، فأصبح شبابا رخوا رقيقا مائعا .. ، لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه . يقول فى قصيدة يخاطب فيها بعض المربين : « حيا الله شبيبتك ، يا مربى الجيل الجديد ، ألق عليهم درس التواضع ، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية . علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال ، فان الغرب لم يعلمهم الا صنع الزجاج » ومن مآخذه على نظام التعليم العصرى والمدرسة التى تمثله وتؤدى رسالته انها مصابة بالتقليد والجمود ومجردة من الابتكار والاجتهاد . يقول فى قصيدة : « ان العالم أسير التقاليد والأوضاع ، وان المدرسة منحصرة فى نطاق ضيق ، يا للأسف !! ان الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا ائمة

---

(١) يقول اقبال فى موضع آخر عن الشباب المفتون بالغرب : « يتراءى لك أن الشباب المتعلم حى يرزق ، ولكنه فى الحقيقة ميت استعار حياته من الغرب » ، ويخاطب المتفرنج فيقول : « ليس وجودك الا تجلى الأفرنج لأنك بناء قد بنوه . هذا الجسم العنصرى فارغ من معرفة النفس ، فأنت غمد محلى بغير سيف . وجود الله غير ثابت فى نظرك ، ووجودك أنت غير ثابت فى نظرى » . (انظر أبا الحسن الندوى : روائع اقبال ، ص ٤٤) .

زمانهم أصبحت عقولهم باليـــة ، وفقدت كلّ نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد عصرهم(١) » .

وبعد أن انتقد اقبـــال النظام التعليمى الرآهن ، انتقل الى تحـــديد الشروط التى لابد من توافرها لاستفادة الانسان من العلم ، يقول :

« ان لم يأخذ العلم النـــار من الحياة ، فان القلب لا يشعر بلذة من الواردات » فان لم يرتبط العلم بنـــار الحياة وحرقتها (العشق الالهى) تدب الفوضى فى فكر الانســـان وعمله ولا ينطلق ساعيا — بدافع العـــلم والعشق — الى الرقى الروحى والى القرب من الله . قال الامام الغزالى : « طلبنا العلم لغير الله فأبى الا أن يكون لله » .

« ان العلم ليس سوى شرح مقاماتك ، العلم ليس ســـوى تفسير آياتك » فالعلم الحقيقى هو الذى يطلعك على امكاناتك الذاتية وقدراتك الكامنة فى اعماقك التى وهبها الله أياك .

« ينبغى الاحتراق فى نار الحس ، حتى تميز فضتك عن النحاس » فلابد للمرء أولا من اتباع طريق الحس وهو يخطو أولى خطواته على سبيل العلم » ، فيتفحص نفســه (الفضة) ويقارن بينها وبين المخلوقات الأخرى (النحاس) ويتساءل عن سبب تفضيل الله له(٢) .

« فعـــلم الحق أوله حواس وآخره حضور ، ونهايتـــه لا يحتويها الشعور » فالحواس الخمس هى أول منزل فى معرفـــة الله ، ثم يطوى الانسان بعد ذلك مراحل رقيه الروحى الى أن يصل الى الحضرة الالهية فيتمتع بالمثول فيها ، ويحظى أخيرا بالمشاهدة التى لا يمكن وصفها لأنها تسمو فوق الادراك العقلى بل وتسمو على الشعور والوجدان .

لقد شرح اقبـــال نفسه ما يعنيه بالعلم هنـــا ، فقال فى رســـالة له الى الأستاذ « سيدين » نشرها فى كتابه : فلسفة التربية عند اقبال : « لقد استعملت كلمة « علم » بصفة عامة بمعنى العلم القائم على الحواس، انه يمنح الانسان قوة يجب أن تكون خاضعة للدين ، فاذا لم يكن العلم خاضعا للدين فانه يعد بذلك قوة شيطانية . وهذه أول خطوة فى طريق « علم الحق » ، وقـــد أشرت الى ذلك فى « جـــاويد نامه » فقلت : علم الحق أوله حواس آخره حضور ، ونهايته لا يحتويها الشعور .

« على أن العلم الذى لا يمكن أن يحتويه الشعور والذى يعد المرحلة الأخيرة فى علم الحق يسمى أيضا بالعشق ، وقد قلت أيضا فى «جاويد نامه» فيما يتعلق بالعلم والعشق : « العلم بدون عشق شيء شيطانى ، العلم مع العشق شيء الهى » .

---

(١) أبو الحسن الندوى : روائع اقبال ص ٤٤ — ٤٥

(٢) انظر يوسف جشتى : شرح جاويد نامه ص ١١٨٤.

« وعلى المسلم أن يحاول تحصيل مثل هـذا العلم (المؤسس) على الحواس ، والذى تنبع منه قوة غير محدودة ، ايها المسلم : « اجعل من أبى لهب حيدر الكرار » .

« أى حول هذا المشرك (أبا لهب) الى مؤمن كامل مثل على . فـاذا استطعت أن تجعل من أبى لهب عليا ، أو بمعنى آخر اذا جعلت قوة العلم تابعة للدين ، فان هذه تكون نعمة كبرى للانسانية »(١) .

ولـما كان العلم الحقيقى — عند اقبال — هو المعرفة الالهية لذا فهو يدعو الشباب الى استخدام **النظر** فى تحصيله ، يقول :

٨ — درس النظر أفضل :

والنظر اصطلاح عند اقبـال معنـاه طريق المعرفة ، وهذا الطريق لا يقتصر على العقل وحده ، وانما على المعرفة الوجدانية الى جانب المعرفة العقلية ، ولكن هذا الجمع بين المعرفتين : العقلية والروحيـة لا يمكن تلقيه الا عن طريق قدوة صالحة تتمثل عند اقبال وعند الصوفية جميعا فى المرشد الكامل . وقد سبق لاقبال أن قال موجها حديثه لابنه جاويد أو للشباب المسلم : « خذ منى شوق النظر » ، وهو هنا يقول :

« ان الدرس الذى تتلقاه من النظر ، أفضل مما تستقيه من مـائة كتاب لأهل الفن » ، لابد لك يا بنى من اكتناه الأعماق والتبصر فيما يعرض لك مستعينا بمرشد ذى بصيرة حتى تستفيد الفـائدة الكاملة وتمضى فى طريقك دون تشتيت أو عدم تركيز .

« فكل امرىء يثمل بدرجة تختلف ، من الخمر التى تنصب من النظر . فالمصباح ينطفىء من هبوب ريح السحر ، بينما الشقائق كأنها الخمر فى كأس بفعل ريح السحر نفسها » ، والاستفادة من **المرشـد الكامل** على درجـات ، ولـكن لابـد أولا من أن يـكون لـدى المـرء الاستعداد التـام للسير الروحانى فى صحبة المرشد الذى تهب نسائمه على النفوس كما تهب ريح السحر فتتخلف النفوس التى لم تعقـد العزم ، أما النفوس المستعدة فتنشط وتزدهر كالشقائق عندما تتفتح سواء بسواء .

يا بنى « كن قليل الطعام ، قليل المنـام ، قليل الكلام ، ودر حول حول ذاتك مثل الفرجار » فأحكم ذاتك وادعمها دائما وانبذ كل ما من شأنه أن يضعفها .

« فمنكر الحق عند الملا كافر ، منكر ذاته عندى أشـد كفرا . لقـد أصبح ذلك بانكار الوجود (الله) عجولا ، أما هذا فعجول وظلوم وجهول » . فاذا أنكر الانسان الله من غير تفكر فى الأنفس والآفاق انطبق عليه وصف الآية الكريمة : « وكان الانسان عجولا »(٢) ، وقد قال تعالى « خلق الانسان

(1) K.G. Saydiain, Iqbal's Educational Philosophy, pp. 8 - 90.

(٢) سورة الاسراء : ١١

من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون »(١) ، أما الذى ينكر نفسه ويبقى غريبا عن امكاناته وقدراته الذاتية فهو ظلوم لأنه يظلم نفسه ، وجهول(٢) لعدم معرفته لطاقاته الكامنة فى ذاته فضلا عن كونه عجولا .

أيها الشاب المسلم : « أحكم أسلوب الاخلاص ، وتطهر من خوف السلطان والأمير » أبعد كل وارد عن قلبك غير الله تعالى ، وابتغ مرضاته وحده ولا تخش أحدا غيره .

« ولا تفقد العدل فى الغضب والرضا ، لا تفقد القصد (الاعتدال) فى الفقر والغنى » واجعل من الرسول (ص) أسوة حسنة لك ، فقد قال (ص) : « أمرنى ربى بثلاث : القصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الغضب والرضا » .

« هل الحكم صعب ؟ لا تبحث اذن عن تأويل ، لا تبحث عن قنديل الا فى قلبك » تجنب التأويلات الباطلة فى تنفيذ الأحكام الشرعية ولا تحكم الا بالقلب فيما يعرض لك من أمور الشرع ، واعمل بقول الرسول الكريم (ص) : « استفت نفسك وان افتاك الناس وافتوك (فان) البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

يقول اقبال « حفظ الأرواح يتأتى بالذكر والفكر دونما حد أو حساب ، حفظ الأبدان يتأتى بضبط النفس فى الشباب . والتحكم فى العالمين الأعلى والأدنى لا يتأتى الا بحفظ الروح والبدن » ، فلا تهدر طاقة أى منهما فيما لا يفيد ولا يغنى .

ولا حد — يا بنى — للرقى الروحى للانسان ، فهو يمضى من مرحلة الى مرحلة مدفوعا بدافع الرقى ، واذا ما وصل الى مرحلة من الرقى فانه لا يقنع بالبقاء فيها بل ينشد الرحيل عنها الى غيرها .

« فلذة السير (الرقى الروحى) هى هدف السفر ، فلا تطر ان كنت تنظر الى عش . القمر يدور كى يصبح صاحب مقام ، والمقام لسير الانسان حرام » .

« فالحياة ليست سوى لذة التحليق ، وفطرتها لا تتلاءم مع العش » ، فالحياة ان هى الا تحليق ورقى روحى متواصل وبعد عن الدنايا وعن جذب التراب ، ومثل طالب الدنيا كمثل الغراب والنسر يحصلون على رزقهم من الجيفة العفنة تحت التراب ، أما المؤمن فمثله كمثل الصقر يحصل على زاده من السماء « رزق الغراب والنسر فى تراب القبر ، رزق الصقور فى أرض القمر والشمس » .

---

(٢) سورة الأنبياء : ٣٧.

(٣) اشارة الى الآية الكريمة : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (الأحزاب : ٧٢) .

٩ ـ ما شرع التقوى :

أيها الشاب المسلم ان « سر الدين هو صدق المقال واكل الحلال ، الخلوة والجلوة كلاهما تفرج على الجمال » فحقيقة الاسلام تكمن فى طهارة الجسم والبدن ، وفى التوجه الى الله تعالى فى السر والعلن .

« عش قاطعا فى طريق الدين مثل الماس ، أوثق ربط القلب بالله وعش بلا وسواس » ، كن حاسما فى معاملاتك كالماس ولا تتوانى عن تركيز طاقاتك فى هذا السبيل واعمل من أجل الله وحده واطرح عن نفسك النفاق والمداهنة .

ينتقل اقبال بعد ذلك الى ذكر قصة بطلها السلطان مظفر بن السلطان « محمود بيكره » من ملوك الدولة الاسلامية فى كجرات بالهند . تولى المظفر الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٩١٧ هـ (١٥١١ م) فأحسن السيرة فى البلاد ، وكان نموذجا عاليا للملوك فى زهدهم وتعففهم وكرمهم وحرصهم على مصالح الرعية وجهادهم من أجل نصرة الدين ، وكان حافظا للقرآن ومن المحدثين والفقهاء ، جمع الفضل من أطرافه ، وبرع فى علوم عصره كلها(١) .

يوجه اقبال حديثا الى شباب الأمة الاسلامية ممثلا فى ابنه جاويد :

« سأفضى اليك بسر من أسرار الدين ، سأقص عليك قصة من قصص المظفر ، فهو فرد فريد فى الاخلاص فى العمل ، هو سلطان فى مقام أبى يزيد البسطامى (الصوفى الكبير) . عنده جواد مثل الأبناء الأعزاء ، شديد الاجتهاد فى الحرب كصاحبه . كميت(٢) من نجباء العرب ، وفى خال من العيوب طاهر النسب . فهل من عزيز على الرجل المؤمن أيها اللماح سوى القرآن والسيف والفرس ؟ !

« ماذا أقول فى وصف ذلك الجواد الأصيل النجيب ، هو جبل كان يمضى على الماء كأنه الريح . هو أكثر انطلاقا من لمح البصر يوم النزال ، كالاعصار يجول بالجبل والوادى . وفى صهيله فتن يوم الحشر ، الصخر شظايا من وقع حافره » .

« ويوما أصيب ذلك الحيوان ـ كانسان عزيز ـ بتعب فى البطن ، فعالجه البيطار بالنبيذ والخمر ، فخلص جواد الملك من التقلصات »

« فلم يطلب الملك العارف بالله ذلك الحصان النجيب مرة أخرى ... ان شرع التقوى شىء مختلف عن طريقنا وقواعدنا العادية »

---

(١) انظر طرفا لا بأس به من سيرته فى « تاريخ الاسلام فى الهند » للأستاذ عبد المنعم النمر ص ١٥٧ ـ ١٦٠ .

(٢) استعمل اقبال كلمة « أخضر اللون » (سبزه رنكى) وقد ترجمتها الكميت وهى الخضرة الداكنة القريبة من السواد التى تشتهر بها بعض سلالات الخيول العربية .

يا بنى « يا من منحك الله قلبـا وفؤاداً ... انظر طاعة ذلك الرجل المسلم » .

فلقد رأى الملك التقى أنه لم تعد به حاجة الى هذا الحصان العزيز لديه بعد أن شرب الخمر ، فتلك كبوة حرمته شرف الصولة والجولة فى ميادين الجهاد والنضال . وكذا المؤمن عليه أن يظل محلقا بالأعالى رافعا هامته عاقدا لهمته فلا يخلد الى الأرض ولا يشترى متعتها وراحتها على حساب مبادئه وشريعته ، ولا ينزع الى الترخص والتأويل ان كان من أهل التقوى بل عليه أن يتمسك بعزائم الشريعة ويتعلق بمعالى الأمور ويكره سفاسفها ، وهذا هو شرع التقوى الذى التزم به السلطان المظفر .

١٠ — الدين أدب ثم عشق :

يا بنى ، ان « الدين كله احتراق فى البحث والطلب ، نهايته عشق وبدايته أدب » فلابد من الطاعة الكاملة لأحكام الشرع والتأدب بآداب الدين أولا لكى يصل المسلم الى مرحلة العشق الالهى ، على أنه لابد للمسلم فى الأدب والعشـــق كليهما أن يحتفظ بالدافع نحو الرقى الدائم وأن يتجنب القنوع بالمرحلة التى وصل اليها فى رقيه .

« أن مكانة الورد من اللون والرائحة ، سوء الأدب هو الافتقار الى اللون والرائحة » ، فلا قيمة للمسلم اذا لم يتأدب بآداب دينه .

« اننى عندما أرى شـــابا سىء الأدب ، يتحـــول نهارى الى ظلام مثل الليل ، فيجعل الثورة والغضب يتزايدان فى صدرى ، ويذكرنى بعهد المصطفى (ص) ، فأخجل من عصرى وأختفى فى القرون الماضية » واقول فى نفسى ياليتنى كنت من جيل سابق مسلم حسن الاسلام .

« ان ستر المرأة اما زوج واما تراب القبر ، ستر الرجال حفظهم من رفيق الســـوء » .

« والتفوه بالكلمة السوء خطأ واثم ، الكافر والمؤمن كلهم خلق الله » ، فلابد للانسان من أن يحترم أخاه الانسان ، فالانسانية هى احترام الانسان، « كن عليما بمقام الانسان : فالانسان من ارتباط جسد بجسد،ألا فلتتقدم خطوة أخرى على طريق المحبـــة » . فللانسانية معنيـــان : الأول نسبتها الى آدم أبى البشر ، والثانى هو العمل الصالح الذى يليق بالانســـان . فلا تقف عند معناها الأول وانما انظر الى معناها الشامل .

« ان عبد العشق يأخذ الطريق من الله ، فيشفق على الكافر والمؤمن سواء بسواء » فالمؤمن العاشق يتصف بصفات الله ومنها الرحمـــة على الانسان كيفما واينما كان .

« فخذ الكفر والدين فى عرض القلب ، أما اذا هرب قلب من قلب ، فوا أسفاه على القلب » ، واجعل قلبك واسعا يستوعب محبـــة الكافر والمؤمن جميعا باعتبارهما من بنى الانسان ، وواحزنى على القلب اذا فر انسان من أخيه الانسان .

« فرغم أن القلب سجن للمـــاء والطين ، فكل مــا تراه من آفــاق (جانب من) آفاق القلب » ، فالقلب حبيس الجسم ولكن اتساعه لا تحده حــــدود .

١١ — لا تفرط فى « الفقر » :

« ان كنت من سادة القرية ، فلا تفرط فى الفقر لا تفرط فى الفقر . فنار الفقر كامنة فى روحك انه خمر عتيقة من عهد أجدادك »

« ولا تطلب من الدنيا متاعا سوى التعاطف مع بنى الانسان ، اطلب النعمة من الله ولا تطلبها من السلطان » لا لشيء الا لأن الله تعالى قــال « وما بكم من نعمة فمن الله »(١) .

وكثرة النعمة تضر بأغلب الناس « فكثير من العارفين بالله المتمتعين بالبصيرة يصابون بالعمى من كثرة النعمة . فكثرة النعمة تذهب بحرقة القلب ، والتباهى من شأنه أن يذهب بالدعاء والتضرع الحقيقى من القلب » وخذ منى يا بنى نتيجة تجاربى « فقد عشت فى الدنيا طويلا ، ونادرا ما رأيت الندى فى عينى المتنعمين » فأغلبهم لا يشعر بالتعاطف مع بنى الانسان .

« أنا فداء من عاش فى فقر ، ووا أسفى وحزنى على من عاش غريبا عن الله » فطوبى للغنى الذى لم يعلق قلبه بالدنيا وسلك سبيل الاستغناء وعاش عيشة الفقير ، فربط قلبه بالله ، وتأسى بالنبى الكريم (ص) حين عرض عليه أن يكون له مثل جبل أحد ذهبا ، فرفض .

١٢ — المسلمون بين الفقد والدين :

ولكن لا تنشد فى المسلمين (المعاصرين) ذلك الذوق والشوق ، ذلك اللون وتلك الرائحة ، ذلك الذوق والشوق » ، فأياك أن يتسرب الى نفسك القنوط عندما ترى نفسك وحدها هى التى تعمل بمقتضى الدين والتى تتخذ وحدها من رسول الله أسوة حسنة ، فانك لن تجد — على الفور — مسلما معاصرا يقتدى بالرسول الكريم ، لقد فقد السواد الأعظم منهم ما تميز به السلف الصالح من ايمان وعمل .

« فعلماؤهم فى شغل عن القرآن ، وصوفيتهم ذئاب كاسرة مرسلة الشعر » فالعلماء منهم مهتمون بجميع العلوم الا بعلم القرآن ، والصوفية منهم انشغلوا عن الدنيا فذهب التعاطف مع بنى الانسان من قلوبهم .

« وبرغم ان فى الخانقاهات آهات ، فأين صاحب الهمة الذى فى كأسه صبها » انك تستمع فى المحافل الصوفية الى الآهــات والمواجيد ، ولكن هذه المحافل تفتقر الى المجاهد الحق الذى ينطلق الى اعلاء كلمة الله .

---

(١) سورة النمل : ٥٣ .

« أما المسلمون ذوو الطبع الأوربى فيبحثون عن عين الكوثر فى السراب » لقد افتتنوا بتقليد الغرب وتطلعوا بذلك الى الحصول على العزة والكرامة . . . ولكن هيهات .

فالواقع أن المسلمين « جميعا غافلون عن سر الدين ، هم جميعا أهل حقد ، أهل حقد ، أهل حقد » لقد غفل المسلمون عن حقيقة الدين ، وامتلأت قلوبهم بالحقد والكراهية لبعضهم البعض . ألا يعرفون أن الحقد يقف على النقيض من الدين ، وأن الحقد يميت القلب : « القلب ميت بالحقد حى بالدين »(١) .

ولكن الأمل باق رغم هذا كله اذ أن « الخير والاحسان أصبح حراما على الخواص ، لقد رأيت الصدق والصفاء فى العوام » فالطوائف التى ذكرتها لك وهى العلماء والصوفية ومقلدو الغرب لم يعد فى أغلبهم خير لأمتهم ولا خشية لربهم (احسان) (٢) بينما تجد التدين والاخلاص فى عامة الأمـــة .

فعليك يا بنى « أن تفرز أهـــل الدين من أهل الحقد ، وأن تبحث عن جليس الله وتجلس معه » ، لا تقنط من البحث عن من يذكر الله فى كل حال ، فقد قال تعالى فى حديث قدسى : « أنا جليس من ذكرنى » لا تتوان فى البحث عن هذا الرجل واجعله رفيقا لك .

وابتعد — يا ابنى — عن المفتونين بالدنيا وزخارفهـــا ، تجنب عبدة السادة فهم كالنسور ، وأنت صقر : « وان للنسور رسما وشرعة أخرى ، أما سطوة تحليق الصقر فشىء آخر » .

١٣ — ما سر دين المصطفى :

جعل اقبال هذه النقطة ختاما لحديثه الى شباب الأمة الاسلامية ، وتحدث فيها عن أربعـــة أغراض : فتناول أولا **رجل الحق** وتحدث عن صفاته ، وانتقل بعد ذلك الى دعوة « رجل الحق » الى العمل والجهاد ، ثم طلب من الشباب أن يجعل من « جلال الدين الرومى » رفيق طريقه ، وتكلم فى الغرض الأخير عن « رقص الروح » أو العشق الالهى باعتباره هدف الشريعة الاسلامية .

---

(١) جاويد نامه ص ٢٠٨ ، وانظر فيما سبق ص ٢٩٣ .

(٢) جاء فى الحديث النبوى الشريف « ... الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » رواه مسلم .

أ — صفة رجل الحق :

دعا اقبال الشباب — فيما مر — الى التمسك بأهداب الدين وسلوك سبيل العشق والسيطرة على الكون دون تعلق القلب به . ولكن هذا كله لا يتيسر للسالك دون السير فى صحبة مرشد ، وهو هنا يبين صفة رجل الحق أو المرشد الكامل (١) .

« رجل الحق يهبط من السماء كأنه البرق ، هشيمه المدن والسهول فى الغرب والشرق » ، فهو يطابق مشيئة الله ، فاذا أراد الله تعالى اصلاح شأن عباده أمر أحد الصالحين الاتقياء بالانطلاق هنا وهناك لافناء الباطل والقضاء عليه . وهذا الرجل — كما يقول اقبال — يتصف بالصفات التالية:

— « اننا ما زلنا فى ظلام الكون ، وهو شريك اهتمام الكون » فنحن فى قيد الزمان والمكان ، أما هو فيتحكم فى الكون . انه يشبه ذلك الذى وصفه الله تعالى بقوله : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » (٢) .

— « هو كليم وهو مسيح وهو خليل ، هو محمد ، هو الكتاب ، هو جبريل » نفيه تنعكس صفات الأنبياء جميعا ، ولكنه ليس بنى — فقد ختمت النبوة بمحمد (ص) — وفيه تمثلت صفاتهم جميعا ، وهو الأسوة الكاملة لرجال الحق فى كل جيل .

— « هو شمس كائنات أهل القلوب ، من شعاعه حياة أهل القلوب » فأولياء الله يتلقون منه الفيوضات الروحانية .

— « انه يحرقك أولا فى ناره ، ثم لا يلبث أن يعلمك السلطان » . فهو يعمل على تزكية النفس ثم يدفع بها فى طريق العشق الالهى ويعلمها كيفية التغلب على الزمان والمكان .

« مجمل القول أننا جميعا أصحاب قلب بفضل ناره ، والا فنحن صورة زائفة من المــاء والطين » ، فنحن بدون اتباعه لا نكاد نساوى شيئا ، ونظل تخلد الى الأرض فلا تقوم لنا قائمـــة ولا نملك العزة الحقيقيـــة ، أو الطموح الجدير بالانسان .

ب — ابحث عن رجل الحق :

يا بنى « انني أخشى هذا العصر الذى ولدت فيه ، هو مستغرق فى البدن قليل المعرفة بالروح » ، فالمــادية تسيطر على كل شىء ، وقد تنكر الجميع للروح ، ولم يسع منهم أحد للبحث عن رجل الحق أو المرشد الكامل.

« فعندما يرخص البدن من قحط الروح (لعدم المبالاة بها) ، يختفى رجل الحق فى ذاته فلا يعثر الباحث على ذلك الرجل ، وان كان يراه وجها لوجه » . فالمــادية عندما تسيطر يكون من الصعب العثور على رجل

---

(١) سبق لاقبال أن وصف رجل الحق فى مختلف دواوينه ، أنظر مثلا أسرار خودى ص ٥١ والترجمة العربية للمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٤٣ .

(٢) سورة الكهف : ٦٥ .

الحق الذى يتوقع فى ذاته فتراه عيون الناس ولا تعرفه .

« فلعلك — يا بنى — لا تفقد الشوق الى البحث (عنه) رغم مئات المشـكلات التى تقـع فى طريقك » لا تيأس من البحث عنه فربما كان التوفيق حليفك فى النهاية .

ج — والا فعليك بالرومى :

« فان لم تعثر على صحبة رجل خبير ، فخذ مالى عن أب وجد » ان لم تجد قدوة حية من رجال الحق فهاهى ذى تجربتى أنا فى هذا السبيل :
« اجعل الشيخ الرومى رفيق الطريق،كى يهبك الله النار والانصهار ،

« لأن الرومى يعرف اللباب من القشـور ، وقدمه محكمـة فى درب الحبيب » فهو عليم بالتعاليم الأساسية للدين ، ويستطيع التمييز بين الأمور الأساسية والأمور الفرعية ، وهو خبير بمسالك الطريق الى الله ، فقد قطع تلك الطريق من قبل .

« شرحوه ولم يره أحد ، ان معناه يجمح منا كالغزال » ، فمن أسف أن الكثيرين من الناس شرحوا أشعار الرومى وأقواله ، ولكن أحد لم يتعرف على حقيقته ولا على حقيقـة أهدافه ، فهناك كثير من الشروح لديوانه المثنوى ولكن أحد لم يفهمه حق الفهم .

« تعلموا رقص الجسد على (وقع) كلماته ، واغمضوا العيون عن رقص الروح » ، فهاهم أولاء « المولوية » الذين يطلقون على أنفسهم أتباع جلال الدين يلتفون فى دائرة ويرقصون على وقع أشعاره ينشدها أحد المنشدين ، ولم يكن هذا هو هدف الرومى . فما كان الرومى ليهدف الى رقص الجسد ، وانمـا الى رقص الروح ، بدفعهـا فى طريق الرقى والعشق الالهى .

د — تجنب اللوم والطمع :

يبدأ اقبال هنا بالمقارنة بين رقص الجسد ورقص الروح ، فيقول :

« رقص البدن يجعل التراب (الجسد) يدور ، رقص الروح (العشق) يجعل الأفلاك تضطرب » ، فمن شأن العاشق الصادق الذى ينصهر فى نار العشق أن ينعكس فيه قبس من الصفات الالهية فيحدث انقلابا فى الكون .

« العلم والحكم يتأتيان من رقص الروح ، الأرض والسماء تتأتيان أيضا (منه) » فالانسـان فى مقدوره — بواسطة العشق — أن يحصل على المعرفـة الالهية (العلم) وعلى السيطرة على الكون بما فى ذلك الأرض والسماء (الحكم) .

« به يكون الفرد صاحب جذب الكليم وبه تكون الأمة وارثـة ملك عظيم » فاذا تمكن رقص الروح أو العشق الالهى من نفس انسان ظهرت

فيه صفات النبوة ، واذا تمكن من نفس أمة اندفعت هنا وهناك فى ارجاء الأرض لتحطيم الباطل واعلاء كلمة الله .

« ان تعلم رقص الروح عبء ثقيل ، احراق غير الحق عبء ثقيل » ، فاختيار السير فى طريق العشق الالهى ليس أمرا سهلا لكنه ضرورى ، واسقاط الأغيار وقطع التعلق بمتاع الحياة الدنيا ، ووقف القلب على الله وحده ليس أمرا سهلا وان كان ضروريا .

« فطالما يحترق القلب بنار الطمع والهم ، فان الروح لا تندمج فى الرقص يا بنى (١) » فسيطرة الطمع بمعنى التشتت جريا وراء الشهوات، والهم بمعنى الحزن على عدم الحصول على المطامع التى تتوق النفس الأمارة اليها — سيطرة الطمع ، والهم على قلب الانسان من شأنه أن يفقد الروح حماسها للسير فى طريق العشق .

« فالهم ضعف ايمان وملل ، أيها الشاب : الهم نصف الهرم » هذا حديث نبوى مشهور عليك أن تعمل بمقتضاه حتى تنال السعادة والخلود .

« هل تعلم ؟ ان الطمع فقر حاضر ، ... أنا غلام ، لقاهر نفسه » لقد وصف الرسول (ص) الطمع فى حديث آخر فقال : « اياكم والطمع فانه الفقر الحاضر » فالطامع لا يشعر فى حياته بلذة الاطمئنان ويشعر دائما بالحاجة ، وربما بالغيظ ، ويقضى حياته فى عذاب دائم ... الا ما أشد اكبارى لمن يملك نفسه ويتحكم فى رغباتها .

أيها الشاب « يا من تكون سكنا لروحى غير الصابرة ، لو أنك نلت نصيبا من رقص الروح فاننى أقول لك سر دين المصطفى ، وأدعو لك وأنا فى القبر أيضا » ، فلو أنك سلكت أيها الشاب المسلم ، سبيل العشق الالهى فاننى أعتبر نفسى قد وفقت فى أداء رسالتى واعتبرك قد وقفت بالفعل على حقيقة دين المصطفى الا وهو المحبة والرحمة الكونية الشاملة ، وعندئذ سأدعو لك وانا فى قبرى » ، وسأستبشر بك عملا بقوله تعالى : ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) .

تم بحمد الله

---

(١) لعل فى البيت تضمينا من الحديث النبوى الشريف : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن واعوذ بك من العجز والكسل واعوذ بك من الجبن والبخل واعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .. » .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٠ .

ثبت باسماء المراجع

أولا ـ المراجع الفارسية

١ ـ اقبال يغمائي : بسطام وبايزيد بسطامي ، طهران ١٣١٧ هـ . ش
٢ ـ حافظ شيرازي : ديوان حافظ ، استانبول ١٢٩٠ هـ . ش
٣ ـ حسنين كاظمي : آشنا داند صداى آشنا ، مجلة هلال ، ص ١٠ ـ ٢٤ زوئن ١٩٦٣ م .
٤ ـ حسين بزمان : بهترين اشعار طهران ١٣١٣ هـ . ش .
٥ ـ حمد الله المستوفى : نزهة القلوب ، بسعى واهتمام ليسترنج ، ليدن ١٩١٣ .
٦ ـ رومى ، (مولانا جلال الدين) مثنوى ٦ جلد ، تهران .
٧ ـ سعدى شيرازى : كتاب كليات سعدى ، بمباى ١٣٠٩ هـ .
٨ ـ سعيد نفسى :تصوف در كلام اقبال، اقبال ايرانيون كى نظر مين ، ص ١٢٠ ـ ١٢٥ ، كراتشى ١٩٥٧ .
٩ ـ سنائى الغزنوى : ديوان سنائى ، طهران ١٣٢٠ هـ . ش .
١٠ ـ ضيا بك : خرابات ، استانبول ١٢٩١ هـ .
١١ ـ عبد الحسين نوائى : فلك عطارد ، وزحل ، اقبال نامه ، طهران ١٣٣٠ هـ . ش .
١٢ ـ عطار (فريد الدين) بند نامه عطار ، ترجمه الى العربية احمد راشد المصرى ، مصر ١٢٧٩ هـ .
١٣ ـ تذكرة الأولياء ، دوجلد ، طهران ١٣٣١ هـ . ش .
١٤ ـ غزالى (أبو حامد محمد) : كيمياى سعادت ، لكنهو ١٣٣٣ هـ .
١٥ ـ فروزانفر (بديع الزمان): خلاصة مثنوى ، طهران ١٣٢١ هـ . ش.
١٦ ـ قاسم غنى (دكتر) : تاريخ تصوف در اسلام ، طهران ١٣٨٢ هـ .
١٧ ـ مجتبى مينوى : اقبال لاهورى ، طهران ١٣٢٧ هـ . ش .
١٨ ـ محمد اقبال : احياى فكر دينى در اسلام ، ترجمة احمد آرام ، طهران ١٣٤٦ هـ . ش .
١٩ ـ ارمغان حجاز لاهور ١٩٣٨ .
٢٠ ـ اسرار ورموز لاهور ١٩٤٨ .
٢١ ـ بس جه بايد كرد اى أقوام شرق لاهور ١٩٣٦ .
٢٢ ـ بيام مشرق لاهور ١٩٤٨ .
٢٣ ـ جاويد نامه لاهور ١٩٤٧ .
٢٤ ـ زبور عجم لاهور ١٩٢٩ .
٢٥ ـ سير فلسفة در ايران ، ترجمة ا.ح . آريان بور ، طهران ١٣٤٩ هـ . ش .
٢٦ ـ مسافر لاهور ١٩٣٤ .
٢٧ ـ محمد تقى بهار : سبك شناسى ٣، جلد، جاب دوم ١٣٣٧ هـ . ش .

٢٨ — محمد ظفر خان (دكتر) : غنى كشميرى ، مجلة هلال ، يونية ١٩٦٣ .

٢٩ — محمد على مدرس : ريحانة الأدب ، ٨ جلد ، جاب دوم تبريز ١٣٤٩ هـ . ش .

٣٠ — محمد معين (دكتر) : اقبـــال وايران باستان ، اقبال نامـــه ، طهران ١٣٣٠ هـ . ش .

٣١ — مزد يسنا وآثار آن در ادبيات بارس ، طهران .

٣٢ — معراج اقبال ، اقبال نامه طهران ١٣٣٠ هـ . ش .

٣٣ — محمد بن منور بن أبى سعيد،اسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، طهران ١٣١٧ هـ . ش .

٣٤ محمود شبستري : كلشن راز مصر ١٢٧٩ . هـ .

٣٥ — مؤلف مجهول : تذكرة الخواتين بومباى ١٨٨٨ م .

٣٦ — نـــاصر خســـرو : ديوان ، باهتمـــام مجتبى مينوى ، طهران .

ثانيا — المراجع الأرديـــة

٣٧ — اليسندرو باوسانى : دانتى اور اقبال ، ماه نو ، اكتوبر ١٩٥٢ م.

٣٨ — بشير أحمد درا : اقبال أور مسئلة زمان ومكان ، ماه نو ، ابريل ١٩٧٠ م .

٣٩ — حسين بن منصور حلاج أور اقبال ، ماه نو ، ابريل ١٩٧٠ م .

٤٠ — جود هرى محمد حسين : جاويد نامه كا تعارف ، شرح جاويد نامه، ص ٢٣ — ٧٩ لاهور ١٩٦٥ .

٤١ — حافظ عباد الله فاروقى:جاويد نامه،اقبال ريفيو ، جولائى ١٩٦٣ .

٤٢ — رفيق خاور ، جاويد نامه ، اردو ترجمة ، ماه نو ، اقبال نمبر ١٩٧٠

٤٣ — رئيس أحمد جعفرى : اقبال اور سياست ملى،كراتشى ١٩٥٧ م .

٤٤ — سحر انصارى : رزميه كى روايت اور جاويد نامه ، ماه نو ، اقبـــال نمبر ، أبريل ١٩٧٠ م .

٤٥ — سيد يونس شاه : اقبال أور رومى ، خيابان اقبال ، فبرورى ١٩٦٦ م .

٤٦ — شبلى نعمـــانى : سوانح مولانا روم ، أعظم كره ١٩٣٨ م .

٤٧ — شعر العجم ، ٥ جلد ، اعظم كره .

٤٨ — عبد الحميد عرفانى (دكتر) ، اقبال ايرانيون كى نظر مين ، كراچى ١٩٥٧ م .

٤٩ — عبد الرحمن طارق : جهان اقبال ، نقش جهارم،لاهور ١٩٦٥ م .

٥٠ — عبد الستار جوهر براجة : اقبال أور نظرية سياست ، خيابان اقبال ، فبرورى ١٩٦٦ .

٥١ — عبد السلام ندوى (مولانا) : اشتراكيت ، اسلام ، أور اقبال . اردو دايجيست ، أبريل ١٩٦٩ .

٥٢ — اقبا كامل ، طبع دوم ، أعظم كره ١٩٦٤ م .

٥٣ — عترت حسين زبيرى : اقبال أور مغربى مفكرين ، ماه نو ، أبريل ١٩٧٠ .

٥٤ — غالب (ميرزا أسد الله) : ديوان أردو ، برلين ١٩٢٥ م .
٥٥ — مرقع جغتائى ، ديوان غالب منصور ، تقديم محمد اقبال، لاهور ١٩٢٨ .
٥٦ — قاضى احمد ميان اختر،اقباليات كا تنقيدى جائزه،كراتشى ١٩٦٥ م.
٥٧ — مارى اين شيميل : منصور حلاج اقبال كى نظر مين ، ماه نو ، ابريل ١٩٧٠ .
٥٨ — محمد اقبال : بال جيريل لاهور ١٩٣٥ م .
٥٩ — بانك درا لاهور ١٩٢٤ م .
٦٠ — ضرب كليم لاهور ١٩٢٧ م .
٦١ — محمد شمس الدين صديقى : اقبال أور نيطشه ، خيابان اقبال فبرورى ١٩٦٦ .
٦٢ — محمد طاهر فاروقى ، اقبال كا تصور وطنيت ، خيابان اقبال، فبرورى ١٩٦٦ .
٦٣ — مولوى غلام محمد (دكتر) : قلندر به أصطلاح اقبال ، اقبال ريفيو جولائى ١٩٦٣ .
٦٤ — يوسف حسين (دكتر) : روح اقبال ، طبع ثالث ، دهلى ١٩٥٢ م.
٦٥ — يوسف سليم جشتى (بروفسير):شرح جاويد نامه لاهور ١٩٥٦ م.

ثالثا — المراجع العربية

٦٦ — الآمدى (سيف الدين) : غاية المرام فى علم الكلام ، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف ، مصر ١٩٧١ م .
٦٧ — ابراهيم أمين الشواربى ، (دكتور) : أغانى شيراز ، الجزء الأول مصر ١٩٤٣ م .
٦٨ — ابراهيم مدكور (دكتور) فى الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيقه، مصر ١٩٤٧ م .
٦٩ — ابراهيم بن مصطفى الحلبى : اللمعة ، مصر ١٩٣٩ م .
٧٠ — أحمد أمين : حى بن يقظان ، لابن سينا وابن طفيل والسهروردى، مصر ١٩٥٩ م .
٧١ — أحمد زكى (دكتور) : وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه ، مجلة العربى عدد مارس ١٩٧٠ .
٧٢ — أحمد محمود الساداتى (دكتور) : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م .
٧٣ — أحمد ناجى (دكتور) : عطار نامه ، بغداد ١٩٧٠ م .
٧٤ — الألوسى (محمود البغدادى) : روح المعانى — تفسير ، مصر ١٣٠١ — ١٣١٠ هـ .
٧٥ — آنا مارى شيميل : هرمان هسه ، مجلة فكر وفن ، العدد التاسع سنة ١٩٦٧ ص ٧ — ١٠ .
٧٦ — براون (ادوارد جرانفيل) : تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ، ١٩٥٤ م ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى .
٧٧ — البيضاوى (ابو سعيد عبد الله بن عمر) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل مصر ١٣٤٤ هـ .

٧٨ — توماس آرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، مصر ١٩٤٧ م .
٧٩ — ابن تيمية (تقى الدين ابو العباس احمد) : الفرقان بين الحق والباطل ، مطبعة الامام بمصر .
٨٠ — جامع الرسائل،تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم مصر ١٩٧٠ م.
٨١ — الجرجانى (على بن محمد بن على) : التعريفات ، مصر ١٩٣٨ م.
٨٢ — جلال الدين الرومى : المثنوى ، الكتاب الاول ، ترجمة الدكتور محمد عبد السلام كفافى ، بيروت ١٩٦٦ م .
٨٣ — جمال الدين الافغانى (السيد) : الرد على الدهريين ، ترجمة عن الفارسية الشيخ محمد عبده ، مصر .
٨٤ — جوته (الشاعر الألمانى) : فاوست ، ترجمة عن الالمانية محمد عوض محمد ، مصر ١٩٢٩ م .
٨٥ — أبو الحسن الندوى : روائع اقبال ، دمشق ١٩٦٠ م .
٨٦ — الحلاج (ابو المغيث حسين بن منصور) : كتاب اخبار الحلاج ، نشره لويس ماسينيون وبول كراوس ، باريس ١٩٣٦ م .
٨٧ — كتاب الطواسين ، نشره لويس ماسينيون ، باريس ١٩١٣ م .
٨٨ — دانتى اليجييرى : الكوميديا الالهية ، (الجحيم) ، (المطهر) ترجمة الدكتور حسن عثمان ، مصر ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ م .
٨٩ — أبو داود : (سليمان بن الأشعث) : السنن ١١ مجلدا ، مصر ١٣٥١ — ١٣٥٣ هـ .
٩٠ — دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة الدكتور عبد النعيم حسنين ، مصر ١٩٥٨ م .
٩١ — راشد الحيدرى : محمد اقبال والثقافة الألمانية ، مجلة فكر وفن ، العدد الثانى ، العام الأول سنة ١٩٦٣ م .
٩٢ — زكريا ابراهيم (دكتور) : برجسون ، مصر ١٩٥٦ م .
٩٣ — زكى نجيب محمود (دكتور) : يوتوبيا ، لتوماس مور ، مجلة تراث الانسانية ، المجلد الأول ، العدد الخامس .
٩٤ — سجاد حيدر : محمد اقبال ، شاعر باكستان وفيلسوفها ، مصر ١٩٦٧ م .
٩٥ — سمير عبد الحميد ابراهيم : ارمغان حجاز ، للشاعر محمد اقبال، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٧١ م .
٩٦ — ابن سينا ، (ابو على الحسين) : النجاة ، مصر ١٩٣٨ م .
٩٧ — سيد سعيد أحسن العابدى (دكتور) : حميد الدين الفراهى حياته ومنهجه فى التفسير ، رسالة دكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سنة ١٩٧١ م .
٩٨ — شكيب ارسلان (الأمير) : حواش وتعليقات على كتاب حاضر العالم الاسلامى ، تأليف لوثروب ستودارد الامريكى فى أربعة مجلدات ، مصر ١٣٥٢ هـ .

٩٩ — الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) : نهاية الاقدام فى علم الكلام، تحقيق الفريد جيوم ، مطبعة المثنى بغداد .
١٠٠ — الصاوى شعلان : فلسفة اقبال ، (اشترك فى تأليفه محمد حسن الأعظمى) مصر ١٩٥٠ م .
١٠١ — صدر الدين الشيرازى : المبدأ والمعاد ، طهران ١٣١٤ هـ .
١٠٢ — صلاح عبد الصبور : أحلام الفارس القديم (ديوان) بيروت ١٩٦٤ .
١٠٣ — الطبرى (محمد بن جرير) : تفسير الطبرى ، ثلاثون جزءا ، مصر ١٣٢١ هـ .
١٠٤ — طه حسين (دكتور) : اقبال شاعر ، فرض نفسه على الدنيا وعلى الزمان . كتاب محمد اقبال طبع السفار الباكستانية بالقاهرة ، مصر ١٩٥٦ م .
١٠٥ — طه ندا (دكتور): دراسات فى الشاهنامه — الاسكندرية ١٩٥٤ م .
١٠٦ — عائشة عبد الرحمن (دكتورة) : الغفران لابى العلاء المعرى ، مصر ١٩٦٢ م .
١٠٧ — عبد الحليم محمود (دكتور) : الاسلام والعقل طبع مصر .
١٠٨ — فلسفة ابن طفيل ورسالة حى بن يقظان ، مصر .
١٠٩ — الفيلسوف المسلم رينيه جينو ، أو عبد الواحد يحيى ، مصر .
١١٠ — عبد الرحمن بدوى (دكتور) : الزمان الوجودى ، مصر ١٩٥٥ .
١١١ — دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى ، بيروت ١٩٦٤ .
١١٢ — عبد القادر المغربى : جمال الدين الأفغانى — ذكريات وأحاديث مصر ١٩٤٨ .
١١٣ — عبد الكريم الجيلى (الجيلانى) : الانسان الكامل ، جزءان مصر ١٣٠٤ هـ .
١١٤ — عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ، مصر ١٩٥٩ م .
١١٥ — عبد النعيم محمد حسنين (دكتور) : بحث فى قصة الاسكندر ذى القرنين كما صورها الأدب الفارسى الاسلامى ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ١٩٦٩ م .
١١٦ — نظامى الكنجوى ، شاعر الفضيلة مصر ١٩٥٤ م .
١١٧ — عبد الوهاب عزام (دكتور) : محمد اقبال ، سيرته وفلسفته وشعره ، مصر ١٩٥٤ م .
١١٨ — ابن عربى (محيى الدين) : تحفة السفرة الى حضرة البررة طبع استانبول .
١١٩ — ترجمان الأشواق ، بيروت ١٩٦١ .
١٢٠ — الفتوحات المكية ، مصر ١٣٢٩ هـ .
١٢١ — عز الدين اسماعيل (دكتور) : الشعر العربى المعاصر مصر ١٩٦٧ م .
١٢٢ — عطيات عبد القادر حمدى (دكتورة) : النظرة الجغرافية فى مسألة كشمير ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، العدد التاسع عشر ١٩٦٥ .

١٢٣ — العقاد (عباس محمود) : الله ، مصر ١٩٦٤ م .
١٢٤ — أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح الدكتورة بنت الشاطىء ، مصر ١٩٥٠ م .
١٢٥ — على الطنطاوى . أخبار عمر وأخبار عبد الله ، مصر ١٩٥٩ م .
١٢٦ — الغزالى (أبو حامد محمد) : أيها الولد ، مع ترجمة فرنسية بقلم توفيق الصباغ ، بيروت ١٩٥٩ م .
١٢٧ — فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة مصر ١٩٠١ م .
١٢٨ — مقاصد الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا — مصر ١٩٦١ م .
١٢٩ — المقصد الأسنى فى معرفة أسماء الله الحسنى ، المكتبة العلمانية بمصر .
١٣٠ — الفارابى (أبو نصر) : عيون المسائل ، مصر ١٩١٠ م .
١٣١ — فتحى رضوان : اقبال الفيلسوف ، من كتاب محمد اقبال ، مصر ١٩٥٦ م .
١٣٢ — فخر الدين العراقى : اللمعات ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٤ م أدب فارس .
١٣٣ — القرشى (أبو زيد محمد) : جمهرة أشعار العرب بيروت ١٩٦٣ م .
١٣٤ — القشيرى (أبو القاسم عبد الكريم) : كتاب المعراج ، تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر ، مصر ١٩٦٤ م .
١٣٥ — ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل) : تفسير القرآن العظيم ، مطبعة الحلبى بمصر .
١٣٦ — كريستنسن (آرثر) : ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، مصر ١٩٥٧ .
١٣٧ — الكلبى (أبو المنذر هشام) : الأصنام ، تحقيق احمد زكى مصر ١٩٦٥ م .
١٣٨ — محمد اسماعيل الندوى (دكتور) : نظرات جديدة فى شعر اقبال ، مصر ١٩٦٩ م .
١٣٩ — محمد اقبال : الأسرار والرموز ، ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام مصر ١٩٥٦ .
١٤٠ — بيام مشرق ، ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام ، كراتشى ١٩٥٠ م .
١٤١ — تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، مصر ١٩٥٥ م .
١٤٢ — ضرب الكليم ، ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام ، مصر ١٩٥٢ م .
١٤٣ — محمد البهى (دكتور) : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى مصر ١٩٥٧ .
١٤٤ — محمد حسين هيكل : حياة محمد ، الطبعة التاسعة ، مصر ١٩٦٥ م .
١٤٥ — محمد ضياء الدين الريس (دكتور) : النظريات السياسية الاسلامية ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٦٧ .
١٤٦ — محمد غلاب (دكتور) : الفلسفة الشرقية . الطبعة الثانية مصر ١٩٥٠ م .
١٤٧ — محمد غنيمى هلال (دكتور) : الأدب المقارن ، مصر ١٩٦٢ م .

١٤٨ — محمد فاضل : الحراب فى صدر البهاء والباب ، مصر ١٩١١ م .
١٤٩ — محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مصر ١٣٧٨ هـ .
١٥٠ — محمود الخنيف : ليو تولستوى مصر ١٩٤٨ م .
١٥١ — محمود شكرى الألوسى : مختصر التحفة الأثنى عشرية ، تحقيق محب الدين الخطيب ، مصر ١٣٨٧ هـ .
١٥٢ — محمود قاسم (دكتور) : فى النفس والعقل عند فلاسفة الأغريق والاسلام ، الطبعة الثالثة ١٩٦٢ م .
١٥٣ — مسلم (بن الحجاج القشيرى النيسابورى) : الجامع الصحيح ٤ مجلدات مصر ١٣٤٨ هـ .
١٥٤ — مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية — الطبعة الثانية مصر ١٩٥٩ م .
١٥٥ — نجيب العقيقى : المستشرقون (٣ أجزاء) مصر ١٩٦٥ .
١٥٦ — نعوم بك شقير : تاريخ السودان (٣ أجزاء) مصر ١٩٠٣ م .
١٥٧ — نيكلسون (ر . أ) : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى . مصر ١٩٥٦ .
١٥٨ — دراسات فى الشعر الاسلامى ، ترجم بعضــه الأستاذ حامد عبد القادر فى كتابه القطوف واللباب ، مصر ١٩٥١ .
١٥٩ — ول ديورانت : مباهج الفلسفة (الكتاب الثانى) ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى مصر ١٩٥٦ .
١٦٠ — قصة الحضارة (المجلد الأول) ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود مصر ١٩٥٨ .
١٦١ — هرمان هسه : مقدمة لشعر محمد اقبال (جاويد نامه) مجلة فكر وفن ، العدد الرابع سنة ١٩٦٥ ، ترجمة مجدى يوسف .
١٦٢ — هنرى توماس : اعلام الفلاسفة — ترجمة مترى أمين . مصر ١٩٦٤ م .
١٦٣ — يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصر ١٩٥٧ م .

رابعــا — المراجع البشتونية

١٦٤ — أمير حمزة شنوارى : جاويد نامه ، بشتو ترجمه ، مع مقدمة لمولانا عبد القادر ، رئيس المجمع اللغوى البشتونى ، كراتشى ١٩٦٧ م .

خامســا — المراجع التركية

١٦٥ — سعيد حليم باشا : اسلاملا شمق ، استانبول ١٣٣٧ هـ .
١٦٦ — بحرانلرمز ، استانبول ١٣٣٥ — ١٣٣٨ هـ .

سادسا ــ المراجع الانجليزية

١٦٧ — ABDULLAH FAROQUI : Zoroastrianiam and Iqbal, Iqbal Review, October 1964.pp. 1 — 20.

١٦٨ — ARBERRY, A.J., : Javid Nama. London 1966.

١٦٩ — BAUSANI, A. : Danti and Iqbal, Orienta Moderno. II 1951, pp. 77 — 81.

١٧٠ — The concept of time in the Religions philosophy of M. Iqbal, Die Welt des Islam, Vol. III, 1952.

١٧١ — BROWN, E.G. : Materials for the Study of Babi Cambridge 1918.

١٧٢ — A Literary History of Persia, Vol. 4 Cambridge 1930.

١٧٣ — DAR B.A. : Ghalib and Iqbal, Iqbal Review, October 1969, pp. 25 — 44.

١٧٤ — GRUNEBAUM C.E. Von.: Islam, Essays in the Nature of Growth of Cultural Tradition. London 1964.

١٧٥ — GIBB, H.A. : Modern Trends in Islam Chicago 1945.

١٧٦ — IQBAL, M. : The Development of Metaphysics in Persia, Lahore.

١٧٧ — Letters and writings of Iqbal Karachi, 1967.

١٧٨ — KHALIFA A.H. : The Genius of Ghalid, Iqbal Review, October, 1969 pp. 17 — 23.

١٧٩ — Rumi, Nietzsche and Iqbal, Iqbal as a thinker, pp. 130 — 206. Lahore 1966.

١٨٠ — LEWIS, B : The Emergence of Modern Turkey, Oxford 1968.

١٨١ — MAHMUD AHMED : The Pilgrimage of Eternity Lahore 1961.

١٨٢ — NICHOLSON R. A. : Secrets of the Self. Lahore 1950.

١٨٣ — Selected poems from the Divan — i — Shamsi Tabriz Cambridge 1898.

١٨٤ — RAFIUDDIN, Dr. M. : Iqbal's concept of Evolution, Review, April, 1960, pp. 20 — 42.

١٨٥ — SAIYIDAIN, K.G. : Iqbal's Educational Philosophy Lahore 1965.

١٨٦ — SAID HALIM PASHA, The Late Prince : The Reform of Muslim Society, pp. 110 — 135. Islamic Culture (January 1927).

١٨٧ — SCHIMMEL, A. : M. Iqbal (1873 — 1938) the Ascencion of the Poet, Die Welt Des Islam, Vol. III 1952.

١٨٨ — SENDERLAND, H. Islam and the Divine Comedy. London 1926.

١٨٩ — SMITH, W.C. : Modern Islam in India. London 1946.

١٩٠ — VAHID, S.A. : Introduction to Iqbal. Karachi.
١٩١ — Iqbal His Art and Thought. Heyderabad 1944.
١٩٢ — YUNUS, S. : Iqbal's Conception of Satan, Iqbal Review, April 1962, pp. 48 — 57.

سابعا — المراجع الفرنسية

١٩٣ — MASSIGNON, L. : La Diwan J'al Hallaj. Paris 1957.
١٩٤ — MEYROVITCH, E. And Mohammed Mokri : Le Livre de l'Eternité. Paris, 1962.

ثامنا — المراجع الالمانية

١٩٥ — SCHIMMEL, A.: Das Buch der Ewigkeit, Munich 1957

تاسعا المراجع الايطالية

١٩٦ — BAUSANI A. : IL POEMA CELESTE. Rome, 1952.

أسماء الأعلام

ف

ق

ك

ل

فهرس الأماكن

تصويب الأخطاء

وقعت أثناء طبع الكتاب أخطاء لا تخفى على فطنة القارىء ، ننبه فيما يلى الى بعضها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٧	٢٢	ما بالى	ما بالى أنتظر
٦٠	٨	أن	لن
٧٢	١	مخفف	مختف
٧٥	٢٥	المنهمك	المنهك
٩٢	٣٥	دراسة	دارسة
٩٩	الأخير	الناريات	الذاريات
١٢٤	١٣	الخلوة	الجلوة
١٣١	٦	لا	لم لا
١٣١	٤		مكانه بعد السطر الخامس
	١٢		مكانه بعد السطر ١٤
١٤٠	٢٩	الوجود	الوجد
١٦٢	٩		مكانه بعد السطر الحادى عشر
١٨٢	٢	الشفقة	الشفة
١٨٧	٢٦	عايله	عاينه
١٨٨	٣٥	عند	عدد
١٩٨	١	تقام	تنام
٢١٠	٤	نظام	نظم
٢٦٣	١	مجنوما	مجنويا
٢٦٤	٧	سبق	تسبق
٢٦٦	٣٠	ذات	ذوات
٢٧٤	٣٣	شجاعا	شجعانا
٢٩٨	٣٠	مائة	مائة عام

مطابع سجل العرب
٩ عماد الدين - القاهرة
تليفون ٩٣٦٢٤٠٥





